# صفات النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

## تفسير موضوعي

تأليف

إيمان بنت عبد الله بن عمر العمودي

المحاضرة بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار التوحيد للنشر



صِفَاتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

**فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر**
العمودي، إيمان عبدالله عمر
صفات النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ./
إيمان عبدالله عمر العمودي - الرياض ١٤٣٤هـ
١٠٩٢ ص ، ١٧ x ٢٤ سم
ردمك ١-٢٥٦٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- السيرة النبوية ٢- القرآن-مباحث عامة أ- العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٣٤/٦٤٢١

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٦٤٢١
ردمك: ١-٢٥٦٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨



الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م




الرياض - المملكة العربية السعودية
هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ فاكس: ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤
darattawheed@yahoo.com

# صِفَاتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

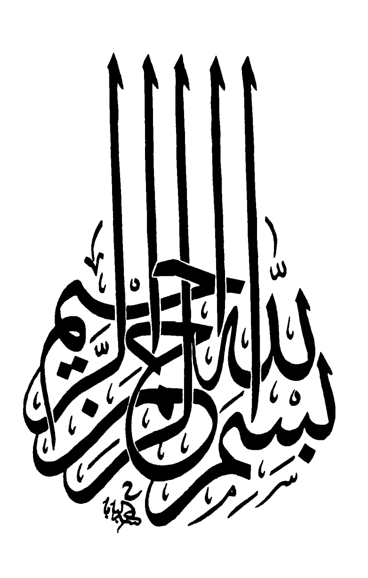
## تَفْسِيرٌ مَوْضُوعِيٌّ


تأليف

إيمان بنت عبد الله بن عمر العمودي

المحاضرة بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية





بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هـذا الكتـاب رسـالة علميـة لنيـل درجة الماجستير مـن قسم القرآن وعلومه، من كلية أصـول الـدين، بجامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية بالريـاض، وقـد نوقشت الرسـالة فـي مطلـع عـام ١٤٣١هـ.

وأجيزت بتقدير ممتاز مـع مرتبـة الشـرف الأولى، وكـانت لجنـة المناقشة تتكون من:

- فضيلة الدكتور/ عبد الله بن عبد الرحمن الشثري

**مشرفاً**

- فضيلة الدكتور/ عبد العزيز بن محمد السحيباني

**مناقشاً**

- فضيلة الدكتور/ يوسف بن عبد العزيز الشبل

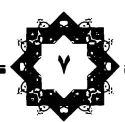
**مناقشاً**

* * *

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده ما أسبغ إنعامه على عباده أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وقائدنا محمداً عبده ورسوله الهادي الأمين، المبعوث نوراً وهدى ورحمة للعالمين، الموصوف بأكمل الصفات بين الخلائق أجمعين، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى صحبه الغر الميامين، ومن اقتفى أثره واهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد:

فإن نبينا ﷺ هو الذي هدانا الله به إلى الإسلام، الذي هو أجل نعمة من نعمه سبحانه علينا، لذا كان حقه علينا عظيماً، وواجبنا نحوه جليلاً، وهو الذي بلغنا هذا القرآن العظيم، حبل الله المتين، أنزله على قلب نبينا الكريم، الموصوف بأنه على خلق عظيم، وقد تتابعت آياته تترى على الحديث الشيق عنه ﷺ، حديثا يليق بجلال شخصه، وعظيم مكانته، وشريف مهمته، حديثا ينتشر في الآفاق، ويطوق القلوب والأعناق، وفي طيات هذه الآيات ومضات بارقات، هي وصف الله العظيم لهذا النبي الكريم بأروع الصفات، فما أعظمه من وصف لما وصفه ربه سبحانه فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦)، وما كل هذه الصفات منه تعالى لنبيه ﷺ إلا



تقريراً لنبوته في ساحة الكفر والإلحاد، وتأكيداً لنبوته في ساحة الأمن والإيمان.

وإن أولى ما اختاره الإنسان لنفسه بعد توحيد الله جل وعلا: أن يكون متحلياً بأكرم الصفات، آخذاً بأحسنها، تاركاً سيئها، مترفعاً عن سفاسفها، ومَنْ أعظم صفات من نبي الرحمة، وقائد هذه الأمة ﷺ؟

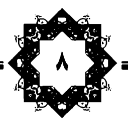
ولما كان نبينا ﷺ هو حبيبنا، وكان المرء مع من أحب، وكان ﷺ قدوتنا، كما قال عز من قائل: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ (الأحزاب: ٢١)؛ كان حرياً بي أن أتأمل في آي القرآن الكريم، وهي تصف هذا الحبيب العظيم ﷺ، وقد جاوزت التسعين صفة من صفاته ﷺ في أكثر من أربعمائة وثلاثين آية، فاستخرت واستشرت وعزمت أمري على تقديم خطة لتسجيل رسالة الماجستير بعنوان:

## صِفَاتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

**أهمية الموضوع وأسباب اختياره:**

١ – شرفه لكونه متعلقاً بالقرآن الكريم، وبالنبي العظيم ﷺ.

٢ – كون النبي ﷺ أتم وأعم وأشمل قدوة لنا، لأن الله تعالى جمع له في ثلاث وعشرين سنة كل ما تحتاج إليه البشرية إلى يوم القيامة، فكان لزاماً على أمته أن تعرف صفات هذه الشخصية العظيمة وأولاها صفاته المذكورة في القرآن الكريم.



٣ – اشتمال آي الذكر الحكيم على كثير من صفاته ﷺ مما يستدعي جمع الموضوع ولم شتاته في بحث مستقل.

٤ – تعد هذه الدراسة برنامجاً أخلاقياً أصيلاً في الصفات النبوية في ضوء الدراسات القرآنية، وأن هذا الموضوع بمباحثه المتعددة زاد للدعاة إلى الله في تعاملهم مع الناس.

٥ – بعد البحث والاطلاع لم أجد مؤلفاً أو رسالة علمية جمعت صفاته ﷺ من خلال القرآن من جانب التفسير التحليلي والموضوعي.

**أهداف البحث:**

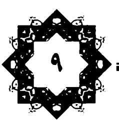
١ – استقراء صفاته ﷺ الواردة في القرآن الكريم، ودراسة كل آية تضمنت كل صفة من صفاته ﷺ دراسة موضوعية تحليلية.

٢ – معرفة أساليب القرآن الكريم في الحديث عن نبي هذه الأمة ﷺ، وكيفية تمثله ﷺ لهذه الصفة.

٣ – إخراج دراسة قرآنية تجلي صفاته ﷺ لينتهجها الناس في حياتهم، وربطها بالواقع المشاهد من خلال عرض الصفة.

**منهج البحث:**

سرتُ مستعينة بالله وفق المنهج الاستقرائي، ثم الموضوعي التحليلي، وفق



الخطوات التالية:

١ – استقراء صفات النبي ﷺ الواردة في القرآن الكريم التي وردت صراحة في اتصافه ﷺ بها.

٢ – دراسة هذه الصفات دراسة موضوعية من خلال تقسيمها على ما سأعرضه في خطة البحث إن شاء الله.

٣ – تناول كل صفة بدراسة تحليلية، تشمل هذه الدراسة ما يلي:

أ/ جمع الآيات الكريمة التي ذكرت الصفة صراحة، ووفق الضوابط التي سأذكرها في حدود البحث إن شاء الله.

ب/ بيان المقصود بالصفة، مع تناول جوانب الآية الهامة بالتفسير والبيان.

ج/ عرض هذه الصفة بحسب دلائل القرآن، ومعرفة كيفية تمثله ﷺ لهذه الصفة، كما دل عليها القرآن.والسنة، والمأثور عن سلف هذه الأمة.

د/ بيان الأسلوب القرآني في حديثه عن تلك الصفة.

هـ/ محاولة ربط الصفة بالواقع، وتوضيح كيفية التأسي به ﷺ في هذه الصفة.

ز/ الاستشهاد ببعض الآيات الأخرى التي توضح كيفية معالجة القرآن وعرضه لهذه الصفة.

٤ – عزو الآيات الكريمة التي أستشهد بها إلى سورها، وبيان أرقامها مع التزام الرسم العثماني في كتابتها.

٥ – تخريج الأحاديث وبيان حكمها، فإن كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به، وإن لم يكن في الصحيحين خرجته من غيرهما وذكرت كلام أهل العلم في الحكم عليه.

٦ – إذا كان للصفة تعلق بأكثر من باب أذكرها في الموضع الأول تفصيلاً ـ على ما سبق ذكره ـ وأشير إليها في المواضع الأخرى.

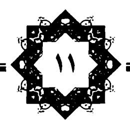
٧ – توثيق النصوص وعزو الأقوال.

٨ – التعريف بالأعلام عند ورود ذكرهم أول مرة، ولا أستثن من ذلك إلا من عمت شهرته وكذلك الأماكن.

**حدود البحث:**

١ – ذكرتُ في هذا البحث الآيات التي اشتملت على صفاته ﷺ الصريحة، المثبتة، الخاصة به ﷺ، دون المشترك اللفظي، أو الأحوال العارضة.

٢ – لم أشتق صفات من أفعال الأمر خاصة إلا ما كان صفة له ﷺ وما أمر به على جهة الملازمة له (كالشكر)، دون تعلقه بالمكلفين (كأخذ الصدقات).



٣ – الأفعال في سياق الاستفهام، لم أشتق منها صفة مثل: ألم تر، ألم تعلم.

**الدراسات السابقة:**

بعد البحث والاطلاع على فهارس الرسائل العلمية، والرجوع إلى مراكز البحوث، وكذا البحث والتقصي عن طريق الشبكة العنكبوتية، وسؤال أهل الخبرة والاختصاص، لم أجد من تعرض لفكرة هذا البحث من جمع صفاته ﷺ في القرآن الكريم، ودراسة كل صفة بمواضعها من الكتاب العزيز إلا رسالة علمية واحدة ـ مع الفارق بين البحثين ـ وبعض الكتب، والكتيبات، والمقالات على ما سيأتي بيانه:

**١ – «شخصية الرسول الأعظم قرآنياً» لجلال الحنفي البغدادي، ١٤١٨هـ:**

كتاب من ٣٦٣ صفحة، جعله على أبواب، تضمن الحديث عن النبي ﷺ حديثاً عاماً، ولم يفرده بالصفات، ولم يعنون على أية صفة.

**٢ – «من صفات الرسول ﷺ الخلقية والخلقية» لطه عبد الله العفيفي، ١٤١٥هـ:**

وهو كتاب من (٤٤٠) صفحة قسمه إلى قسمين، قسم للصفات الخَلقية، والآخر للخُلقية، وفي الخُلقية تعرض لإحدى عشرة صفة فقط، على أن بعض

الصفات التي ذكرها ليست في القرآن الكريم، والبحث الذي بين يدي يزيد على سبعين صفة من صفاته ﷺ في القرآن، وبذا يتضح الفرق الكبير بين جوهر البحثين من حيث الحجم والمضمون.

**٣ - «شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم» لمحمد علي الهاشمي، ١٤٠٣هـ:**

وهو كتيب من ١٧٧ صفحة، عقد له أربعة فصول، ولم أجد فيه الحديث عن صفاته ﷺ بل شخصيته البشرية، والنبوية، وإعداده لتحمل الرسالة، وفصل عنون له بـ: الرسول والناس.

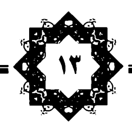
**٤ - «أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة» للدكتور أحمد بن عبد العزيز الحداد:**

وهي رسالة علمية لنيل درجة الدكتوراه، من جامعة أم القرى قدمت في عام ١٤١٣هـ.

**وهو يختلف عن هذا البحث الذي أتقدم به في الفروق التالية:**

- أنه في الأخلاق، بينما بحثي هذا في الصفات، والفرق بين الأخلاق والصفات دقيق من حيثيات عدة:

❖ قال صاحب القاموس: «الخلق: السجية، والطبع، والمروءة، والدين، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» أي متمسكاً بآدابه، وأوامره، ونواهيه، وما يشتمل عليه...».



وقال: «وصفه: نعته، والصفة: كالعلم، والسواد، وأما النحاة فيريدون بها النعت...».

❖ أن من صفات النبي ﷺ الواردة في القرآن ما لا يمكن تسميته خلقاً، كالتعليم، والبيان، والهداية، وغيرها مما لم يرد في كتب الشمائل والأخلاق.

❖ أن كل خلق صفة (كالكرم)، وليس كل صفة خلقاً (كالبيان والتزكية).

- لاحظت أنه يبحث في الأخلاق المذكورة في الكتاب والسنة، ثم ينزلها على التطبيقات النبوية، أما هنا فيقوم العمل على استقراء الصفات من الآيات، والدراسة الموضوعية التحليلية.

- أنه يذكر الآيات والأحاديث التي وردت في ذاك الخلق وإن لم يكن خاصاً بالنبي ﷺ فقط، وهنا أبحث فيما ورد صريحاً خاصاً على وجه الجمع والاستقراء.

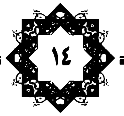
- **وأضفت في هذا البحث ما يلي:**

❖ دراسة الصفات ـ التي لا تعد خلقاً ـ وآياتها، دراسة موضوعية تحليلية.

❖ بيان كيفية الاقتداء به ﷺ في هذه الصفة قدر الإمكان.

❖ بيان كيفية عرض القرآن لهذه الصفة من خلال الاستشهاد ببعض الآيات الأخرى.

❖ بيان الأسلوب القرآني في الحديث عن نبينا محمد ﷺ في ضوء هذه الصفة.



❖ محاولة ربط الصفة بالواقع.

❖ الدفاع عن نبينا ﷺ في ضوء هذه الصفة، كلما سنحت الفرصة بالحديث عن ذلك.

**ومن كل ما سبق نلحظ الاختلاف بين جوهر البحثين.**

❖ **وتجدر الإشارة إلى أن جانب الجدة في هذا البحث يظهر جلياً عند تتبع ما يلي:**

- تأمل **الكتب الأصيلة** التي تناولت بعضاً من مباحث هذا الموضوع ككتب الشمائل والدلائل، والخصائص والفضائل.

- وجود التباين الواضح بين منحى هذه الكتب ومنحى هذه الدراسة ويظهر هذا عند الوقوف على مزايا كل منها باختصار وهي كما يلي:

❖ **أما كتب الشمائل:** وهي التي تشتمل على أحوال النبي ﷺ العملية في عبادته ومعاملته ودله وغير ذلك منذ ميلاده ونشأته إلى وفاته ﷺ مركزة على الناحيتين الخَلقية والخُلقية للدلالة على صورة ذاته الحسنة، وخلقه العظيم ﷺ بإيراد كل ما ورد من نعوته في الكتاب والسنة وما ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

وهي بهذا الوصف **أولاً:** شاملة للصفات الخَلقية والخُلقية بينما هذا البحث لا يشتمل على الصفات الخَلقية، كما لا يقتصر على الصفات الخُلقية بل يتعداها إلى الصفات الخاصة به ـ ككونه صاحب الكوثر ـ والملازمة له ـ كعصمته ـ وغير

ذلك، **ثانياً**: كتب الشمائل تذكر النصوص وبعض التعليقات العامة - إن وجدت - وليس فيها الدراسة التحليلية للآيات التي وردت فيها الصفة، وما يستتبع هذا من الربط بالواقع، وكيفية تمثله ﷺ لها، والتطرق إلى أسلوب القرآن في الحديث عنها، وكيفية الاقتداء به فيها، والدفاع عن نبينا ﷺ إلخ...

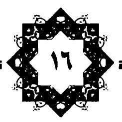
❖ **وأما كتب الخصائص**: فتبين أموراً يختص بها ﷺ في شريعته لا يسوغ الائتساء به فيها، وأحياناً تتعداها إلى ذكر الفضائل.

وهي بهذا الوصف تعد جزءاً فقط من هذه الدراسة، **لأن من صفاته** ﷺ الواردة في القرآن ما لا يعد خصيصة له وحده ﷺ.

❖ **وأما كتب الدلائل**: فهي التي تسوق طائفة من المعجزات الحسية والمعنوية مركزة على حجية التصديق بها، والعناية ببيان فضل الرسول ﷺ وعلو منزلته عند الله تعالى، وهذه ليس بينها وبين هذا البحث كبير علاقة إلا على سبيل الاستشهاد فقط.

❖ **وأما كتب الفضائل**: فالمراد بها ما فضل الله تعالى بها نبيه ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام، ومسائلها مندرجة ضمن مباحث الشمائل والدلائل والخصائص.

وهكذا نلحظ وبجلاء العلاقة بين الصفات وبين كل ما سبق على أن الصفة الواردة في القرآن للنبي ﷺ قد تكون في الوقت نفسه من الخصائص أو الشمائل ونحو ذلك، ولكن في رحاب هذه الدراسة يتم جمع الصفات القرآنية له ﷺ



واستقراؤها، وتفسير الآيات وتحليل الصفات على ما سبق ذكره قبل أسطر، وما سيمر معنا في منهج البحث ـ إن شاء الله ـ.

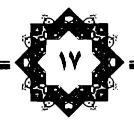
كما نلحظ التباين بين اتجاه هذه الكتب ومنهجها، واتجاه هذه الدراسة ومنهجها، وإن ظلت وبوضوح تقطف من كل منها قطافاً ـ بين إقلال وإكثار ـ ولكن يظل الرابط هو القرآن ويظل الفارق هو الدراسات القرآنية والتفسيرية الحديثة، والكل في ضوء سيرته ﷺ.

- أما عند تأمل **الكتب الحديثة** والتي تتصل بهذا الموضوع فلم أجد من تطرق لصفاته ﷺ استقراءاً، وجمعاً وتحليلاً وغير ذلك من صفات هذا البحث على ما أشرت إليه.

**خطة البحث:**

**يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وتسعة فصول، وخاتمة، على النحو الآتي:**

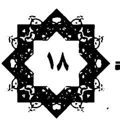
- **المقدمة:** وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وأهدافه، والمنهج المتبع في إنجازه، وحدوده، وخطة البحث.
- **التمهيد: ويشتمل على:** مفهوم الصفة، وأهمية معرفة صفات النبي ﷺ.
- **الفصل الأول: صفاته ﷺ قبل البعثة.**



- **الفصل الثاني : الصفات الجبلية ، وفيه ستة مباحث :**
  - **المبحث الأول :** الأمية.
  - **المبحث الثاني :** البشرية.
  - **المبحث الثالث :** الحياء.
  - **المبحث الرابع :** الخلق العظيم.
  - **المبحث الخامس :** الصدق.
  - **المبحث السادس :** التواضع.

- **الفصل الثالث : الصفات المتعلقة بالرسالة والنبوة ، وفيه أربعة مباحث :**
  - **المبحث الأول :** الرسالة ، وعمومها.
  - **المبحث الثاني :** النبوة ، وختمها به.
  - **المبحث الثالث :** البلاغ ، والدعوة إلى الله.
  - **المبحث الرابع :** الاستشارة.

- **الفصل الرابع : صفاته ﷺ المتعلقة بالدعوة ، وفيه مبحثان :**
  - **المبحث الأول :** صفاته ﷺ داعياً ، وفيه خمسة مطالب :
    - المطلب الأول : البشارة ، والنذارة.
    - المطلب الثاني : البيان ، والتذكير.



▪ المطلب الثالث: الشهادة، والبراءة من المشركين.

▪ المطلب الرابع: الحرص على المؤمنين، والرحمة، والرأفة، واللين.

▪ المطلب الخامس: الأسوة، والنور، والسراج المنير.

• **المبحث الثاني: صفاته ﷺ مربياً، وفيه أربعة مطالب:**

▪ المطلب الأول: التزكية.

▪ المطلب الثاني: التعليم.

▪ المطلب الثالث: تلاوة الآيات.

▪ المطلب الرابع: الهداية.

♦ **الفصل الخامس: صفاته ﷺ المتعلقة بالتشريع**، وفيه ثلاثة مباحث:

• **المبحث الأول:** الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

• **المبحث الثاني:** تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث.

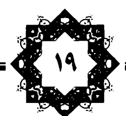
• **المبحث الثالث:** وضع الإصر والأغلال.

♦ **الفصل السادس: الصفات العقدية**، وفيه خمسة مباحث:

• **المبحث الأول:** الإخلاص.

• **المبحث الثاني:** الإسلام.

• **المبحث الثالث:** الإيمان.



- **المبحث الرابع**: الخوف.
- **المبحث الخامس**: الرضا.

♦ **الفصل السابع: الصفات التعبدية**، وفيه ثمانية مباحث:

- **المبحث الأول**: العبودية، والعمل، والرغب، والنصب، والاستقامة.
- **المبحث الثاني**: إقامة الصلاة، والسجود.
- **المبحث الثالث**: الاستعاذة، والاستغفار، والتسبيح، والتكبير، والذكر.
- **المبحث الرابع**: الحمد، والشكر.
- **المبحث الخامس**: التبتل، والترتيل، والتهجد.
- **المبحث السادس**: الصبر.
- **المبحث السابع**: العدل.
- **المبحث الثامن**: العفو والصفح.
- **المبحث التاسع**: **جهاد العدو.**

♦ **الفصل الثامن: الصفات المتعلقة بخصائصه ﷺ**، وفيه سبعة مباحث:

- **المبحث الأول**: صاحب الكوثر ﷺ.
- **المبحث الثاني**: صاحب المقام المحمود ﷺ.
- **المبحث الثالث**: عصمته في أفعاله وأقواله ﷺ.

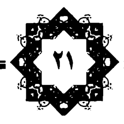
- **المبحث الرابع:** عصمته من الناس، وكفاية الله له ﷺ.
- **المبحث الخامس:** غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﷺ.
- **المبحث السادس:** اتصال أجره ﷺ.
- **المبحث السابع:** أن الله وضع عنه وزره.

◆ **الفصل التاسع: الصفات المتعلقة بفضل الله تعالى عليه ﷺ**، وفيه سبعة مباحث:

- **المبحث الأول:** إنزال السكينة عليه ﷺ.
- **المبحث الثاني:** تأييد الله له ﷺ.
- **المبحث الثالث:** تثبيته ﷺ.
- **المبحث الرابع:** عموم تفضل الله تعالى عليه ﷺ.
- **المبحث الخامس:** رفع ذكره ﷺ.
- **المبحث السادس:** شرح صدره ﷺ.
- **المبحث السابع:** نصره ﷺ.

◆ **الخاتمة:** وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

◆ **الفهارس:** وفيها (فهرس الآيات، فهرس الأحاديث، فهرس المصادر والمراجع، فهرس الموضوعات).



❖ **وفي ختام هذه المقدمة أقول:**

إن أولى ما لهجت الألسن بذكره، وقامت الأقلام بسطره، هو شكر ربنا جل في علاه، ذي الآلاء الكريمة، والنعم العظيمة، التي أجلُّها نعمة الإسلام، ثم إرسال نبي الهدى والسلام ﷺ، أشكره سبحانه أن بلغني في هذا البحث إلى الإتمام، بعدما مررت في طياته بعقبات عظام، فأحمده وأشكره بلساني، وكامل جناني، وأسأله التوفيق للمزيد من شكره وذكره، ما تعاقب الزمن وتوالت الأيام.

وأُبَجِّلُ شكري لوالديَّ الكريمين: والدي الكريم، والذي كان حاثًّاً لي على طلب العلم، والقرآن خاصة منذ الصغر، حافًّاً لي برعايته إلى الكبر.

ووالدتي الكريمة ـ ولن أبالغ إن قلت ـ مثال الأم العظيمة، والمربية الحكيمة، والتي عاشت معي نبضات هذا البحث إلى أن انتصف، ثم صارعت المرض طويلاً إلى أن فارقتني قبل إتمامه، فأشكرها وإن غابت عن ناظري، فهي معي وفي قلبي وخافقي، أشكرها شكراً من الأعماق، يملأ الآفاق، وتردده أصداء الأشواق، رحم الله والديَّ الكريمين، وأجزل لهما المثوبة والجزاء، وجزاهما عني خير ما جزى أبوين عن بنتهما، وأقول: رب ارحمهما كما ربياني صغيرا.

كما أشكر فضيلة المشرف على هذا البحث: فضيلة الشيخ الدكتور: عبدالله بن عبدالرحمن الشثري، وكيل جامعة الإمام، والأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه، على نصحه وتوجيهه، فجزاه الله خيراً على ما وجه ونصح،

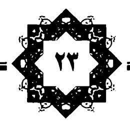
رغم انشغاله الدائم، وبارك فيه وفي علمه ونفع به، كما أشكر عضويَّ لجنة المناقشة الكريمين على قبولهما مناقشة الرسالة وتصويبها، فجزاهما الله خيرا، وبارك في علمهما ونفع بهما.

ثم شكري بعد ذلك موصول لذوي الفضل والإكرام، من هذه الجامعة المباركة، جامعة الإمام، على أن سهلت لي بتيسير الله، الإكمال في الدراسات العليا، وأخص منها: كلية أصول الدين، ثم قسم القرآن وعلومه، فأسأل الله لهم التوفيق والسداد، وأن ينفع بهم البلاد والعباد.

وأجمِّل شكري لزوجي الفاضل، وشيخي الذي سقاني من أعذب المناهل، فضيلة الشيخ الدكتور: خالد بن محمد باسمح، الأستاذ المشارك بقسم السنة وعلومها، والذي علمني فلم يكتم، وأعطاني فلم يمسك، وأغدق علي فلم يبخل، جزاه الله خير ما جزى شيخاً عن تلميذه، وزوجاً عن زوجه، وبارك فيه وفي علمه وولده، وحفظه لنا بحفظه.

كما أشكر فلذات كبدي، ولديَّ وابنتي، منار البِرِّ في الدُّجَى، وشمس الربيع في الربى، على صبرهم على عناء البحث، وتحملهم كفاح أمهم، وتنازلهم بسبب البحث عن رغباتهم، فجزاهم الله خيراً، وحفظهم ورعاهم، وأصلحهم وهداهم.

كما أشكر كل من قدم لي فائدة في هذا البحث، أو دعا لي بظهر الغيب، فجزاهم الله خير الجزاء، وأجزل لهم المثوبة والعطاء.



وأخيراً فإني قد بذلت جهدي في هذا البحث، وهو جهد العاجز الضعيف، وتحريت فيه السداد طاقتي، وهو تحري الناقص الفقير، فإن كان ما سطرته صواباً فمن الله وحده، وله الفضل والمنة والثناء الحسن، وإن كانت الأخرى، فمن نفسي وتقصيري ونقصي، والشيطان، فأتوب إلى الله وأستغفره، وحسبي أني بذلت جهدي، ولم أجعل الخطأ قصدي.

فالله أسأل أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرزقني وقارئه والناظر فيه، شفاعة نبينا العظيم ﷺ، ورفقته في الفردوس الأعلى، فنعم النُّزُل، ونعم الجار، وحَسُنَ الرفيق، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين.

**وكتبت:**

**إيمان بنت عبد الله بن عمر العمودي**

**١٤٣٣/١٢/٧هـ**



# تمهيد

ويشتمل على:

- مفهوم الصفة.
- أهمية معرفة صفات النبي ﷺ.

## مفهوم الصفة

عند النظر في أقوال أهل اللغة، نجد أن مفهوم صفة الشيء: حليته، وما تواصف به: أي عُرف به، فالصفة تحلية ونعت.

قال ابن فارس: «الواو والصاد والفاء: أصلٌ واحدٌ هو تحلية الشيء... والصِّفَةُ: الأمارةُ اللازمةُ للشيء»(١) فهي إذاً: «كالعلمِ والجهلِ، والسوادِ والبياضِ»(٢)، «وأما النحاة فإنما يريدون بها: النعت وهو اسم الفاعل والمفعول أو ما يرجع إليهما من طريق المعنى كمثل وشبه»(٣).

وقد اتفق أهل اللغة على مفهوم الوصف والصفة، وإن اختلفت عباراتهم(٤)، وتجدر في هذا المقام الإشارة إلى الفرق بين الوصف والصفة على ما يلي:

«الوَصْفُ: ذكر الشيءِ بحليتِه ونعتِه(٥)، والصِّفَةُ: الحالةُ التي عليها الشيءُ من حليته ونعته(٦)»(٧).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١١٥/٦).

(٢) «تاج العروس»: (٤٦٠/٢٤).

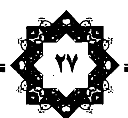
(٣) «القاموس المحيط»: (١١١١).

(٤) انظر: «العين»: (١٦٢/٧)، «المحكم والمحيط الأعظم»: (٣٨٣/٣)، «مختار الصحاح»: (٣٠٢/١)، «لسان العرب»: (٣٥٦/٩).

(٥) كبياض، وذكاء.

(٦) كأبيض، وذكي.

(٧) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني: (٨٧٣).



وأستنتج مما سبق: أن المراد بصفات النبي ﷺ في القرآن الكريم في ضوء المفهوم اللغوي:

**ذكره ﷺ بنعته[1] وحالته اللازمة لشخصيته العظيمة التي كان عليها مما وردت به آيات القرآن الكريم.**

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين.



(١) هذا على القول بترادف النعت والوصف على ما ذهب إليه الجوهري والفيومي وغيرهما، انظر: القاموس المحيط ـ الحاشية ـ (٢٠٧).

## أهمية معرفة صفات النبي ﷺ

إنه محمد ﷺ، والذي اقترن اسمه باسم الله تعالى في الشهادتين **(شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)** فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»(١).

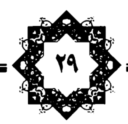
قال ابن رجب: «والمراد من هذا الحديث أن الإسلام مبني على هذه الخمس فهي كالأركان والدعائم لبنيانه فلا يثبت البنيان بدونها... بخلاف نقص هذه الدعائم الخمس فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين، والمراد بالشهادتين: الإيمان بالله ورسوله»(٢).

- ومما سبق يتضح وبجلاء أهمية الإيمان بالنبي ﷺ، ولا سبيل للإيمان به إلا بمعرفته ﷺ، ومعرفة صفاته، **وكلما كانت معرفتنا به أعظم، كان إيماننا به أكمل**، فنبينا ﷺ أكمل الناس إيماناً بالله وأشدهم له خشية؛ لأنه أعرف الناس به سبحانه، ويشهد لذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»: (١/ ١١/ح٨)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام: (١/ ٤٥/ح ١٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم»: (١/ ٤٣).



شيئاً فرخص فيه وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»(١).

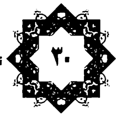
يقول ابن رجب: «فلما زادت معرفة الرسول ﷺ بربه، زادت خشيته له وتقواه، فإن العلم التام يستلزم الخشية كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٨) فمن كان بالله وبأسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه أعلم كان له أخشى وأتقى، وإنما تنقص الخشية والتقوى بحسب نقص المعرفة بالله»(٢).

- ثم إن معرفته ﷺ ومن ثم الإيمان به يؤديان إلى القيام بلوازم هذا الإيمان من محبته، وتعزيره، وتوقيره، واتباعه... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفتح: ٩)، يقول ابن رجب رحمه الله: «وأما محبة الرسول ﷺ فتنشأ عن معرفته، ومعرفة كماله، وأوصافه وعظم ما جاء به، وينشأ ذلك من معرفة مرسله وعظمته، فإن محبة الله لا تتم إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمتابعة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

---

(١) رواه البخاري كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب: (٥/٢٢٦٣/ح ٥٧٥٠) واللفظ له، ومسلم كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته: (٤/١٨٢٩/ح ٢٣٥٦).

(٢) «فتح الباري»: (١/٨٢).



(آل عمران: ٣١)»[١].

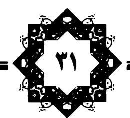
- ولذلك فإن معرفة الرسول ﷺ **ضرورة بشرية لا غنى للبشرية عنها**، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: «ومن ها هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها... فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم ولكن لا يُحِسُّ بهذا إلا قلب حي (وما لجرح بميت إيلام)[٢] وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[٣].

---

(١) «فتح الباري»: (٤٨/١).

(٢) هذا عجزُ بيتٍ صدرُه: (من يهن يسهل الهوان عليه) لأبي الطيب المتنبي انظر ديوانه مع الشرح لابن جني المسمى بالفَسْر (٥٣٢/٤).

(٣) «زاد المعاد»: (٦٩/١-٧٠).



- كما أنه لا بد من معرفة صفاته ﷺ لما يترتب على ذلك من أمور عدة منها على سبيل المثال لا الحصر:

❖ معرفة قدره ﷺ الذي كان كبيراً عند الله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾ (القلم: ٢ ـ ٣)، وكبيراً في قلوب أصحابه ـ ويشهد لذلك حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»[(١)] وكذلك في قلوب سائر المسلمين، بل وفي العيون الغربية المنصفة، قال بارت[(٢)]: «كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة يعيثون فساداً، حتى أتى محمد ﷺ ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد: (٢١/٣٥/ح١٣٣١٢) وابن ماجه: كتاب ماجاء في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (٢٥٧٤/ح١٦٣١)، والترمذي: أبواب المناقب (٢٠٢٤/ح٣٦١٨)، وابن حبان: (١٤/٦١٠/ح٦٦٣٤)، والحاكم: في كتاب المغازي والسير (٥٩/٢/ح ٤٣٨٩)، من حديث أنس ﷺ، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب صحيح، وصححه ابن حبان، والحاكم على شرط مسلم.

(٢) رودي بارت: عالم ألماني معاصر، اضطلع بالدراسات الشرقية في جامعة هايد لبرج، وكرس حياته لدراسة علوم العربية والإسلام، وصنف فيها عددا كبيرا من الأعمال منها ترجمته للقرآن الكريم، وله كتاب عن النبي محمد ﷺ (الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة).

(٣) «الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة»: (١١٢).

❖ وهذا يستوجب التأسي به ﷺ والاقتداء بهديه، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١) وأنى لنا أن نتأسى به ﷺ دون معرفة صفاته؟

❖ ويستوجب كذلك اتباعه ﷺ لننجو، وننعم بمحبة الله تعالى لنا وغفران ذنوبنا، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١).

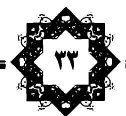
❖ كما يستوجب محبته ﷺ ليكمل إيماننا، وننعم في الآخرة بصحبته ﷺ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[(١)]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»[(٢)].

ومما سبق تتبين لنا أهمية معرفة صفاته ﷺ، وقد توالت كتب الحديث والسيرة وغيرها تترى على ذكر صفاته ﷺ ـ مما ستأتي في مواضعها من هذا البحث إن شاء الله تعالى ـ وإن أعظم من وصفه هو ربه سبحانه وتعالى، فباتت صفاته

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان: (١/١٤/ح ١٥) واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، بَاب وُجُوبِ مَحَبَّةِ رسول اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ من الأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ: (١/٦٧/ح ٤٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله..: (٥/٢٢٨٣/ح ٥٨١٦) واللفظ له، ومسلم كتاب البر والصلة والأدب، باب المرء مع من أحب: (٤/٢٠٣٤/ح ٢٦٤٠).



الواردة في القرآن الكريم أولى وأحرى بالمعرفة والدراسة، علنا إذا عرفناها نؤتى قبساً من سناها صلى الله على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.



# الفصل الأول

# صفاته ﷺ قبل البعثة

وفيه أربع صفات:

- الصفة الأولى: وردت في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.
- الصفة الثانية: وردت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾.
- الصفة الثالثة: وردت في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.
- الصفة الرابعة: وردت في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

# الفصل الأول

## صفاته ﷺ قبل البعثة

**توطئة:**

وصف الله جل وعلا نبينا ﷺ في حال بعثته ونبوته بصفات كثيرة في القرآن الكريم..

أولاها بالمعرفة، هي صفاته ﷺ قبل أن يبعثه الله تعالى نبياً لهذه الأمة..

وقد وردت له في القرآن الكريم بعض صفاته ﷺ قبل البعثة وهي مجال الحديث في هذا الفصل..



## الصفة الأولى

وردت في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

## الصفة الأولى:

### وردت في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الغفلة:

الغفلة عن الشيء: تركه، وعدم تجربته.

قال ابن فارس: «(غَفَلَ): الغين والفاء واللام: أصل صحيح يدل على: ترك الشيء سهوا، وربما كان عن عمد، من ذلك: غَفَلْتُ عن الشيء غَفْلَةً وغُفُولاً: وذلك إذا تركته ساهياً، وأَغْفَلْتُهُ: إذا تركته على ذُكْرٍ منك له، ويقولون لكل ما لا مَعْلَمَ له: (غُفْلٌ)، كأنه غُفِلَ عنه، فيقولون: (أرض غُفْلٌ): لا عَلَمَ بها، (وناقة غُفْلٌ): لا سِمَةَ عليها، (ورَجَلٌ غُفْلٌ): لم يُجَرِّب الأمور»[1].

**الآية التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:**

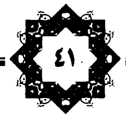
قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣).

### ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

**❖ في سببها:**

ذكر الطبري أن هذه الآية نزلت في الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لما

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/٣٨٦).



سألوا رسول الله ﷺ أن يقص عليهم.

روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، قال: فنزلت: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ... ﴾ (يوسف:٣)» وقال: «مَلَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّة، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ... ﴾ (الزمر:٢٣)، ثم ملوا ملة أخرى فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ـ يعنون القصص ـ فأنزل الله: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف:١ ـ ٣)، فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص»[1].

**❖ في معناها:**

**اختلفت عبارات المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ على قولين:**

١ ـ أن المعنى: لمن الغافلين عن القرآن والوحي[2]، وبه قال قتادة[3].

(١) «جامع البيان»: (١٢/١٥٠).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (١٢/١٥٠)، «الكشاف»: (٢/٤١٦)، «تفسير القرطبي»: (٩/١٢٠)، «تفسير السعدي»: (٣٩٣).

(٣) «جامع البيان»: (١٢/١٥٠).



٢ – أن المعنى: لمن الغافلين عن قصة يوسف[١].

**والذي يظهر أن الاختلاف هنا ليس اختلاف تضاد بل هو اختلاف تنوع - كما أوضح هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير[٢] - وذلك لأنه ﷺ قبل الوحي كان غير عالم بالقرآن عموماً، ولا بقصة يوسف خصوصاً، ولا بالدين والشريعة أيضاً، فلا مانع من الجمع بين القولين، والله تعالى أعلم.**

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

**١ – وصف الله تعالى لنبيه ﷺ في حال عدم العلم بالغفلة:**

وذلك لإجلال شأن النبي ﷺ[٣] فهذا شأنه سبحانه في الحديث عن نبيه ﷺ من إجلاله وتعظيمه، والدفاع عنه، بل والرفق في عتابه، وكما هو في هذا الموضع نلحظ أن الحديث القرآني يصل إلى غاية التلطف مع النبي ﷺ وإجلاله عن عدم العلم بمجرد الغفلة، والتي انتفت عنه بمجرد بلاغه بالقرآن والوحي.

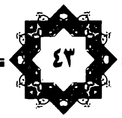
**٢ – نكتة جعله ﷺ - من الغافلين - دون أن يوصف وحده بالغفلة فلم يقل (وإن كنت من قبله لغافلاً):**

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٢/١٥١)، «معالم التنزيل»: (٢/٤٠٨)، «المحرر الوجيز»: (٣/٢١٩)، «التفسير الكبير»: (١٨/٦٩)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٢/١١٤)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٥/٢٨٠)، «نظم الدرر»: (٤/٧)، «فتح القدير»: (٣/٤).

(٢) «مقدمة في أصول التفسير» مع شرح د. مساعد الطيار (٢١).

(٣) انظر: «روح المعاني» للألوسي(١١-١٢/١٧٧)، «تفسير القاسمي» (٩/٣٥٠٣).



«وذلك للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه، والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم»(١).

٣ - **التأكيد لهذه الصفة بأنواع المؤكدات** وهي: (إِنْ) المخففة، واللام في (لَمِن).

يقول ابن القيم رحمه الله: «وكذلك مواضع كثيرة تتنازع النحاة في وجه دلالتها مع اتفاقهم على المعنى كقوله: ﴿ **وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ** ﴾ (يوسف: ٣).

فالبصريون يجعلونها مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بين المخففة والنافية، والكوفيون يجعلونها نافية واللام بمعنى إلا»(٢).

والذي يظهر ترجح قول البصريين من أنها «إِنْ» المخففة، «والدليل على أنها مخففة من الثقيلة: لزوم اللام في الخبر»(٣).

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

تتابعت آيات القرآن الكريم تترى على ذكر حال النبي ﷺ قبل بعثته، من عدم العلم بما أوحي إليه من أخبار وقصص وأحكام، فكون النبي ﷺ كان غافلاً عن الوحي قبل بعثته يصدق هذا أمور عدة منها على سبيل المثال لا الحصر:

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/٢٠٤).

(٢) «الصواعق المرسلة» (٢/٧٥١).

(٣) «اللامات» لأبي القاسم الزجاجي(١/١١٤).

١ – أنه لم يعرف عنه ﷺ أنه أوتي غرائب الأخبار، والغيبيات، والعلوم، وهو المشهور بصدق الحديث ﷺ.

٢ – أن ما جاء به القرآن من القصص والأخبار فوق طاقة العقل البشري، مما يدل على أن كل تلك القصص إنما وردت للنبي ﷺ عن طريق التلقي، وإنما كان ذلك بالوحي فقط، وقد ربط تعالى بين التنزيل وسرد القصص على مسامع النبي ﷺ كما في الآية التي معنا: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣).

٣ – وقد تناول القرآن قصص الأنبياء والرسل، وأخبار الماضين بتفصيل لحقائقها ووقائعها بشكل واضح تعجز عنه العقول، فالقرآن يضرب في أغوار التاريخ، ويخبر عن أقدم الأخبار في خلق الأمم، مما يتجاوز حدود إعمال الفكر، بحيث يستحيل على النبي ﷺ أو غيره أن يعرفها أو يطلع على أخبارها، كما في نبأ ابني آدم في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (المائدة: ٢٧ ـ ٢٨).

٤ – وقد نفى القرآن إطلاع النبي ﷺ على تلك الأحداث كما في الآيات التالية:

«كقوله في آل عمران: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٤٤)

أي فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به وقوله تعالى في سورة هود: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود:٤٩)، وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢)، وقوله في القصص: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ (القصص:٤٤)، وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (القصص:٤٥).

إلى غير ذلك من الآيات يعني لم تكن حاضراً يا نبي الله لتلك الوقائع فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما علمته»[1].

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- صفة الغفلة في حق النبي ﷺ ليست صفة نقص، إنما وصفه بها ربه تعالى - بدلاً عن عدم العلم - إجلالاً لشأنه ﷺ كما مر معنا في كلام أهل العلم، بينما هي في حق سائر البشر صفة نقص بل هي من عيوب النفس غالباً إلا ما ندر كما سيأتي.

- التأسي في هذا الموضع يكون في الغفلة عن المعصية كما امتدح الغافلات

(١) «أضواء البيان»: (٤/٩٤).



في سورة النور في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (النور: ٢٣). فأتى بوصف الغفلة فيهن في سياق إحصانهن وإيمانهن، قال الطبري: «يعني العفيفات الغافلات عن الفواحش المؤمنات بالله ورسوله»[1].

- من كان غافلاً عن أوامر الله تعالى أو عن ما تزكو به نفسه، ثم جاءه العلم، فالواجب عليه أن يأتسي بالنبي ﷺ من حيث الامتثال والتزكي والانصياع لأوامر الله ورسوله ﷺ، فرسول الله ﷺ ما إن كلف بالبلاغ حتى نهض يدعو إلى الله تعالى بكل جد وإخلاص وتفان.

- والإنسان معرض للغفلة، ولكن التقي هو الذي إذا تذكر تيقظ وأعرض عن غفلته، وأقبل على الله، يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

- أثر الغفلة خطير على النفس البشرية، يقول ابن القيم رحمه الله: «إن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض؛ فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله»[2].

- الواجب على العبد إذاً التيقظ، ومحاسبة النفس، يقول ابن القيم

(١) «جامع البيان»: (١٨/١٠٥).

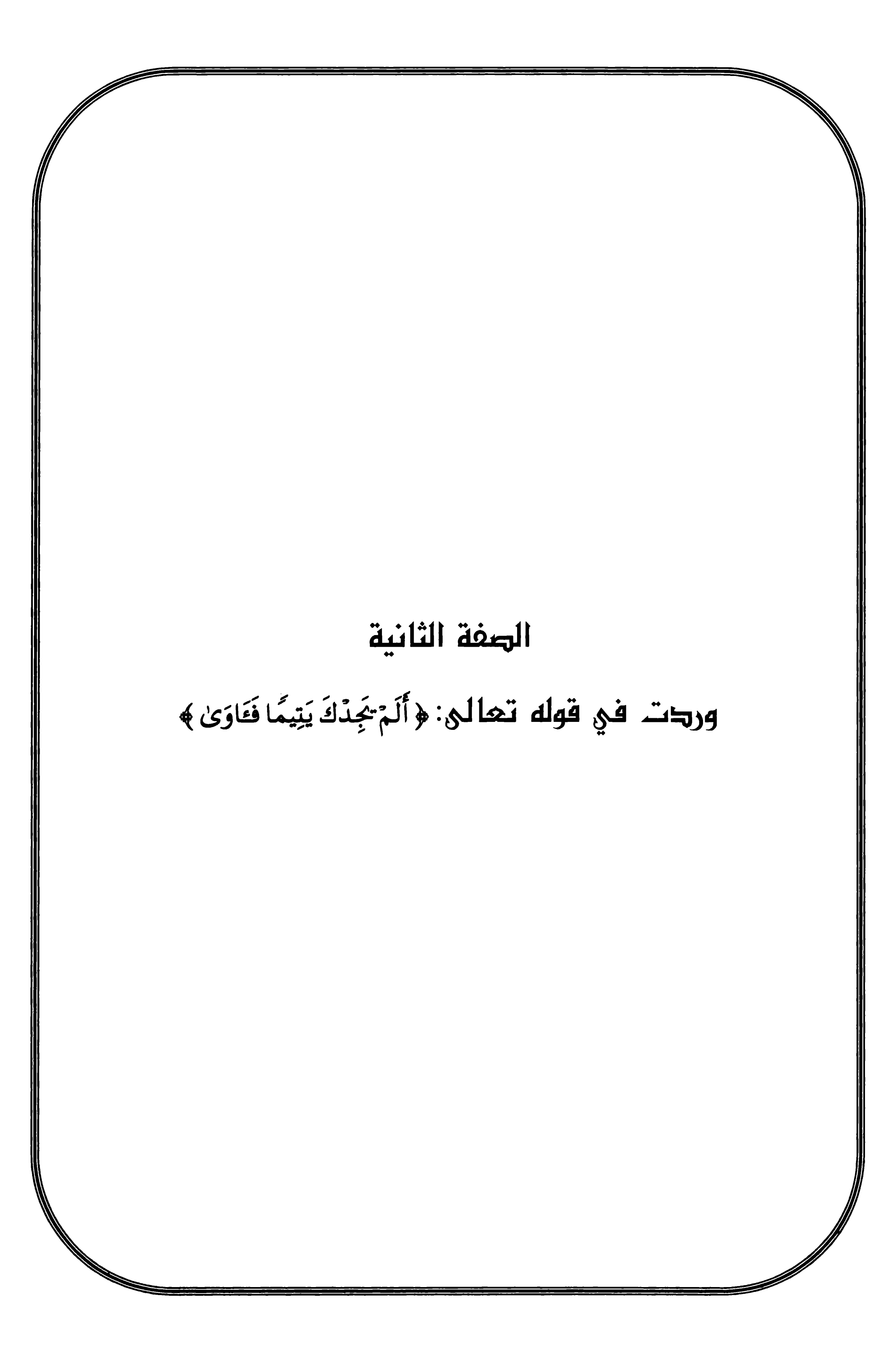
(٢) «الجواب الكافي» (١/٥٣).



رحمه الله: «وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة، وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر: ٩٢)، وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف: ٦)، وقال تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٨)»[1].



(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٢، ٨٣).



## الصفة الثانية

وردت في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾

## الصفة الثانية:

## وردت في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة: (اليُتْم):

اليُتم: فقدان الأب.

قال ابن فارس: «الياء والتاء والميم: يقال: اليُتم في الناس من قبل الأب، وفي سائر الحيوان من جهة الأم، ويقولون لكل منفرد: يَتيم، حتى قالوا: بيتٌ من الشعر يتيم»[(١)].

وبعض اللغويين ذكروا قيد البلوغ، فقال الفيروز آبادي في البصائر: «واليُتْمُ بالضم، واليَتَمُ بالتحريك: فِقدان الأبِ، يَتَمَ يَيْتِمُ... وهو يتيمٌ ويَتمانٌ ما لم يبلغ الحلم»[(٢)].

وقال الأزهري وابن منظور: «قال الليث: اليَتيمُ: الذي مات أبوه، فهو يتيمٌ حتى يَبْلُغَ فإذا بَلَغَ زال عنه اسم اليَتيم»[(٣)]، وأما ما ورد من أن قريشاً أطلقت

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٦/١٥٤)، وانظر: «القاموس المحيط»: (١٥١٣)، «المعجم الوسيط»: (٢/١٠٦٣).

(٢) «بصائر ذوي التمييز»: (٥/٣٨٠).

(٣) «تهذيب اللغة»: (١٤/٣٣٩)، «لسان العرب»: (١٢/٦٤٥-٦٤٦)، وانظر: «مفردات ألفاظ القرآن»: للراغب الأصفهاني: (٨٨٩).

على النبي ﷺ «يتيم أبي طالب» بعد بلوغه ﷺ - وذلك لما تعجبت واستبعدت من إرساله ﷺ دون أحد كبرائهم فقالوا: لم يجد الله رسولاً إلا يتيم أبي طالب، وأن يكون العراة الجُوَّع أصحابَه؟ ذكره غير واحد من المفسرين[1] في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾... الآية (يونس: ٢) - فقد وجهه الزمخشري بقوله: إن ذلك «إما على القياس، وإما حكايةً للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضيعاً له ﷺ»[2].

**الآية التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة في:**

- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى: ٦).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

**❖ في معناها:**

قال الطبري: «وقوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾: يقول تعالى ذكره معددا على نبيه محمد ﷺ نعمه عنده، ومذكره آلاءه قبله: (ألم يجدك) يا محمد ربك (يتيما فآوى) يقول: فجعل لك مأوى تأوي إليه، ومنزلا تنزله»[3].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٠٩/١٤)، «معالم التنزيل»: (٣٤٣/٢)، «الكشاف»: (٣١٣/٢)، «المحرر الوجيز»: (١٠٢/٣)، «تفسير القرطبي»: (٣٠٦/٨)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٨٩/٢)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٧/٢)، «فتح القدير»: (٤٢٤/٢).

(٢) «الكشاف»: (٢٤٢/١).

(٣) «جامع البيان»: (٢٣٢/٣٠).

وعدد تعالى عليه هذه النعم لتطييب نفسه، وتقوية رجائه ﷺ، قال ابن جزيء: «عدد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه ويقوى رجاؤه»[١].

- **في قوله تعالى: ﴿ يَجِدْكَ ﴾:**

وجد هنا بمعنى عَلِمَ، أي: ألم تكن يتيماً فآواك[٢]؟

قال ابن جزيء: «﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾: ووجد في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين وهي بمعنى علم فالمعنى ألم تكن يتيما فآواك»[٣].

- **في قوله تعالى: ﴿ يَتِيمًا ﴾:**

**اختلف المفسرون في تفسير يتم النبي ﷺ على ثلاثة أقوال:**

١ — المراد به: يتمه بفقد أبويه[٤] كليهما[٥]، قال به عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه[٦].

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٤/٢٠٤).

(٢) انظر: «الكشاف»: (٤/٧٧٢)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٠٢)، «تفسير النسفي»: (٤/٣٤٥)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٤/٢٠٤)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٤٨١).

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٤/٢٠).

(٤) وفي موت أبيه ﷺ أقوال، الأشهر والأثبت منها: أنه توفي والنبي ﷺ حملٌ في بطن أمه لستة أشهر، انظر: «تاريخ الإسلام»: (جزء السيرة/٥٠) قال الذهبي: «وهو الصحيح».

(٥) حيث ماتت أمه ﷺ وهو ابن ست سنين، وقيل أربع سنين، انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي: (جزء السيرة/٥٠).

(٦) «الدر المنثور»: (٨/٥٤٤)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩).

٢ – أن المراد به: يتمه بفقد أبيه(١).

٣ – أن المراد به: يتمه بفقد أبويه، وجده(٢)، وعمه(٣) أيضاً(٤).

**وعند تأمل الأقوال أعلاه، يلاحظ أن الثاني منها، وهو القول بيتمه ﷺ من أبيه، هو الألصق بالمعنى اللغوي، ولكنها جميعاً لا تعارض بينها؛ حيث يتم النبي ﷺ من أمه وأبيه وجده، من حيث فقدانه للرعاية، وكل ذلك قبل البلوغ، وأما تيتمه من عمه فعلى اعتبار أنه كان مظنة للتضييع كاليتيم ـ حيث يفقد الرعاية ـ إذ فقد ﷺ حينها الحماية البشرية ﷺ، فالقول الثالث هو الذي يجمعها، إذ آواه الله تعالى من كل ذلك.**

قال ابن كثير: «﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾: وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، وقيل بعد أن ولد عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «الكشاف»: (٤/٧٧٢)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٦)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨)، «التحرير والتنوير»: (٣٠/٣٩٩).

(٢) حيث مات جده ﷺ وهو ابن ثمان سنين، انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي: (جزء السيرة/٥١).

(٣) حيث توفي عمه أبو طالب قبل الهجرة، انظر: «تاريخ الإسلام» للذهبي: (جزء السيرة/٥١)

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٢٤)، «تفسير أبي السعود»: (٩/١٧٠)، «تيسير الكريم الرحمن»: (٩٢٨).

وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به ﷺ»[1].

- **في قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاوَىٰ ﴾:**

اللفظ مشتق[2]:

- إما من: (أواه)، بمعنى: **(آواه).**
- أو من: (أوى له)، بمعنى: **(رحمه).**

وكلاهما فيه معنى الرحمة صراحةً أو ضمناً.

والمراد به يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى اليُتْم على ما سبق بيانه **من أن المراد بيتمه ﷺ يتمه بفقد أبيه، أو أبيه وأمه، أو أبويه وجده وعمه جميعاً، فالمعنى على وجهين:**

---

(1) «تفسير ابن كثير»: (٥٢٤/٤).

(2) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي: (٢٢٦/١٠)، «الكشاف»: (٢١٩/٤)، «المحرر الوجيز»: (٦٤٠/٨)، «التفسير الكبير» للرازي: (٢١٥/٣١)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٨٦/٨)، «الدر المصون»: (٣٩/١١).

أ/ أي: فآواك الله إلى عمك فأحسن تربيتك(١).

ب/ أي: جعل لك مأوى إلى نفسك، وأغناك عن كفالة أبي طالب(٢).

وكلاهما متحققان في إيواء الله تعالى لنبيه ﷺ.

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

آيات الضحى الثلاث آخذٌ بعضها بحجزة بعض، لذا سأرجئ دراسة الأسلوب في نهاية دراسة هذه الآيات الثلاث إن شاء الله تعالى.

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

أ/ هذا النبي العظيم عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم، إنه النبي اليتيم، وأي يتم أعظم من يتم يتلاحق فيه الأبوان؟ مات أبوه ﷺ وهو في بطن أمه، فلم تلتق عيناهما البتة، ولم يشعر بلمسة الأب الحاني ولو للحظة، بل ويزور قبره وهو في السادسة من عمره(٣) فينطبع في قلبه معنى اليتم عياناً بياناً بعد أن كان طفلاً لاهياً عن يتمه، وإن كان يعلم بموت أبيه، وأنه ذهب ولن يعود.

ولكن يبقى سنا الأمل، يشع من قلب الأم المعطاء، والذي بفطرته يتدفق حناناً على هذا اليتيم، وإن كان يخفي مرارة فقد الزوج الحبيب، لترتسم البسمة

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «تفسير السمعاني»: (٦/٢٤٤)، «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩)، «زاد المسير»: (٩/١٥٨)، «تفسير النسفي»: (٤/٣٤٥).

(٢) «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «زاد المسير»: (٩/١٥٨)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٦).

(٣) انظر: «سبل الهدى والرشاد»: للصالحي (٢/١٢٠).

على وجه هذا اليتيم العظيم، ويشاء الله الحكيم العليم، وأن يَسلب عنه هذا القلب الرحيم، لتتجرع طفولته البريئة مرارة اليتم الثاني في حياته.

ولكن يومض وميضُ الأمل من جديد، من عيني جده الشيخ الكبير، وينتقل إليه النبي اليتيم، ليغدق عليه الحب والشفقة من قلب رحيم.

وتتوالى حكم الله تعالى ـ وهو بنبيه ﷺ أرحم من أي رحيم ـ ويُيَتَّمُ حبيبنا ﷺ اليتم الثالث في حياة النبي العظيم، ليجد نفسه وحيداً في دائرة اليُتم الأليم، ولكن أمام عم رحيم، فقير، وذي عيال كثير، كل منهم يتشوف إلى حظه من العناية والرعاية والتعليم، فتولاه الله تعالى برعايته، وتربيته، وتأديبه، فكان اليتيم الأديب، القانع النزيه، ذا الخلق الكريم، فاحتضنه العم حتى شبَّ ونشأ في حضنٍ حميم، فتحولت هذه الحضانة إلى حماية منيعة بفضل الرحمن الرحيم.

**مسألة: ما الحكمة في أن النبي ﷺ كان يتيماً؟**

١ – يُتْمُ محمد ﷺ نعمة كبرى في طي محنة عظيمة، حيث أراد الله بحكمته أن ينشأ رسوله ﷺ يتيماً، ليتولاه الله بعنايته وحده، وليكون أدبه وخلقه مع يتمه، دليلاً على أن الله تعالى تولى رعايته وتأديبه، فآواه وسخر له جده وعمه لتهيئة الجانب المادي، بينما كانت التربية النفسية، والخلقية، والفكرية تعهداً ربانياً، ورعاية إلهية، فلا يتلقى أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئاً.

٢ – نشأ ﷺ بعيداً عن الذراع التي تمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من

معنى الصدارة والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني.

٣ – كانت المصائب التي أصابت النبي ﷺ منذ طفولته ـ كموت أمه، ثم جده بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة ـ كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب مرهف الشعور، فالأحزان ترهف النفس وتخلصها من أدران القسوة والكبر والغرور، وتجعلها أكثر رقة وتواضعاً، وهذه الرقة والعطف والحنان الذي حرم منه ﷺ أعطاه بدوره لغيره من الضعفاء كزيد رضي الله عنه وغيره، وخص به الأيتام ـ كما سيأتي ـ بل وأعطاه للأمة كلها فكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وكادت نفسه الشريفة ﷺ أن تذهب حسرات شفقة على أمته أن لا يؤمنوا.

٤ – كان من لوازم يتمه ﷺ أن يتنقل بين البيوت، لينشأ ﷺ متعلماً الاعتماد على النفس، متحملاً للمسؤولية، قوي الإرادة، ماضي العزيمة، وكل هذا وغيره إنما يحتاجه كل من اختاره الله نبياً مرسلاً.

٥ – ليتأسى به ﷺ كل من فقد والديه أو أحدهما، وهو صغير.

٦ – حتى لا يكون لأبويه أي أثر في دعوته ﷺ.

**٧ – كان يتمه ﷺ هو سبب إباء المراضع إياه**، حتى حليمة السعدية، ولكنها كرهت أن ترجع من بين صويحباتها بدون رضيع، فأخذته، فبارك الله لهم فيه وأغناهم به ﷺ، وها هي تروي القصة بنفسها فتقول: «فو الله ما علمتُ منا

امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أب الصبي، فكنا نقول: **يتيم، ما عسى أن تصنع أمه؟** فكلنا نكرهه لذلك، فو الله ما بقيت من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لانطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى أن يجعل الله لنا فيه بركة»[1].

٨ – لما عايش النبي ﷺ طفولته اليتيمة، وتجرعَ كأس اليُتمِ مرة بعد مرة كان أعلم الناس بضعف اليتامى وحاجتهم **فحث ورغب في كفالة الأيتام** كما سيأتي بعد قليل[2].

٩ – ذكر الرازي جملة من الحِكَمِ، سماها وجوهاً فقال: «فيه وجوه:

أحدها: أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

وثانيها: ليكون اليتيم مشاركاً له في الاسم فيكرم لأجل ذلك...

وثالثها: أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما، فسلب عنه الوالدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله، فيصير في

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام: (١/١٨٨)، «السيرة الحلبية»: (١/١٤٧).

(٢) هذه النقاط بتصرف شديد من: «السيرة النبوية» للدكتور: علي الصلابي: (١/٧٦ - ٧٧)، «محمد رسول الله ﷺ»: لمحمد عرجون (١/١٥٢).

طفوليته متشبهاً بإبراهيم عليه السلام في قوله: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»[1] وكجواب مريم: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ﴾ (آل عمران: ٣٧).

ورابعها: أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر... فاختار تعالى له اليُتم؛ ليتأمل كل أحد في أحواله ثم لا يجدوا عليه عيباً فيتفقون على نزاهته، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعناً.

وخامسها: جعله يتيماً ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذي له أب فإن أباه يسعى في تعليمه وتأديبه.

وسادسها: أن اليُتم والفقر[2] نقص في حق الخلق، فلما صار محمد صلى الله عليه وسلم مع هذين الوصفين أكرم الخلق كان ذلك قلباً للعادة فكان من جنس المعجزات»[3].

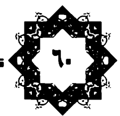
## خامساً: التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الصفة:

- كثيراً ما تأتي المنحة من رحم المحنة، فربما يكون فقد الوالدين أو أحدهما سببا دافعا للتميز والتفوق؛ فما أكثر الصور المشرقة لأيتام تميزوا وبرزوا وكانت لهم بصماتهم الواضحة على المجتمع من حولهم - وفي أزمان متفرقة - ويأتي على رأس هؤلاء الأيتام العظام:

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل»: (٥/٣٢٧).

(٢) سيأتي تحرير مسألة فقره وغناه صلى الله عليه وسلم في موضعها إن شاء الله تعالى، انظر: من ص (٩٠ – ٩٨).

(٣) «التفسير الكبير» للرازي: (٣١/٢١٩).



❖ سيد الخلق وإمام الحق رسولنا الكريم ﷺ.

❖ مريم عليها السلام، والتي كفلها نبي الله زكريا عليه السلام، وقال عنها الرسول ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[١].

❖ إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وأصله من البصرة، ولد عام ١٦٤هـ في بغداد، وتوفي والده قبل مولده؛ فنشأ يتيما، وتولَّت رعايته أمه، وحرصت على تربيته كأحسن ما تكون التربية، فحفظ القرآن الكريم، وانكبّ على طلب الحديث، وبزَّ أقرانه في الحديث والفقه وغيرهما حتى صار إمام أهل السنة[٢]، وغيرهم كثير.

ولعل الحكمة في ذلك أن الطفل منذ صغره إذا افتقد أحد أبويه أو كليهما، فإنه سيشعر بأنه فقد القدوة فسيعوِّض ذلك بأن يكون هو القدوة لغيره.

❖ كما نجد أن القرآن الكريم ذكر اليُتمَ في اثنتين وعشرين آية، كلها تدعو إلى المحافظة على مال اليتيم، وإكرامه، وإطعامه، وإيواءه، والإحسان إليه،

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رضي الله عنها، (١٣٧٤/٣/ ح ٣٥٥٨)، واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، (١٨٨٦/٤/ح ٢٤٣١).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٩٢١/ترجمة رقم: ٦٦٥).

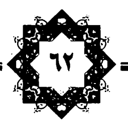
والصدقة عليه، وإصلاح أمره، ومخالطة اليتامى، وغير ذلك مما يدل على اهتمام الإسلام بهذه الفئة.

❖ ولعل الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى قد وصى وأكد على ضرورة مخالطة اليتامى وإيوائهم هو أن ينشأ اليتيم بين أناس يتعامل معهم بشكل طبيعي ويشعر بحياة طبيعية لا تختلف عن أقرانه الذين يراهم، فينشأ الطفل متوازناً نفسياً ومتوافقاً مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه.

ولكن على النقيض من ذلك إن وضع هؤلاء الأطفال الأيتام في مكان ويُعزلون عن المجتمع، فهذا يؤدي إلى شعورهم بأنهم مختلفون عن بقية المجتمع، وهذا قد يولد لديهم شعور بالكراهية والحقد على المجتمع، ويشعرون أنهم غير منتمين له، وهذا بدوره يؤدي إلى سلوكيات غير محمودة.

❖ إنَّ حثَّ الإسلام على الاهتمام باليتامى، وبإيوائهم في المقام الأول ـ كما امتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك ـ لهو الذي يحتاج إليه اليتيم، فاليتيم بلا مأوى سيصبح متسولاً تتلقفه أرصفة الشوارع، ومنعطفات الأزقة، بلا مخدع يؤويه، ولا رقيب ينتظره، فإذا به عضو فاسد تخسره الأمة، ويكون عالة ووبالاً عليها وعلى أبنائها، وعندها ندرك أن الإسلام قدم اليتامى للمجتمع في صورة إنسانية رائعة، ولم يعتبرهم من بقايا المجتمع، والحمد لله.

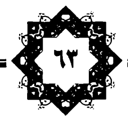
❖ ومن التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في ضوء هذه الصفة هو في معاملته صلى الله عليه وسلم للأيتام، وفي كفالتهم:



ومن الصحيح في ذلك: ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بإصبعه السبابة والوسطى»[1].



(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، (٥/٢٢٣٧/ح ٥٦٥٩).



# الصفة الثالثة

## وردت في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ﴾

## الصفة الثالثة:

## وردت في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَىٰ ﴾

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الضلال:

- الضلال: الضياع، والجُوْرُ عن القصد، وهو ضد الهدى.

قال ابن فارس: «(ضل): الضاد واللام أصلٌ صحيحٌ يدل على معنى واحد وهو: ضياع الشيء وذهابه في غير حقه، يقال: ضَلَّ يَضِلُّ ويُضَلُّ لغتان، وكلٌّ جائرٌ عن القصدِ ضالٌّ، والضلال والضلالة بمعنى، ورجل ضَلِيلٌ ومُضَلَّلٌ: إذا كان صاحب ضلال وباطل، ومما يدل على أن أصل الضلال ما ذكرناه قولهم: أَضَلَّ الميت إذا دُفِن، وذاك كأنه شيء قد ضاع»[1].

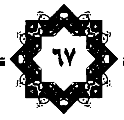
- ويطلق الضلال في القرآن ويراد به ثلاثة إطلاقات:

قال الشنقيطي[2] رحمه الله: «وقد بيَّنا مرارًا في هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق في القرءان وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣/٣٥٦).

(٢) هو: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، مفسر، ولد بشنقيط عام ١٣٢٥هـ، حج سنة: ١٣٦٧هـ واستقر مدرساً بالمدينة، ثم الرياض، ثم بالجامعة الإسلامية بالمدينة، من آثاره: تفسير أضواء البيان، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، وغيرها. توفي بمكة عام: ١٣٩٣هـ رحمه الله، انظر: «معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة، (٣/١٤٦).



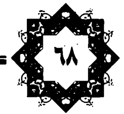
الإطلاق الأوّل: يطلق الضلال مرادًا به الذهاب عن حقيقة الشيء فتقول العرب في كل من ذهب عن علمِ حقيقةِ شيءٍ: ضلَّ عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما وليس من الضلال في الدين.

ومن هذا المعنى قوله هنا: ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الشعراء: ٢٠) أي: من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي؛ لأني في ذلك الوقت لم يوحَ إليّ ومنه على التحقيق ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى: ٧) أي: ذاهبًا عمّا علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي.

والإطلاق الثاني: وهو المشهور في اللغة وفي القرآن هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الحقّ إلى الباطل، وعن طريق الجنّة إلى النار، ومنه قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٧).

والإطلاق الثالث: هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال، تقول العرب: ضلّ الشيءُ: إذا غاب واضمحلّ، ومنه قولهم: ضلّ السمن في الطعام: إذا غاب فيه واضمحلّ، ولأجل هذا سمّت العرب الدفن في القبر إضلالاً؛ لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحلّ، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (السجدة: ١٠) يعنون: إذا دفنوا وأكلتهم الأرض فضلوا فيها أي غابوا فيها واضمحلّوا»[1].

(١) «أضواء البيان»: (٦/٩٠).



❖ **وصف النبي ﷺ بهذه الصفة في:**

قوله تعالى: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ** ﴾ (الضحى: ٧).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

- **مسألة:**

لابد من أن يستبعد تماماً كونه ﷺ كان ضالاً ضلال قومه من شرك ونحوه، قال ابن عطية: «﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ** ﴾: أي على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به ولم يكن ﷺ في ضلال الكفار ولا في غفلتهم لأنه لم يشرك قط وإنما كان مستهدياً ربه عز وجل موحداً والسائل عن الطريق المتخير يقع عليه في اللغة اسم ضال»[(١)].

وقال **النسفي** عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ** ﴾: «ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع فى عنى فقد كان عليه السلام من أول حاله إلى نزول الوحي، عليه معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان»[(٢)].

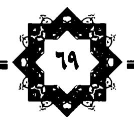
وقال الرازي: «فاعلم أن بعض الناس ذهب إلى أنه كان كافراً في أول الأمر ثم هداه الله وجعله نبياً... وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه ﷺ ما كفر بالله لحظة واحدة»[(٣)].

---

(١) «المحرر الوجيز»: (٢١٩/٣).

(٢) «تفسير النسفي»: (٢٠٧/٣).

(٣) «التفسير الكبير» للرازي: (٢١٦/٣١).



❖ **في معناها:**

اختلف المفسرون اختلافاً واسعاً في معنى قوله تعالى: ﴿ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾، فقيلت فيها أقوال كثيرة بعضها ضعيف لا تقوم به حجة، وبعضها له وجهة حسنة، وفيما يلي هذه الأقوال:

١ – قيل المعنى: وجدك ضالاً في شعاب مكة فردك إلى جدك.

قاله ابن عباس رضي الله عنهما(١).

قال البغوي: «وقيل: ضالاً في شعاب مكة فهداك إلى جدك عبد المطلب روى أبو الضحى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفا من أغنامه، فرده إلى عبد المطلب»(٢).

٢ – وقيل المعنى: أن الضلال هنا بمعنى الغفلة، كقوله جل ثناؤه: لا يضل ربي ولا ينسى أي لا يغفل وقال في حق نبيه: وإن كنت من قبله لمن الغافلين أي غافلا عما يراد بك من أمر النبوة فهداك: أي أرشدك، ووجدك على غير الذي أنت عليه اليوم فهداك للتوحيد والنبوة(٣).

---

(١) انظر: «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٦).

(٢) «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٢)، «النكت والعيون»: (٦/٢٩٤)، «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٧)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٠٥)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨١)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨).

قاله الحسن[1]، والسدي[2]، والضحاك[3].

٣ – وقيل المعنى: وجدك في قوم ضُلالٍ فهداك إلى إرشادهم.

قاله السدي[4].

❖ وعند تأمل هذه الأقوال فإن الذي تستريح إليه النفس هو القول بأن المراد بالضلال هنا الغفلة، وأنه ﷺ كان على غير ما هو عليه فهداه الله إلى النبوة والتوحيد، لأنه الأمر العظيم الذي يتناسب وامتنان الله تعالى على نبيه ﷺ، وهو الذي عليه جمهور المفسرين.

وإن كان ذلك لا يتنافى مع رواية السدي وابن عباس الصحيحتين، فيكون من قبيل اختلاف التنوع والله أعلم.

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

الحديث عنه في هذه الآية كسابقتها، سيأتي في نهاية الحديث عن الآية التالية بمشيئة الله تعالى.

**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

**❖ تصوير القرآن لحال النبي ﷺ قبل البعثة:**

صور القرآن الكريم حال النبي ﷺ قبل البعثة في صورة بشرية خالصة

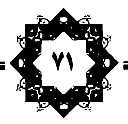
---

(١) انظر: «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٦).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٢).

(٣) انظر: «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٩)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٦).

(٤) «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٢)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/٩٧).



تبين عدم معرفته شيئاً عن النبوة والرسالة، فمرة يصفه بالغفلة عن القرآن: أي عدم توقع الوحي بمثله إليه كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (يوسف:٣)، ومرة بعدم رجاءه وعدم تأمله أن يلقى إليه الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (القصص:٨٦)، ومرة بنفي تلاوته ﷺ كتاباً قبل القرآن، في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ (العنكبوت:٤٨)، وفيها نفي القراءة والكتابة عنه ﷺ، ومرة بعدم درايته ما الكتاب ولا الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى:٥٢)، وأخيراً بضلالته عن النبوة والشريعة كما في هذه الآية ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى:٧)، والذي يلطف ذكره أن كل هذه الآيات قاطبة إنما سيقت مساق الامتنان على نبيه ﷺ فنعم الممتَن، ونعم العبد الشاكر الذي كان أهلاً للرسالة كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤).

### ❖ حاجة النبي ﷺ إلى الوحي، وأنه أصل العلم عنده ﷺ:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قاعدة أولية: إن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله ﷺ وعند الرسول ﷺ هو وحي الله... وقال الله تعالى له: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ (سبأ:٥٠)، وقال: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى:٧)،

وقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣)[١].

فالوحي مبدأ علمه ﷺ، وهو سلاحه، فلتنظر إليه ﷺ لما سئل عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فمن ذلك ما ذكره السيوطي في الدر قال: «قالت اليهود للنبي ﷺ يا محمد إنما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين أنك سمعت ذكرهم منا، فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء، فخرجوا فرحين وقد غلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف: ٨٣)[٢].

❖ **الرسول ﷺ والهداية:**

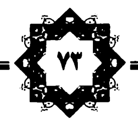
❖ من الإعجاز البياني في الآية - كما سيأتي في الحديث عن الأسلوب القرآني - أنها دلت على أن الله تعالى هدى نبيه ﷺ كما سبق تفصيله، وهدى به، وهدى إليه - كما سيأتي بالتفصيل إن شاء الله تعالى في مبحث (الهادي).

❖ كان من هدي النبي ﷺ أن يسأل الله تعالى الهداية في أحوال كثيرة منها:

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (٢/٢).

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور: (٦٢٩/٩).



- إذا افتتح صلاته من الليل، ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف قال: «سألت عائشة أم المؤمِنِينَ: بِأيِّ شيء كان نبي اللَّهِ ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفُون، اهْدِنِي لما اختلف فيه من الْحق بِإذنك، إنَك تهدي من تشاء إلى صِرَاط مسْتقيمٍ»[1].

- أمر ﷺ علياً أن يسأل الله السداد والهدى، فعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، والسداد سداد السهم»[2].

- علم الحسن رضي الله عنه حيث قال: علمني رسول الله ﷺ في وتري إذا رفعت رأسي ولم يبق إلا السجود «اللهم اهدني فيمن هديت» الحديث[3].

- وسن لنا تشميت العاطس فعن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ قال: «إذا

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، (١/٥٣٤/ح ٧٧٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر، باب في الأدعية، (٤/٢٠٩٠/ح ٢٧٢٥).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الوتر، باب القنوت في الوتر، (١٣٢٩، ح١٤٢٥)، والترمذي، أبواب الوتر، باب ما جاء في القنوت في الوتر، (١٦٨٩/ح٤٦٤)، والنسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب الدعاء في الوتر، (٢٢٠٣، ح١٧٤٦)، وابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر، (٢٥٤٦/ح١١٧٨)، وأحمد، (٢٤٥/٣/ح١٧١٨)، وصححه ابن خزيمة: (١٥١/٢)، وابن حبان: (٢٢٥/٣)، وابن الجارود: (٢٣٨/١).

عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»[1].

**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

١ – إذا تقررت حاجة النبي ﷺ إلى الوحي، وكون الوحي أصل علمه ﷺ فإن حاجة الناس إلى الوحي عن طريق نبينا ﷺ آكد وضرورتهم إليه وإلى فهمه بالسنة فوق كل ضرورة، فإنه لا سبيل إلى فلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة إلا بالهداية، وهي سبيل النجاة، يقول ابن رجب رحمه الله: «وأما سؤال المؤمن من الله الهداية، فإن الهداية نوعان: هداية مجملة، وهي الهداية للإسلام والإيمان، وهي حاصلة للمؤمن، وهداية مفصلة، وهي هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام وإعانته على فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهاراً»[2].

٢ – كل بني آدم ضال إلا من هدى الله تبارك وتعالى، فقد روى مسلم في صحيحه ما رواه النبي ﷺ عن ربه جل وعلا أنه قال: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»[3].

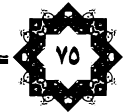
٣ – قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن ضلال بني آدم وخطأهم في أصول

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا عطس كيف يشمت، (٥/٢٢٩٨/ح ٥٨٧٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم»: (١/٢٢٥).

(٣) رواه مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٤/١٩٩٤/ح ٢٥٧٧).



دينهم وفروعه، إذا تأملته تجد أكثره من عدم التصديق بالحق، لا من التصديق بالباطل، فما من مسألة تنازع الناس فيها في الغالب إلا وتجد ما أثبته الفريقان صحيحاً، وإنما تجد الضلال وقع من جهة النفي والتكذيب، مثال ذلك: أن الكفار لم يضلوا من جهة ما أثبتوه من وجود الحق، وإنما أتوا من جهة ما نفوه من كتابه وسنة رسوله ﷺ وغير ذلك وحينئذ وقعوا في الشرك»[1].

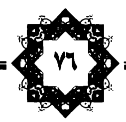
٤ – وقال في مجموع الفتاوى: «والله سبحانه تفضل على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة:

أحدهما: أن كل مولود يولد على الفطرة، كما في الصحيحين، ولمسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه مرفوعاً: «وإني خلقت عبادي حنفاء»... الحديث[2] فالنفس بفطرتها إذا تُركت كانت محبة لله تعبده لا تشرك به شيئاً، ولكن يفسدها من يزين لها من شياطين الإنس والجن.

الثاني: أن الله تعالى هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم من العقل، وبما أنزل إليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل... وقال تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: ١-٣)، وقال: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: ١٠)، ففي كل واحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبته

(١) «مجموع الفتاوى»: (٢٠/١٠٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٤/٢١٩٧/ح ٢٨٦٥).



له، وقد هداه إلى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الآخرة»[1].

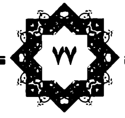
٥ – ومما يدل على حاجة الناس إلى الهداية، أن أمرهم الله تعالى بالدعاء بها في كل ركعة من الصلاة، وجُعلت في أم الكتاب، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وإنما فرض عليه من الدعاء الراتب الذي يتكرر بتكرر الصلوات، بل الركعات فرضها ونفلها، هو الدعاء الذي تتضمنه أم القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ (الفاتحة: ٦ ـ ٧)؛ لأن كل عبد فهو مضطر دائما إلى مقصود هذا الدعاء، وهو هداية الصراط المستقيم، فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية، ولا وصول إلى السعادة إلا به، فمن فاته هذا الهدى فهو إما من المغضوب عليهم أو من الضالين»[2].



(١) «مجموع الفتاوى»: (٨/٢٠٥).

(٢) «المصدر السابق»: (٢٢/٣٩٩).



## الصفة الرابعة

## وردت في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ﴾

## الصفة الرابعة:

## وردت في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة العَيْلَة:

العيلة في اللغة: الفقر والفاقة والحاجة[1]:

قال ابن فارس: «(عيل) العين واللام والياء ليس فيه إلا ما هو منقلب عن واو، العيلة: الفاقة والحاجة يقال: عَالَ يَعِيلُ عَيْلَةً: إذا احتاج، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ (التوبة: ٢٨)»[2].

وقال ابن منظور: «عيل: عَيَلَ، عَالَ، يَعِيلُ، عَيْلاً، وعَيْلَةً، وعُيُولاً، وعَيولا ومَعيلا: افتقر، والعَيِّل: الفقير، وكذلك العائل، قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: ٨)»[3].

❖ وصف النبي ﷺ بصفة العَيْلَةِ في:

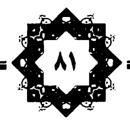
قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: ٨).

---

(١) انظر: «أساس البلاغة»: (٤٤٢/١)، «تاج العروس»: (٧٩/٣٠)، «المفردات في ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني: (٣٥٤/١)، «المعجم الوسيط»: (٦٤٠/٢).

(٢) «مقاييس اللغة»: (١٩٨/٤).

(٣) «لسان العرب»: (٤٨٨/١١).



**ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:**

**١ – أن المراد بـ: (عائلاً) هنا: الفقر المادي، أي: فقر المال، وعليه فالمعنى:**

ووجدك فقير المال فأغناك بالمال[١]، قاله: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه[٢]، قيل: وأعطاك الكفاف[٣]، وأرضاك بما أعطاك، قاله مقاتل[٤].

**٢ – أن المراد بـ: (عائلاً) هنا: الفقر المعنوي، وعليه فالمعنى:**

ووجدك فقيراً إليه فأغناك به[٥].

❖ **وعند تأمل القولين أعلاه،** يظهر أن كلاهما منطبق في النبي ﷺ، فيكون الأولى الجمع بينهما، ويؤيد ذلك ما نقله ابن القيم رحمه الله قال: «قال صاحب المنازل[٦]: قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٨)، وفي الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره، وهذا قول أكثر المفسرين؛ لأنه قابله بقوله عائلاً، والعائل هو المحتاج ليس ذا العيلة، فأغناه من المال، والثاني:

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٣)، «المحرر الوجيز»: (٥/٤٩٤)، «زاد المسير»: (٩/١٥٨)، «تفسير السمعاني»: (٦/٢٤٤)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨).

(٢) «الدر المنثور»: (١٥/٤٨٧).

(٣) انظر: «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٠٥)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨٢).

(٤) انظر «المحرر الوجيز»: (٥/٤٩٤)، «تفسير السمعاني»: (٦/٢٤٤)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٤٨٢).

(٥) انظر: «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٤/٢٠٥)، «المحرر الوجيز»: (٥/٤٩٤).

(٦) يقصد شيخ الإسلام: أبا إسماعيل الهروي رحمه الله.

أنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه، فهو غنى قلب ونفس لا غنى مال وهو حقيقة الغنى، والثالث: وهو الصحيح أنه يعم النوعين نوعي الغنى فأغنى قلبه به وأغناه من المال»[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

١ - في الآية تعديد لما أفاض عليه ﷺ من أول أمره إلى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام؛ «ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود، وتنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى، يُحسِن إليه فيما يستقبل وإن تأخر، فيطمئن قلبه وينشرح صدره»[2]، و«ليعرفه بما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره ومنِّه عليه في يتمه وعيلته وضلالته، واستنقاذه من ذلك كله برحمته»[3].

أخرج ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته، فقلت: قد كانت قبلي الأنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى، فقال تعالى: يا محمد، ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أضع عنك وزرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت بلى يا رب»[4].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٩).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٠٢)، «تفسير أبي السعود»: (٩/١٧٠)، «روح المعاني»: للألوسي: (٣٠/١٦١).

(٣) انظر: «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ»: للكلاعي (١/٢٠٨).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم: (١٠/٣٤٤٣)، وصححه الضياء المقدسي فأخرجه في=



٢ – هذه الآيات في سورة الضحى، وقد نزلت بعدما فتر الوحي، وآذى المشركون رسول الله ﷺ كأنها تحكي له ما كان من رعاية الله تعالى له في صباه؛ لأنها أضعف مراحل حياته ﷺ وأولاها بالشفقة، فكأنه تعالى يقول: كيف بعد أن اشتد عودك واصطفاك الله لرسالته سيودعك ويقلاك؟ بل أنت الآن أولى بالمحبة والرعاية لأداء رسالة البشرية.

٣ – جاء السياق بالاستفهام بالهمزة الداخل على النفي، وذلك لإنكار النفي وتقرير المنفي على أبلغ وجه، فكأنه قال: قد وجدك يتيماً فآوى[١].

٤ – في لفظ (يجدك):

أ/ كرر تعالى لفظ (وجد) لاختلاف اللفظ[٢].

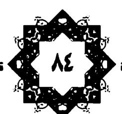
ب/ إضافة الله تعالى الفعل وجد إلى نفسه فيه «إشعار بمزيد اختصاص ورعاية الرب سبحانه لعبده....ويقوي هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول ﷺ في جميع أطواره منذ البدأين بدء الخلقة وبدء الوحي في قوله: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ (العلق: ١ ـ ٢)، ثم في نشأته ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ** ﴾ (الضحى:٣)، إلى قوله: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ**

---

=المختارة: (٢٨٧/١٠).

(١) انظر: «تفسير أبي السعود»: (١٧٠/٩)، «فتح القدير»: (٤٥٨/٥)، «روح المعاني»: (١٦١/٣٠).

(٢) انظر: «البحر المحيط»: لأبي حيان (٤٨٦/٨).



﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى: ٦ ـ ٨)»[١].

ج/ جاءت غالبية أفعال هذا التصوير ماضية للدلالة على تحقق وقوع أحداثها، وما جاء من الأفعال مضارعاً دل على تجدد حدوثه وتكرره، ماعدا الفعل: (يجدك) المسبوق بـ(لم) فقد دل على تحقق وقوع حدوثه[٢].

٥ – في قوله تعالى: ﴿ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾:

- عبر بالمأوى لأن اليتيم أول وأشد ما يحتاج إليه المأوى.

- تعبير (فآوى) يتضمن تقرير نشوءه ﷺ في حضانة رحيمة من جده ثم من عمه أبي طالب، والتي استمرت حتى انقلبت إلى حماية قوية من عمه كما يدل معنى الإيواء[٣].

٦ – في سياق الامتنان:

أ/ قدم الامتنان بالعلم على الامتنان بالمال، فذكر الهداية أولاً ثم الإغناء.

ب/ ذكر الرازي مسألة فقال: «كيف يحسن من الجود أن يمن بنعمة فيقول: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى:٦)، والذي يؤكد هذا السؤال أن الله تعالى حكى عن فرعون أنه قال: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ (الشعراء:١٨) في معرض الذم لفرعون، فما كان مذموماً من فرعون، كيف يحسن من الله؟

---

(١) «أضواء البيان»: (١٧٤/٩).

(٢) «التصوير القرآني في جزء عم» لـ: أ. أناهيد حريري: (٧٣٣/٢).

(٣) انظر: «سيرة الرسول ﷺ» للأستاذ محمد عزة دروزة: (٢٢/١).

الجواب: أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك أن يقوي قلبه ويعده بدوام النعمة، وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون؛ لأن امتنان فرعون محبط لأن الغرض: (فما بالك لا تخدمني)، وامتنان الله بزيادة نعمه كأنه يقول: (مالك تقطع عني رجاءك)»؟[1].

٧ – يحسن في ذكر النعم تصغير المنعم عليه؛ لينفرد المنعم بالعظمة[2].

٨ – فصلت الجمل ولم تكن جملة واحدة، وذلك: «ليزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورا وانشراحا وحبورا»[3].

٩ – جمع الله تعالى لنبيه ﷺ بين هدايته له وإنعامه عليه بإيوائه وإغنائه[4].

١٠ – جاء التعبير بحذف المفاعيل الثلاثة فقال: فآوى، فهدى، فأغنى، ولم يقل: فآواك، فهداك، فأغناك:

«ذكر المفسرون هنا عدة آراء منها: أن الحذف هو لظهور المراد؛ لأنه تعالى كان يخاطب الرسول ﷺ والمعنى واضح، وقسم قال: إنها مراعاة لفواصل الآيات، حتى لا يقال: آواك وأغناك وهداك، فتختلف عن فواصل باقي الآيات، ولكن كما سبق آنفاً قلنا إن القرآن الكريم لا يراعي الفاصلة على حساب المعنى مطلقاً، وهي قاعدة عامة في القرآن: المعنى أولاً ثم الفاصلة القرآنية ومثال ذلك الآية في سورة طه

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٢١٨/٣١).

(٢) «كشف المشكل» لابن الجوزي: (٢٨٨/٢).

(٣) «روح المعاني» للألوسي: (١٦١/٣٠).

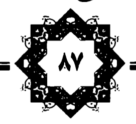
(٤) «الفوائد» لابن القيم: (١٣٣/١).

﴿ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ (طه:٨٨)، وكانت الفاصلة في باقي السورة مختلفة، وعليه فإن الحذف هنا جاء للإطلاق والدلالة على سعة الكرم، فآوى بمعنى فآواك، وآوى لك، وآوى بك، وأغناك، وأغنى لك، وأغنى بك، وهداك، وهدى لك، وهدى بك، فلو قال ﷻ: (فوجدك عائلا فأغناك) لكان الغنى محصوراً بالرسول ﷺ فقط، لكن عندما أفاد الإطلاق دل ذلك على أنه سبحانه أغنى رسوله ﷺ، وأغنى به وبتعليماته فيما خص الإنفاق وغيره خلقاً كثيراً، وأغنى له خلقاً كثيراً، وكذلك آوى الرسول ﷺ، وآوى به خلقاً كثيراً بتعليمه الكثيرين، وتعاليمه كانت تحض على رعاية اليتامى، وحسن معاملتهم، واللطف بهم، وآوى لأجله الكثير من الناس؛ لأن من الناس من يؤوى اليتامى حباً برسول الله ﷺ، وطمعاً في صحبة الرسول ﷺ في الجنة كما ورد في الحديث: أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار إلى إصبعيه[1]. وكذلك بالنسبة للهداية، فالله تعالى هدى رسوله الكريم ﷺ وهدى به خلقاً كثيراً: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى:٥٢)، وهدى له ولأجله من أراد ﷻ، إذن خلاصة القول: أن الحذف هنا جاء لظهور المراد وفواصل الآيات وسعة الإطلاق كلها مجتمعة لا يتعارض أحدها مع الآخر، وكذلك تناسب سعة الإطلاق هنا قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى:٥). فالحذف هنا جاء للعموم والإطلاق في المعنى»[2].

---

(١) سبق تخريجه ص (٦٣).

(٢) اتصال هاتفي مع معالي الدكتور: «فاضل السامرائي» بالشارقة، واقتباس من موقع: «لمسات=



١١ – لم جاء ترتيب الآيات على هذا النحو بذكر يتمه وإيوائه، ثم ضلاله وهدايته، ثم عيلته وإغناءه؟

«هذا هو الترتيب الطبعي في الحياة، اليُتم يقال لمن فقد والديه أو أحدهما وهو دون سن البلوغ، فإذا بلغ انتفت عنه صفة اليتم، وإذا بلغ دخل في سن التكليف الشرعي فهو يحتاج إلى الهداية ليتعلم كيف يسير في الحياة قبل أن يكون فقيراً أو غنياً، وكيف يجمع المال الحلال؛ لأن كل مال جمع من غير طريق الهداية هو سحت، ثم تأتي العيلة وهي أمر آخر بعد البلوغ، من الناس من يكون فقيراً أو غنياً، وعلى الاثنين أن يسيرا وفق التعاليم التي تعلماها بعد البلوغ مباشرة، وهذا طبعي، ويمر به كل الخلق فهذا هو التسلسل الطبعي في الحياة.لذا فقد بدأ سبحانه بالحالة الأولى (اليُتم) ثم إذا بلغ تأتي الهداية في المرتبة الثانية، وثالثاً العائل والغني يجب أن يسيرا على الهداية»[١].

١٢– جاء التنكير في الصفات الثلاث: (يتيماً)، (ضالاً)، (عائلاً)؛ لإظهار ضعفه ﷺ وما من الله به عليه حتى صار أكرم الخلق[٢].

١٣ – اللف والنشر: وقد بينه السيوطي في الإتقان فقال: «هو أن يُذكر شيئان أو أشياء إما تفصيلاً بالنص على كل واحد، أو إجمالاً بأن يؤتى بلفظ

---

=بيانية» على الشبكة العنكبوتية.

(١) اقتباس من موقع: «لمسات بيانية» على الشبكة العنكبوتية.

(٢) انظر: «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للقمي: (١١٩/٣٠).

يشتمل على متعدد، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به» ثم قال: «والتفصيلي قسمان:

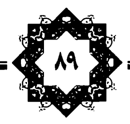
أحدهما: أن يكون على ترتيب اللف كقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ (القصص: ٧٣)، فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء راجع إلى النهار، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩)، فاللوم راجع إلى البخل، ومحسوراً راجع إلى الإسراف؛ لأن معناه: منقطعاً لا شيء عندك، وقوله: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾...الآيات، فإن قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ (الضحى: ٩)، راجع إلى قوله: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى: ٦)، و﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾ (الضحى: ١٠)، راجع إلى قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ (الضحى: ٧)، فإن المراد: السائل عن العلم كما فسره مجاهد وغيره[١] و﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ (الضحى: ١١)، راجع إلى قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴾ (الضحى: ٨).

والثاني: أن يكون على عكس ترتيبه كقوله: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ (آل عمران: ١٠٦)»[٢].

---

(١) لم أجده إلا من قول سفيان، قال: «من جاء يسألك عن أمر دينه فلا تنهره»، عند ابن أبي حاتم: (١٠/٣٤٤٤)، وفي الدر عنه كذلك: (١٥/٤٩٠).

(٢) «الإتقان»: (٢/٢٥١).



وهكذا تبين أن الله تعالى في هذه السورة ذكر ثلاث نعم، وفي مقابلها ثلاث وصايا والله أعلم.

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

❖ وقفات مع إغناء الله تعالى لنبيه ﷺ:

١ – معلوم ما كان من ربح النبي ﷺ لما خرج متاجراً بمال خديجة رضي الله عنها، أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن اسحاق قال: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعل لهم منه، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار»[1].

٢ – فرض الله تعالى لنبيه ﷺ أموال ثلاثة:

«أولها: ما أفاء الله على رسوله ﷺ من المشركين، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وهي فدك، وأموال بني النضير، فإنهم صالحوا رسول الله ﷺ على أموالهم وأراضيهم بلا قتال كان منهم ولا سفر تجشمه المسلمون إليهم.

والمال الثاني: الصَّفِي الذي كان رسول الله ﷺ يصطفيه من كل غنيمة يغنمها المسلمون قبل أن يقسم المال.

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي: (٢/٦٦).

والثالث: خمس الخمس بعد ما تقسم الغنيمة وتخمس»[1].

ويدل على الأول: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾ (الحشر: ٦).

وعن قتادة: «قوله: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾...الآية (الحشر: ٦)، يقول: ما قطعتم إليها وادياً، ولا سرتم إليها سيراً، وإنما كان حوائط لبني النضير طعمة أطعمها الله رسوله ﷺ»[2].

ويدل على الثاني: ما روي عن عائشة رضي الله عنها: قالت: «كانت صفية من الصفي»[3].

وعن الشعبي قال: «كان للنبي ﷺ سهم يدعى الصفي، إن شاء عبداً وإن شاء أمةً، وإن شاء فرساً يختاره قبل الخمس»[4].

ويدل على الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾...الآية (الأنفال: ٤١).

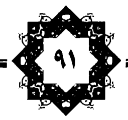
---

(١) «الأموال» لأبي عبيد: (١/١٤).

(٢) «جامع البيان»: (٢٨/٣٥).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الخراج، باب ما جاء في سهم الصفي، (١٤٤٨/ح٢٩٩٤)، وقال ابن حجر في الدراية: «وإسناده قوي»، والحاكم: (٣/٤٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وصححه ابن حبان: (١٦/١٩٤).

(٤) رواه أبو داود، كتاب الخراج، باب ما جاء في سهم الصفي، (١٤٤٨/ح٢٩٩١)، وكلام الشعبي وإن كان إسناده مرسلاً إلا أن أصله مأخوذ من الأحاديث الصحيحة كحديث عائشة.



فهذا كله من إغناء الله تعالى لنبيه ﷺ.

٣ – صدقات النبي ﷺ مما أغناه به الله تعالى:

- ومن ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه(١) من حديث عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جعل أرض فدك(٢) صدقة ذلك أن النبي ﷺ كان ينفقُ على أهله من هذا المال نفقة سنته ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال اللَّهِ.

- ومن ذلك أن النبي ﷺ كان لا يصلي بنفسه على من عليه دين، ثم لما فتح الله تعالى عليه الفتوح كان يؤدي عن المدينين ويصلي عليهم، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل: «هل ترك لدينه فضلاً»؟ فإن حُدِّث أنه ترك لدينه وفاء صلى وإلا قال للمسلمين: «صلوا على صاحبكم»، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فرض الخمس، (٣/١١٢٥/ح ٢٩٢٥)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة»، (٣/١٣٨٠/ ح ١٧٥٩).

(٢) قال ياقوت الحموي: «فَدَك بالتحريك وآخره كاف قال ابن دريد فدكت القطن تفديكا إذا نفشته وفدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحا، وذلك أن النبي ﷺ لما نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلا ثلث واشتد بهم الحصار، راسلوا رسول الله ﷺ يسألونه أن ينزلهم على الجلاء، وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله ﷺ وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة»: «معجم البلدان»: (٤/٢٣٨).

أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي من المؤمنين فترك ديناً فعلي قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته»[1].

❖ قال بعض أهل العلم: لم يكن غناه ﷺ أكثر من ادخاره قوت سنة لنفسه وعياله[2].

❖ أن الله تعالى كما أغنى نبيه ﷺ فقد أغنى به ﷺ:

- أغنى الله تعالى به المؤمنين بالإسلام والقرآن، وأغناهم بالغنائم والفتوحات حتى بلغوا ملك كسرى وقيصر، وزيادة.

- ومن ذلك معجزاته ﷺ من تكثير الطعام القليل كما في البخاري من حديث أنس رضي الله عنه[3]، وتكثير اللبن كما في البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[4]، وغير ذلك.

- ومن ألطف ما يذكر في إغناء الله تعالى به ﷺ أن أغنى الله تعالى به مرضعته حليمة وزوجها، ففي قصتها في أخذها النبي ﷺ لإرضاعه قالت: «حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله عز وجل أجدب منها،

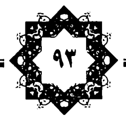
---

(١) رواه البخاري، كتاب الكفالة، باب الدين، (٢/٨٠٥/ح٢١٧٦).

(٢) انظر: «تحفة الأحوذي»: للمباركفوري (١٨/٧)، «شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك»: (٤٦/٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (١٣٠٨/٣/ح ٣٣٧٨).

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (٢٣٧٠/٥/ ح٦٠٨٧).



فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعا لُبَّناً، فنحلب ما شئنا، وما حولنا أحد تبض له شاه بقطرة لبن، وأن أغنامهم لتروح جياعاً ـ إلى أن قالت ـ فلم يزل الله ﷻ يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتيه»[1].

❖ **ومع أن الله تعالى أغنى نبيه ﷺ إلا أنه كان معرضاً عن الدنيا وزخرفها، فمن ذلك:**

- عن عبد اللَّهِ قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[2].

❖ بعض الروايات التي ظاهرها فقر النبي ﷺ والإجابة عنها:

- «فأما الرواية التي رويت عنه ﷺ: أنه لم يشبع ثلاثا تباعا من خبز حتى لقي الله ﷻ»[3]، فإن البر كان بنواحي مدينته قليلا، وإنما كان الغالب عليهم على عهده التمر والشعير، فغير مستنكر أن يكون ﷺ كان يؤثر قوت أهل بلده، ويكره أن يختص نفسه بما لا سبيل للمسلمين إليه من الغذاء، وهذا هو الأشبه بأخلاقه.

---

(١) «سيرة ابن إسحاق»: (٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب الزهد، باب حديث: ما الدنيا إلا كراكب استظل...(١٨٩٠/ح٢٣٧٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم... (٥/٢٠٦٨/ ح ٥١٠٧).



قال الطبري: «استشكل بعض الناس كون النبي ﷺ وأصحابه كانوا يطوون الأيام جوعاً مع ما ثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة، فنحرها، وأطعمها المساكين، وأنه أمر لأعرابي بقطيع من الغنم، وغير ذلك مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، وغيرهم، مع بذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه، وقد أمر بالصدقة فجاء أبو بكر بجميع ماله، وعمر بنصفه، وحث على تجهيز جيش العسرة، فجهزهم عثمان بألف بعير، إلى غير ذلك والجواب: أن ذلك كان منهم في حالة دون حالة لا لعوز وضيق بل تارة للإيثار، وتارة لكراهة الشبع، ولكثرة الأكل. انتهى»[(١)].

- وأما الأخبار التي رويت عنه ﷺ: أنه لم يشبع شبعتين في يوم حتى لحق بالله تعالى[(٢)]، وأنه لم يشبع هو وأهله من خبز الشعير حتى قبضه الله[(٣)] وما أشبه ذلك من الأخبار فإن ذلك لم يكن منه ﷺ في كل أحواله لعوز ولا لضيق وكيف يكون ذلك كذلك وقد كان الله تعالى ذكره أفاء عليه من قبل وفاته بلاد العرب كلها... ولكن ذلك كان بعضه لما وصف من إيثاره نصيب حقوق الله تعالى»[(٤)].

---

(١) «فتح الباري»: (١١/٢٩١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، (٤/٢٢٨٣/ح٢٩٧٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون، (٥/٢٠٦٥/ح٥٠٩٥).

(٤) «تهذيب الآثار مسند عمر بن الخطاب» للطبري: (٢/٧١٥).

وبعضهم قال: كان يعد لأهله قوت سنة فتنزل به النازلة فيقسمه فيبقى بلا شيء ﷺ[1].

- وأما سؤاله ﷺ المسكنة في قوله ﷺ: «اللهم أحيني مسكينا وتوفني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين»[2] قال البيهقي: «ووجهه عندي: أنه لم يسأل المسكنة التي يرجع معناها إلى القلة، وإنما سأل المسكنة التي يرجع معناها إلى الإخبات والتواضع»[3].

❖ من هديه ﷺ مع الفقراء:

- ما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رجلاً من الأنصار جاء النبي ﷺ يسأله، فقال: أمَا في بيتك شيء؟ قال: بلى، حَلَس[4] نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء، قال ائتني بهما، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، ثم قال: من يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: من يزيد على درهم؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما للأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما

(١) انظر: «معرفة الثقات» للعجلي: (٢/٣١٦).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٥٨)، كتاب الرقاق وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الضياء المقدسي حيث أخرجه في المختارة (٨/٢٧٠).

(٣) «تحفة الأحوذي» للمباركفوري: (٧/١٨).

(٤) قال ابن فارس: «والحَلَس أيضا: بساط يبسط في البيت»: «مقاييس اللغة»: (٢/٩٧)، وانظر: «تاج العروس»: (١٥/٥٤٦).

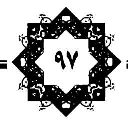
طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به، ففعل، فأخذه رسول الله ﷺ فشد فيه عوداً بيده، وقال: اذهب فاحتطب، ولا أراك خمسة عشر يوماً، فجعل يحتطب ويبيع، وقد أصاب عشرة دراهم، فقال: اشتر ببعضها طعاماً، وببعضها ثوباً، ثم قال: هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة في وجهك يوم القيامة... الحديث»[1].

- وما كان من هديه ﷺ مع أهل الصفة، حيث قال أبو هريرة رضي الله عنه: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وإذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها»[2].

❖ وهكذا فقد «جمع الله تعالى لنبيه ﷺ بين المقامين كليهما على أتم الوجوه، وكان سيد الأغنياء الشاكرين، وسيد الفقراء الصابرين، فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل

(١) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، (١٣٤٥/ح١٦٤١)، وابن ماجه، كتاب التجارات، باب بيع المزايدة، (٢٦٠٨/ح٢١٩٨)، ورواه النسائي مختصرا، كتاب البيوع، باب البيع فيمن يزيد، (٢٣٨٠/ح٤٥١٢)، والترمذي مختصرا كذلك، أبواب البيوع، باب ما جاء في بيع من يزيد، (١٧٧٣/ح١٢١٨). وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث الأخضر ابن عجلان.

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا، (٥/٢٣٧٠/ح٦٠٨٧).



لغني سواه، ومن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك، فكان ﷺ أصبر الخلق في مواطن الصبر، وأشكر الخلق في مواطن الشكر، وربه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله في أعلى رتب الأغنياء الشاكرين، وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٨)»[١].

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

١ – على المرء أن يعلم أن ما قدره الله له أو عليه من فقر أو غنى إنما هو الأصلح له فعليه أن يرضى ويسلم.

٢ – ليعلم المرء أنه إذا رزق الكفاف ـ مع إسلامه وقناعته ـ فإنه يدخل في دعاء النبي ﷺ له ولأمثاله بالفلاح كما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزِق كَفافاً، وقنعه الله بما آتاه»[٢]، قال النووي: الكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقص، وفيه فضيلة هذه الأوصاف[٣].

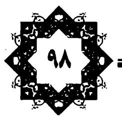
٣ – ليُتنبه إلى أن حقيقة الغنى والفقر هو غنى النفس وفقرها، فقد قال ﷺ: «ليس الْغِنَى عن كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[٤] قال النووي: «ومعنى الحديث الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها لا كثرة المال مع

(١) انظر: «عدة الصابرين» لابن القيم: (١٢٨/١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، (٧٣٠/٢/ح١٠٥٤).

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (١٤٥/٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، (٢٣٦٨/٥/ح ٦٠٨١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، (٧٢٦/٢/ح١٠٥١).



الحرص على الزيادة لأن من كان طالبا للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى»(١).

وقال في عمدة القاري: «ليس صاحب المال الكثير غنياً لذاته بل بحسب تصرفه فيه فإن كان غنياً في نفسه لم يتوقف في صرفه في الواجبات والمستحبات من وجوه البر والقربات وإن كان في نفسه فقيراً أمسكه وامتنع من بذله فيما أمر به خشية من نفاده فهو في الحقيقة فقير صورة ومعنى وإن كان المال تحت يده لكونه لا ينتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة بل ربما كان وبالاً عليه»(٢).



(١) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (١٤٠/٧).

(٢) «عمدة القاري» للعيني: (٥٥/٢٣).

# الفصل الثاني

# الصفات الجبلية للنبي ﷺ

وفيه ستة مباحث:

- المبحث الأول: الأمية.
- المبحث الثاني: البشرية.
- المبحث الثالث: الحياء.
- المبحث الرابع: الخلق العظيم.
- المبحث الخامس: الصدق.
- المبحث السادس: التواضع.

# الفصل الثاني

# الصفات الجبلية للنبي ﷺ

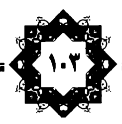
## توطئة:

إن صفات الإنسان العامة، والمكتسبة، لهي من أعظم ما يجذب الناس له من الاطلاع على سيرته، ومنهج حياته، وطريقته في كل شيء، ومن ثم الاقتداء به في كل شيء..

فكيف إذا كانت هذه الصفات، هي الصفات التي جبل عليها، وكان متلبساً بها بطبيعة حاله، لم يسع لها، ولم يكتسبها، بل حباه الله تعالى بها، حتى صارت سجيتَه، وطبعَه؟

وكيف إذا كان هذا الإنسان، هو الإنسان العظيم على الإطلاق، أعظم من سار على قدمين، وأعظم من نطق بلسان وشفتين، إنه محمد ﷺ...





# المبحث الأول

# الأميـــــــة

# المبحث الأول

# الأمية

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الأمية:

جمهور اللغويين على أن الأمي: هو من لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، نسبة إلى ما جبل عليه من ولادته في عدم الكتابة ونحوها، ومن ذلك:

قول الأزهري: «قال أبو إسحاق[1] معنى الأمي في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمّه، أَي: لا يكتب، فهو في أنه لا يكتب على ما ولد عليه»[2].

وكذلك قول الزبيدي: «والأُمِّيُّ والأُمّانُ بِضَمِّهما: مَنْ لا يَكْتُبُ، أو من عَلَى خِلْقَةِ الأُمَّةِ لم يَتَعَلَّم الكِتابَ، وهو باقٍ على جِبِلَّتِهِ»[3].

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بصفة الأمية:**

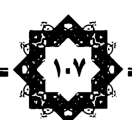
- في قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ** ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

---

(١) يَقصِد به: أبا إسحاق إبراهيم بن السَّريّ الزَّجّاج، له كتاب «معاني القرآن وشرح إعرابه»، وله كتاب «الاشتقاق»، وكتاب «فعلت وأفعلت»، ومُصنَّفات، منها: كتاب «الأنواء»، تُوفي سنة ستٍّ عشرة وثلاثمائة: «تاريخ العلماء النحويين»: (١/ ٢).

(٢) «تهذيب اللغة»: (١٥/ ٤٥٦).

(٣) «تاج العروس»: (٣١/ ٢٣٧).



- وقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بصفة الأمية:

اتفق المفسرون[١] على أن المراد بالأمي هنا هو محمد ﷺ.

والكلام هنا عن مطلبين:

### ❖ المطلب الأول: معنى الأمي:

فقيل: هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وذُكر هذا عن: إبراهيم النخعي[٢]، وقتادة[٣].

- ولذلك حدَّ ابن تيمية رحمه الله أمية النبي ﷺ بقوله: «باعتبار أنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه، بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ»[٤].

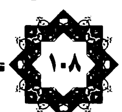
---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٨٣/٩)، «بحر العلوم»: (٥٦٩/١)، «النكت والعيون»: (٢٦٨/٢)، «معالم التنزيل»: (٢٠٥/٢)، «البحر المحيط»: لأبي حيان: (٤٠٢/٤)، «تفسير ابن كثير»: (٤١٨/٣)، «الدر المنثور»: (٥٧٤/٣)، «فتح القدير»: (٢٥٢/٢)، «تفسير السعدي»: (٣٠٥)، «أضواء البيان»: (١٦/٦).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم: (١٥٨٢/٥)، «الدر المنثور»: (٥٧٤/٣)، «فتح القدير»: (٢٥٤/٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم: (١٥٨١/٥)، «الدر المنثور»: (٥٧٤/٣).

(٤) «مجموع الفتاوى»: (٤٣٤/١٧-٤٣٦).



- وفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢)، قال العلامة السعدي رحمه الله في الأميين الذين بعث منهم الرسول ﷺ: «المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب»[١].

❖ المطلب الثاني: نسبة الأمي، فالمفسرون فيها على أربعة أقوال:

١ – قيل: نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب ولا تحسب، وهم العرب[٢].

٢ – وقيل: نسبة إلى الأُم، والمعنى:

أ/ أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب' قاله الزجاج[٣].

ب/ أو لأنه ليس من شغل النساء أن يكتبن أو يقرأن في كتاب[٤].

٣ – وقيل: نسبة لأم القرى، وهي مكة[٥].

---

(١) انظر: «تفسير السعدي»: (١٠٢٣).

(٢) انظر: «تفسير السمعاني»: (٩٩/١)، «المحرر الوجيز»: (٦٢/٤)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤)، «فتح القدير»: (٢٥٢/٢)، «تفسير السعدي»: (٣٠٥).

(٣) «بحر العلوم»: (٥٦٩/١)، وانظر: «تفسير السمعاني»: (٩٩/١)، «المحرر الوجيز»: (٦٢/٤)، «فتح القدير»: (٢٥٢/٢).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (٨٣/٩)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤).

(٥) انظر: «بحر العلوم»: (٥٦٩/١)، «المحرر الوجيز»: (٦٢/٤)، «البحر المحيط» لأبي حيان: =



٤ – وقيل: مأخوذ من (أَمَّ) بفتح الهمزة، بمعنى قصد منسوب إلى: (الأم) مصدر: (أَمَّ)، قال أبو حيان: «أي لأنّ هذا النبي مقصد للناس وموضع (أمٍّ)»(١).

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه يلاحظ أنه لا تضاد بينها، فالاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فكله متحقق فيه ﷺ، والله تعالى أعلم.

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

١ – وصف النبي ﷺ بصفة الأمي مسبقة بوصفي الرسالة والنبوة، وهما صفتان عظيمتان:

أ/ لما جعلت هاتين الصفتين العظيمتين: (الرسالة والنبوة) تمهيداً لوصفه بهذه الصفة المعجزة: (الأمية) دل ذلك على أهميتها ومكانتها.

ب/ «لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما، ولزيادة تقرير أمره، وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين»(٢).

٢ – وكما سُبقت هذه الصفة بصفتين عظيمتين، فإنها كذلك أُردفت بصفات عظيمة فيها مجامع الخيرات وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ...﴾ (الأعراف:١٥٧) وسيأتي الحديث عنها بعد قليل، وقوله

=(٤٠٢/٤)، «فتح القدير»: (٢٥٢/٢).

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤).

(٢) «روح المعاني» للألوسي: (٨٣/٩).

تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله في موضعها من هذا البحث.

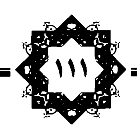
٢ – مجيء الصفة بـ: (ال) العهد، يفيد التخصيص وهذا ما عليه المحققون من أنه لم يوصف نبي بالأمية غير نبينا محمد ﷺ، قال الطبري: «لا يعلم لله رسول وصف بهذه الصفة أعني الأمي غير نبينا محمد ﷺ»(١).

٣ – في قوله تعالى: (يتبعون): عامة في كل من يتبع هذا الرسول الأمي ﷺ، بمن فيهم الأحبار والرهبان والعلماء والحكماء ومن على شاكلتهم، يتبعون رجلاً أمياً جاء بعلوم الأولين والآخرين فكانت أميته من معجزاته.

٤ – كما أن في آية سورة الأعراف عبر عن ما جاء به هذا الأمي ﷺ بالنور: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، مع شيوع أن الأمية جهل وظلام فلما جاء هذا الأمي بالنور دل على أنه ليس مثل الأميين أبداً ولا يمت لهم بصلة.

٥ – مع أن الله تعالى وصفه بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، نجد أنه يكررها بنفس السياق تقريباً في الآية التالية لها مباشرة وهي قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ

(١) «جامع البيان»: (٨٢/٩).



ﵟٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦﵞ (الأعراف: ١٥٨)، يقول في ذلك أبو حيان: «ﵟقُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِﵞ (الأعراف:١٥٨)، لما ذكر أنه رسول الله أمرهم بالإيمان بالله وبه، عدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو: الالتفات؛ لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله: ﵟٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّﵞ (الأعراف:١٥٧)، وأنه هو المأمور باتباعه الموجود بالأوصاف السابقة، والظاهر أن كلماته هي الكتب الإلهية التي أنزلت على من تقدمه، وعليه لما كان الإيمان بالله هو الأصل يتفرع عنه الإيمان بالرسول والنبي، بدأ به، ثم أتبعه بالإيمان بالرسول، ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدّال على نبوّته وهو كونه أمّيّاً، وظهر عنه من المعجزات في ذاته ما ظهر من القرآن الجامع لعلوم الأوّلين والآخرين، مع نشأته في بلد عارٍ من أهل العلم، لم يقرأ كتاباً ولم يخطّ، ولم يصحب عالماً ولا غاب عن مكة غيبة تقتضي تعلماً»[١].

٦ — في آية سورة الجمعة قال تعالى: ﵟهُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡﵞ (الجمعة:٢) فمع أنه منهم وأمي مثلهم - إذ كانت الأمية متفشية فيهم - إلا أنه أُكرم وجاء بما لا يستطيع أحد منهم بل من الخليقة أجمع أن يأتي بمثل ما جاء به أو بعضه ﷺ.

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٣٦/١).

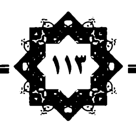
٧ – سيقت الآية مساق الامتنان من الله تعالى على الأمة الأمية بأن بعث رسولها أمياً مثلها قال العلامة السعدي رحمه الله: «المراد بالأميين الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم؛ لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا من قبل في ضلال مبين يتعبدون للأصنام والأشجار والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولا منهم يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه وأنزل عليه كتابه»[1].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

١ – هذه الصفة هي التي كان رسول الله ﷺ منعوتاً بها عند أهل الكتاب، ومن ذلك:

❖ ما جاء في صحيح البخاري عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال أجل - والله - إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٥) وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (١٠٢٣).



ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفاً»[١].

❖ ما أخرجه الطبري وذكره ابن كثير والسيوطي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم عن شيء فعرفتموه لتتابعنني على الإسلام؟» فقالوا ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم»، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ـ وذكروا منها ـ: وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة، ومن وليه من الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنني»؟ فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق ـ وفيه قوله ﷺ ـ: «وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا **النبي الأمي** تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد»[٢].

❖ أخرج السيوطي في الدر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل أن يبعث محمد ﷺ، يستفتحون الله، يدعون على الذين

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، (٢/٧٤٧/ح ٢٠١٨).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (١/٤٣٢)، «تفسير ابن كثير»: (١/١٣٠)، «الدر المنثور»: (١/٢٢١)، والحديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/٣١٠/ح٢٥١٤) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، ويتقوى بمجموع طرقه.

كفروا، ويقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي، إلا نصرتنا عليهم فيُنصرون»[1].

٢ – مما يصدق أميته ﷺ أنه كان قد اتخذ كتاباً للوحي ولم يستغن عنهم.

٣ – القصة المشهورة في صلح الحديبية عن الْبَرَاءِ رضي الله عنه قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ فقالوا: لا نقر بها فلو نعلم أنك رسول الله ما منعاك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلي: امح رسول الله، قال: لا والله لا أمحوك أبداً... الحديث[2]، وعند مسلم: «فقال علي: لا والله لا أمحاها، فقال رسول الله ﷺ أرني مكانها فأراه مكانها فمحاها، وكتب ابن عبد الله»[3].

❖ **مسألة: في ضوء هذه الرواية حصل بين العلماء نزاع في أمية النبي ﷺ ومحل النزاع على وجه الاختصار ما يلي:**

إن محل النزاع يكمن في أن النبي ﷺ كتب يوم الحديبية: (هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله) وهذا ما زعمه أبو الوليد الباجي[4]، ويجاب عنه بما يلي:

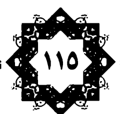
---

(١) «الدر المنثور»: (١/٢٢١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان..(٢/٩٦٠/ح ٢٥٥٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، (٣/١٤٠٩/ح١٧٨٣).

(٤) قال السيوطي في ترجمته: «سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الإمام أبو الوليد=



ـ لعل الباجي زعم ذلك قاصداً أنه ﷺ كتب على وجه المعجزة لا أنه يحسن الكتابة، وأن ما حمله على ذلك هو رواية في صحيح البخاري[(١)]: (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على الرواية الأخرى: (ثم أمر فكتب)[(٢)].

وعلى أيٍّ فقد اشتد النكير عليه من فقهاء عصره وأنشدوا فيه بل وتبرؤوا منه.

ـ ذكر ابن كثير رحمه الله أن ما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة[(٣)] فضعيف لا أصل له[(٤)].

٤ ــ لم يكن رسول الله ﷺ يخفي أميته أو يستحي منها بل دائما يعترف بها كما في قوله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا يعني تمام

---

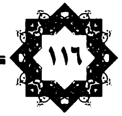
=الباجي ٤٠٣ ـ٤٧٤هـ: الفقيه الأصولي المتكلم المفسر الأديب الشاعر، ولد في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة... وبرع في الحديث والتفسير والفقه والأصلين، ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلوم كثيرة وتصدر للإفادة وانتفع به جماعة كثيرة وولى قضاء مواضع من الأندلس وفشا علمه وعظم جاهه، وله من التصانيف: شرح الموطأ، واختلافات الموطأ، الجرح والتعديل، تفسير القرآن، مات بالمرية لتسع عشرة خلت من رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة: «طبقات المفسرين» للسيوطي: (١/٥٢ ـ ٥٤).

(١) سبق تخريجه ص (١١٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، (٢/٩٧٤/ح ٢٥٨١).

(٣) لم أقف على هذه الرواية.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٦/٢٨٦)



الثلاثين»[1].

❖ **الحكمة من أمية النبي ﷺ وكونها من معجزاته ﷺ:**

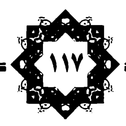
قال الرازي: «قال أهل التحقيق وكونه أمياً بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى، من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ، يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، فكان ذلك من المعجزات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ** ﴾ (الأعلى: ٦).

والثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب الأولين، فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة، كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب، (٢/٦٧٥/ح ١٨١٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، (٢/٧٦١/ح١٠٨٠)، واللفظ له.

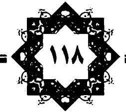


الثالث: أن تعلم الخط شيء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم، ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات»[1].

٥ – مع أميته ﷺ إلا أنه لم يغفل أهمية القلم، ومن ذلك قول الشيخ عطية سالم في تتمة الأضواء رحمه الله: «لم يكن هذا النَّبي الأمي مُغْفِلاً شأن القلم، بل عني به كل العناية، وأولها وأعظمها: أنه اتخذ كُتَّاباً للوحي يكتبون ما يوحى إليه بين يديه، مع أنه يحفظه ويضبطه، وتعهد الله له بحفظه وبضبطه في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأعلى:٦ ـ ٧)، حتى الذي ينساه يعوضه الله بخير منه أو مثله كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (البقرة:١٠٦)، ووعد الله تعالى بحفظه في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، ومع ذلك فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة كتاب وهذا غاية في العناية بالقلم، وذكر ابن القيم من الكتاب

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٢٠/١٥).



الخلفاء الأربعة ومعهم تتمة سبعة عشر شخصاً، ثم لم يقتصر ﷺ في عنايته بالقلم والتعليم به عند كتابة الوحي بل جعل التعليم به أعم كما جاء خبر عبد الله بن سعيد بن العاص «أن رسول الله ﷺ أمره أن يعلِّم الناس الكتابة بالمدينة وكان كاتباً محسناً»(١)... وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: «علّمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن»(٢).

---

(١) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب: (٣/٩٢٠/ت: ١٥٥٦)، وابن حجر في الإصابة، (٢/١٠٢/ت١٧٧٩)، ولم أقف على إسناده.

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب كسب المعلم، (١٤٧٨/ح٣٤١٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب الأجر على تعليم القرآن، (٢٦٠٢/ح٢١٥٧)، وأحمد في المسند، (٣٧/٣٦٣/ح٢٢٦٨٩)، والحاكم في المستدرك، (٢/٤٨)، والضياء المقدسي في المختارة: (٨/٢٥١)، وقال ابن الملقن: «أُعلَّ بوجهين:

أحدهما المغيرة بن زياد جزم بضعفه ابن الجوزي في تحقيقه، وقال في علله: إنه حديث لا يصح، وينبغي أن يعلم أنه ممن اختلف في حاله وقد وثقه وكيع وابن معين، والعجلي وغيرهم، وتكلم فيه البخاري وأبو حاتم، وغيرهما، قال أحمد: كل حديثٍ رفعه فهو منكر، وقال أبو عمر: هو معروف بحمل العلم وله مناكير، منها هذا، وأما الحاكم فصحح حديثه هذا، وخالف مرةً، وقال في موضع آخر: المغيرة بن زياد صاحب مناكير لم يختلف أحد في تركه، ويقال: إنه حدث عن عُبادة بن نُسَي بحديث موضوع.

الوجه الثاني: أن الأسود بن ثعلبة مجهول لا يعرف، قاله ابن المديني وابن القطان، وزاد أنه لا يعرف، روى عنه غير عُبادة بن نُسي، وتبع ابن حزم في نقله ذلك عن ابن المديني، والذي نقله غير ابن حزم عنه لا أعرف له إلا هذا الحديث، وأسند البيهقي في سننه عنه ـ أعني علي بن المديني ـ أنه قال: إسناده كله معروف إلا الأسود بن ثعلبة فإنه لا يحفظ عنه إلا هذا الحديث»: «البدر المنير»: (٨/٢٩٨).

وقد كانت دعوته ﷺ الملوك إلى الإسلام بالكتابة كما هو معلوم[1]، وأبعد من ذلك ما جاء في قصة أسارى بدر، حيث كان يفادي بالمال من يقدر على الفداء، ومن لم يقدر وكان يعرف الكتابة كانت مفاداته أن يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة[2]، فكثرت الكتابة في المدينة بعد ذلك، وكان ممن تعلم: زيد بن ثابت وغيره، فإذا كان المسلمون وهم في بادئ أمرهم وأحوج ما يكون إلى المال والسلاح بل واسترقاق الأسارى فيقدمون تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله ليدل على أمرين:

أولهما: شدة وزيادة العناية بالتعليم،

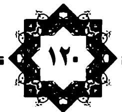
وثانيهما: جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا تعلق له بالدين، كما يوجد الآن من الأمور الصناعية في الهندسة والطب والزراعة والقتال ونحو ذلك، وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك حتى كان عدد كتاب الوحي اثنين وأربعين رجلاً، ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام، وجاء النص على الكتابة في توثيق الدين في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وهي أطول آية في كتاب الله تعالى رسمت فيها كتابة العدل الحديثة كلها»[3].

---

(١) ومن ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.... (١/٧/ح٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل...، (١٣٩٤/٣/ح١٧٧٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (٩٢/٤/ح٢٢١٦)، والحاكم في المستدرك، (١٥٢/٢)، وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند: «إسناده صحيح»، (٤٧/٤/ح٢٢١٦).

(٣) «أضواء البيان»: (١٩/٩).



**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

١ – صفة الأمية صفة ترمز للجهل والنقص في حق البشر، إلا في حق محمد ﷺ فهي صفة كمال تستلزم الإعجاز لرسالة هذا النبي العظيم ﷺ، قال الراغب في المفردات: «هذا الإعجاز فضيلة له لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله بقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ (الأعلى: ٦)[١].

**مسألة: كيف من الله على نبيه بأنه أمي لا يعرف الخط والكتابة وهما من قبيل الكمال لا من قبيل النقص؟**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «انتفاء الكتابة عنه مع حصول أكمل مقاصدها من أعظم فضائله وأكبر معجزاته؛ لأن الله علمه العلم بلا واسطة كتاب، وعلم هو ﷺ أمته الكتاب والحكمة من غير حاجة منه إلى أن يكتب بيده، فصارت أميته المختصة به كمالاً في حقه من جهة الغنى بما هو أفضل منها وأكمل، ونقصاً في حق غيره من جهة فقده الفضائل التي لا تتم إلا بالكتابة»[٢].

٢ – «ولننظر إلى حال أهل زماننا، أن أحداً منهم إذا علم وفهم قليلاً أحب أن يلقب بالفاضل والأكمل واللوذعي والألمعي والعلامة وغير ذلك من الألقاب... ولكن سيدنا محمد ﷺ كان يعترف دائماً بأميته، ومع ذلك كان يأتي إليه ألوف من العلماء ومئات من الحكماء ليتتلمذوا عليه ﷺ... وليس علمهم

---

(١) «المفردات»: (٢٤).

(٢) «رسالة في الهلال»: (٢١/١).



بجانب علمه إلا قطرة من البحر»[1].

٣ – جعل الله تعالى من صفات المتقين: اتباع الرسول النبي الأمي، وجعلهم أهل الرحمة المطلقة، ففي الأعراف في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٦)، قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾، ثم بين تعالى أن من شرط حصول الرحمة لأولئك المتقين كونهم متبعين للرسول النبي الأمي حقق في هذه الآية رسالته إلى الخلق بالكلية فقال: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨)»[2].



(١) «رحمة للعالمين» للمنصور فوري: (٣/٣٩-٤٠).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (١٥/٢٠).



# المبحث الثاني

# البشريـــــة

# المبحث الثاني

# البشرية

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة البشرية:

البشر: الإنسان.

- قال الخليل: «البشر: الإنسانُ الواحدُ رجلا كان أو امرأة»[1].

- وقال الأزهري: «والبَشَرُ: جَمْعُ بَشَرَةٍ. وهي ظَاهِرُ الجِلْد: والبَشَرُ أيضاً: الخَلْقُ، يقع على الأُنثى والذّكر، والواحد والاثنين والجميع يقال: هي بَشَرٌ، وهو بَشَرٌ، وهُمَا بشَرٌ، وهم بَشرٌ»[2].

- وقال ابن فارس: «(بشر) الباء والشين والراء: أصل واحد يدل على ظهور الشيء مع حسن وجمال... وسمي البشر بشرا لظهورهم»[3].

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بصفة البشرية:**

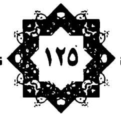
- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد: ٣٨).

- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ

(١) «العين»: (٦/٢٥٩).

(٢) «تهذيب اللغة»: (١١/٢٤٥).

(٣) «مقاييس اللغة»: (١/٢٥١).



تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٠ـ ٩٤).

- قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ (يونس: ٢)، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ (يوسف: ١٠٩)، (النحل: ٤٣)، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ ﴾ (الأنبياء: ٧).

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ ﴾ (الكهف: ١١٠)، (فصلت: ٦).

- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ ﴾ (الفرقان: ٧).

- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴾ (الفرقان: ٢٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ ﴾ (الأنبياء: ٣).

- قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠).



- قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤).

- قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ (يونس: ٤٦).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآيات:

- **من قوله تعالى:** ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴾ (الرعد: ٣٨).

**❖ في معناها:**

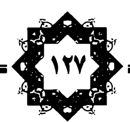
قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا يا محمد رسلاً من قبلك إلى أمم قد خلت من قبل أمتك، فجعلناهم بشراً مثلك لهم أزواج ينكحون، وذرية أنسلوهم، ولم نجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعل الرسول إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشراً مثلهم كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشراً مثلهم»[1].

**❖ من دلالات الآية:**

ودلت الآية الكريمة على «أنه إذا شرَّف الله تعالى شخصا بولايته، لم يضر

---

(١) «جامع البيان»: (١٣/١٦٥)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٣/٢٢)، «الكشاف»: (٢/٥٠٨)، «البحر المحيط»: لأبي حيان: (٥/٣٨٧)، «تفسير ابن كثير»: (٢/٥١٩)، «فتح القدير»: (٣/٨٨).



به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسط الدنيا له قدحاً في ولايته»[1].

- من قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ (يونس: ٢)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ (يوسف: ١٠٩)، (النحل: ٤٣)، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ (الأنبياء: ٧):

❖ في سببها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾...الآية (يونس: ٢)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٤٣): يعني أهل الكتب الماضية، أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة، فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ (يوسف: ١٠٩): ليسوا من أهل السماء كما قلتم»[2].

قال العلامة السعدي رحمه الله: «أي لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف

(١) «روح المعاني»: للألوسي: (١٧٨/١٣).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٥٧١/٢)، وانظر: «الدر المنثور»: (٣٤٠/٤).



الخلق، فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل؟ فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة»[1].

- وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الكهف: ١١٠)، و(فصلت: ٦).

❖ **في معناها:**

**أُمر ﷺ أن يقول لهم بأنه بشر، وليس إلهاً:**

- قال العلامة السعدي رحمه الله: «يا محمد قل للكفار وغيرهم: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾: أي لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ﴾ مِّثْلُكُمْ: عبد من عبيد ربي ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾: أي فضلت عليكم بالوحي الذي يوحيه إلي الذي أجله الإخبار لكم أنما إلهكم إله واحد أي لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه»[2].

وقال الشوكاني: «ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾: أي: إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم

---

(١) «تفسير السعدي»: (٤٦١).

(٢) «المصدر السابق»: (٥٦٣)، وانظر: «جامع البيان»: (١٦/٣٩)، «تفسير ابن كثير»: (٤/٩٣)، «فتح القدير»: (٤/٥٠٦)، «روح المعاني»: للألوسي (٢٤/٩٧).



إليه وفي آذانكم وقرٌ ومن بيني وبينكم حجاب، ولم أدعكم إلى ما يخالف العقل وإنما أدعوكم إلى التوحيد»[1].

- **ومن آيتي الفرقان: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾** (الفرقان: ٧)، **وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾** (الفرقان: ٢٠).

قال ابن الجوزي رحمه الله: «قوله تعالى: **﴿وَقَالُواْ﴾**: يعني المشركين، **﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾**: أنكروا أن يكون الرسول بشراً يأكل الطعام ويمشي في الطرق كما يمشي سائر الناس يطلب المعيشة، والمعنى: أنه ليس بملَك ولا ملِك؛ لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذل في الأسواق، فعجبوا أن يكون مساوياً للبشر لا يتميز عليهم بشيء، وإنما جعله الله بشراً ليكون مجانسا للذين أرسل إليهم، ولم يجعله ملكاً يمتنع من المشي في الأسواق؛ لأن ذلك من فعل الجبابرة، ولأنه أمر بدعائهم فاحتاج أن يمشي بينهم»[2].

- **من قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الأنبياء: ٣).**

قال السدي: «يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم»[3]، وقال السمعاني: «أنكروا إرسال

---

(١) «فتح القدير»: (٤/٥٠٦).

(٢) «زاد المسير»: (٦/٧٣).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم»: (٨/٢٤٤٤)، «الدر المنثور»: (٥/٦١٦).



البشر وطلبوا إرسال الملائكة»[1].

❖ **وفي الآيات التي ذكرت أن من أعراض بشريته ﷺ الموت، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤)، وقوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ (يونس: ٤٦):**

❖ **في المعنى:**

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنك يا محمد ميت عن قليل، وإن هؤلاء المكذبين من قومك، والمؤمنين منهم، ميتون»[2].

وقال: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وما خلدنا أحداً من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها، ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك من رسلنا، ﴿ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾، يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك؟ لا، ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكل حال عشت أو مت»[3].

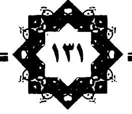
**وعند التدقيق والنظر في مجموع الآيات السابقة نجد أنه يمكن جمعها تحت نقطتين رئيستين:**

---

(١) «تفسير السمعاني»: (٣/٣٦٨).

(٢) «جامع البيان»: (٢٤/١).

(٣) «المصدر السابق»: (١٧/٢٤).



**١ - آيات ذكرت بعض خصائص ولوازم البشرية للنبي ﷺ، وأن له فيها سلف ممن سبقه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: كالزواج، والذرية، وأكل الطعام، والمشي في الأسواق، والرجولة، والموت.**

**٢ - تلقينه الرد عليهم بالتصريح بلفظ البشرية[1].**

وهاتان النقطتان بدورهما تمثلان ردود القرآن الكريم على شبهات المشركين التي زعموا، في إنكارهم رسالة النبي ﷺ متعللين ببشريته ﷺ، وهذه الردود فيها تسلية وتأنيس له ﷺ.

قال الشنقيطي رحمه الله: «والآيات التي كذبهم الله بها في دعواهم هذه الباطلة، وبين فيها أن الرسل يأكلون، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون ويولد لهم، وأنهم من جملة البشر، إلا أنه فضلهم بوحيه ورسالته، وأنه لو أرسل للبشر ملكاً لجعله رجلاً، وأنه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل عليهم ملكاً رسولاً؛ لأن المرسل من جنس المرسل إليهم: قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ** ﴾ (الفرقان: ٢٠)، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً** ﴾ (الرعد: ٣٨)، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا**

(١) وهذا على قراءة الجمهور: (قل سبحان ربي) على الأمر، وقرأ ابن كثير، وابن عامر وابن محيصن: (قال) أي محمداً ﷺ، انظر: «السبعة»: (٣٨٥)، «التيسير»: (١٤١)، «النشر»: (٣٠٨/٢)، «معجم القراءات»: (١٢١/٥).

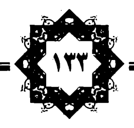
رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ (يوسف: ١٠٩): أي: ولم نجعلهم ملائكة؛ لأن كونهم رجالاً، وكونهم من أهل القرى، صريح في أنهم ليسوا ملائكة، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩)، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للكفار إنه بشر، وإنه رسول، وذلك لأن البشرية لا تنافي الرسالة كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ (الإسراء: ٩٣)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾...الآية (فصلت: ٦)، وبين جل وعلا أن الرسل قالوا مثل ذلك في قوله: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾...الآية (إبراهيم: ١١)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ (الإسراء: ٩٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧)»[1].

- **مسألة: لِمَ لَمْ يجب اللهُ تعالى الكفار إلى الأمور التي طلبوها والتي علقوا إيمانهم عليها؟**

**١ – طلبهم ملَكاً بدل البشر، يرده:**

---

(١) «أضواء البيان»: (١٨/٦).



**أ/ قوله تعالى:** ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩):

قال الرازي: «أي لجعلناه في صورة البشر، والحكمة فيه أمور:

أحدها: أن الجنس إلى الجنس أميل.

وثانيها: أن البشر لا يطيق رؤية الملَك.

وثالثها: أن طاعات الملائكة قوية، فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي.

ورابعها: أن النبوّة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكاً أو بشراً»[1].

**ب/ قوله تعالى:** ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٥):

قال الشنقيطي: «بين جل وعلا في هذه الآية أن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان مرسلاً رسولاً إلى الملائكة لنزل عليهم ملكاً مثلهم، أي: وإذا أرسل إلى البشر أرسل لهم بشراً مثلهم»[2].

**٢ – طلبهم أنواعا من المعجزات القاهرة**، كتفجير ينبوع من الأرض، أو أن يمتلك ﷺ جنة من نخيل وعنب ويفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو إسقاط

---

(١) «التفسير الكبير»: (١٢/١٣٤).

(٢) «أضواء البيان»: (٣/١٨٦).



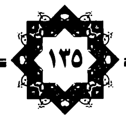
السماء عليهم قطعاً، أو معاينة الله ـ تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ـ وأصناف الملائكة قبيلة قبيلة ـ على أحد الأقوال في الآية[1] ـ أو يمتلك ﷺ بيتاً من ذهب، أو يرقى في السماء، إلى غير ذلك، والله تعالى قادر على كل شيء:

قال الشنقيطي: «وهذا التعنت والعناد العظيم الذي ذكره جل وعلا عن الكفار هنا بينه في مواضع أخر، وبين أنهم لو فعل الله ما اقترحوا ما آمنوا؛ لأن من سبق عليه الشقاء لا يؤمن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام: ٧)، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام: ١١١)، وقوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: ١٤ ـ ١٥)، وقوله: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٩)، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (يونس: ٩٦ ـ ٩٧)»[2].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزاً، وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ، فحينئذ تم الدليل على كونه نبياً صادقاً؛

(١) انظر: «فتح القدير»: (٣/٢٥٧).

(٢) «أضواء البيان»: (٣/١٨٤).



لأنا نقول إن محمداً ادعى النبوة، وظهرت المعجزة على وفق دعواه، وكل من كان كذلك فهو نبي صادق، فهذا يدل على أن محمداً ﷺ صادق، وليس من شرط كونه نبياً صادقاً تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها؛ لأنا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهي الأمر فيه إلى مقطع، وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزاً آخر، ولا ينتهي الأمر فيه إلى حد ينقطع عنده عناد المعاندين، وتغلب الجاهلين؛ لأنه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعد أن ظهر كون القرآن معجزاً التمسوا من الرسول ﷺ ستة أنواع من المعجزات القاهرة، كما حكي عن ابن عباس: (أن رؤساء أهل مكة أرسلوا إلى الرسول ﷺ وهم جلوس عند الكعبة، فأتاهم، فقالوا: يا محمد، إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها، وفجر لنا فيها ينبوعاً - أي نهراً وعيوناً - نزرع فيها، فقال: لا أقدر عليه، فقال قائل منهم: أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، فقال: لا أقدر عليه، فقيل: أو يكون لك بيت من زخرف - أي من ذهب - فيغنيك عنا، فقال: لا أقدر عليه، فقيل له: أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك؟ فقال: لا أستطيع، قالوا: فإذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً - أي قطعاً بالعذاب -»[1] إلى آخر القصة.

---

(١) «التفسير الكبير»: (٢١/٤٧).



وقال في موضع آخر: «تقرير هذا الجواب[1] أن يقال: إما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح: أنكم طلبتم الإتيان من عند نفسي بهذه الأشياء، أو طلبتم مني أن أطلب من الله تعالى إظهارها على يدي لتدل على كوني رسولاً حقاً من عند الله، والأول: باطل؛ لأني بشر، والبشر لا قدرة له على هذه الأشياء، والثاني: أيضاً باطل؛ لأني قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهي القرآن والدلالة على كونها معجزة فطلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة إليه ولا ضرورة، فكأن طلبها يجري مجرى التعنت والتحكم، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على الله... فثبت أن قوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ (الإسراء: ٩٣) جواب كاف في هذا الباب»[2].

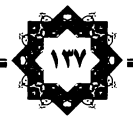
٣ – قرر القرآن الكريم ـ إزاء تعنتهم ـ حفاوة الرحمن الرحيم بنبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ (الفرقان: ١٠)، «فأخبر أنه لو شاء لأعطاه خيرا مما قالوا في الدنيا، وهو قوله خيرا من ذلك، يعني: لو شئت لأعطيتك في الدنيا خيرا مما قالوا؛ لأنه قد شاء أن يعطيه ذلك في الآخرة»[3].

---

(١) يعني: الجواب عن تعنتاتهم.

(٢) «التفسير الكبير»: (٥٠/٢١).

(٣) «زاد المسير»: (٧٥/٦).



**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

- **من قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾** (الإسراء: ٩٣):

**١ – فيها تنزيه لله تعالى عن الإجابة على تعنتات الكافرين، قال البغوي** رحمه الله: «أمره بتنزيهه وتمجيده، على معنى أنه لو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل، ولكن الله لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر، وما أنا إلا بشر وليس ما سألتم في طوق البشر، واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل: القرآن، وانشقاق القمر، وتفجير العيون من بين الأصابع، وما أشبهها»[1].

٢ – في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾!! أسلوب تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم.

٣ – في قوله: ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾:

أ/ يظهر تواضع نبينا ﷺ ـ وسيأتي بيان ذلك عند الكلام على الأسلوب في قوله: (إنما أنا بشر مثلكم) ـ.

ب/ أردف وصف البشرية بوصف الرسالة «لنفي أن يأتي بذلك بقدرة نفسه، كأنه قال: (هل كنت إلا بشراً)، والبشر لا قدرة له على الإتيان بذلك، وذَكَرَ: (رسولا): لنفي أن يأتي به إلا بقدرة الله تعالى، كأنه قيل: هل كنت إلا

(١) «معالم التنزيل»: (١٣٧/٣).

رسولاً والرسول لا يتحكم على ربه سبحانه»[1].

٤ – في قولهم مما حكاه الله عنهم في القرآن: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٤):

أ/ عبر عنه بالقول فقال: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ ﴾، ولم يقل: (إلا أن بعث الله بشراً رسولا):

قال أبو السعود: «وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضاً آخر منهم، بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم، وإنما عبر عنه بالقول: إيذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق، وحَصَرَ المانع من الإيمان فيما ذكر، مع أن لهم موانع شتى: لأنه معظمها أو لأنه هو المانع بحسب الحال، أعني عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ إذ هو الذي يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه إيذان بكمال عنادهم، حيث يشير إلى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئاً إلى الإيمان يعكسون الأمر ويجعلونه مانعاً منه»[2].

ب/ قال سبحانه في آية أخرى قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

(١) «روح المعاني» للألوسي: (١٥/١٦٩).

(٢) «تفسير أبي السعود»: (٥/١٩٦)، وانظر: «فتح القدير»: (٣/٢٦٠).



(الكهف:٥٥) فحصر تعالى أسباب منعهم من الإيمان في هذين الأمرين، وهنا حصر المنع في بعث الله بشرا رسولا، **والجمع بينهما كالتالي:**

أن معنى قوله تعالى: «﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾: إلا إرادة الله أن تأتيهم سنة الأولين، من نحو الخسف، أو يأتيهم العذاب قبلاً في الآخرة، ولا شك أن إرادة الله تعالى مانعة من وقوع ما ينافي المراد، فهذا حصر في السبب الحقيقي، ومعنى الثانية: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾: إلا استغراب بعثة البشر رسولاً، وهو مدلول القول التزاماً، والدال لا يناسب المانعية، والمدلول ليس مانعاً حقيقياً، بل عادي؛ لجواز وجود الإيمان معه، فهو حصر في المانع العادي فلا تناقض»[1].

- **من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾** (الكهف: ١١٠)، (فصلت: ٦).

١ – صرح لنفسه ﷺ بصفة البشرية؛ لأنهم طلبوا منه مالا يقدر عليه البشر.

٢ – فيها «أسلوبُ قصرٍ إضافي، أي: لا أقول لكم إني ملك، وإنما أنا رجل من البشر»[2].

٣ – فيها الإشارة إلى تواضعه ﷺ «قال ابن عباس: علَّم الله تعالى رسوله

(١) «روح المعاني» للألوسي: (٣٠/١).

(٢) انظر: «أضواء البيان»: (٩/٧).



التواضع لئلا يزهى على خلقه، فأمره أن يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره، إلا أنه أكرم بالوحي»[1].

٤ – في قوله تعالى: (مثلكم)، ولم يقل (منكم) كما ذكر عنه في آيات أخر؛ وذلك ليتضمن الإخبار بمماثلتهم في الصفات البشرية، ولكن الله فضله بالوحي.

**- من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧):**

١ – حكى الله تعالى عنهم أسلوب التهكم والسخرية بالنبي العظيم ﷺ، وإنما سموه رسولا استهزاء به ﷺ[2].

٢ – الاستفهام للاستنكار قال الشوكاني: «وما الاستفهامية: في محل رفع على الابتداء، والاستفهام: للاستنكار، وخبر المبتدأ: (لهذا الرسول)، وجملة (يأكل): في محل نصب على الحال، وبها تتم فائدة الإخبار»[3].

**- من قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَـٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤):**

١ – نفي الخلد عنه ﷺ؛ لأنه بشر، والخلد منفي عن أي بشر قبله بدلالة

---

(١) «زاد المسير»: (٥/٢٠٢).

(٢) انظر: «تفسير السعدي»: (٦٧٥).

(٣) «فتح القدير»: (٤/٦٣).



قوله تعالى: ﴿لِبَشَرٍ﴾، فهي «نكرة في سياق النفي، فهي تعم كل بشر، فيلزم من ذلك نفي الخلد عن كل بشر من قبله»[1].

٢ – فيها أسلوب الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ و«معناه: النفي، والمعنى أنك إن مت فهم لن يخلدوا بعدك بل سيموتون، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (الأنبياء: ٣٥)»[2].

٣ – أدخلت الفاء على الاستفهام: (أفإن مت)، وعلى الجواب: (فهم الخالدون): قال الطبري رحمه الله: «أدخلت الفاء في (إن) وهي جزاء، وفي جوابه؛ لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت أيضاً في قوله (فهم): لأنه جواب للجزاء، ولو لم يكن في قوله: (فهم) الفاء: جاز على وجهين: أحدهما: أن تكون محذوفة وهي مرادة، والآخر أن يكون مراداً تقديمها إلى الجزاء، فكأنه قال: أفهم الخالدون إن مت؟»[3].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

كثيراً ما يُذَكِّر النبي ﷺ أصحابه بكونه بشراً، وأنه مثلهم، وأنه يعرض له ما يعرض للبشر من النسيان، والغضب، والرضا، ومن ذلك:

❖ قوله ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت

(١) «أضواء البيان»: (٣/٣٢٨).

(٢) «المصدر السابق»: (٤/١٤٥).

(٣) «جامع البيان»: (١٧/٢٤).



فذكروني»(1) الحديث.

قال ابن حجر في الفتح: «في قوله ﷺ: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون»: فأثبت العلة قبل الحكم، وقيد الحكم بقوله: «إنما أنا بشر»، ولم يكتف بإثبات وصف النسيان، حتى يدفع قول من عساه أن يقول: ليس نسيانه كنسياننا، فقال: «كما تنسون»»(2).

❖ قوله ﷺ لأم سليم رضي الله عنها: «أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي، فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهوراً، وزكاة، وقربة يقربها بها منه يوم القيامة»(3).

❖ عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»(4).

قال النووي: «وقوله ﷺ: «إنما أنا بشر» معناه: التنبيه على حالة

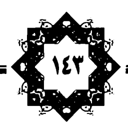
---

(1) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، (1/156/ح 392)، واللفظ له، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، (1/400/ح 572).

(2) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، (6/2622/ح 6748)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب القضاء باليمين الشاهد، (3/1337/ح1713).

(3) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ، (4/2009/ح2603).

(4) «فتح الباري»: (3/101).



البشرية، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئاً إلا أن يطلعهم الله تعالى على شيء من ذلك، وأنه يجوز عليه في أمور الأحكام ما يجوز عليهم، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر والله يتولى السرائر»[١].

❖ قوله ﷺ: «فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب»[٢].

فقوله ﷺ: ««إنما أنا بشر يوشك»: أي يسرع، «أن يأتي رسول ربي»: ملك الموت يدعوني، (فأجيب): أي أموت، كنى عنه بالإجابة رمزاً إلى أن اللائق به تلقيه بالقبول، كالمجيب إليه باختياره)»[٣].

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

ـ الرسول البشر ﷺ لم تثنه بشريته عن البلاغ والجهاد والدعوة والرسالة وتنفيذ أمر ربه، فمهما بلغ البشر من أعلى المنازل والرتب، فلن يكونوا أفضل من محمد ﷺ، الذي لم يدخر وسعاً في دعوته لله جل وعلا.

ـ بشرية الرسول ﷺ تذكرنا بمن وقع في دائرة الغلو في شخصه الكريم ﷺ وخاصة في التبرك به بعد مماته أو في المديح ووصفه بصفات لا تصلح إلا في حق الله جل وعلا، كما يفعل غلاة الصوفية ومن حذا حذوهم والعياذ بالله.



(١) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (١٢/٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي ابن أبي طالب ﷺ، (١٨٧٣/٤/ح٢٤٠٨).

(٣) «التيسير بشرح الجامع الصغير»: للمناوي: (٢٣٣/١).

# المبحث الثالث

# الحيـــــاء

## المبحث الثالث

## الحياء

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الحياء:

الحياء له إطلاقات عدة، ومنها: أنه الحشمة، وضد الوقاحة:

فقال ابن فارس: «(حَيَيَ) الحاء والياء والحرف المعتل أصلان:

أحدهما: خلاف الموت، والآخر: الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة... والأصل الآخر قولهم استحييت منه استحياء»[1].

و«الحياء انقباض النفس من شيء وتركه حذرا عن اللوم فيه وهو نوعان:

نفساني: وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلها كالحياء من كشف العورة والجماع بين الناس، وإيماني: وهو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفا من الله تعالى»[2].

**❖ وصف النبي ﷺ بصفة الحياء في:**

- قوله تعالى: **﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾** (الأحزاب: ٥٣).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٢٢/٢).

(٢) «التعريفات» للجرجاني: (١٢٦/١).



## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

❖ **في سببها:**

نزلت الآية لبيان الأدب في الزيارة مع رسول الله ﷺ خاصة، ومع غيره عامة، فقيل في نزولها أسباب عدة[1]، منها «أن الصحابة كانوا يدخلون بيوت النبي بغير إذن وينتظرون إدراك الطعام، فإذا فرغوا من الطعام، جلسوا يتحدثون، وأطالوا الجلوس، وكان النبي ﷺ يتأذى بهم ويستحي منهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وعلمهم هذا الأدب بينهم وبين النبي ﷺ»[2].

❖ **وفي أمر استحياء النبي ﷺ ثلاثة أقوال:**

**الأول:** وعليه الجمهور: أنه ﷺ كان يستحيي **من إخراجهم** من بيته[3].

**الثاني:** أن استحياء النبي ﷺ في هذه الآية إنما كان **من ذواتهم** لا من فعل الإخراج نفسه، ذكره الألوسي معللاً ذلك بتصدير الفعل بأداة التعليل، فقال: «إن قوله تعالى: ﴿ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ﴾ تعليل لمحذوف دل عليه السياق أي: ولا

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٦/٤١٣).

(٢) «تفسير السمعاني»: (٤/٣٠٠)، والحديث أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ ﴾، (١/٢٥٤/ح ٤٧٩١).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٤/٤١٨)، «تفسير البيضاوي»: (٤/٣٨٣)، «تفسير النسفي»: (٣/٣١٣)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٣/١٤٣)، «تفسير أبي السعود»: (٧/١١٢)، «فتح القدير»: (٤/٢٩٨)، «تفسير السعدي»: (٧٨٧).

يخرجكم فيستحيي منكم ولذلك صدر بأداة التعليل، ولو كان المعنى: يستحيي من إخراجكم، لكان حقه أن يصدر بالواو»[1].

**الثالث**: أنه ﷺ كان يستحيي **من منعهم** من الدخول بدون إذنه قال ابن كثير: «وقيل المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ** ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه»[2].

❖ فالقولان الأولان في نظري متداخلان يكمل بعضهما الآخر، فهو ﷺ يستحيي منهم إذا أخرجهم، كما يستحي من أن يخرجهم؛ لأن ذات الفعل ليس من شيم الكرماء، ثم إنه لا تضاد بين هذه الأقوال؛ لأنه ﷺ كان يستحيي من كل هذه الأمور: من منعهم بالدخول بغير إذنه، ومنهم، ومن إخراجهم من بيته بعد أن يطعموا، والله أعلم.

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

### ١ – ربط الله تعالى استحياء النبي ﷺ في الآية بأمور:

أ/ سبقه بالاستئذان: في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ** ﴾ (الأحزاب:٥٣)، وعموم الاستئذان مرتبط بمعنى الحياء عموماً.

(١) «روح المعاني» للألوسي: (٧١/٢٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٥٠٦/٣).

ب/ وقرنه بإيذائه ﷺ : أي أن دخولهم بدون إذن، أو إخراجهم من بيته، كان مؤذياً له، ومع ذلك كان ﷺ يحتمل على نفسه لعدم إحراج أحد من أصحابه والخروج عن شيم الكرماء.

ج/ وأتبعه بالأمر بالحجاب: والحجاب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بصفة الحياء أيضاً.

وأعني بارتباط هذه الأمور: الارتباط العام بجامع صفة الحياء في كل منها، لا باستحياء النبي ﷺ على وجه الخصوص.

**٢ – في قوله تعالى: ﴿ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾** (الأحزاب: ٥٣):

أ/ الإتيان بالفعل الماضي الناسخ (كان): فيه إيذان بأن لا يتكرر هذا الفعل منكم، وأنه كان في الماضي، ولم يجعله بالمضارع المجرد: (إن ذلكم يؤذي النبي) لئلا يدل على الدوام والاستمرار.

ب/ تصريحه سبحانه بلفظ (النبي) أبلغ في إكرامه وحفاوة ربه به، كما أنه أبلغ في زجرهم عن إيذائه بذلك ﷺ مما لو ذكر بالضمير: (إن ذلكم كان يؤذيه).

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

١ – «تضمنت الآية تنويهاً بخلق من أخلاق النبي ﷺ وهو الحياء، والصبر على ما يؤذي نفسه من أصحابه، وتجنبه كسر قلوبهم، وجرح عواطفهم، وهذا من أعظم الأخلاق وأكرمها، وخاصة في الدعاة الهداة»[1].

(١) «سيرة الرسول ﷺ» لمحمد عزة دروزة: (١/٥٢).



٢ – منذ صغره ﷺ كان حيياً «فكان يوضع الطعام له وللصبية من عيال أبي طالب، فيتطاولون إليه ويتقاصر هو، وتمتد أيديهم وتنقبض يده، تكرماً منه، ونزاهة نفس، وقناعة قلب، فيصبحون غمصاً رمصاً، مصفرة ألوانهم، ويصبح هو صقيلاً كأنه في أنعم عيش، وأعز كفاية، لطفاً من الله ﷻ به»(١).

٣ – أنه ﷺ كان أشد الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاءً، فعن أبي سعيد الخدري(٢) رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها»(٣).

٤ – عن عائشة رضي الله عنها: «أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل قال: «خذي فرصة من مسك فتطهري بها»، قالت: «كيف أتطهر»؟ قال: «تطهري بها»! قالت: «كيف»؟ قال: «سبحان الله! تطهري» فاجتذبتها إلي، فقلت: تتبعي بها أثر الدم»(٤).

---

(١) «الروض الأنف» لابن هشام: (٢٩٧/١).

(٢) هو: سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو سعيد الخدري مشهور بكنيته استصغر بأحد واستشهد أبوه بها وغزا هو ما بعدها روى عن النبي ﷺ الكثير. انظر: «الإصابة»: (٧٨/٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، (١٣٠٦/٣/ح ٣٣٦٩)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، (١٨٠٩/٤/ح٢٣٢٠).

(٤) رواه البخاري، كتاب الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من الحيض، (١١٩/١/ ح ٣٠٨)، ومسلم، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم، (٢٦٠/١/ح٣٣٢).

٥ – ولم يكن حياؤه ﷺ يثنيه عن بيان حكم الشرع، وهو في أثناء ذلك متحلٍ بالحياء:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءت امرأة رفاعة القرظي[(١)] رسولَ الله ﷺ وأنا جالسة وعنده أبو بكر، فقالت: يا رسول الله: إني كنت تحت رفاعة فطلقني، فبتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَّبِير[(٢)]، وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة ـ وأخذت هدبة من جلبابها ـ فسمع خالد بن سعيد[(٣)] قولها وهو بالباب لم يؤذن له، قالت: فقال خالد: يا أبا بكر ألا تنهى

(١) «قال ابن حجر: «رِفاعة بن سَمَوْأل القرظي، له ذكر في الصحيح من حديث عائشة»: «الإصابة في تمييز الصحابة»: (٢/٤٩١). وامرأة رفاعة هي: تميمة بنت وهب، قال ابن حجر: «تميمة بنت وهب لا أعلم لها غير قصتها مع رفاعة من سموأل حديث العسيلة من رواية مالك في الموطأ كذا قال ابن عبد البر وقال ابن منده تميمة بنت أبي عبيد امرأة رفاعة القرظي»: «الإصابة في تمييز الصحابة»: (٧/٥٤٥).

(٢) قال ابن حجر: «عبد الرحمن بن الزبير: بفتح الزاي وكسر الموحدة بن باطيا القرظي، من بني قريظة، ويقال: هو ابن الزبير بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس، كذا ذكره ابن منده، فيحتمل أن يكون نسب إلى زيد بالتبني؛ لصنيع الجاهلية، وإلا فالزبير بن باطيا معروف في بني قريظة، ثبت ذكره في الصحيحين من حديث عائشة»: «الإصابة في تمييز الصحابة»: (٤/٣٠٥).

(٣) قال الصفدي: «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو سعيد القرشي الأموي، قديم الإسلام أسلم ثالثا أو رابعا أو خامسا ورسول الله ﷺ يدعو سرا وكان يلزم النبي ﷺ ويصلي في نواحي مكة خاليا فبلغ أباه فضيق عليه بالضرب والحبس والجوع ثم انفلت منه مهاجرا إلى الحبشة في الهجرة الثانية فأقام بها حتى قدم على النبي ﷺ بخيبر مع أصحاب جعفر=

هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ؟ فلا والله ما يزيد رسول الله ﷺ على التبسم، فقال لها رسول الله ﷺ: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك، وتذوقي عسيلته» فصار سنة بعد»[(1)].

فنجده مع حيائه ﷺ وأنه لا يزيد على تبسمه من قولها، إلا أنها لما كانت خصومة، وكان هو الحاكم، وكان لابد من بيان ما لابد منه صرح بذلك ﷺ، قال العيني: «والجهر هو المعقول في القول إلاَّ أن يكون في حق لا بد له من البيان عند الحاكم والله أعلم»[(2)]، وفيه أيضاً حياء خالد بن سعيد رضي الله عنه من قولها.

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

١ – صفة الحياء لابد وأن تكون ملازمة لكل طالب وطالبة علم، ما عدا الحياء المذموم، وهو الذي يمنع طالب العلم من السؤال استحياءً، «فقد ذكر البخاري عن مجاهد قال: «لا ينال العلم مستحيي ولا مستكبر»، وقال عمر بن الخطاب: «من رق وجهه دق علمه»، وقالت عائشة: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار

---

=فأسهم لهم رسول الله ﷺ من خيبر وشهد مع النبي ﷺ بعد ذلك المشاهد وبعثه رسول الله ﷺ عاملا على صدقات اليمن فتوفي رسول الله ﷺ وهو على ولايته... وكان خالد وسيما جسيما وقال ابن سعد وليس لخالد بن سعيد اليوم عقب وقتله سنة ثلاث عشرة للهجرة»: «الوافي بالوفيات»: (١٣/١٥٢ ـ ١٥٣).

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب الإزار المهدب، (٥/٢١٨٣/ح ٥٤٥٦) واللفظ له، ومسلم، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة حتى تنكح زوجاً غيره... (٢/١٠٥٥/ح١٤٣٣).

(٢) «عمدة القاري» للعيني: (١٣/١٩٨).



لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[1].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم[2] إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت»؟ قال النبي ﷺ: «إذا رأت الماء»، فغطت أم سلمة ـ تعني وجهها ـ وقالت: «يا رسول الله، وتحتلم المرأة»؟ قال: «نعم تربت يمينك، فيم يشبهها ولدها»[3].

٢ – على المسلم والمسلمة إذا لم يمنعهما تقوى الله تعالى من المجاهرة بالمعصية فليمنعهما الحياء على الأقل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[4].

وقِسْ على ذلك مجاهرة الرجال بالتدخين، وحلق اللحى، والإسبال، ونحو ذلك من المنكرات الظاهرة، ومجاهرة النساء بالتبرج، واللباس الفاضح،

---

(١) «تدريب الراوي» للسيوطي: (١٤٧/٢).

(٢) قال ابن حجر: «العميصاء بنت ملحان الأنصارية، قيل: هي أم سُلَيم، والدة أنس، وهي مشهورة بكنيتها، قال أحمد في مسنده حدثنا يحيى هو القطان حدثنا حميد عن أنس عن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقلت: ما هذا؟ فقال: العميصاء بنت ملحان»: «الإصابة في تمييز الصحابة»: (٤٥/٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم...، (٦٠/١/ح ١٣٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، (٢٥١/١/ح٣١٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، (٢٢٥٤/٥/ح ٥٧٢١).

وانتشاره حتى في المجتمعات المحافظة، فليتقين الله، وليتمثلن بخلق نبيهن ﷺ فيستحيين فيسترن ما أمر الله بستره.

٣ – إن صفة الحياء لا بد وأن تكون رادعة للمؤمن والمؤمنة عن فعل المعاصي والمنكرات، فقد قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[١].

«وفيه أوجه:

أحدها: إذا لم تستح من العتب ولم تخش العار فافعل ما تحدثك به نفسك حسناً كان أو قبيحاً، ولفظه أمر، ومعناه توبيخ.

الثاني: أن يُحملَ الأمر على بابه، تقول: إذا كنت آمناً في فعلك أن تستحي منه لجريك فيه على الصواب، وليس من الأفعال التي يُستحى منها: فاصنع ما شئت.

الثالث: معناه الوعيد، أي: افعل ما شئت، تجازى به، كقوله ﷻ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ (فصلت: ٤٠).

الرابع: لا يمنعك الحياء من فعل الخير.

الخامس: هو على طريق المبالغة في الذم، أي تركك الحياء أعظم مما تفعله»[٢].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت، (٥/٢٢٦٨/ح ٥٧٦٩).

(٢) «عمدة القاري» للعيني: (١٦/٦٤).

٤ – لابد من وضع قوله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[1] بؤرة اهتمامنا ليقودنا إلى كل خير، ومن ألطف ما يذكر في هذا قول أبي سفيان رضي الله عنه قبل أن يسلم، لما مثل بين يدي هرقل، وأشهد أصحابه على قوله، قال: «فو الله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه»[2]، فصرح بأن ما منعه إلا الحياء، وانظر إلى ماترتب على صدقه جراء حيائه من خير عميم.



---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، (٥/٢٢٦٧/ح ٥٧٦٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان... (١/٦٤/ح٣٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (١/٧/ح ٧).

# المبحث الرابع

# الخلق العظيم

## المبحث الرابع
## الخلق العظيم

### أولاً: المعنى اللغوي للصفة:

#### ١ - المعنى اللغوي للخُلُق:

يتضح لنا من كلام اللغويين أن الخُلُق هو الطبيعة، والسجية.

قال ابن فارس: «(خلق) الخاء واللام والقاف أصلان:

أحدهما: تقدير الشيء، والآخر: ملاسة الشيء فأما الأول... ومن ذلك الخُلُق: وهي السجية لأن صاحبه قد قدر عليه»[(١)].

وقال ابن سيده: «والخُلْقُ والخُلُقُ: الخَلِيقَةُ، أعني الطبيعة، وفي التنزيل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)»[(٢)].

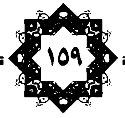
وفي حقيقته يقول ابن منظور: «الخُلُق بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته: أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة»[(٣)].

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/٢١٤).

(٢) «المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده: (٤/٥٣٦).

(٣) «لسان العرب»: (١٠/٨٦).



**٢ – العظيم:**

**وصفٌ يدل على الكِبَر والقوة.**

يقول ابن فارس: «(عظم): العين والظاء والميم: أصل واحد صحيح، يدل على كبر وقوة، فالعِظَمُ مصدر الشيء العظيم»(١).

ويقول ابن منظور: «و العظم: خلاف الصغر، عظم يعظُمُ عِظَماً وعَظَامَةً: كَبُرَ، وهو عظيم وعظام، وعِظَمُ الأمر: كبره، وأَعظَمَه واستَعْظَمَه: رآه عظيماً»(٢).

**❖ وصف النبي ﷺ بصفة الخلق العظيم في:**

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

**❖ في معناها:**

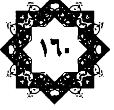
لقد تنوعت عبارات السلف في معنى: (الخلق العظيم) الذي وصف به ﷺ على أقوال:

**١ – قيل بأنه: القرآن أو أدب القرآن،** وبه قالت: عائشة(٣)،

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/٣٥٥).

(٢) «لسان العرب»: (١٢/٤١٠).

(٣) فيما أخرجه الطبري في: «جامع البيان»: (٢٩/١٨)، وذكره السيوطي في: «الدر المنثور»: (٨/٢٤٣)، وانظر: «تفسير السمعاني»: (٦/١٨)، «معالم التنزيل»: (٤/٣٧٥)، «زاد=



وعلي[1]، والحسن[2] رضي الله عنهم.

**٢ - وقيل: أي دينٌ عظيم، وهو دين الإسلام، أي دين عظيم من الأديان ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه:** وبه قال ابن عباس[3] رضي الله عنهما، ومجاهد[4]، والضحاك[5]، والسدي[6]، وزيد بن أسلم[7]، والربيع بن أنس[8]، ومقاتل[9]، وابن زيد[10].

---

=المسير»: (٣٢٨/٨)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٧/١٨)، «تفسير النسفي»: (٢٦٨/٤)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (١٣٧/٤)، «تفسير أبي السعود»: (١٢/٩)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤)، «المحرر الوجيز»: (٣٦٦/٨)، «تفسير البيضاوي»: (٣٦٩/٥)، «روح المعاني» للألوسي: (٢٥/٢٩)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(١) انظر: «المحرر الوجيز»: (٣٦٦/٨)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٧/١٨).

(٢) انظر: «معالم التنزيل»: (٣٧٥/٤)، «زاد المسير»: (٣٢٨/٣٨)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(٣) فيما أخرجه الطبري: (١٨/٢٩)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٣٧٥/٤)، «زاد المسير»: (٣٢٨/٨)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٧/١٨)، «المحرر الوجيز»: (٣٦٦/٨).

(٤) فيما أخرجه الطبري: (١٨/٢٩)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٣٧٥/٤)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٧/١٨)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤)،.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤).

(٦) انظر: «تفسير السمعاني»: (١٨/٦)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤).

(٧) انظر: «تفسير السمعاني»: (١٨/٦).

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤).

(٩) انظر: «بحر العلوم»: (٤٥٩/٣).

(١٠) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤).



**٣ – وقيل: ما كان يأتمر به ﷺ من أمر الله تعالى:** وبه قال: قتادة[١].

**٤ – وقيل: رفقه ﷺ بأمته، وإكرامه إياهم[٢].**

❖ وعند التأمل في الأقوال السابقة، نجد أن اختلافها يدخل تحت تنوع العبارة لا التضاد؛ ذلك أن القولين الأول والثاني كليهما مكمل للآخر فالقرآن من الدين والدين من القرآن، ثم إن جُعلا شيئاً واحداً فإن القولين الثالث والرابع ينطويان تحته (أي تحت الدين والقرآن).

قال ابن القيم ﷺ: «وسمى الدين خلقاً؛ لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكى الأخلاق وأشرفها، وأفضلها فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له، وتبيينا، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد في إقامته، فترجمت أم المؤمنين؛ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: (كان خلقه القرآن) وفهم

---

(١) انظر: «معالم التنزيل»: (٣٧٥/٤)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي»: (٢٢٧/١٨)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

هذا السائل لها عن هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى»[١].

وقال ابن رجب في حديث عائشة رضي الله عنها: «يعني أنه يتأدب بآدابه، فيفعل أوامره ويتجنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلقاً كالجبلة والطبيعة، لا يفارقه، وهذا من أحسن الأخلاق وأشرفها وأجملها، وقد قيل إن الدين كله خُلُق»[٢].

**❖ مسألة: أثبت الله تعالى لنبيه كمال خلقه، بينما في سورة عبس عاتبه بعبوسه في وجه عبد الله ابن أم مكتوم فكيف الجمع بينهما؟**

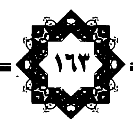
«الذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لا يتأتى معه لأنه ﷺ لم يتكلم بما يسيء إلى هذا الصحابي في نفسه بشيء يسمعه فيزعجه، كل ما كان منه ﷺ إنما هو تقطيب الجبين وهذه حركة مرئية لا مسموعة، والحال أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة فكأنه لم يلق إساءة منه ﷺ.

ثم إنه ﷺ مطمئن له لما هو عليه من خير في دينه كما قال في حنين وأوكل أقواماً إلى ما في قلوبهم، أي لما أعطى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار كما هو معروف في القصة، فلم يعاتبه الله على ذلك ورضي الأنصار وبكوا فرحاً ورضاً.

ثم إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح يكاد يكون جبلياً مما كان منه ﷺ فهو من باب الجبلية تقريباً كأن المثير له غرض عام من خصوص

(١) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم: (١/١٣٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم»: (١/٢٥٣).



الرسالة ومهمتها... وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران:

الأول: التسامي بأخلاقه ﷺ إلى ما لا نهاية له إلى حد اللحظ بالعين والتقطيب بالجبين ولو لمن لا يراه كما قال ﷺ: «ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين» وذلك في صلح الحديبية[1].

والثاني: تأديب للأمة، وللدعاة خاصة، في شخصية رسول الله ﷺ كما علمهم في شخصيته في بر الوالدين في قوله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (الإسراء: ٢٣)»[2].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

**١ - جاءت هذه الآية العظيمة في معرض الرد على الكفار الذين اتهموه ﷺ بالجنون ونحوه، رداً يُعجِز أرباب العقول وأساطين العربية: فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾:**

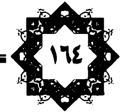
أ/ فنفى عنه الجنون ثم أيد وأكد هذا النفي بأقوى إثبات، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)؛ لأن المجنون سفيه لا يعني ما يقول ولا يحسن أي تصرف والخلق العظيم أرقى منازل الكمال في عظماء الرجال[3].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، (١٥٤١/ح٤٣٥٩) بلفظ: «إنه لا ينبغي» بدل: «ما كان»، والحاكم في المستدرك، (٤٧/٣/ح٤٣٦٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٢) «أضواء البيان»: (٤٣١/٨ ـ ٤٣٢).

(٣) «المصدر السابق»: (٢٤٦/٨).



ب/ جاءت عطفاً على جواب القسم: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (القلم: ٢)، وفيها تنزيهه ﷺ وافتضاح لهم، وبيان الفرق الشاسع بينه وبينهم، فوصفه بأنه على خلق عظيم، ووصفهم بعكس ذلك بعشر خصال ذميمة، ونتيجتها الوسم بالخزي على الأنوف صغاراً لهم والعياذ بالله[1].

ج/ جاءت مفسرة لسابقتها، قال الرازي في الآية: «اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله: ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون، بأن ذلك كذب وخطأ؛ وذلك لأن الأخلاق الحميدة، والأفعال المرضية، كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال، لم يجز إضافة الجنون إليه؛ لأن أخلاق المجانين سيئة»[2].

**٢ – أكد الله تعالى هذه الصفة بمؤكدات كثيرة:**

أ/ وقوعه في جواب القسم.

ب/ (إنَّ) المؤكدة.

ج/ إبراز كاف الخطاب تشريفاً له وتنويهاً بشأنه.

د/ لام الابتدء.

**٣ – في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَىٰ ﴾:**

**أ/ (اللام)**: وهي لام الابتداء، حيث جاءت مؤكدة مضمون الجملة[3].

---

(١) انظر: «أضواء البيان»: (٨/٢٥٣).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٣٠/٧١).

(٣) انظر: «الإتقان»: (١/٤٩٧-٤٩٩).

ب/ (على):

«كلمة (على) للاستعلاء، فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور»(١)، كما أنها «مشعرة باستعلائه على معالي الأخلاق، واستيلائه عليها، فلم يصل إليها مخلوق، وكمال الخلق إنما ينشأ عن كمال العقل؛ لأنه الذي تقتبس به الفضائل، وتُجَنَّب الرذائل»(٢).

وقال ابن عاشور: «و(على): للاستعلاء المجازي المراد به التمكن، كقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ ﴾ (البقرة:٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل:٧٩)، ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الزخرف:٤٣)»(٣).

وذلك خلافاً لما لو قال: وإنك (لذو، أو لصاحب) خلق عظيم، فليُتأمل هذا.

٤ – في قوله تعالى: ﴿ خُلُقٍ ﴾:

لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير(٤).

٥ – في قوله تعالى: ﴿ عَظِيمٍ ﴾:

أكد سبحانه هذا التعظيم بعد التلميح بالتصريح، وذلك بوصف العظمة

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٧١/٣٠)، وانظر: «تفسير السعدي»: (١٠٤٢).

(٢) «فيض القدير»: (٧١/٥).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٦٣/٢٩).

(٤) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم: (١٣٥/١).

لخُلُقِه ﷺ فقال: ﴿ عَظِيمٍ ﴾، قال الثعالبي[1]: «ولا عظيم أعظم ممن عظمه الله كما أنه لا صغير أصغر ممن صغره الله، فأي ممدوح أعظم وأفخر وأسنى وأكبر، من ممدوحٍ مادحُه: الله، وناقلُ مديحِه، وراويةُ كلامِه: جبريل، والممدوح: محمد ﷺ»[2].

- مسألة: لِمَ وصف الله تعالى خلقه بقوله: (عظيماً)؟

أ/ ذكر العلماء في ذلك نكتاً عدة، فمن ذلك:

❖ قيل: «سمى خلقه عظيماً؛ لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى، عاشر الخلق بخلقه، وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق»[3].

❖ «وقيل: سمى خلقه عظيماً؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه»[4].

❖ وقيل: لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)[5].

---

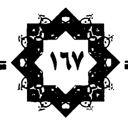
(١) هو: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، أديب، ناثر، ناظم، لغوي، من تصانيفه: «فقه اللغة وسد العربية»، و«تسمية الدهر في محاسن أهل العصر»، و«ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»، توفي سنة ٤٢٩هـ، انظر: «معجم المؤلفين»: (٢/ ٣٢١).

(٢) «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» للثعالبي: (١/ ١٥).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٣٦٦)، «تفسير القرطبي»: (١٨/ ٢٢٧).

(٤) «تفسير القرطبي»: (١٨/ ٢٢٧).

(٥) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٨/ ٢٢٧)، «معالم التنزيل»: (٤/ ٣٧٥)، «الكشاف»: (٤/ ٥٩٠)، «تفسير النسفي»: (٤/ ٢٦٨).



❖ وقيل: لكمال أخلاقه ﷺ، قال الرازي: «ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة ولهذا قال: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص:٨٦) أي لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقي لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطبع[(١)].

❖ وقيل: «استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات من قومه، وحسن مخالفته ومداراته لهم»[(٢)].

وكلها متحققة فيه ﷺ.

**ب/ سر العدول عن لفظ (الكريم) أو لفظ (الحسن) ـ اللذان هما شائعان في وقوعهما وصفاً للأخلاق ـ إلى وصف أخلاقه بالعظمة ﷺ:**

❖ «الأغلب أن الخلق يوصف بالكريم دون العظيم، لكن الوصف بالكريم يراد به الثناء على صاحبه بالسماحة والديانة، ولم يكن خلق رسول الله ﷺ مقصوراً على هذا، بل كان رحيماً بالمؤمنين، رفيقاً بأولياء الله أجمعين، غليظاً على الكافرين، شديداً على المخالفين، لا يغضب لنفسه، ولكن يغضب لربه أشد الغضب حتى ينتقم له، وكان مهيباً في صدور الأعداء، منصوراً بالرعب، ينهزم العدو منه مسيرة شهر فرقاً منه، فلم يكن من حقه أن يقتصر في وصف خلقه بالكريم، بل كان الوصف بالعظيم أولى به ليدخل فيه الإنعام والانتقام

---

(١) «التفسير الكبير»: (٣٠/٧١).

(٢) «الكشاف»: (٤/٥٩٠).

معاً، والغلظ والشدة جميعاً، ويعلم أنه لم يكن ينصرف منه راجي خير بيأس، ولا يسلم له عدو من بأس»[1].

❖ ولأنه أرفع من مطلق الخلق الحسن، قال ابن عاشور: «والخلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان، لاجتماع مكارم الأخلاق في النبيء الكريم ﷺ فهو حسن معاملته الناس على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن»[2].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

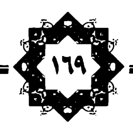
ماذا أضيف في الثناء على خلق رسول الله ﷺ بعد ثناء رب العزة سبحانه عليه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟

ناهيك عن ذلك أيضاً، أن جُلَّ المباحث المتتالية من هذا البحث ستتطرق إلى شيء من ذلك، وإنما أقطف منها قِطْفاً في هذا الموضع فأقول:

❖ لقد أثنى الله تعالى على خيرة خلقه المصطفين الأخيار كلٌّ بمدح في ناحية من نواحي خُلُقه عليهم السلام، فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود: ٧٥)، وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤)، وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

(١) «المنهاج في شعب الإيمان»: (٧٣/٢).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٦٤/٢٩).



(مريم: ٥٤)، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات: ٧٩ ـ ٨٠)، إلا عن محمد ﷺ فمدحه مدحاً آخذاً بمجامع ومحاسن بل وعظائم الأخلاق فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)!!

❖ وقفة مع حديث عائشة رضي الله عنها والذي هو عمدة في هذا الباب:

ما أخرجه مسلم مطولاً عن سعد بن هشام قال: «... فقلت يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[١].

قال النووي: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن: معناه العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبره، وحسن تلاوته»[٢].

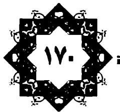
❖ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق»...الحديث[٣].

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، (١/٥١٣/ح٧٤٦).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٦/٢٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب إسلام أبي ذر الغفاري، (٣/١٤٠١/ح ٣٦٤٨)، واللفظ=



قال ابن حجر: «قوله ويأمر بمكارم الأخلاق والمكارم جمع مكرمة بضم الراء وهي من الكرم قال الراغب وهو اسم الأخلاق وكذلك الأفعال المحمودة قال ولا يقال للرجل كريم حتى يظهر ذلك منه ولما كان أكرم الأفعال ما يقصد به أشرف الوجوه وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى وإنما يحصل ذلك من المتقى قال الله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم وكل فائق في بابه يقال له كريم»(١).

❖ عن أبي هريرة ﷺ: «أن أعرابياً بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء أو سَجْلاً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تُبعثوا معسرين»(٢).

❖ عن عائشة ﷺ أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش»، قالت: أوَ لم تسمع ما قالوا؟! قال: «أوَ لم تسمعي ما قلت؟! رددتُ عليهم، فيُستجاب لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ»(٣).

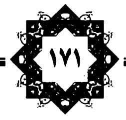
---

=له، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر، (٤/١٩٢٣/ح٢٤٧٤).

(١) «فتح الباري»: (١٠/٤٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ يسروا ولا تعسروا، (٥/٢٢٦٩/ح ٥٧٧٤)، واللفظ له، ومسلم من حديث أنس، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، (٣/١٣٥٨/ح٢٨٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ يستجاب لنا في اليهود...، (٥/٢٣٥٠/ ح ٦٠٣٨)، واللفظ له، ومسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام...، (٤/١٧٠٦/ح٢١٦٥).



❖ عن أنس ﷺ قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ، ولا لِمَ صنعتَ، ولا ألا صنعتَ»[(١)].

❖ عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً، وكان لي أخٌ يقال له أبو عمير ـ قال[(٢)] أحسبه قال: كان فطيماً ـ قال: فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه، قال: «أبا عمير ما فعل النُّغَيْر، قال: فكان يلعب به»[(٣)].

❖ عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبةً شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء»[(٤)]، «وفيه لطف رسول الله، ﷺ وحلمه وكرمه، وأنه لعلى خلق عظيم»[(٥)].

❖ عن عائشة ﷺ قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا

---

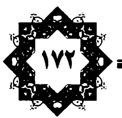
(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، (٥/٢٢٤٤/ح ٥٦٩١).

(٢) وهو الراوي عن أنس وهو أبو التياح.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي... (٥/٢٢٩١/ح ٥٨٥٠)، ومسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته... (٣/١٦٩٢/ح٢١٥٠)، واللفظ له.

(٤) رواه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم... (٣/١١٤٨/ح٢٩٨٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (٢/٧٣٠/ح١٠٥٧).

(٥) «عمدة القاري» للعيني: (١٥/٧٣).



امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل»[١].

❖ من قوله ﷺ في قيام الليل: «واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»[٢].

وهكذا كان ﷺ فالنبوة لما كانت أشرف منازل الخلق لاشتمالها على مصالح الدين والدنيا ندب الله تعالى لها من قد أكمل فضائل الأخلاق وحاز أشرف الأعراق ولذلك بعث ﷺ متمماً مكارم الأخلاق[٣].

وإنما هذا غيض من فيض، فهو الذي كان كريماً معطاءً، وحيياً، وشجاعاً، وبرًّا، وأميناً، وصادقاً، ومتواضعاً، ورؤوفاً رحيماً، وصابراً، وعادلاً، وحامداً شاكراً، وغير ذلك كثير، وإنما هو القِطفُ الذي اقتطفته فحسب، فـﷺ تسليماً كثيراً.

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

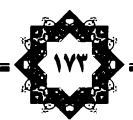
إن الحديث عن مكارم الأخلاق لواسع الأرجاء ومترامي الأطراف، وحسبي من الدر ما التُقط، لذا أسلط الضوء في هذا الجانب على النقاط التالية:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام...(١٨١٤/٤/ح ٢٣٢٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٥٣٤/١/ ح ٧٧١).

(٣) انظر: «تسهيل النظر وتعجيل الظفر» للماوردي: (٤٤/١).



ما أحسن قوله ﷺ لما قال: «إن من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقاً»[1]، وفي رواية: «ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثاً، قال القوم: نعم يا رسول الله، قال: «أحسنكم خلقاً»[2].

**وهذا يقودنا إلى أعظم فوائد حسن الخلق ومنها:**

❖ حب خليل الله ﷺ، والذي بدوره يورث حب الله جلَّ وعلا، وأعظم بها من منقبة.

❖ كما يورث القرب منه ﷺ يوم القيامة، ويالروعة قرب القريب، ويالجلال حب الحبيب ﷺ، فهذا يعني علو الدرجات في ذلك المكان الرحيب.

❖ وما دامت هذه عاقبة حسن الخلق في الآخرة، فإن كرم الله يقتضي تعجيل المثوبة في الدنيا فيورث صاحب الخلق الحسن حب الناس.

❖ وليتأمل الفطن اللبيب مم سيحرم نفسه إن لم يُحسِن خُلُقَه؟ أم ماذا سيكسب من سوء الخلق إلا الحسرة والندامة، والآثام والملامة.



---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن مسعود ﷺ، (٣/١٣٧٢/ ح ٣٥٤٩).

(٢) أخرجها أحمد (١١/٦٠٨/ح٧٠٣٥)، وقال الهيثمي: «إسناده جيد»: «مجمع الزوائد»: (٨/٢١).

# المبحث الخامس

# الصدق

# المبحث الخامس

# الصدق

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الصدق:

الصدق: نقيض الكذب، ومطابقة الحقيقة، وفيه معنى القوة.

قال ابن فارس: «(صدق) الصاد والدال والقاف: أصل يدل على قوة في الشيء قولاً وغيره، من ذلك الصدق خلاف الكذب، سمي لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له فهو باطل»(١).

وقال ابن منظور: «الصدق: نقيض الكذب»(٢).

وقال الفيروز آبادي في البصائر: «والصدق: مطابقة القول الضميرَ والمخبَرَ عنه معاً»(٣).

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بصفة الصدق:**

- قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ** ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

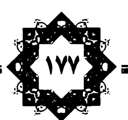
- قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ** ﴾

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣/٣٣٩).

(٢) «لسان العرب»: (١٠/١٩٣).

(٣) «بصائر ذوي التمييز»: (٣/٣٩٧).



(الزمر: ٣٣).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآيات:

- من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

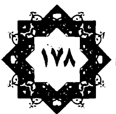
❖ في معناها:

قال الطبري: «يقول ولما عاين المؤمنون بالله ورسوله جماعات الكفار، قالوا تسليماً منهم لأمر الله وإيقاناً منهم بأن ذلك إنجاز وعده لهم الذي وعدهم بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ... ﴾ إلى قوله: ﴿ قَرِيبٌ ﴾: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم وتسليمهم لأمره الثناء فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيماناً وتسليماً لقضائه وأمره، ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء»[1].

- **الإشارة في قول المؤمنين: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (الأحزاب: ٢٢):**

إلى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾...الآية (البقرة: ٢١٤)، - فكما قال ابن عباس رضي الله عنهما أن آية

(١) «جامع البيان»: (٢١/١٤٤).



البقرة هذه نزلت قبل الأحزاب بعام[1] ـ:

قاله ابن عباس[2] رضي الله عنهما، وقتادة[3]، ومقاتل[4].

**٢ – في قوله تعالى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾** (الأحزاب: ٢٢):

أ/ فيها قولان:

١ – أي للقضاء، قاله الحسن[5].

٢ – أي إيماناً بما وعد الله وتسليماً لأمر الله[6].

ب/ «أن هذا ليس إشارة إلى ما وقع فإنهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله قبل الوقوع، وإنما هو إشارة إلى البشارة في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح

---

(١) انظر: «روح المعاني» للألوسي: (١٦٩/٢١)، «التحرير والتنوير»: (٣٠٤/٢١).

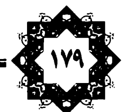
(٢) انظر: «جامع البيان»: (٦٠/١٩)، «الدر المنثور»: (٥٨٥/٦)، «تفسير ابن كثير»: (٢٧٩٤/٦)، «روح المعاني» للألوسي: (١٦٩/٢١).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (١٤٤/٢١)، «الدر المنثور»: (٥٨٥/٦)، «النكت والعيون»: (٣٨٩/٤)، «تفسير السمعاني»: (٢٧١/٤)، «تفسير ابن كثير»: (٤٧٥/٣)، «روح المعاني» للألوسي: (١٦٩/٢١).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل»: (٤٢/٣).

(٥) انظر: «النكت والعيون»: (٣٨٩/٤).

(٦) انظر: «النكت والعيون»: (٣٩٨/٤)، «تفسير القرآن» للسمعاني: (٢٧١/٤)، «التفسير الكبير» للرازي: (١٧٦/٢٥)، «الكشاف»: (٥٣٩/٣)، «تفسير البيضاوي»: (٣٧٠/٤)، «تفسير النسفي»: (٣٠٢/٣)، «لباب التأويل» للخازن: (٢٤٦/٥)، «تفسير ابن كثير»: (٤٧٥/٣)، «تفسير أبي السعود»: (٩٧/١).



مكة وفتح الروم وفارس»[1].

ج/ الآية دليل على زيادة الإيمان ونقصانه كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، قال ابن كثير رحمه الله فيها: «دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة إنه يزيد وينقص»[2].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «فهذا الإيمان الكامل، وهذا التسليم العظيم لله جلَّ وعلا، ثقةً به، وتوكلاً عليه»[3]، وقال في موضع آخر: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، صريح في أن الإيمان يزيد، وقد صرّح اللَّه بذلك في آيات من كتابه، فلا وجه للاختلاف فيه مع تصريح اللَّه جلَّ وعلا به في كتابه، في آيات متعدّدة؛ كقوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ (الفتح: ٤)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ (التوبة: ١٢٤)، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

د/ في الآية «أتم ثناء على الصحابة رضي الله عنهم، وأكمل فضيلة، وفيه تعليم لنا أن نقتدي بهم ونرجع إلى أمر الله والصبر عليه، والاتكال عليه، وأن نقول: حسبنا الله ونعم الوكيل وأنَّا متى فعلنا ذلك أعقبنا ذلك من الله النصر والتأييد،

(١) «لباب التأويل» للخازن: (٥/٢٤٦)، وانظر: «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (١٥/٥٢٦)، «تفسير ابن كثير»: (٣/٤٧٥).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٣/٤٧٥).

(٣) «أضواء البيان»: (٣/٥١).

(٤) «المصدر السابق»: (٣٦/٧٤).



وصرف كيد العدو وشرهم مع حيازة رضوان الله وثوابه بقوله تعالى: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٧٤))»[١].

- **من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾** (الزمر: ٣٣):

**❖ وفي ما يلي عرض لأقوال المفسرين في الآية، والذي تتجلى معه المعاني التي تنضوي تحت هذه القراءات:**

اختلف المفسرون فيمن جاء بالصدق، وما الصدق الذي جاء به، ومن الذي صدق به على أقوال كثيرة يمكن تحريرها على النحو الآتي:

**أ/ من الذي جاء بالصدق، وفيه أربعة أقوال:**

١ - **أنه محمد** ﷺ، وبه قال: علي[٢]، وابن عباس[٣] رضي الله عنهم، وأبو العالية[٤]، ومجاهد[٥]، ..........................................................

---

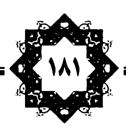
(١) «أحكام القرآن» للجصاص: (٢/٣٣٣).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٢٤/٣)، «معالم التنزيل»: (٤/٧٩)، «زاد المسير»: (٧/١٨٢)، «تفسير القرطبي»: (١٥/٢٥٦)، «مدارك التنزيل»: (٤/٥٤)، «البحر المحيط»: (٧/٤١١ ـ ٤١٢).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (٢٤/٣)، «معالم التنزيل»: (٤/٧٩)، «زاد المسير»: (٧/١٨٢)، «لباب التأويل»: (٦/٧٦)، «تفسير السمعاني»: (٤/٤٦٩)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٦٧)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٣/١٩٥)، «البحر المحيط»: (٧/٤١١ ـ ٤١٢)، «فتح القدير»: (٤/٤٦٣).

(٤) انظر: «معالم التنزيل»: (٤/٧٩)، «البحر المحيط»: (٧/٤١١ ـ ٤١٢).

(٥) انظر: «تفسير السمعاني»: (٤/٤٦٩)، «تفسير القرطبي»: (١٥/٢٥٦)، «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٤)، «فتح القدير»: (٤/٤٦٣).



والشعبي[1]، وقتادة[2]، ومقاتل[3].

**٢ – أنهم أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون هذا ما** أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا، قال به النخعي[4]، ومجاهد[5]، والحسن[6].

**٣ – أنهم الأنبياء** عليهم السلام: قال به عطاء[7].

**٤ – أنه جبريل** عليه السلام: قال به السدي[8].

**ب/ ما هو الصدق الذي جاء به، وفيه قولان:**

١ – أنه: **(لا إله إلا الله)**: قال به: ابن عباس رضي الله عنهما[9]، وسعيد بن

---

(١) انظر: «بحر العلوم»: (١٧٨/٣)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (١٨٢/٧)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «تفسير ابن كثير»: (٥٤/٤)، «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٣) انظر: «بحر العلوم»: (١٧٨/٢)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٤) انظر: «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٥) انظر: «تفسير الصنعاني»: (١٧٣/٣)، «جامع البيان»: (٣/٢٤)، «زاد المسير»: (١٨٢/٧)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «تفسير ابن كثير»: (٥٤/٤).

(٦) انظر: «معالم التنزيل»: (٧٩/٤).

(٧) انظر: «المصدر السابق».

(٨) انظر: «جامع البيان»: (٣/٢٤)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «زاد المسير»: (١٨٢/٧)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «تفسير ابن كثير»: (٥٤/٤)، «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٩) انظر: «جامع البيان»: (٣/٢٤)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «لباب التأويل» للخازن: (٧٦/٦)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤١٢/٧).

جبير[1].

٢ – **أنه القرآن:** وبه قال: مجاهد[2]، والشعبي[3]، وقتادة[4]، والسدي[5]، ومقاتل[6]، وابن زيد[7].

**ج/ ومن الذي صدق به، وفيه ثلاثة أقوال:**

**١ – أن المراد شخص واحد، وتحته ثلاثة أقوال:**

- **أنه محمد ﷺ:** وبه قال ابن عباس[8] رضي الله عنهما، والشعبي[9]، والسدي[10].
- **أنه أبو بكر رضي الله عنه:** وبه قال علي[11] رضي الله عنه، وقتادة[12].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (١٨٢/٧).

(٢) انظر: «تفسير الصنعاني»: (١٧٣/٣)، «جامع البيان»: (٣/٢٤)، «زاد المسير»: (١٨٢/٧)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥).

(٣) انظر: «بحر العلوم»: (١٧٨/٣).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (٣/٢٤)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤).

(٥) انظر: «المصدرين السابقين».

(٦) انظر: «بحر العلوم»: (١٧٨/٣)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤).

(٧) انظر: «جامع البيان»: (٣/٢٤)، «زاد المسير»: (١٢٨/٧).

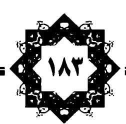
(٨) انظر: «جامع البيان»: (٤/٢٤)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «زاد المسير»: (١٢٨/٧)، «لباب التأويل» للخازن: (٧٦/٦).

(٩) انظر: «زاد المسير»: (١٢٨/٧).

(١٠) انظر: «جامع البيان»: (٤/٢٤)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «زاد المسير»: (١٢٨/٧)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤١٢/٧).

(١١) انظر: «جامع البيان»: (٤/٢٤)، «زاد المسير»: (١٢٨/٧)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «تفسير النسفي»: (٥٤/٤)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤١٢/٧).

(١٢) انظر: «زاد المسير»: (١٢٨/٧).



- **أنه علي** رضي الله عنه: وبه قال مجاهد[1].

**٢ – أن المراد المؤمنون:** قال به: مجاهد[2]، والشعبي[3]، والحسن[4]، وقتادة[5]، والضحاك[6]، ومقاتل[7]، وابن زيد[8].

**٣ – أن المراد به: الأتباع** (أتباع الأنبياء): وبه قال: عطاء[9].

«وحينئذ يكون (الذي) بمعنى (الذين) على طريق الجنس كقوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة:١٧)، ثم قال: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة:١٧)، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (العصر:٢ ـ ٣)، ودليل هذا التأويل: ... أنّه كان يقرأ: (والذين جاءوا) يعني: الأنبياء عليهم السلام (وصدقوا به):

(١) انظر: «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «البحر المحيط»: (٤١٢/٧)، «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٢) انظر: «تفسير الصنعاني»: (١٧٣/٣)، «جامع البيان»: (٤/٢٤)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «تفسير ابن كثير»: (٥٤/٤).

(٣) انظر: «بحر العلوم»: (١٧٨/٣).

(٤) انظر: «معالم التنزيل»: (٧٩/٤).

(٥) انظر: «جامع البيان»: (٤/٢٤)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٦) انظر: «زاد المسير»: (١٢٨/٧).

(٧) انظر: «بحر العلوم»: (١٧٨/٣)، «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٨) انظر: «جامع البيان»: (٤/٢٤)، «زاد المسير»: (١٢٨/٧)، «تفسير القرطبي»: (٢٥٦/١٥)، «تفسير ابن كثير»: (٥٤/٤)، «فتح القدير»: (٤٦٣/٤).

(٩) انظر: «معالم التنزيل»: (٧٩/٤)، «لباب التأويل» للخازن: (٧٦/٦).



الأتباع»[1].

❖ وعند التأمل في الأقوال السابقة جميعها يظهر والله تعالى أعلم: أن الآية عامة في كل ما ذكر بل وأكثر، ويكفي في هذا كلام إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله لما قال:

«والصواب من القول في ذلك أن يقال:

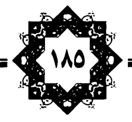
إن الله تعالى ذكره عنى بقوله: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ (الزمر: ٣٣): كل من دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسله، والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ من بين رسل الله، وأتباعه، والمؤمنين به.

وأن يقال: **الصدق**: هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله.

**والمصدق به**: المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائناً من كان من نبي الله وأتباعه.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن قوله تعالى ذكره: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾، عقيب قوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ (الزمر: ٣٢) وذلك ذم من الله للمفترين عليه، المكذبين بتنزيله ووحيه، الجاحدين وحدانيته، فالواجب أن يكون عقيب ذلك، مدح من كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، وهم الذين دعوهم إلى توحيد الله، ووصفه بالصفة التي هو

(١) «الكشف والبيان» للثعلبي: (٨/٢٣٦).



بها، وتصديقهم بتنزيل الله ووحيه، والذين هم كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآية: رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعدهم القائمون في كل عصر وزمان بالدعاء إلى توحيد الله، وحكم كتابه؛ لأن الله تعالى ذكره لم يخص وصفه بهذه الصفة التي في هذه الآية على أشخاص بأعيانهم، ولا على أهل زمان دون غيرهم، وإنما وصفهم بصفة ثم مدحهم بها، وهي المجيء بالصدق، والتصديق به، **فكل من كان كذلك وصفه فهو داخل في جملة هذه الآية**، إذا كان من بني آدم»(١).

وإن كانت الآية عامة إلا أن النبي ﷺ يدخل فيها دخولاً أولياً، قال ابن كثير رحمه الله: والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية... فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»(٢).

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

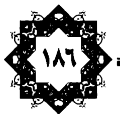
- **من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾** (الأحزاب: ٢٢):

❖ في هذه الآية الكريمة ذكرت هذه الصفة العظيمة في إطار محفوف بالمشاعر المتوهجة من المؤمنين الخُلَّص، الواثقين بصدق الله ورسوله ﷺ، وإنجاز وعد

---

(١) «جامع البيان»: (٤/٢٤).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٤).



الرحمن تبارك وتعالى، ومع أنهم زلزلوا زلزالاً شديداً كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:١١)، ومع هول ما رأوا، ومع الرعب الذي لابسهم إلا أنهم صدّقوا الصادق الأمين وقالوا مقولتهم التي سطرها القرآن على مر السنين: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

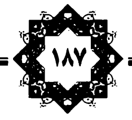
ومن أبلغ ما يصور هذه الحالة الرهيبة أبلغ تصوير خبر حذيفة ﵁ حيث قال: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقُر[١]، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بداً أن دعاني باسمي أن أقوم، قال: «اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَذعَرهم[٢] علي»[٣].

فانظر إلى اشتداد الخطب، حيث إنهم رضوان الله عليهم لم يلبوا طلب النبي ﷺ مع ضمان الرجعة، وضمان رفقته في الجنة ﷺ، فهذا إن دل على

(١) «القُر»: البرد، انظر: «لسان العرب»: (٥/٨٢).

(٢) الذُّعْرُ بالضم الخَوْفُ والفَزَعُ، انظر: «لسان العرب»: (٤/٣٠٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، (٣/١٤١٤/ح ١٧٨٨).



شيء فإنما يدل على عظمة الكرب والخوف الذي كانوا فيه، ومع ذلك صدقوه ﷺ، بل وزادهم إيماناً وتسليماً.

❖ في الآية مقابلة[1] مع قول المنافقين: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢)! فلقد كان هذا بعضاً من مواقفهم البغيضة في هذه المعركة وإن بين موقفهم وموقف المؤمنين الصادقين بوناً بعيد، فهؤلاء يقولون: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾، وأولئك يقولون: «﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، فمن ذلك أنهم لما سمعوا من النبي ﷺ الوعد بكنوز كسرى وقيصر عند اشتداد المعركة قال طعمة ابن أبيرق[2]، ومعتب بن قشير[3]، وجماعة من اليهود والمنافقين: كيف يعدنا هذا ولا يستطيع أحد منا أن يتبرز؟!

❖ في إعادة الاسم الظاهر دون الضمير إفادة التعظيم، «ولأنه لو أعادهما

---

(١) المقابلة هي: «أن يؤتَى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب»، «الإيضاح» للخطيب القزويني: (٣٢١/١).

(٢) قال ابن حجر: «طُعْمَة بن أبيرق بن عمرو الأنصاري، ذكره أبو إسحاق المستملي في الصحابة، وقال: شهد المشاهد كلها إلا بدرا... وقد تُكُلم في إيمان طعمة»: «الإصابة في تمييز الصحابة»: (٥١٨/٣).

(٣) قال ابن حجر: «مِعتَب بن قُشَيْر، بقاف ومعجمة مصغرا، بن مليل بن زيد بن العطاف بن ضَبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن الأوس الأنصاري الأوسي، ذكره فيمن شهد العقبة، وقيل إنه كان منافقا، وإنه الذي قال يوم أحد: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا)، وقيل إنه تاب، وقد ذكره بن إسحاق فيمن شهد بدرا»: «الإصابة في تمييز الصحابة»: (١٧٥/٦).

مضمَرَيْن لجمع بين اسم الباري تعالى، واسم رسوله ﷺ في لفظة واحدة، فكان يقال: (وصدقا)، والنبي ﷺ قد كره ذلك، ورد على من قاله، حيث قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى»، وقال له: «بئس خطيب القوم أنت! قل: ومن يعص الله ورسوله»[1] قصداً إلى تعظيم الله، وقيل: إنما رد عليه لأنه وقف على (يعصهما)، وعلى الأول استشكل بعضهم قوله ﷺ: «حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[2]، فقد جمع بينهما في ضمير واحد، وأجيب: بأن النبي ﷺ أعرف بقدر الله تعالى منا فليس لنا أن نقول كما يقول»[3].

❖ في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢): دلالة على أنهم «علموا بهذه الآية أنهم يُبتلون فلما ابتلوا بالأحزاب علموا أن الجنة والنصر قد وجبا لهم إن سلموا وصبروا»[4].

**٢ - من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (الزمر: ٣٣):**

❖ في الآية مقابلة بالصدق مع الكذب، أي مع قوله تعالى في الآية سابقتها:

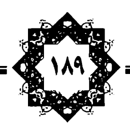
---

(١) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (٢/٥٩١/ح٨٧٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١/١٤/ح ١٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصالٍ من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (١/٦٦/ح ٤٣).

(٣) «الدر المصون»: (٩/١١٠).

(٤) «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي: (٢/٨٦٢).



﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ (الزمر: ٣٢).

❖ في الآية إضمار الحديث عن رسول الله ﷺ وعدم التصريح به؛ وذلك لأنه تعالى أراد به إياه ﷺ ومن تبعه[١].

❖ جاء تعالى بصيغة الإفراد ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾، ثم ختم الآية بصيغة الجمع ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾:

١ – إشارة «إلى قلة الموصوف بهذا الوصف من الصدق، وهذا الفريق هو الرسل وأتباعهم»[٢].

٢ – أو لأن معناه جَمْع لأنه أريد به الجنسُ، وقيل: لأنه قصد به الجزاء وما كان كذلك كثر فيه وقوع: «الذي موقع: (الذين)، ولذلك رُوعِيَ معناه فجمع في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾»[٣].

❖ في اسم الإشارة (أولئك): «إشارة إلى عظمتهم وإن كانوا قليلاً»[٤].

❖ «حصر التقوى عليهم إشارة إلى قلتهم أيضاً»[٥].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

لقد كانت حياته ﷺ أفضل مثال للإنسان الكامل الذي اتخذ من الصدق

---

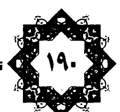
(١) انظر: «الكشاف»: (٤/١٣٠)، «مدارك التنزيل»: (٤/٥١).

(٢) «نظم الدرر» للبقاعي: (٦/٤٤٧).

(٣) «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (١٦/٥١٢).

(٤) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (٦/٤٤٧).

(٥) انظر: «المصدر السابق».



في القول والأمانة في المعاملة خطاً ثابتاً لا يحيد عنه قيد أنملة، وقد كان ذلك فيه بمثابة السجية والطبع» وفيما يلي تسليط الضوء على شيء من دلائل صدقه ﷺ:

١ – حسبه ﷺ فخراً أن صدقه الله تعالى في كتابه صراحة كهاتين الآيتين، أو ضمناً كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الشورى: ٢٤)، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الأحقاف: ٨).

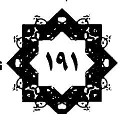
٢ – هو الصادق ﷺ قبل نبوته، وبعد نبوته، بل وحتى بعد وفاته يستمر ظهور صدقه يوماً بعد يوم ﷺ:

❖ فقبل نبوته كان يلقب بالصادق الأمين، وشهد له بالصدق ألد أعدائه فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فِهر(١)، يا بني عدي(٢)،

---

(١) قال ابن قتيبة: «وأما فهر بن مالك فمنه تفرقت قبائل قريش فقيل لهم بنو فهر وولده غالب بن فهر ومحارب ابن فهر»: «المعارف»: (١/٦٨)، وقال ابن حزم: «هؤلاء بطون قريش، قريش منهم: بنو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»: «جمهرة أنساب العرب»: (٢/٤٦٤).

(٢) قال القلقشندي: «ثم مشاهير قريش الموجودون الآن عدة بطون: البطن الأول منهم: عدي، =



لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي»؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد: ١ ـ ٢)[١].

- وكذلك جعفر بن أبي طالب ﵁، قال للنجاشي لما قال لهم: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟... فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده... وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة...» الحديث[٢].

---

=بفتح العين وكسر الدال المهملتين وياء مثناة من تحت في الآخر، وهم: بنو عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو قريش»: «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان»: (١/ ٤٠).

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، (٤/ ١٧٨٧/ح ٤٤٩٢) واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، (١/ ١٩٣/ح٢٠٨).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٦٣/ح١٧٤٠)، قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير محمد بن إسحاق، فقد روى له مسلم متابعة، وهو صدوق حسن الحديث إلا أنه=

❖ وبعد نبوته نعته أصحابه رضوان الله عليهم: بالصادق المصدوق، فهذا ابن مسعود ﷺ يقول: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه...»» الحديث[1].

وهذا أبو هريرة ﷺ يقول: «سمعت الصادق المصدوق يقول: «هلَكَةُ أمتي على يدي غِلْمة من قريش...»» الحديث[2].

٣ – ولما كان ﷺ صادقاً كان محباً للصدق، فقال: «أَحَبُّ الحديث إلي أَصْدَقُهُ»[3]، معترفاً به لنفسه فقال: «قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم...» الحديث[4]، ولُقِّن ﷺ هذا الدعاء من فوق سبع سموات، في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠).

---

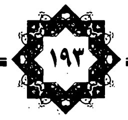
=مدلس، لكنه صرح بالتحديث فانتفت شبهة تدليسه» مسند الإمام أحمد: (٢٦٨/٣).

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (١١٧٤/٣/ح ٣٠٣٦) واللفظ له، ومسلم كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه...، (٢٠٣٦/٤/ح٢٦٤٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ هلاك أمتي على يد أغيلمة سفهاء، (٢٥٨٩/٦/ح ٦٦٤٩).

(٣) وهو جزء من حديث طويل، رواه البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وهب شيئاً لوكيل...، (٨١٠/٢/ح ٢١٨٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب نهي النبي ﷺ على التحريم..، (٢٦٨١/٦/ح٦٩٣٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام...(٨٨٣/٢/ ح١٢١٦).



**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

❖ بين الصدق والكذب:

❖ الإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، وأنى لهما أن يجتمعا؟

❖ بالصدق أو بالكذب، تُرفَع درجات المرء أو يهوي في جهنم والعياذ بالله قال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»(١).

❖ الصدق طريق الأبرار إلى الجنة، والكذب طريق الفجار إلى النار: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(٢).

❖ الصدق منجاة، والكذب مهلكة، وحسبي في ذلك أن أذكر قصة كعب بن مالك لما كان مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وروى قصته بنفسه وقال فيها: «فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي(٣)،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (٥/٢٣٧٧/ح ٦١١٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر، باب قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله، (٤/٢٠١٢/ح٢٦٠٧).

(٣) البث: شدة الحزن، انظر: «لسان العرب»: (٢/١١٤).

فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟» وقال: «فأجمعت صدقه» إلى أن قال: «قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلاً[1]، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»»، فقال كعب رضي الله عنه بعد نزول توبتهم: «وقلت يا رسول الله **إن الله إنما أنجاني بالصدق**، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ **لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ...** ﴾ (التوبة:١١٧) حتى بلغ: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ** ﴾ (التوبة: ١١٩)»[2].

---

(١) «جدلاً»: قوة في الخصام، انظر: «لسان العرب»: (١١/١٠٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، (٤/١٦٠٤/ح ٤١٥٦)، ومسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، (٤/٢١٢٠/ح٢٧٦٩) واللفظ له.

❖ على المرء أن يصدق مع الله لينالَ مكرماته، فمن ذلك قوله ﷺ: «من طلب الشهادة صادقاً أعطيَها ولو لم تُصبه»(١)، وقال: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٢).

❖ أثنى الله على الصادقين وأخبر عن منفعة الصدق لأصحابه، وعن ثوابه تعالى لهم، ورضاه عنهم فقال: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٩).



(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، (١٥١٧/٣/ح١٩٠٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، (١٥١٧/٣/ح١٩٠٩).



# المبحث السادس

# التــــــواضع

## المبحث السادس

## التواضع

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة التواضع:

المعنى اللغوي للتواضع يفيد الخفض والانحطاط، والتذلل والتخاشع.

قال ابن فارس: «الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه»[1].

وقال ابن منظور: «وضَعَ: الوضْعُ: ضد الرفع، والتواضع: التذلُّل. وتواضَعَ الرجل: ذلَّ... وتواضعت الأرض: انخفضت عما يليها... ويقال: إن بلدكم لمتواضع»[2].

«وصيغة تفاعَلَ من هذا الأصل تدل على الإظهار كما تغافَلَ بمعنى أظهر الغفلة، وإن لم يكن غافلاً على الحقيقة، وكما في تعامَى أي أظهر العمى، وتباكى أظهر البكاء، ومن هنا تكون صفة التواضُع سمة لمن أظهر الضعة والذل لله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وإن كان المرء عزيزاً في نفسه، كما قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤)»[3].

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١١٧/٦).

(٢) «لسان العرب»: (٣٩٦/٨ ـ ٣٩٧).

(٣) «نضرة النعيم»: (١٢٥٥/٤).



❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بصفة التواضع :**

- قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر: ٨٨).
- قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥).

## ثانياً : من أقوال المفسرين في معنى الآيتين :

❖ **في معناها :**

قال الإمام الطبري في معناها : «وقوله واخفض جناحك للمؤمنين يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وألن لمن آمن بك واتبعك واتبع كلامك وقربهم منك ولا تجف بهم ولا تغلظ عليهم، يأمره تعالى ذكره بالرفق بالمؤمنين.

والجناحان من بني آدم جنباه والجناحان الناحيتان ومنه قول الله تعالى ذكره واضمم يدك إلى جناحك قيل معناه إلى ناحيتك وجنبك» [1].

- **وقد اختلفت عبارات المفسرين في تفسير خفض جناحه ﷺ للمؤمنين على النحو التالي :**
- قيل : المراد : الرفق، قاله ابن عباس[2] رضي الله عنهما.
- وقيل : المراد : الخضوع، قاله سعيد بن جبير[3] رضي الله عنه.

---

(١) «جامع البيان» : (٦١/١٤).

(٢) انظر : «زاد المسير» : (٤١٦/٤).

(٣) انظر : «تفسير ابن أبي حاتم : (٢٨٢٧/٩)، «النكت والعيون» : (١٧١/٣) «الدر المنثور» : (٩٧/٥)، «فتح القدير» : (١٤٤/٣).

- وقيل: المراد: اللين، قاله مقاتل[1].

- وقيل: المراد: التذلل، قاله ابن زيد[2].

- وقيل: المراد: التواضع، وعليه جمع من المفسرين[3].

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه، يلاحظ: أن الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، والله تعالى أعلم.

- **في قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مسألتان:**

**❖ المسألة الأولى: في نوع (مِنْ) هنا، هل هي بيانية، أم للتبعيض[4]؟**

**فيها قولان:**

١ - **أنها بيانية،** فيكون قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بيان لقوله تعالى:

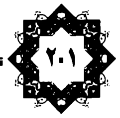
---

(١) «تفسير مقاتل»: (٢/٢١٠)، (٢/٤٦٦)، وانظر: «جامع البيان»: (١٤/٦١)، «بحر العلوم»: (٢/٥٧٠)، «النكت والعيون»: (٣/١٧١)، «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي: (١/٥٩٧)، (٢/٧٩٨)، «تفسير السمعاني: (٣/١٥٢)، (٤/٧٠)، «معالم التنزيل»: (٩/٥٠)، «تفسير القرطبي»: (١٠/٥٧)، «تفسير البيضاوي»: (٤/٢٥٥)، «تفسير النسفي»: (٣/٢٠٠)، «لباب التأويل» للخازن: (٤/٧٤)، (٥/١٢٩)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٣/٩١)، «تفسير أبي السعود»: (٥/٨٩)، «تفسير السعدي»: (٤٩٦)، (٧٠١).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم: (٩/٢٨٢٧).

(٣) انظر: «بحر العلوم»: (٢/٢٦٢)، «تفسير البيضاوي»: (٣/٣٨٣)، «تفسير النسفي»: (٢/٢٤٧)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٢/١٤٩)، «فتح القدير»: (٣/١٤٢)، «روح المعاني» للألوسي: (١٤/٨٠).

(٤) انظر: «الكشاف»: (٣/٣٤٥)، «تفسير البيضاوي»: (٤/٢٥٥)، «تفسير أبي السعود»: (٦/٢٦٨)، «التحرير والتنوير»: (١٩/٢٠٣).



﴿ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ ﴾، فإن المراد المتابعة في الدين وهي الإيمان، والغرض من هذا البيان التنويه بشأن الإيمان كأنه قيل: واخفض جناحك لهم لأجل إيمانهم كقوله تعالى: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾ (الأنعام: ٣٨) وجبر لخاطر المؤمنين من قرابته.

٢ – **أنها للتبعيض**، على أن المراد بالمؤمنين:

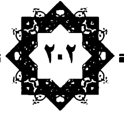
- المؤمنون المشارفون على الإيمان استمالة لقلوبهم.
- أو المصدقون باللسان ولو نفاقاً.
- أو على إرادة شيوع من اتبع، فيمن اتبع للدين لا للقرابة والنسب.

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه فإن الذي تميل إليه النفس هو القول الأول: القائل بأن (من) بيانية، وذلك لما يلي:

❖ أن حال النبي ﷺ وهديه هو التواضع لكل من اتبعه بدون تمييز بين بعضهم البعض.

❖ وأنه ﷺ لم يكن يعرف خبايا نفوس من اتبعه من أن هذا منافق أو غيره، وليس له إلا الظاهر، إلا من أخبره بهم الوحي، والأدلة على ذلك متوافرة، فالقول بأن المراد من شارف على الإيمان، أو من صدق باللسان، وما إلى ذلك يلزم معرفته ﷺ ببواطن أمر من اتبعه وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه، فعموم القول الأول أسلم، والله تعالى أعلم.

❖ **المسألة الثانية: في النصّ على صفة الإيمان، وعدم الاقتصار على الضمير؟**



نَصّ على صفة الإيمان: «ليعم ويؤذن أن صفة الإيمان هي التي يستحق أن يكرم صاحبها، ويتواضع لأجلها من اتصف بها سواء كان من عشيرتك أو غيرهم»[1].

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

جاءت هذه الصفة للنبي ﷺ بأسلوب بديع، يحمل المتأمل فيه إلى أبعد آفاق الخلق العظيم، فتضمن هذا النسق الرصين النقاط التالية:

❖ **في قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ ﴾ استعارة مكنية**[2]، يقول ابن عاشور:

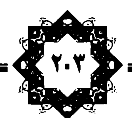
«وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحطّ للوقوع خفض جناحه يريد الدنوّ، وكذلك يصنع إذا لاعب أنثاه فهو راكن إلى المسالمة والرفق، أو الذي يتهيأ لحضن فراخه. وفي ضمن هذه التمثيلية استعارة مكنية، والجناح تخييل... وقد شاعت هذه التمثيلية حتى صارت كالمَثَل في التواضع واللّين في المعاملة. وضد ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدّة»[3].

---

(١) «روح المعاني» للألوسي: (١٩/١٣٦).

(٢) قال الخطيب القزويني في تبيينها: «قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حسا أو عقلا أجري عليه اسم ذلك الأمر فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها»: الإيضاح: (١٩/١٣٦).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١٤/٨٣)، وانظر: «تفسير البيضاوي»: (٤/٢٥٥)، «غرائب القرآن، =



فانظر إلى هذا الوصف بهذا السياق، فإنه لا يشير إلى التواضع المجرد فحسب، بل يشير إلى تواضع دافعه المحبة والمسالمة، وواقعه الرفق واللين، وتاليه الرحمة والكرامة!

**❖ بين آيتي الحجر والشعراء:**

في آية الحجر قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر: ٨٨)، بينما قيده بمن اتبعه في الشعراء فقال: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥)، والفرق بينهما والله تعالى أعلم يعود إلى السياق في آية الشعراء قبل الآية وبعدها حيث:

- قال قبلها: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) فلو لم يذكر هذه الزيادة لكان الظاهر أن اللام للعهد فصار الأمر بخفض الجناح مختصاً بالأقربين من عشيرته فزيد: (لمن اتبعك) ليعلم أن هذا التشريف شامل لجميع متبعيه من الأمة.

- وقال بعدها: ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحجر: ٨٩) لأنه لما بعثه على الرفق بأهل الإيمان عموماً، أمره بالإنذار لكل المكلفين[1].

**❖ أمره سبحانه بالتواضع بعد أن رفع شأنه وأعظم مكانته في قوله قبلها:**

---

=ورغائب الفرقان» للقمي: (٢٣٤/٤)، «اللباب في علوم الكتاب»: (٩٤/١٥)، «فتح القدير»: (١٤٢/٣).

(١) انظر: «غرائب القرآن، ورغائب الفرقان» للقمي: (٢٣٤/٤)، و(٢٨٧/٥).



﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر: ٨٧) مما يشعر المتأمل كيف كان نبينا ﷺ عظيماً في ظل التواضع.

❖ الجملة معترضة بين الجملتين من قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وقوله: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٦) ونكتة ذلك أنه ابتدارٌ لكرامة المؤمنين، قبل الأمر بالتبرؤ من الذين لا يؤمنون، وبعد الأمر بالإنذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس[1].

❖ قال الشنقيطي رحمه الله: «ويفهم من دليل خطاب الآية الكريمة أعني مفهوم مخالفتها أن غير المؤمنين لا يخفض لهم الجناح، بل يعاملون بالشدة والغلظة.

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التوبة: ٧٣)، وقوله: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩)، وقوله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ كما قدمناه في المائدة»[2].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

زخرت كتب الحديث، والسير، والشمائل المحمدية بمواقف عظيمة تدل

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير»: (٢٠٢/١٩).

(٢) «أضواء البيان»: (٣١٧/٢).

على أنه ﷺ كان جليلاً في ثياب البسطاء، ومتواضعاً في عظمة الأنبياء ﷺ، والمتأمل في هذا يجد أن تواضعه ﷺ كان على أبواب شتى من أهمها:

١ – تواضعه ﷺ لربه سبحانه وتعالى:

❖ فلكم «ذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال في مقام الإسراء: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء:١)، ولم يقل برسوله ولا نبيه، إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه، وقال في مقام الدعوة: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن:١٩)، وقال في مقام التحدي: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»(١) فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله، وكمال مغفرة الله له»(٢).

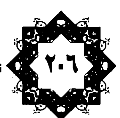
❖ ولذا نجده ﷺ يصف نفسه بهذه الصفة فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله»(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾، (١٧٤٥/٤/ح٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (١٨٤/١/ح١٩٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة»: لابن القيم (٥/١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم...(١٢٧١/٣/ح ٣٢٦١).



❖ عن أبي هريرة ﷺ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: «إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلِقَ قبل الساعة»، فلما نزل قال: «يا محمد، أرسلني إليك ربك قال: أفملكاً نبياً يجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: «بل عبداً رسولاً»[1].

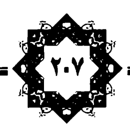
❖ وقد فتحت عليه الدنيا، ودانت له الجزيرة كلها، فما أخرجه ذلك عن تواضعه ﷺ وخلقه، فكان متواضعاً في أعلى مقامات العز، مقام الانتصار والفتح، فدخل مكة «وهو مطأطئ رأسه حتى كان يمس مقدمة رحله»[2]، تواضعاً لله تعالى، «وهو في هذا اليوم في قمة النصر، وأوج العزة، وهذه الحال لا تكاد تتمالك النفس معها من الفخر والخيلاء، لعظم النصر وعزته ونشوته، بل تطيش موازين الأخلاق، وينفلت زمام التصنع عند ملوك الدنيا وأرباب الدول، لكن النبي ﷺ لم يكن من هؤلاء في شيء؛ لأنه يستشعر دائما أنه عبد الله ورسوله، وأن النصر الذي حققه ليس لنفسه حظ فيه، إنما هو من الله، ولله، وفي الله، وكان لهذا الشعور والإحساس في قمة الإذعان له سبحانه الذي مكنه منه»[3].

---

(١) رواه أحمد، (١٢/٧٦/ح٧١٦٠)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «صحيح على شرط الشيخين»، المسند (١٢/٧٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل، (٥/٦٨)، والحاكم في المستدرك، (٣/٤٧)، وأبو يعلى في المسند، (٦/١٢٠)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، وذكره ابن هشام في سيرته، (٥/٦٣)، وابن كثير في البداية والنهاية، (٤/٢٩٣).

(٣) «أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة» للحداد: (١/٤٦١).



٢ — تواضعه ﷺ لأهله:

❖ فعن عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عما كان النبي ﷺ يصنع في أهله قالت: «كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة»[(١)].

٣ — تواضعه ﷺ لصحابته:

❖ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أَغمَرَ بطنَه، أو اغبرَّ بطنُه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ❖ ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ❖ وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ❖ إذا أرادوا فتنة أبينا»

ورفع بها صوته: «أبينا أبينا»[(٢)].

❖ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل تُرعَدُ فرائصه، فقال له: «هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[(٣)].

٤ — تواضعه ﷺ مع الصغير والضعيف والمسكين:

❖ فقد أوصاه الله تعالى بهذا فقال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، (٥/٢٢٤٥/ح ٥٦٩٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، (٤/١٥٠٦/ح ٣٨٧٨).

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب القديد، (٢٦٧٧/ح٣٣١٢)، والحاكم في المستدرك، (٣/٤٧ـ٤٨)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات»، (٤/١٩).



بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (الكهف: ٢٨)، وقال: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٢).

❖ وعن أنس ﷺ: «أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها»[(١)].

❖ وعنه ﷺ قال: «كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»[(٢)].

❖ وعنه ﷺ أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال: «كان النبي ﷺ يفعله»[(٣)].

٥ - ولما كان ﷺ متصفاً بالتواضع كان آمراً به فقال ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[(٤)].

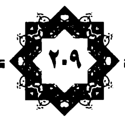
---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس، وتبركهم به، (٤/١٨١٢/ ح٢٣٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، (٥/٢٢٥٥/ح ٥٧٢٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، (٥/٢٣٠٦/ح ٥٨٩٣) واللفظ له، ومسلم، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان، (٤/١٧٠٨/ح ٢١٦٨).

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٤/٢١٩٨/ح ٢٨٦٥).



**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

❖ التواضع صفة جليلة، تجل صاحبها، وترفع من قدره.

- فعن أنس رضي الله عنه قال: «كانت ناقة لرسول الله ﷺ تسمى العضباء، وكانت لا تُسبق، فجاء أعرابي على قَعود له فسبقها، فاشتدَّ ذلك على المسلمين، وقالوا سُبِقَت العضباء، فقال رسول الله ﷺ: إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»[1].

قال ابن حجر: «فإن فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع والحث على التواضع والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة» قال ابن بطال: «فيه هوان الدنيا على الله والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة وأن كل شيء هان على الله فهو في محل الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويقل منافسته في طلبه»، وقال الطبري: «في التواضع مصلحة الدين والدنيا فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة»، قلت: وفيه أيضا حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه لكونه رضي أن أعرابيا يسابقه»[2].

- وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (٥/٢٣٨٤/ح ٦١٣٦).

(٢) «فتح الباري»: (١١/٣٤١)، وانظر «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: (١٠/٢١٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب العفو والتواضع، (٤/٢٠٠١/=

❖ والتواضع كله خير، فهو: «يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصدَّ، ويجلب المحبة، وتواضع الشريف يزيد في شرفه»(١).

❖ ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فليتواضع ولاة الأمر - على اختلاف درجاتهم - لرعاياهم، وليتواضع الأغنياء للفقراء، والرفعاء للوضعاء، والأولى والأجدر بالتواضع إنما هم العلماء لأنهم ورثة الأنبياء، وما زاد العلم صاحبه إلا تواضعاً، يقول ابن القيم: «التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه»(٢).

❖ ومن لطيف ما ذكره ابن القيم رحمه الله في التواضع: «والتواضع المحمود على نوعين:

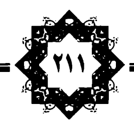
- **النوع الأول**: تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً، وعند نهيه اجتناباً، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشرود هرباً من

---

=ح٢٥٨٨).

(١) «من أخلاق الرسول ﷺ» لمحمد عبد العاطي بحيري: (١٧٢).

(٢) «الروح» لابن القيم: (١/ ٢٣٣).



العبودية، وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

- **والنوع الثاني**: تواضعه لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه، ذكر عظمة الرب تعالى، وتفرده بذلك، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع»[1].



(١) «الروح» لابن القيم: (١/ ٢٣٤).

# الفصل الثالث

# الصفات المتعلقة بالرسالة والنبوة

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: الرسالة وعمومها.
- المبحث الثاني: النبوة وختمها به ﷺ.
- المبحث الثالث: البلاغ والدعوة إلى الله.
- المبحث الرابع: الاستشارة.

# الفصل الثالث

# الصفات المتعلقة بالرسالة والنبوة

## توطئة:

الرسالة والنبوة.. هما أعظم ما اتصف به المصطفى ﷺ من الصفات..

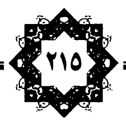
فلهما اصطفاه الله جل وعلا من فوق سبع سماوات، للقيام بشأنهما، وأداء حقهما، فكانتا أثقل وأعظم حِمْلٍ تحمله ﷺ، حتى بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وأقام به الله الملة، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وبه فتح الله قلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، فأنقذ به البشرية من دركات النار - إلا من غوى، واتبع الهوى - إلى جنان العزيز الغفار..

وبهما بلغ ﷺ أسمى المناقب، وأعلى المراتب في الدنيا والآخرة..

ومنهما انبعث ضياء صفاته ﷺ الأخرى، حيث طلعت شمس الرسالة.. فأضاءت قمر النبوة.. فأنار نجوم صفاته ﷺ.. فسطعت بجلالها، وكمالها، لتزين سماء أعظم تاريخ عرفته البشرية إلى قيام الساعة، فبات ﷺ كامل الأوصاف، فريد الشمائل، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين..

وبما أن هذا الفصل تختلف طبيعته عن بقية الفصول السابقة واللاحقة، فستختلف طريقة عرضه، وذلك تبعاً للآيات ذات الكثرة المتناهية في المبحثين الأولين..





# المبحث الأول

# الرسالة وعمومها

## المبحث الأول

## الرسالة وعمومها

### أولاً: المعنى اللغوي:

**١ - المعنى اللغوي للرسالة:**

أصلها من (رَسَلَ) وهي مادة تدل على التتابع والاسترسال:

قال ابن فارس: «(رَسَلَ): الراء والسين واللام: أصل واحد مُضْطَرد مُنْقاس، يدل على الانبعاث والامتداد»[١].

وقال شيخ الإسلام: «ورسول: فعول بمعنى: (مَفْعول)، أي: مرسل، فرسول الله: الذي أرسله الله»[٢].

**٢ - المعنى اللغوي للعموم:**

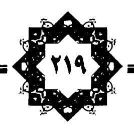
من دلالات العموم أنه يدل على الجماعة والكثرة، قال ابن فارس: «(عَمَّ) العين والميم أصل صحيح واحد، يدل على الطول والكثرة والعلو قال ابن الأعرابي العم الجماعة من الناس، ومن الجمع قولهم: عمنا هذا الأمر يعمنا عموما إذا أصاب القوم أجمعين قال والعامة ضد الخاصة»[٣].

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/٣٩٢).

(٢) «النبوات» لابن تيمية: (١/١٧٧)، وسيُبسط التعريف أكثر عند الكلام على الرسول والنبي: ص (٢٤٢).

(٣) «مقاييس اللغة»: (٤/١٨).



**ثانياً: تقسيم الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بالرسالة وعمومها:**

إن الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بالرسالة وعمومها، ستكون مندرجة تحت الدراسة الموضوعية التفسيرية لصفة الرسالة للنبي ﷺ في القرآن، وقد وصف ﷺ بالرسالة في القرآن الكريم على طريقين رئيسين:

أ/ إما وصفه ﷺ بالرسالة فقط دون النبوة، وذلك في موضوعات محددة.

ب/ وإما وصفه ﷺ بالرسالة تارة وبالنبوة أخرى في نفس الموضوع.

**وفيما يلي ذكر الآيات على حسب التقسيم المذكور:**

**أ – الموضوعات التي وصف فيها بالرسالة فقط:**

**١ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن الإيمان به ﷺ عطفاً على الإيمان بالله جل وعلا.**

وقد جاء الحديث في ذلك دائراً بين محورين:

**(أ) الخبر:**

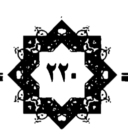
- كما في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ (الحجرات: ١٥).

- وقوله: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الصف: ١١).

**(ب) الإنشاء:**

**١ – بصيغة الأمر:**

- وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾



(النساء: ١٣٦).

- وقوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (الحديد: ٧).
- وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ ﴾ (التغابن: ٨).

**٢ – بصيغة التعليل:**

- وقوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ (الفتح: ٩).
- وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ ﴾ (المجادلة: ٤).

**٢ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن طاعته والاستجابة له ﷺ:**

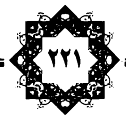
وقد ورد الحديث عن طاعته ﷺ في القرآن الكريم على إطلاقين: **الوعد، والأمر:**

**أما الوعد:**

فقد جاء الوعد على طاعته ﷺ بالأمور التالية:

١ – الوعد بالرحمة: كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ (التوبة: ٧١).



٢ – الوعد بالجنات والفوز العظيم:

كما في الآيات التالية:

- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (النساء: ١٣).

- وقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وكما في (الأحزاب: ٧١).

- وقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (الفتح: ١٧).

٣ – الوعد برفقة المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩).

٤ – الوعد بعدم نقصان الأجور: كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ ﴾ (الحجرات: ١٤).

٥ – الوعد بالفلاح: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١).

**وأما الأمر ففي المواضع التالية:**

- في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ (آل عمران: ٣٢).

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ (النساء: ٥٩).

- وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ ﴾ (المائدة: ٩٢).

- وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ (الأنفال: ١).

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠).

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

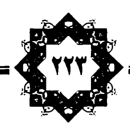
- وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ ﴾ (النور: ٥٤).

- وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٦).

- وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ (المجادلة: ١٣).

- وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ ﴾ (التغابن: ١٢).

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد: ٣٣).



**٣ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن معصيته ﷺ :**

وقد جاءت بلفظ المعصية، والمشاقة، والمحادة:

**(أ) المعصية:**

- وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ (النساء: ١٤).

- وقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا** ﴾ (النساء: ٤٢).

- وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا** ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

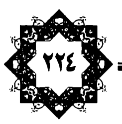
- وقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ** ﴾ (المجادلة: ٩).

- وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا** ﴾ (الجن: ٢٣).

**(ب) المشاقة:**

- وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا** ﴾ (النساء: ١١٥).

- وقوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**



فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ١٣).

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (محمد: ٣٢).

(ج) المحادة:

- وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ٦٣).

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ (المجادلة: ٥).

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ (المجادلة: ٢٠).

**٤ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن بلاغه ﷺ للأمة:**

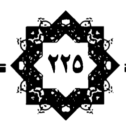
وذلك على طريقتين:

**أ/ الأمر الصريح له ﷺ بالبلاغ.**

وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ (المائدة: ٦٧).

**ب/ بأسلوب الحصر والقصر.**

- وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾



(المائدة: ٩٢).

- وقوله: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (المائدة: ٩٩).

- وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (العنكبوت: ١٨).

- وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢).

**٥ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض تعليل إرساله لتبيينه ﷺ للناس دينهم:**

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (المائدة: ١٥).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (المائدة: ١٩).

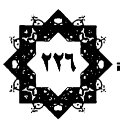
- وقوله: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ (الزخرف: ٢٩).

- وقوله: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ (الدخان: ١٣).

**٦ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض وصف ما جاء به ﷺ:**

- وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣)، و(الصف: ٩).

- وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ



كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح: ٢٨).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (النساء: ١٧٠).

**٧ – وصفه ﷺ بالرسالة في كونه ﷺ من العرب عامة ومن قومه خاصة:**

- كقوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ (البقرة: ١٥١).

- وقوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

- وقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

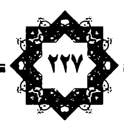
- وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢).

**٨ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن إخوانه من الرسل قبله عليهم السلام:**

- كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١).

- وقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

- وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴾



(الرعد: ٣٨).

- وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف: ٦).

**ب - الموضوعات التي وصف فيها بالرسالة تارة، وبالنبوة تارة أخرى:**

**١ - وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن المؤمنين:**

أ/ عند الحديث عن الأدب معه ﷺ وواجبهم عند ذكره ﷺ:

**❖ منها ما ورد بصفة الرسالة:**

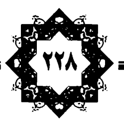
- كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ ﴾ (الحجرات: ١).

- وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٣).

ب/ عند الحديث عن ولايته ﷺ للمؤمنين، وكونه أولى بهم حتى من أنفسهم، وكون الله حسبه وإياهم:

**❖ منها ما ورد بصفة الرسالة:**

- كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (المائدة: ٥٥).



**٢ – وصفه ﷺ في معرض الحديث عن المنافقين:**

وردت آيات كثيرة تتحدث عن بعض علاقات المنافقين بالرسول ﷺ وأعمالهم وطرائقهم إلى غير ذلك، أكثرها وردت بصفة الرسالة، وقليل منها بصفة النبوة، على ما سيأتي بيانه:

❖ **وأكثر الآيات في ذلك ورد من ذلك بصفة الرسالة:**

- كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴾ (النساء: ٦١).

- وقوله: ﴿ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ** ﴾ (التوبة: ٥٤).

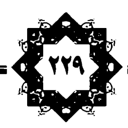
- وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ** ﴾ (التوبة: ٥٩).

- وقوله: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (التوبة: ٦٢).

- وقوله: ﴿ **قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ** ﴾ (التوبة: ٦٥ ـ ٦٦).

- وقوله: ﴿ **وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾ (التوبة: ٧٤).

- وقوله: ﴿ **ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ**



ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٨٠).

- وقوله: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٨١).

- قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة: ٨٤).

- وقوله: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ (التوبة: ٨٦).

- وقوله: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ (التوبة: ٩٠).

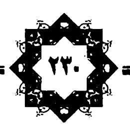
- وقوله: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (التوبة: ٩٤).

- وقوله: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ ﴾ (التوبة: ٩٧).

- وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

- وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (التوبة: ١٠٧).

- وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ



بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٤٧).

- وقوله: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (النور: ٤٨).

- وقوله: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ (النور: ٥٠).

- وقوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢).

- وقوله: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (المنافقون: ١).

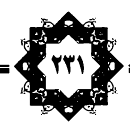
**٣ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن الكفار وأهل الكتاب:**

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة عن الكفار وأهل الكتاب ولكن التي ورد فيها ذكر النبي ﷺ منها قليل، غالبها وردت بصفة الرسالة كما يلي:

**❖ ما ورد منها بصفة الرسالة:**

- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة: ٨٣).

- وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ ﴾ (المائدة: ١٠٤).



- وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الممتحنة: ١).

- وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ (المجادلة: ٨).

- وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٢٧).

**٤ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن الجهاد:**

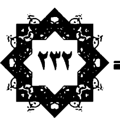
في سياق بعض الآيات التي تتصل بالجهاد نجد أن النبي ﷺ وصف حيناً بالرسالة وحيناً أخرى بالنبوة:

**❖ فما ورد منها بصفة الرسالة:**

- كقوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٣).

- وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ ﴾ (الأنفال: ١).

- وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (الأنفال: ٤١).



❖ **ومن الآيات التي وصف فيها بعمومية رسالته:**

- قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

- وقوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (سبأ: ٢٨).

- وقوله تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ (الفرقان: ١).

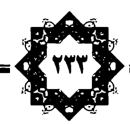
وبعد ذكر الآيات في كل موضوع بحسبه أشرع مستعينة بالله تعالى ـ ونظراً للكثرة الواضحة في الآيات ـ في عرض نبذ من أقوال المفسرين **في آيات منتقاة من كل موضوع بحسبه**، على ضوء التقسيم الموضوعي السابق، بحيث تتكون النظرة التفسيرية الشاملة لمجموعة الآيات في كل موضوع تحت كل عنوان فأقول مستعينة بالله:

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

**عند تأمل مجموع الآيات التي ورد فيها وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن طاعته ﷺ يلاحظ ما يلي:**

- في أمر طاعته ﷺ كثيرا ما يأتي القرآن إلا بلفظ الرسول دون النبي ﷺ.

- كثيراً ما يأتي عطف الأمر بطاعته ﷺ على طاعة الله تعالى.



- كثيراً ما يرتب القرآن طاعة الله تعالى على طاعة رسوله ﷺ.

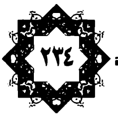
- رتب تعالى على طاعة رسوله ﷺ الأمور المذكورة في الوعد.

- كثيراً ما يؤكد القرآن طاعة الرسول ﷺ بأمر ما، كالأمر بالاستجابة له ﷺ، أو النهي عن عدم التولي، أو الأمر بالحذر، ونحو ذلك.

- كثيراً ما يصدرها تعالى بالنداء بوصف الإيمان؛ تنشيطاً إلى الإقبال على الامتثال بما سيأتي بعد النداء من أوامر، وأن فيهم الإيمان الموجب لهذا الامتثال.

- وعند تأمل مجموع الآيات التي وصف فيها ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن معصيته ﷺ يلاحظ أن الله تعالى رتب على معصية رسوله ﷺ الأمور التالية:

- تعدي حدوده تعالى.
- الخلود في النار.
- العذاب المهين.
- الضلال المبين.
- الكبت (الذل).
- رغبة عصاته ﷺ بتسوية الأرض بهم.
- الخزي والعذاب الذي يقع عليهم.
- نهي المؤمنين عن موادتهم.



**❖ من آيتي سبأ والفرقان:**

الفرق بين آية سبأ وآية الفرقان، في كونه ﷺ وصف بعمومية الرسالة متبوعاً هذا الوصف بوصفي البشارة والنذارة، أما في آية الفرقان فبوصف النذارة دون البشارة، قال ابن عاشور: «والاقتصار في وصف الرسول ﷺ هنا على النذير دون البشير كما في قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سبأ: ٢٨)؛ لأن المقام هنا لتهديد المشركين، إذ كذبوا بالقرآن وبالرسول ﷺ، فكان مقتضياً لذكر النذارة دون البشارة، وفي ذلك اكتفاء؛ لأن البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة»[(١)].

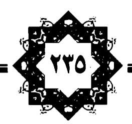
**❖ وعند تأمل مجموع الآيات في صفة الرسالة يلاحظ أنه غالباً ما يذكر وصف الرسول ﷺ بعنوان الرسالة للأغراض التالية:**

- للإشعار بعلة الاتباع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

- للإشعار بأن الرسول ﷺ صاحب كتاب مجيد وشرع جديد، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

- لتشريفه ﷺ وزيادة تقبيح حال مكذبيه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾

(١) «تفسير أبي السعود»: (١٨/٣١٧).



(النساء: ٤٢).

- للإيذان بأن الرسالة من موجبات تبليغ ما أوحي إليه ﷺ من ربه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ (المائدة: ٦٧).

- عند إضافة عنوان الرسالة إلى لفظ الجلالة، فإن ذلك غاية في التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦١).

- لتأكيد رسالته ﷺ وإحقاق الحق إزاء رفض وتكذيب الكفار له، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٣٠).

- لزيادة التشنيع على الكفار واستعظام معاصيهم تجاهه ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ (المجادلة: ٨).

❖ **كثيراً ما يرد وصف الرسول ﷺ والمراد أمته**، قال ابن عاشور: «فكل حكم تعلق به بعنوان الرسالة، فالمراد منه أمته؛ لأن ما يثبت له من المعلومات في باب العقائد والتشريع فهو حاصل لهم»(١).

❖ **الفائدة من وصفه ﷺ بالرسالة عَقِبَ ذكره باسمه العلم ﷺ:**

قال ابن عاشور: «وقد يتعين إجراء اسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٦٦٤/١).



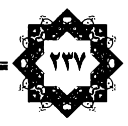
كقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الفتح: ٢٩)، وقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، وتلك مقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله ﷺ، أو تلقين لهم بأن يسمُّوه بذلك ويدْعوه به، فإنَّ علم أسمائه من الإيمان؛ لئلا يلتبس بغيره»[1].

## رابعاً وخامساً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

لترابط صفتي الرسالة والنبوة ترابطاً وثيقاً، فإني أرجئ الحديث عن تمثل صفة الرسالة في النبي ﷺ إلى حين الكلام على تمثل صفة النبوة فيه ﷺ، في المبحث التالي، وكذلك في ذكر التأسي به في هاتين الصفتين إن شاء الله تعالى.



(١) «التحرير والتنوير»: (٢١/٢٤٩ ـ ٢٥٠).



# المبحث الثاني

# النبوة وختمها به ﷺ

## المبحث الثاني

## النبوة وختمها به ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي، والاصطلاحي:

**١ - المعنى اللغوي للنبوة:**

النبوَّة: الارتفاع.

قال ابن فارس: «(نَبَوَ): النون والباء والحرف المعتل: أصل صحيح، يدل على ارتفاع في الشيء عن غيره، أو تَنَحٍّ عنه... ويقال: إن النبي ﷺ اسمه من النبوة، وهو الارتفاع كأنه مفضل على سائر الناس برفع منزلته»(١).

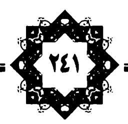
**٢ - المعنى اللغوي للختم:**

الختم على الشيء: الطبع على آخره، فلا يكون بعده شيء.

قال ابن فارس: «(خَتَمَ): الخاء والتاء والميم: أصل واحد وهو: بلوغ آخر الشيء، يقال: ختمت العمل، وختم القارئ السورة، فأما الخَتْمُ، وهو الطبع على الشيء، فذلك من الباب أيضا؛ لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره، والنبي ﷺ خاتم الأنبياء؛ لأنه آخرهم؛ وختام كل مشروب آخره، قال الله تعالى: ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ (المطففين: ٢٦)، أي: إن آخر ما يجدونه منه عند

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٥/٣٨٤ ـ ٣٨٥).



شربهم إياه رائحةَ المسك»[1].

- **أما عن المعنى الاصطلاحي، فيترتب على مسألة: (الفرق بين الرسول والنبي)، وقد** انقسم العلماء فيها إلى قسمين:

١ – قسم يرى الفرق بين كل من الرسول والنبي، وأنه ليس كل نبي رسولاً، ويستدلون بما يلي:

❖ بقوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ** ﴾ (الحج: ٥٢):

حيث عطف النبي على الرسول، على أن العطف يقتضي المغايرة، مما يدل على مغايرة الرسول للنبي.

❖ أن كلا الوصفين وردا في حق شخص واحد، كما في قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ (مريم: ٥١)، وفي إسماعيل عليه السلام: ﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ (مريم: ٥٤)، حيث إن ذكر الوصفين معاً في مورد واحد يدل على التغاير بينهما.

❖ ومن السنة: حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم، نبي مكلم؟ قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً»، وفي رواية: قال أبو ذر: «قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/٢٤٥).



قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً»[1].

فلو كان الرسول هو نفس النبي لتساوى عدد الأنبياء والرسل.

٢ – وقسم يرى عدم الفرق بين الرسول والنبي، مستدلين بمساواة القرآن بينهما:

❖ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (النساء: ١٦٣).

❖ وكما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ (يوسف: ١٠٩).

«وهكذا نرى من خلال عرض هذه الآيات أن القرآن الكريم لا يفرق في خطابه بين النبي والرسول، لا في الوحي إليهم، ولا فيما تعرض له كل منهم من اضطهاد وتكذيب، كما أنه يذكرهم في التفضيل تارة بوصف النبوة، وأخرى

---

(١) رواه أحمد، من طريق عبيد بن الخشخاش، (٤٣١/٣٥/ح ٢١٥٤٦)، قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده ضعيف جداً؛ لجهالة عبيد بن الخشخاش، ولضعف أبي عمر الدمشقي، وقال الدارقطني: «المسعودي عن أبي عمر الدمشقي متروك»، المسعودي: هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة»، والحديث فيه علل كثيرة، والحديث عنه مستوفى في كتاب: «الأحاديث في نبوة آدم، دراسة حديثية»: (٢١).

بوصف الرسالة، وينص على أن كلاً منهم قد أرسل»[1].

❖ **والذي يظهر والله تعالى أعلم ترجح قول القائلين بالفرق؛ لقوة أدلتهم، ووجه الدلالة منها ـ خاصة أدلتهم من القرآن ـ ثم إنهم ذكروا أقوالاً عدة في وجه الفرق بين الرسول والنبي بأمور:**

«الأول: أن النبي من أتاه الوحي من الله عز وجل، ونزل عليه الملك، والرسول من يأتي بشرع على الابتداء، أو بنسخ بعض شريعة من قبله.

الثاني: أن النبي من أوحى الله إليه بشرع، لكنه لم ينزل عليه كتاب، والرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه.

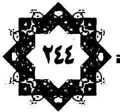
الثالث: الفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه، إذ النبي إنسان أوحي إليه بشرع، فإن أمر بتبليغه والدعوة إليه فهو نبي رسول، وإلا فهو نبي غير رسول، وهذا هو المشهور.

وقد رُدَّ على هذه الأوجه جميعها:

أما الوجه الأول: فإنه يلزم عليه أن لا يكون يعقوب، وإسحاق، وسليمان، وكثير من أنبياء بني إسرائيل رسلاً، لأنهم لم يأتوا بشريعة جديدة، وإنما كانت شريعتهم التوراة، كما أن القرآن قد سماهم رسلاً.

وأما الوجه الثاني: فيلزم عليه أن لا يكون يونس، ولوط، وإسماعيل، وشعيب رسلاً، لأنهم لم ينزل عليهم كتاب.

(١) «معالم النبوة في الكتاب والسنة» لخالد العك: (٣١).



وأما الوجه الثالث: وهو الفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه فوجه الاعتراض عليه هو: أن العقل لا يسيغ أن يوحي الله إلى إنسان بشرع ولا يأمره بتبليغه؛ لأن الشرع علم وأمانة، وأداء العلم واجب، وكتمانه نقص ورذيلة»[1].

❖ **والذي تميل إليه النفس ـ في وجه الفرق بينهما ـ هو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: أن الرسول والنبي كلاهما أوحي إليه، بيد أن الرسول يرسل إلى كفار يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق كالعالم، كما أنه ليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة، فالعبرة إذاً بمن يبعث إليهم، والله تعالى أعلم[2].

❖ **في الكلام على تحقيق الهمز في لفظ (النبي) أو طرحه:**

«يجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه، يقال نَبَأَ ونبَّأَ وأنبأ، قال سيبويه: «ليس أحد من العرب إلا ويقول تنبأ مسيلمة، بالهمز، غير أنهم تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الذرية والبرية والخابية، إلا أهل مكة، فإنهم يهمزون هذه الأحرف ولا يهمزون غيرها، ويخالفون العرب في ذلك».. ومن المهموز شعر عباس بن

---

(١) «معالم النبوة في الكتاب والسنة» لخالد العك: (٣١).

(٢) انظر: «النبوات»: (٢/٧١٤ ـ ٧١٧ ـ ٧١٨).

مرداس[1] يمدحه:

يا خاتم النباء إنك مرسل ❖ بالحق كل هدى السبيل هداكا

ومن الأول حديث البراء وفيه قال: قلت: «ورسولك الذي أرسلت» فرد علي وقال: «ونبيك الذي أرسلت»[2] إنما رد عليه ليختلف اللفظان ويجمع له الثناء بين معنى النبوة والرسالة، ويكون تعديداً للنعمة في الحالين، وتعظيماً للمنة في الوجهين»[3].

## ثانياً: تقسيم الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بالنبوة:

إن الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بالنبوة، ستكون مندرجة تحت الدراسة الموضوعية التفسيرية لصفة النبوة للنبي ﷺ في القرآن، فقد وصف ﷺ بالنبوة في القرآن الكريم على طريقين رئيسين:

أ/ إما وصفه ﷺ بالنبوة فقط دون الرسالة، وذلك في موضوع محدد.

ب/ وإما وصفه ﷺ بالرسالة تارة وبالنبوة أخرى في نفس الموضوع كما مضى في المبحث السابق.

---

(١) هو: عباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، أبو الهيثم، ويقال: أبو الفضل، له صحبة، أسلم قبل الفتح، وشهد فتح مكة، وهو من المؤلفة، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، ونزل ناحية البصرة، روى عن النبي ﷺ»: انظر: «تهذيب التهذيب»: (١١٤/٥)

(٢) هذا جزء من حديث البراء رضي الله عنه، الذي أخرجه البخاري، كتاب الدعوات...، باب النوم على الشق الأيمن: (٢٣٢٧/٥/ح ٥٩٥٦).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الجزري: (٣٨٤/٤ ـ ٣٨٥).



وفيما يلي ذكر الآيات على حسب التقسيم المذكور:

أ – الموضوعات التي وصف فيها بالنبوة فقط:

وذلك في شأن زوجاته ﷺ، على ثلاثة محاور:

١ – بنداء النبي ﷺ:

- كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٢٨).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

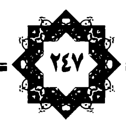
- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التحريم: ١).

٢ – بنداء نسائه عليهن السلام، وإضافتهن إليه ﷺ بعنوان النبوة:

- كقوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٠).

- وقوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (الأحزاب: ٣٢).



٣ – على وجه الخبر:

- وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ ﴾ (التحريم: ٣).

**ب – الموضوعات التي وصف فيها بالرسالة تارة، وبالنبوة تارة أخرى:**

**١ – وصفه ﷺ في معرض الحديث عن المؤمنين:**

أ/ عند الحديث عن الأدب معه ﷺ وواجبهم عند ذكره ﷺ:

❖ منها ما ورد بصفة النبوة:

- كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات: ٢).

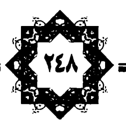
- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

- وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

ب/ عند الحديث عن ولايته ﷺ للمؤمنين، وكونه أولى بهم حتى من أنفسهم، وكون الله حسبه وإياهم:

❖ ومنها ما ورد بصفة النبوة:

- كقوله: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٦).



- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٤).

**٢ – وصفه ﷺ في معرض الحديث عن المنافقين:**

وردت آيات كثيرة تتحدث عن بعض علاقات المنافقين بالرسول ﷺ وأعمالهم وطرائقهم إلى غير ذلك، أكثرها وردت بصفة الرسالة، وقليل منها بصفة النبوة، على ما سيأتي بيانه:

❖ وما ورد من ذلك بصفة النبوة:

- **كقوله تعالى:** ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ ﴾ (التوبة: ١١٧).

- وقوله: ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ ﴾ (التوبة: ٦١).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (التوبة: ٧٣)، (التحريم: ٩).

- وقوله: ﴿ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ (الأحزاب: ١٣).

**٣ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن الكفار وأهل الكتاب:**

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة عن الكفار وأهل الكتاب ولكن التي ورد فيها ذكر النبي ﷺ منها قليل، غالبها وردت بصفة الرسالة كما يلي:



❖ وما ورد منها بصفة النبوة:

- قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ (التوبة: ١١٣).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (التوبة: ٧٣)، (التحريم: ٩).

**٤ – وصفه ﷺ بالرسالة في معرض الحديث عن الجهاد:**

في سياق بعض الآيات التي تتصل بالجهاد نجد أن النبي ﷺ وصف حيناً بالرسالة وحيناً أخرى بالنبوة:

❖ وما ورد منها بصفة النبوة:

- كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ ﴾ (الأنفال: ٦٥).

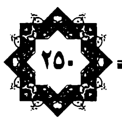
- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ ﴾ (الأنفال: ٧٠).

**❖ ووصف ﷺ بختمه للنبوة في:**

- **قوله تعالى:** ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

- **من قوله تعالى:** ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ ﴾ (الأحزاب: ٣٢):



لم يقل تعالى: (كواحدة) بل قال: (كأحد)، والسبب:

قال الشوكاني: «قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء؛ لأن (أحد) نفي عام للمذكر والمؤنث والواحدة والجماعة، وقد يقال على ما ليس بآدمي، كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة ولا بعير، والمعنى: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل»[1].

- **من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾** (التوبة: ١١٣):

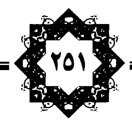
قال ابن عاشور: «وقد ذكر أهل التفسير أن ﴿ مَا كَانَ ﴾ في القرآن يأتي على وجهين: الأول: على النفي، نحو: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، والآخر: على معنى النهي، نحو: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، و﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (التوبة: ١١٣)»[2].

- **يمكن استنتاج مقارنة سريعة بين وصفه ﷺ في القرآن بالرسالة، ووصفه بالنبوة على ضوء التقسيم الموضوعي السابق:**

١ – الآيات التي وصف فيها ﷺ بالرسالة أكثر بل هي الضعف تقريباً من

(١) «فتح القدير»: (٤/٢٧٧).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢/٤١٠).



آيات وصفه بالنبوة، فآيات وصفه بالرسالة أكثر من ستين آية، وآيات وصفه بالنبوة أكثر من ثلاثين آية.

٢ – نداؤه ﷺ في القرآن إنما ورد بصفة النبوة في ثلاثة عشر موضعاً، بينما لم يرد بوصف الرسالة إلا في موضعين.

٣ – عند عطف ذكره ﷺ على لفظ الجلالة يعطف بصفة الرسالة فقط دون النبوة.

٤ – ذكر النبي ﷺ بصفة النبوة فقط في شأن أزواجه ـ رضي الله عنهن ـ، ما عدا في آية واحدة وليس فيها نداؤه ﷺ، وهي في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ (الأحزاب: ٣١).

- كثيراً ما يأتي وصف النبي ﷺ بعنوان النبوة للإشعار بعلية الحكم، «كأنه قيل: يا أيها النبي ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ أي كافيك في جميع أمورك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحراب لنبوتك»[1].

**❖ في ندائه ﷺ بوصف النبوة:**

قال ابن عاشور: «ونداء النبي عليه الصلاة والسلام بوصف النبوءة دون اسمه العلم، تشريف له بفضل هذا الوصف، ليُربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره ولذلك لم يناد في القرآن بغير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ (الأنفال: ٦٤)، أو

(١) «روح المعاني» للألوسي: (١٠/٣٠).



﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ (المائدة:٦٧)، بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف، كقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ (التحريم:٨)، ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ ﴾ (الفرقان: ٣٠)، ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (الأنفال: ١)، ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٦)، ويجيء باسمه العلم كقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤٠))»[1].

## رابعاً وخامساً: تمثل هاتان الصفتان فيه ﷺ، والتأسي به ﷺ في هاتين الصفتين:

إن ميزة هاتين الصفتين بالذات، أنهما جمعتا كل الصفات المذكورة في هذا البحث المتواضع، فهي تندرج تحتهما، وتتفرع عنهما، لذا ليس لي أن أقول هنا إلا القليل، وعلى الصفة المرادة أحيل، فأقول:

**❖ كان رسول الله ﷺ هو الرسول البشر:**

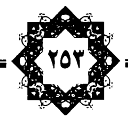
كان رسول الله ﷺ الرسول النبي الذي بعثه الله بشراً[2] ولكنه علا على كل البشر، بما يليق بمقامه الكريم، وسمته القويم، ودله المستقيم ﷺ، فجمع أحسن صفات البشر من التواضع[3]، والصدق[4]، والخلق

(١) «التحرير والتنوير»: (٢١/٢٤٩).

(٢) انظر: صفة البشرية، في المبحث الثاني من الفصل الثاني، ص: (١٢٥).

(٣) انظر: صفة التواضع، في المبحث السادس من الفصل الثاني، ص: (١٩٩).

(٤) انظر: صفة الصدق، في المبحث الخامس من الفصل الثاني، ص: (١٧٧).



العظيم[(١)]، وحسن تعامله مع أمته بالرفق واللين[(٢)]، والرحمة البالغة[(٣)]، والحرص على المؤمنين[(٤)]، والبراءة من المشركين[(٥)]، فكان نعم القدوة[(٦)] للمسلمين.

❖ **وكان رسول الله ﷺ هو الرسول المبلغ:**

في إبلاغه الأمانة، وفي دعوته إلى ربه[(٧)]، في بشارته ونذارته[(٨)]، في بيانه وتذكيره[(٩)]، في تربيته الأمة وفي تعليمه[(١٠)]، في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر[(١١)]، في إرشاده وهدايته[(١٢)]، في بيان العقائد[(١٣)]، والعبادات[(١٤)]، والمعاملات.

---

(١) انظر: صفة الخلق العظيم، في المبحث الرابع من الفصل الثاني، ص: (١٥٩).

(٢) انظر: المطلب الرابع، من المبحث الأول، من الفصل الرابع، ص: (٣٤٦).

(٣) انظر: الإحالة السابقة.

(٤) انظر: الإحالة السابقة.

(٥) انظر: المطلب الثالث، من المبحث الأول، من الفصل الرابع، ص: (٣١٩).

(٦) انظر المطلب الخامس، من المبحث الأول، من الفصل الرابع، ص: (٣٧٦).

(٧) انظر صفة البلاغ، والدعوة إلى الله من هذا الفصل الثالث، ص: (٢٥٩).

(٨) انظر صفتي البشارة والنذارة من الفصل الرابع، ص: (٢٨٩).

(٩) انظر صفتي البيان والتذكير من الفصل الرابع، ص: (٣٠٢).

(١٠) انظر صفتي التزكية والتعليم من الفصل الرابع، ص: (٣٩٩، ٤١٧).

(١١) انظر صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفصل الخامس، ص: (٤٥٩).

(١٢) انظر صفة الهداية من الفصل الرابع، ص: (٤٤٣).

(١٣) انظر كل مباحث الفصل السادس، ص: (٤٩٨).

(١٤) انظر كل مباحث الفصل السابع، ص: (٥٨٢).

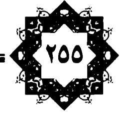


**❖ فكان رسول الله  هو الرسول المصطفى:**

فلما اصطفاه تعالى، خصه، وفضله، وحباه[1]، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

❖ ❖ ❖

(١) انظر كل مباحث الفصلين الثامن، ص: (٨١٣ – ٩١٧)، والتاسع، ص: (٩١٨ – ٩٩٤).



# المبحث الثالث

# البلاغ والدعوة إلى الله

## المبحث الثالث

## البلاغ، والدعوة إلى الله

### أولاً: المعنى اللغوي:

### ١ – المعنى اللغوي للبلاغ:

البلاغ: إيصال الشيء.

قال ابن فارس: «(بَلَغَ): الباء واللام والغين: أصل واحد، وهو: الوصول إلى الشيء، تقول: بلغت المكان: إذا وصلت إليه»(١).

وقال ابن منظور: «بَلَغَ: بَلَغَ الشيءُ، يبلغُ بُلوغاً وبَلاغاً: وصل وانتهى، وأَبلَغه هو: إبلاغاً، وبَلَّغَهُ تَبْلِيغَاً... وتقول: له في هذا بلاغٌ، وبُلْغَةٌ، وتَبَلُّغٌ: أي كفاية... والبلاغ: الإبلاغ. وفي التنزيل العزيز: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ (الجن:٢٣)، أي: لا أجد منجى إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به، والإبلاغ: الإيصال، وكذلك التبليغ، والاسم منه البلاغ»(٢).

### ٢ – المعنى اللغوي للدعوة إلى الله:

الدعوة إلى الله: الترغيب إليه.

قال ابن فارس: «(دَعَوَ): الدال والعين والحرف المعتل: أصل واحد: وهو

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١/٣٠١).

(٢) «لسان العرب»: (٨/٤١٩).



أن تُميلَ الشيءَ إليكَ بصوت وكلام يكون منك»[1].

وقال الزبيدي: «و (الدُّعاءُ)، بالضَّمِّ مَمْدوداً؛ (الرَّغْبَةُ إلى اللَّهِ تعالى) فيمَا عنْدَه مِن الخيْرِ والابْتِهال إليه بالسُّؤَالِ؛ ومنه قوْلُه تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ ﴾ (الأعراف: ٥٥) والنبيُّ ﷺ داعِي اللَّهِ، وهي مِن قوْلِه تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٦)، أَي إلى تَوْحيدِهِ وما يُقَرِّبُ منه»[2].

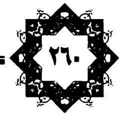
❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بصفة البلاغ:**

- قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠).
- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ (المائدة: ٦٧).
- قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النحل: ٨٢).
- قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤)، و(العنكبوت: ١٨).
- قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ (الرعد: ٤٠).
- قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾ (الشورى: ٤٨).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/٢٧٩).

(٢) «تاج العروس»: (٣٨/٤٦ ـ ٤٧).



- قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢).

❖ **ومن الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالدعوة إلى الله:**

- قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل: ١٢٥).

- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (الحج: ٦٧).

- قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (القصص: ٨٧).

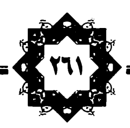
- قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٤٦).

وغيرها من الآيات.

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بـ:

### أ/ صفة البلاغ:

- من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ (المائدة: ٦٧).



أمر ﷺ في هذه الآية صراحة بالبلاغ، قال القرطبي: «قال ابن عباس: المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئا منه، فما بلغت رسالته، وهذا تأديب للنبي ﷺ، وتأديب لحملة العلم من أمته، ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه ﷺ، أنه لا يكتم شيئا من وحيه، وفي صحيح مسلم: عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: من حدَّثك أنَّ محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي، فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ (المائدة: ٦٧)، وقبح الله الروافض، حيث قالوا: إنه ﷺ كَتَمَ شيئاً مما أوحى الله إليه كان بالناس حاجة إليه»[١].

وقال الشنقيطي في الأضواء: «وقد شهد له تعالى بأنه امتثل ذلك الأمر فبلغ على أكمل وجه في مواضع أخر. كقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة: ٣)، وقوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ (الذاريات: ٥٤) إلى غير ذلك من الآيات»[٢].

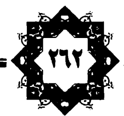
- **ومن قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾** (النحل: ٨٢).

قال الشوكاني: «﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾: أي: إن تولوا عنك ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عذرك فإنما عليك البلاغ لما أرسلت به إليهم المبين أي الواضح وليس عليك غير ذلك وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ

---

(١) «تفسير القرطبي»: (٦/٢٤٣).

(٢) «أضواء البيان»: (٢/٣١٩).



تسلية له، وقد حوّل الخطاب عنهم إلى خطاب النبي ﷺ، وهو نوع من الالتفات، فيه التفات من أسلوب إلى أسلوب، والتفات عمّن كان الكلام موجّهاً إليه، بتوجيه الكلام إلى شخص آخر، والمعنى: كذلك يتمّ نعمته عليكم؛ لتسلموا، فإن لم يُسلموا فإنما عليك البلاغ، والمقصود: تسلية النبي ﷺ على عدم استجابتهم»[1].

- **من قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾** (النور: ٥٤)، و(العنكبوت: ١٨).

قال الطبري: «﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾: يقول: وما على محمد إلا أن يبلغكم عن الله رسالته، ويؤدي إليكم ما أمره بأدائه إليكم ربه، ويعني بالبلاغ المبين: الذي يبين لمن سمعه ما يراد به ويفهم به ما يعني به»[2].

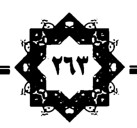
**ب/ صفة الدعوة إلى الله:**

- **من قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾** (النحل: ١٢٥).

قال البغوي: «﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ بالقرآن ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ يعني: مواعظ القرآن، وقيل: الموعظة الحسنة: هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب، وقيل: هو قول اللين الرقيق من غير تغليظ ولا تعنيف، ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى

(١) «فتح القدير»: (١٨٥/٣).

(٢) «جامع البيان»: (١٣٨/٢٠).



**هِىَ أَحۡسَنُۚ ﴾**: وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن، أي: أعرض عن أذاهم، ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق، نسختها آية القتال، **﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾** (النحل: ١٢٥))»[١].

وقال الشنقيطي في الأضواء: «قوله تعالى: **﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٍ ﴾** (الحج: ٦٧)، أمر الله جل وعلا نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يدعو الناس إلى ربهم أي إلى طاعته، وطاعة رسله، وأخبره فيها أنه على صراط مستقيم: أي طريق حق واضح لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي أمره أن يدعو الناس إليه»[٢].

- **قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ ﴾ (يوسف: ١٠٨).**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته، وترك معصيته، سبيلي وطريقتي، ودعوتي أدعو إلى الله وحده لا شريك له على بصيرة بذلك، ويقين علم مني به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضا، من اتبعني وصدقني وآمن بي»[٣].

(١) «معالم التنزيل»: (٣/ ٩٠).

(٢) «أضواء البيان»: (٥/ ٢٩٨).

(٣) «جامع البيان»: (١٣/ ٨٠).



- **قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾** (القصص: ٨٧).

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ولا يصرفنك عن تبليغ آيات الله وحججه بعد أن أنزلها إليك ربك يا محمد، هؤلاء المشركون بقولهم: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، وادع إلى ربك، وبلغ رسالته إلى من أرسلك إليه بها، **﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾**: يقول: ولا تتركن الدعاء إلى ربك، وتبليغ المشركين رسالته، فتكون ممن فعل فعل المشركين بمعصيته ربه وخلافه أمره»[١].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾** (النحل: ٨٢).

- في المجيء بالفعل: (تولوا) على صيغة الماضي:

وذلك لتسليته ﷺ بالإشارة إلى أنهم إن «أعرضوا عن الدعوة فلا تقصير منك ولا غضاضة عليك، فإنك قد بلّغت البلاغ المبين للمحجّة»[٢].

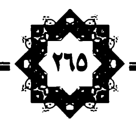
قال أبو حيان: «وفي ذلك تسلية له ﷺ وتخفيف ما كان يجده من عنادهم، فكأنه قيل: لست مسؤولاً عنهم، فلا يحزنك كفرهم»[٣].

---

(١) «جامع البيان»: (١٢٧/٢٠).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٤١/١٤).

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٥٣٨/١).



❖ **أحياناً يرد أمره تعالى لنبيه ﷺ بالدعوة إلى الله، وتارة بالدعوة إلى سبيله:**

قال ابن تيمية رحمه الله: «وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين:

أحدهما: المقصود المراد.

والثاني: الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله، وتارة إلى سبيله سبحانه، هو المعبود المراد المقصود بالدعوة»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾** (النحل: ١٢٥):

- حذف المدعوين للتعميم، قال الشوكاني: «﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة»[2].

- وعبر عن الشريعة بالسبيل «على وجه الاستعارة لإبلاغها إلى المطلوب، وهو الفوز الخالد، كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر، وهي استعارة متكررة في القرآن، وفي كلام العرب»[3].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾**

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٥/١٦٢).

(٢) «فتح القدير»: (٣/٢٠٣).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١٣/٦٥).



(القصص: ٨٧):

قال ابن عاشور: «والأمر في قوله: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله لا إلى إيجاد الدعوة لأن ذلك حاصل، أي لا يصرفك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إعذاراً لهم.

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملاً في الأكمل من أنواعه، أي أنك بعد الخروج من مكة أشد تمكناً في الدعوة إلى الله مما كنت من قبل؛ لأن تشغيب المشركين عليه كان يرنِّق[1] صفاء تفرغه للدعوة»[2].

وقال الشوكاني: «﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدم؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون من المشركين بحال من الأحوال»[3].

## رابعاً: تمثل هاتين الصفتين في النبي ﷺ:

١ – تحمل رسول الله ﷺ مسؤولية البلاغ لهذا الدين عن ربه جل وعلا، كما تحمله الأنبياء من قبله عليهم السلام، إلا أن ما تحمله النبي ﷺ كان أعظم قدراً وأثقل وطأة؛ نظراً لعمومية رسالته ﷺ.

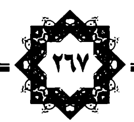
٢ – البلاغ الذي أمره به تعالى هو عام وشامل لكل مراحل حياة الإنسان:

---

(١) (يُرَنِّقُ: يكدر، والرَّنْق: الكَدَر)، انظر: «لسان العرب»: (١٠/١٢٧).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٠/١٩٦).

(٣) «فتح القدير»: (٤/١٨٩).



في دنياه، وبرزخه، وآخرته، وفي كل شؤون الإنسان، ديناً ودنيا.

٣ – قام النبي ﷺ بمهمته في البلاغ على أتم وجه وأكمله ﷺ.

٤ – سلك النبي ﷺ في إبلاغه الدعوة طريقين: الدعوة السرية، ومكث فيها ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو الناس إلى التوحيد، ثم الدعوة الجهرية، عشر سنوات في المدينة، يبين لهم الشرائع ﷺ.

٥ – وسائل البلاغ[1] التي سلكها النبي ﷺ في فترة الدعوة السرية:

أ/ تارة كان يدعوهم للاجتماع ويستنفرهم له، كما فعل ﷺ حين أمره تعالى أن يبلغ عشيرته الأقربين.

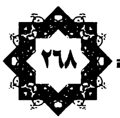
ب/ وتارة كان يقوم بنفسه يصول ويجول في تجمعات الناس ونواديهم وأسواقهم ونسكهم، يبلغهم رسالات ربه، ويطلب أن يحموه؛ حتى يتسنى له إبلاغ رسالة الله على أكمل وجه.

ج/ وتارة يقوم بتكليف من أسلم بتبليغ من لم يسلم، كما أرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة.

٦ – كان من بلاغه في المدينة ﷺ أن بعث البعوث، وكلف الوفود القادمة عليه ﷺ بذلك، وكاتب ﷺ ملوك الأرض يبلغهم رسالة ربه.

٧ – وكان من بلاغه ﷺ أن بلغ القرآن، وذلك في مجالسه، وصلاته، وفتاواه، وقضاءه، ومدارسته إياه لأصحابه رضوان الله عليهم، بل وبعث به

(١) انظر: «أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة» للحداد: (١٠١٢/٢).



المعلمين والقراء لإبلاغه وتعليمه للناس في البلدان المجاورة.

٨ – وكان من بلاغه ﷺ أن بلَّغ السنة، فقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣ ـ ٤)، فكانت كل حياته سنة، على مرأى من أصحابه ومسمع، فبلغت إلينا كما نقلوها لنا سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى.

٩ – حرصه ﷺ على تبليغ الدعوة إلى الناس حتى مع غيابه، أو موته فقال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1].

١٠ – بلَّغ رسول الله ﷺ كل شيء عن ربه حتى عتابه له، فقال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (عبس: ١ ـ ٢).

١١ – حرص رسول الله ﷺ على البلاغ حتى في مرض موته ولحظات حياته الأخيرة، كما في حديث ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كشف رسول الله ﷺ الستر ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه فقال: «اللهم هل بلغت؟ ـ ثلاث مرات ـ إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا، يراها العبد الصالح أو ترى له»»[2].

١٢ – وفيما يلي أمثلة وشواهد على ما سبق من تبليغه ﷺ للأمة:

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (١٢٧٥/٣/ح ٣٢٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع أو السجود، (٣٤٨/١/ح ٤٧٩).



- قال ﷺ: «إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعنتاً»(١).

- وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته: فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعْضكم رقاب بعض»(٢).

❖ **ﷺ بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ﷺ.**

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

١ – على المسلم أن لا يألوَ جهداً في التبليغ عن رسول الله ﷺ، فليثابر، وليجاهد في ذلك، عرفاناً للنبي ﷺ بالجميل، فقد جاهد إلى أن أُدْمِيَ ﷺ، من أجل إيصال هذه الدعوة إلينا، لننجوَ ونفوزَ بسعادة الدارين، فالتبليغ عنه من

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء...، (١١١٣/٢/ح ١٤٧٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، (٦١٩/٢/ح ١٦٥٢) واللفظ له، ومسلم، كتاب القسامة والمحاربي والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، (١٣٠٥/٣/ح ١٦٧٩).

أقل القليل في حقه ﷺ.

٢ – على المسلم أن يزكي علمه بتبليغه.

٣ – من المعين على التبليغ: الحرص على عدم كتمان العلم وتذكر الوعيد في ذلك.

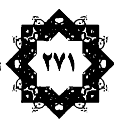
٤ – وجوب تحري الصدق والصحيح في التبليغ، واستحضار الوعيد في الكذب فيه.

٥ – لا يحقر الإنسان من المعروف شيئاً، فليبلغ ولو آية واحدة في حياته.

٦ – الحرص على استحضار النية، وإخلاصها لله تعالى، واحتساب الأجر في التبليغ.

٧ – في البلاغ الأجر العظيم ويدخل ولا شك تحت سن السنة الحسنة في الإسلام.





# المبحث الرابع

# الاســتــشــارة

## المبحث الرابع

## الاستشارة

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الاستشارة:

الاستشارة: استفعال من: (شور)، وهو أخذ الرأي.

قال ابن فارس: «(شَوَرَ): الشين والواو والراء: أصلان مطردان: الأول منهما: إبداء شيء وإظهاره وعرضه، والآخر: أخذ شيء... قال بعض أهل اللغة: من هذا الباب: شاورت فلاناً في أمري، قال: وهو مشتق من شُورِ العسل[1]، فكأن المستشير يأخذ الرأي من غيره»[2].

❖ وُصِفَ النبي ﷺ بصفة الاستشارة في:

- قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

### ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآية:

❖ في معناها:

في هذه الآية الأمر الصريح للنبي ﷺ بأن يشاور أصحابه، ولكن الخلاف

---

(١) أي: استخراجه من الوقبة، واجتناؤه، انظر: «لسان العرب»: (٤/٤٣٤).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٢٢٧/٣).

بين المفسرين في الأمر الذي يشاور أصحابه ﷺ فيه، ما هو؟ ولماذا؟ على ثلاثة أقوال:

١ – قيل: في مكايد الحرب وعند لقاء العدو؛ تطييباً لنفوسهم، وتألفاً لهم على دينهم، قاله: قتادة والربيع[١]، والحسن والضحاك[٢].

٢ – وقيل: في ما حزبهم من أمر دينهم؛ ليتبعه المؤمنون بعده، ويستنوا بفعله ﷺ، قاله: سفيان بن عيينة[٣].

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه، يُلاحظ أنها لا تضاد بينها، فكلها صحيحة متحققة، فالأولى الجمع بينها، والله أعلم.

**وقد رجح الطبري ذلك، جامعاً بين الأقوال، فقال: «قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال:**

إن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه؛ تألفا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه معها فتنة الشيطان، وتعريفاً منه أمته ما في الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته ﷺ يفعله، فأما النبي ﷺ فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٥٢/٤).

(٢) انظر: «المصدر السابق».

(٣) انظر: «المصدر السابق».

حزبه من الأمور، بوحيه أو إلهامه إياه صواب ذلك، وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادق، وتَأَخٍّ[1] للحق وإرادة جميعهم للصواب من غير ميل إلى هوى ولا حيد عن هدى فالله مسددهم وموفقهم»[2].

- **وقال السعدي رحمه الله عن فوائد الشورى:**

«﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

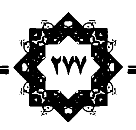
- منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

- ومنها: أن فيها تسميحا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس ـ إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث ـ اطمأنت إليه نفوسهم ـ وأحبوه، وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

---

(١) وتَأَخٍّ أي: تَحَرٍّ للحق، من التَّوَخِّي، قال ابن منظور: «والتوخي: بمعنى التحري للحق... ويقال: توخيت محبتك أي تحريت، وربما قلبت الواو ألفا فقيل تأخيت»، لسان العرب: (١٥/٣٨٢).

(٢) «جامع البيان»: (٤/١٥٣).



- ومنها: أن في الاستشارة تنوير الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

- ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فكيف بغيره؟»[1].

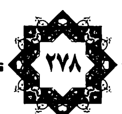
- **والشورى غالبة في طبع أكثر البشر ذوي الفطر السليمة، ومتدرجة في أطوار تاريخ البشرية، وكتب التاريخ تزخر بذلك.**

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

**جاء الأمر الصريح بالمشاورة في سياق تدرج لطيف في الآية: حيث أمر أولاً بالعفو عنهم، ثم بعد ذلك استغفر لهم، فلما زالت عنهم التبعات، شاورهم:**

قال أبو حيان: «أُمِرَ أولاً بالعفو عنهم، إذ عفوه عنهم مسقط لحقه، ودليل على رضاه ﷺ عليهم، وعدم مؤاخذته، ولما سقط حقه بعفوه، استغفر لهم الله؛ ليكمل لهم صفحه وصفح الله عنهم، ويحصل لهم رضاه ﷺ ورضا الله تعالى، ولما زالت عنهم التبعات من الجانبين، شاورهم، إيذاناً بأنهم أهل للمحبة

(١) «تفسير السعدي»: (١/١٥٤).



الصادقة والخلة الناصحة، إذ لا يستشير الإنسان إلا من كان معتقداً فيه المودة والعقل والتجرب»[1].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

❖ لقد كان رسول الله ﷺ من أمتع الناس عقلاً، وأوفرهم ذكاء، وأسرعهم بديهة، وأجودهم تصرفاً، كل ذلك إلى جانب الوحي والتأييد من رب العالمين، ومع ذلك أمر أن يشاور أصحابه لفوائد، منها:

١ – أن يزداد رأيه قوة، إن وافقوه، ويقتنعون هم برأيه إن خالفوه لأن العبرة بقول المعصوم.

٢ – أن يعلم أصحابه أن يستنوا ويقتدوا بهديه في الشورى بعده ﷺ.

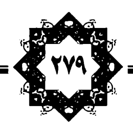
٣ – تعليمهم إشاعة روح الألفة والمحبة والتي تحصل بالمشاورة، بخلاف الوحشة التي تحصل بالاستبداد بالرأي.

**❖ مبدأ الشورى عند النبي ﷺ ظاهر في حياته وكتب السنة طافحة بالأحاديث والآثار في ذلك، ومنها:**

- عن أنس «أن رسول الله ﷺ شاور الناس يوم بدر، فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، إيانا تريد؟ فقال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد فعلنا، فشأنك

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٣/١٠٤).



يا رسول الله، فندب رسول الله ﷺ أصحابه، فانطلق حتى نزل بدرا»[1] الحديث.

- وفي الصحيح في حديث الإفك عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ودعا رسول الله؟ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة أهلك (أهلك) ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك»[2] الحديث.

- وبوب البخاري رحمه الله فقال: باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) «وأن المشاورة قبل العزم والتبين» لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) «فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله»:

وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله»[3].

وغيرها كثير.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٢١٩/ح١٣٣٢٩)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة ح (٣٣٤٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، (١/٢٥٤/ح ٤١٤١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٩/١١٢).

**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

❖ تكون الشورى فيما يستشكل من الأمور، وفيما ترد عليه الاحتمالات، أما إذا وردت النصوص الواضحة، فلا مشورة بعدها.

❖ الشورى في الأمور الكبيرة، والتي تتعلق بمصير الأمة، كالحوادث، والنوازل، وعظائم الأمور التي تُساس بها البلاد، إنما تكون مِن جهة مَن بيده الحَلُّ والعقدُ من العلماء والولاة ومن دونهم.

❖ على المسلم أن يقتدي بالنبي ﷺ في الشورى، في ما يصلح لذلك من أمور، بحسب كان مكانه في المجتمع:

- فالحاكم مع محكوميه:

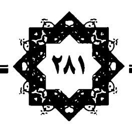
فإن له أكبر الأثر في نجاح المجتمع، وعصمته بإذن الله تعالى من الزلل والمزالق، والميل به عن الفساد، والرجوع به إلى الجادة، كلما حاد عن الصواب.

- ورب الأسرة في بيته:

مع زوجه، وأولاده، فإن هذا له أكبر الأثر في التحام الأسرة، وتآلفها، وثقة الأولاد بآراءهم، وتحملهم للمسؤولية، وشعورهم بأن لهم مكانة مهمة في هذه الأسرة، مما يعود على الأسرة، وعلى شخصهم، بالنماء، فيشقون طريقهم للتميز والإبداع.

- والقائد والرئيس، مع مرؤوسيه، ومن يقودهم:

كبُر هذا المنصب، أو صَغُر، فإن ذلك يؤدي إلى سير العمل بتؤدة وتآلف،

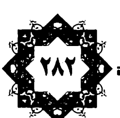


وبصيرة، نافذة إلى المصلحة العامة، فتسير الأمور كما ينبغي، وتشيع روح الألفة والمودة في المجتمع.

❖ لا يُستشارُ إلا من كان أهلاً لذلك، بعلم وحكمة، أو خبرة وفهم فيما يستشار فيه.

❖ المستشار مؤتمن، فليصدق، وليتحر إخلاص النصيحة، وإخلاص الشورى، بدون ميلٍ للهوى، أو غلبة حقدٍ أو حسدٍ والعياذ بالله.





# الفصل الرابع

# صفاته ﷺ المتعلقة بالدعوة

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: صفاته ﷺ داعياً.
- المبحث الثاني: صفاته ﷺ مربياً.

# الفصل الرابع

## صفاته ﷺ المتعلقة بالدعوة

### توطئة:

لما كان رسول الله ﷺ هو داعي الله.. ومبلغاً عباد الله.. لازم ذلك أن يتصف ﷺ بصفات مهمة هي محور هذه الدعوة ولبها، وهي التي تحث المدعوين إلى قبول الدعوة الإلهية،

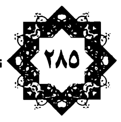
ثم إذا هم دخلوا في الدعوة، وصاروا من أهلها، رباهم نبيهم ﷺ فأحسن تربيتهم، وزكاهم وعلمهم، فأخلص تزكيتهم وتعليمهم.

وقد عرض القرآن الكريم هذه الصفات العظيمة أجمل عرض وأبلغه، بما يليق بمقام الرسول العظيم ﷺ.

فلنبحر في بحر هذا الكتاب الكريم، لنجني من الآيات الكريمة، أنفس اللآلئ الدعوية النبوية، والتي انحدرت من سيرته ﷺ، عندما كان..

داعياً إلى الله.. ومربياً عباد الله.. ﷺ.





## المبحث الأول

## صفاته ﷺ داعياً

وفيه خمسة مطالب:

- المطلب الأول: البشارة، والنذارة.
- المطلب الثاني: البيان، والتذكير.
- المطلب الثالث: الشهادة، والبراءة من المشركين.
- المطلب الرابع: الحرص على المؤمنين، والرحمة، والرأفة، واللين.
- المطلب الخامس: الأسوة، والنور، والسراج المنير.

## المطلب الأول

## البشارة، والنذارة

### أولاً: المعنى اللغوي للبشارة، والنذارة:

١ - المعنى اللغوي للبشارة:

البشارة: الخبر السار.

❖ قال ابن فارس: «(بَشَرَ): الباء والشين والراء: أصل واحد يدل على ظهور الشيء مع حسن وجمال... ويقال: بَشَّرْتُ فلاناً أُبَشِّرُهُ تَبْشيراً: وذلك يكون بالخير، وربما حمل عليه غيره من الشر، وأظن ذلك جنساً من التبكيت، فأما إذا أطلق الكلام إطلاقاً فالبشارة بالخير، والنذارة بغيره»[١].

❖ وقال الراغب: «ويقال للخبر السار: البِشارة والبُشرى، قال تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (يونس: ٦٤)، وقال تعالى: ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الفرقان: ٢٢)، ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ (العنكبوت: ٣١)، ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ (يوسف: ١٩)، ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

والبشير المبشر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١/٢٥١).



بَصِيرًا ﴾ (يوسف: ٩٦)»[(١)].

## ٢ – المعنى اللغوي للنذارة:

❖ قال ابن فارس: «(نَذَرَ): النون والذال والراء: كلمة تدل على تخويف أو تخوف، منه: الإنذار: الإبلاغ ولا يكاد يكون إلا في التخويف... والنذير: المُنذر، والجمع: النُّذُر»[(٢)].

❖ وقال ابن منظور: «والنذير: المُحَذِّر، فَعِيلٌ بمعنى: مُفَعِّل»[(٣)].

**❖ من الآيات التي وصف فيها ﷺ بالبشارة:**

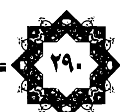
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (البقرة: ١١٩).
- قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ (المائدة: ١٩).
- قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨).
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (هود: ٢).
- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (فاطر: ٢٤).
- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٦).
- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الإسراء: ١٠٥).

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني: (٤٨/١).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٤١٤/٥).

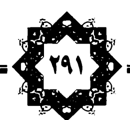
(٣) «لسان العرب»: (٢٠١/٥ ـ ٢٠٢).



- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٤٥).
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (الفتح: ٨).

❖ ومن الآيات التي وصف فيها ﷺ بالنذارة:

- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٤).
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ ﴾ (هود: ١٢).
- قوله تعالى: ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (الحجر: ٨٩).
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد: ٧).
- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الحج: ٤٩).
- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ (العنكبوت: ٥٠).
- قوله تعالى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ (سبأ: ٤٦).
- قوله تعالى: ﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: ٢٣).
- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ ﴾ (ص: ٦٥).
- قوله تعالى: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ (ص: ٧٠).
- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الأحقاف: ٩).
- قوله تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ (ق: ٢).



- قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الذاريات: ٥٠).

- قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴾ (النجم: ٥٦).

- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ (الملك: ٢٦).

- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٤٥).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في آيات وصفه ﷺ بالبشارة والنذارة:

- **في البشارة والنذارة: بم تكونان، ومن أهلهما؟**

لم يختلف المفسرون في أن البشارة تكون بالجنة، والثواب، وأن النذارة تكون بالنار والعذاب، وأن المبشَّرين هم أهل الطاعة، والمؤمنون، وأولياء الله، وأن المنذَرين هم أهل المعصية، والكافرون، وأعداء الله.

- وقال الطبري: «مبشراً من اتبعك فأطاعك، وقبل منك ما دعوته إليه من الحق بالنصر في الدنيا، والظفر بالثواب في الآخرة والنعيم المقيم فيها، ومنذراً من عصاك فخالفك، ورد عليك ما دعوته إليه من الحق بالخزي في الدنيا، والذل فيها والعذاب المهين في الآخرة»[1].

- وقال البغوي: «قوله ﷻ: ﴿ بَشِيرٗا ﴾ أي: مبشراً لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب الكريم، ﴿ وَنَذِيرٗاۖ ﴾ أي: منذراً مخوفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم»[2].

(١) «جامع البيان»: (١/٥١٥).

(٢) «معالم التنزيل»: (١/١١٠).



- وقال الواحدي: «﴿بَشِيرًا﴾: مبشراً للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾: مخوفاً ومحذراً للكافرين»[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفتي البشارة والنذارة للنبي ﷺ:

❖ كثيراً ما قرنت الصفتان معاً له ﷺ.

❖ كثيراً ما تجعل البشارة والنذارة من أسمى غايات إرساله ﷺ، لذا تكررت كثيراً في القرآن: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الفتح: ٨) ونحوها.

❖ الغالب عند اقترانهما تقديم البشارة على النذارة؛ لعموم الإنذار وخصوص التبشير لذا قيل: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على صيغة المبالغة دون (ومنذراً) مع أن ظاهر عطفه على (مبشراً) يقتضي ذلك، وقدم التبشير؛ لشرف المبشَّرين، ولأنه المقصود الأصلي إذ هو ﷺ رحمة للعالمين[2].

❖ وقد تُقدم النذارة على البشارة، وذلك في آيات قلائل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (هود: ٢)، وذلك حيث يكون «التحذير من النار هو الأهم»[3].

---

(١) «الوسيط»: (١/١٢٩).

(٢) انظر: «روح المعاني» للألوسي: (٢٢/٤٥).

(٣) «المحرر الوجيز»: (٣/١٤٩).

❖ **في متعلق البشارة والنذارة:**

من خلال النظر في الآيات يتضح أن متعلق البشارة والنذاة:

١ – قد يطلق المتعلق بدون تحديد، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (البقرة: ١١٩).

٢ – وقد يقيد بمعين، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٤٥)، قال الشوكاني: «خص الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار، وإن كان منذراً لكل مكلف من مسلم وكافر»[1].

٣ – وقد يطلق أحدهما ويقيد الآخر، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، قال الشوكاني: «واللام في: ﴿ لِّقَوْمٍ ﴾: متعلق بكلا الصفتين، أي: بشير لقوم، ونذير لقوم، وقيل: هو متعلق ببشير، والمتعلق بنذير محذوف، أي نذير لقوم يكفرون، وبشير لقوم يؤمنون»[2].

❖ عند اقتران الصفتين معاً، فالنذارة في المكروه والبشارة في المحبوب[3].

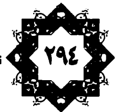
❖ تأتي الصفتان أحيانا بأسلوب الحصر أو القصر، ولاسيما في النذارة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٦)، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ

---

(١) «فتح القدير»: (٥/ ٣٨٠).

(٢) «المصدر السابق»: (٢/ ٢٧٤)، وانظر: «تفسير النسفي»: (٢/ ٥٠)، «التسهيل» لابن جزيء: (٢/ ٥٧).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز»: (٣/ ١٤٦).



أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ (الرعد: ٧)، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ (ص: ٦٥)، وقوله: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (ص: ٧٠)، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٤٥)، وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٤)، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ (هود: ١٢)، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحج: ٤٩)... وغيرها: وفي ذلك تسلية له ﷺ، وأنه قد فعل ما هو عليه، ولم يقصر في أدائه، فيطمئن قلبه ﷺ[1].

❖ كثيراً ما أفردت النذارة بالذكر دون البشارة، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحج: ٤٩)، حيث «الحديث مسوق إلى المشركين، و﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ نداء لهم»[2].

❖ أحياناً تقترن النذارة بلفظ فيه تهديد وتخويف كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦)، وقوله: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الذاريات: ٥٠)[3].

❖ غالباً ما يُردف ذكر النذارة بالبيان، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٤)، وغيرها كثير:

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز»: (٤/٤٣٦)، و«فتح القدير»: (٣/٦٨).

(٢) «تفسير النسفي»: (٣/١٠٨).

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٤/٧٠).

قال الرازي: «ثم أردفه بكونه مبيناً، ومعناه كونه آتياً في كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافية»[1].

## رابعاً: تمثل هاتين الصفتين في النبي ﷺ:

**١ – في حياته ﷺ مواقف كثيرة تشهد ببشاراته لأمته ﷺ ولأفراد من هذه الأمة، ومن ذلك:**

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في الصحيحين من حديث طويل، وفيه: «فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، ثم ذهبت فقلت يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فاقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة» إلى أن قال: «فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فجئت فقلت: ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة» إلى أن قال: «فقلت من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت: على رسلك، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»، فجئته فقلت: ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك» الحديث[2].

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٩/١٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً»: (٣/١٣٤٣/ح ٣٤١٧) واللفظ له، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه، (٤/١٨٦٧/ح٢٤٠٣).

**٢ – وصَّى النبي ﷺ أمته بالتبشير والإبشار في مواطن عديدة منها:**

- قال النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»(١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة»(٢).

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدخِل الجنةَ أحداً عملُه، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»(٣).

**٣ – ثم هانحن نجد هذا البشير النذير، كيف يجمع بكل روعة وبراعة بين البشارة والنذارة، فينذر أمته ﷺ من أي خطر يحدق بها:**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، (١١٠٤/٣/ح ٢٨٧٣)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، (١٣٥٩/٣/١٧٣٣) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب الدين يسر، (٢٣/١/ح ٣٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، (٢٣٧٣/٥/ح ٦١٠٢)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، (٢١٧١/٤/ح ٢٨١٨) واللفظ له.



- عن جابر بن عبد الله ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم»... الحديث[1].

- قال ابن عمر ﵄: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: إني لأُنْذِرُكموه، وما من نبي إلا أنذره قومَه» الحديث[2].

- عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاءَ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا[3] فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم، واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني، واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»[4].

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (٢/٥٩٢/ح ٨٦٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال: (٦/٢٥٩٤)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد: (٤/٢٢٤٥/ح ١٦٩).

(٣) «فأدلجوا»: أي ساروا من آخر الليل، انظر: «لسان العرب»: (٢/٢٧٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي: (٥/٢٣٧٨/ح ٦١١٧)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم: (٤/١٧٨٨/ ح ٢٢٨٣) واللفظ له.

**٤ – وقد امتزج إنذاره بالشفقة والحرص على أمته ﷺ:**

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف:

يا صباحاه ـ إلى أن قال ـ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً! قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال: فقال أبو لهب: تبّاً لك أمَا جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١)[(١)].

**٥ – وهكذا كان نبينا ﷺ البشير النذير، حتى في صفته عند أهل الكتاب قبل أن يبعث:**

- عن عطاء بن يسار[(٢)] قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص[(٣)] رضي الله عنهما

---

(١) رواه البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، (١٧٨٧/٤/ح ٤٤٩٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، (١٩٣/١/ح ٢٠٨).

(٢) قال ابن حبان: «عطاء بن يسار، أبو محمد، مولى ميمونة زوج النبي ﷺ... وكان صاحب قصص وعبادة وفضل، مات سنة: ثلاث ومائة، وكان مولده سنة تسع عشرة وكان موته بالإسكندرية وبها دفن وكان له يوم مات أربع وثمانين سنة»: «الثقات»: (١٩٩/٥).

(٣) قال ابن حبان: «عبد الله بن عمرو بن العاص... كنيته: أبو محمد وقد قيل أبو نصر كان بينه وبين أبيه ثلاث عشرة سنة، وكان قد أسلم قبل أبيه، وشهد مع أبيه صفين، وكان يسكن مكة، ثم خرج إلى الشام وأقام بها، ومات بمصر ويقال إنه مات بعجلان قرية من قرى الشام، بالقرب من غزة من بلاد فلسطين... سنة ثلاث وستين، وكان له يوم مات: ثنتان وسبعون سنة، وقد قيل: سنة خمس وستين، ومنهم من يزعم أنه مات سنة تسع وستين، والأول أصح»: «الثقات»: =



قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٤٥) وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل»... الحديث(١).

## خامساً: الصفة في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في ضوء هاتين الصفتين:

❖ على الداعية أن يعجل بتبشير المرء إذا رآه على ما يوجب البشارة، لتكون له حافزاً على الطاعة، وطريقاً للاستزادة في الخيرات.

❖ وعليه أن ينذر من يراه على حال موجبة للإنذار، فهذا من سن السنة الحسنة، والدعوة إلى الله تعالى.

❖ على المرء التأسي بالنبي ﷺ ففي إنذاره الأمة دليل على كمال شفقته ورحمته بالأمة.

❖ لابد للمنذِر من أن يراعي حالة الناس ويهتم بأمر المخاطَبين الذين قد يحتاجون إلى الإنذار والتخويف، وإلى التبشير بالجنة وثواب الله أحياناً، وإليهما معاً في أحيان أخرى.

---

=(٣/٢٠١ ـ ٢١١).

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، (٢/٧٤٧/ح ٢٠١٨).



**❖ للبشارة فوائد عديدة[1] منها :**

١ – حصول الفرج بعد الشدة.

٢ – انشراح الصدر وسعادة القلب، فكم تجلب الطمأنينة وسكون النفس، وترفع الروح المعنوية.

٣ – سبب لاستقرار النفس وراحة البال.

٤ – حب المبشَّر لمن يبشِّره، واستئناسه به.

**❖ وللنذارة فوائد عديدة[2] منها :**

١ – النذارة تبرئ ساحة المنذِر من المسؤولية تجاه الآخرين.

٢ – قبول الإنذار دليل على خشية المنذَر، واتباعه الحق.

٣ – فيه اقتداء بالنبي ﷺ.

٤ – المنذِر مؤتمن على قومه حريص عليهم.

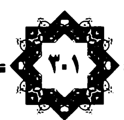
٥ – فيه انقطاع عذر الكفار والمنافقين وإقامة الحجة عليهم.



---

(١) بتصرف من: «نضرة النعيم»: (٣/٥٧٥).

(٢) انظر: «نضرة النعيم»: (٣/٥٧٥).



# المطلب الثاني

# البيان، والتذكير

## أولاً: المعنى اللغوي للبيان والتذكير:

### ١ – المعنى اللغوي للبيان:

البيان: الوضوح.

قال ابن فارس: «(بَيَنَ) الباء والياء والنون أصل واحد، وهو بعد الشيء وانكشافه... وبان الشيء وأبان إذا اتضح»[(١)].

### ٢ – المعنى اللغوي للتذكير:

التذكر: ضد النسيان.

قال ابن فارس: «الذال والكاف والراء: أصلان عنهما يتفرع كلم الباب... والأصل الآخر: ذكرت الشيء: خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذُكْرٍ بضم الذال: أي لا تنسه»[(٢)].

❖ من الآيات التي وصف فيها ﷺ بالبيان:

- قوله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ (الزخرف: ٢٩).
- وقوله ﷻ: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣٢٧/١).

(٢) «المصدر السابق»: (٣٥٨/٢).

تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴾ (البينة: ١ ـ ٢).

وغيرها من الآيات التي وصف فيها بالإنذار المبين على ما مر في المطلب السابق:

- كقوله ﷻ: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٤).

- وقوله ﷻ: ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (الحجر: ٨٩).

وغيرها.

**❖ ومن الآيات التي وصف فيها ﷺ بالتذكير:**

- قوله ﷻ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ (الغاشية: ٢١).

- وقوله ﷻ: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥).

- وقوله ﷻ: ﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴾ (الطور: ٢٩).

- وقوله ﷻ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ (الأعلى: ٩).

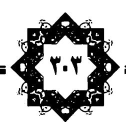
## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفتي البيان والتذكير للنبي ﷺ:

### ١ – آيات وصفه ﷺ بالبيان:

**❖ في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾ (الزخرف: ٢٩):**

- **في معنى: الرسول المبين:**

اتفق المفسرون على أن الرسول المبين هنا هو النبي ﷺ ـ إلا قول



السمعاني[1] بأنه القرآن وهذا بعيد جداً عن لفظ الآية وسياقها، والله أعلم.

- اختُلِف في الشيء المبين ما هو؟ على أقوال:

١ – أنه ﷺ يبين لهم بالحجج أنه مرسل من الله[2].

٢ – أنه ﷺ يبين الأحكام والتوحيد[3].

٣ – أن المعنى: أنه ﷺ ظاهر الرسالة واضحها[4].

٤ – أن المعنى: أنه ﷺ يبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين[5].

**❖ وواضح مما سبق أنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، حيث بيَّن ﷺ كل ذلك وزيادة على ذلك، كما كانت رسالته واضحة وضوح الشمس رابعة النهار.**

❖ ومن أهم الآيات التي تدل على هذه الصفة للنبي ﷺ هي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة: ١ ـ ٢).

- اختلف المفسرون في المراد بالبينة على أوجه:

١ – أن المراد: القرآن، قاله قتادة[6].

---

(١) انظر: «تفسير السمعاني»: (٥/٩٩).

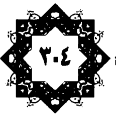
(٢) انظر: «جامع البيان»: (٢٥/٦٤).

(٣) انظر: «معالم التنزيل»: (٤/١٣٧)، «تفسير أبي السعود»: (٨/٤٥)، «روح المعاني»: (٢٥/٧٧).

(٤) انظر: «المصادر السابقة»، و«فتح القدير»: (٤/٥٥٣).

(٥) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٦/٨٢)، «فتح القدير»: (٤/٥٥٣).

(٦) انظر: «تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم»: (١٠/٣٤٥٤)، «جامع البيان»: (٣٠/٢٦٢)، =



٢ – أن المراد: محمد ﷺ بذاته، وأنه أتاهم بالقرآن[١].

٣ – أن المراد: بيان الحق وظهور الحجج[٢].

❖ **وأجمع الأقوال والله أعلم هو: القول الثاني، لأنه يشمل الأول، ويترتب عليه الثالث.**

**والذي يؤيده عدة أمور:**

١ – الرفع في لفظ: ﴿رَسُولٌ﴾، على أنه بدلٌ من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾[٣].

٢ – «يدل على أن البينة محمد ﷺ: أنه فسرها وأبدل منها»[٤].

٣ – فإن قيل: إن هذا لا يستقيم، بحجة أن لفظ البينة مؤنث، فكيف تفسر ويبدل منها بالمذكر (رسول)؟ فالجواب: أن البينة قد تُذَكَّر[٥].

❖ **وقد جمع بينهما البيضاوي** حيث قال في المراد بالبينة: «معجزة الرسول بأخلاقه، والقرآن بإفحامه من تحدى به»[٦].

---

=«تفسير السمعاني»: (٦/٢٦٣).

(١) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٢٦٢)، «الوسيط» للواحدي: (٢/١٢٢١)، «تفسير السمعاني»: (٦/٢٦٣)، «معالم التنزيل»: (٤/٥١٣)، «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٣٨).

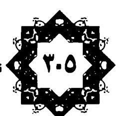
(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٣١٦).

(٣) «المحرر الوجيز»: (٥/٥٠٧)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٤٩٥).

(٤) «فتح القدير»: (٥/٤٧٥).

(٥) انظر: «تفسير القرطبي»: (٢٠/١٤٢).

(٦) «تفسير البيضاوي»: (٥/٥١٥).



و«البينة تصدق على الجميع، كما تصدق على المجموع، ولا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا رسول إلا برسالة تتلى، ولا رسالة تتلى إلاَّ برسول يتلوها»[(١)].

**٢ – التذكير:**

❖ في قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ٢١):

❖ لا خلاف بين المفسرين في أن تذكيره ﷺ أمته هو وعظه لهم، وتخويفه إياهم، وأنه ليس عليه إلا ذلك، وأن لا ييأس من إعراضهم:

- قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فذكر يا محمد عبادي بآياتي، وعظهم بحججي، وبلغهم رسالتي؛ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ يقول: إنما أرسلتك إليهم مذكراً لتذكرهم نعمتي عندهم وتعرفهم اللازم لهم وتعظهم»[(٢)].

- وقال السعدي: «أي: ذكر الناس وعظهم وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً، ولا موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق: ٤٥)»[(٣)].

❖ **وكما هو معلوم أن الأمر بالتذكير، كان قبل الأمر بالقتال:**

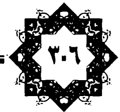
- قال السمرقندي: «﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾: يعني فذكر يا محمد

---

(١) «أضواء البيان»: (٩/٤٣ ـ ٤٤).

(٢) «جامع البيان»: (٣٠/١٦٦).

(٣) «تفسير السعدي»: (٩٢٣).



وخوفهم بالعذاب في الآخرة، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ يعني: مخوف بالقرآن، ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢٢): يعني بمسلط تجبرهم على الإسلام، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال»[١].

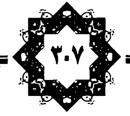
- وقال ابن الجوزي: «فذكر: أي عظ، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أي: واعظ، ولم يكن حينئذ أمر بغير التذكير»[٢].

❖ ولعل مما يؤيد هذا، أن الآية مكية، حيث كانوا قد نهوا عن القتال في مكة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ...الآية (النساء: ٧٧)، قال الحافظ ابن كثير: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة، مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً؛ لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار»[٣].

(١) «بحر العلوم»: (٣/٥٥٣).

(٢) «زاد المسير»: (٩/١٠٠).

(٣) «تفسير ابن كثير»: (١/٥٢٦).



وقد ورد هذا صريحاً في حديث جابر رضي الله عنه: قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل - ثم قرأ -: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾»[1].

قال النووي: قوله: ثم قرأ: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ قال المفسرون: معناه إنما أنت واعظ، ولم يكن ﷺ أمر إذ ذاك إلا بالتذكير ثم أمر بعد بالقتال[2].

❖ وفي قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥):

لا خلاف بين المفسرين من أن المذكِّر هنا هو النبي ﷺ، وأن المراد بتذكيره أمته ﷺ هو وعظهم، بينما اختلف في المذكَّرين من هم؟ على قولين:

١ – فقيل المراد بهم: من آمن من قومه، بأن الذكرى تنفعهم وتزيدهم بصيرة في الدين. قاله الكلبي[3].

٢ – وقيل بل المراد بهم: كفار مكة، وأنها تنفع من كان في علم الله أنه سيؤمن. قاله مقاتل[4].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله....(٦٨٤/ح٢١).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٢١١/١).

(٣) انظر: «معالم التنزيل»: (٢٣٥/٤)، «فتح القدير»: (٩٢/٥).

(٤) انظر: «معالم التنزيل»: (٢٣٥/٤)، «تفسير البيضاوي»: (٢٤١/٥)، «تفسير أبي السعود»: =

❖ ولا شك أن تذكيره ﷺ شامل المؤمنين والكافرين، ولكن العبرة بالذين ينتفعون بهذا التذكير، وأن لا يَترُكَ ﷺ تذكيرهم، حيث «لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير والموعظة بالتي هي أحسن، فقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾»[1].

❖ روى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ (الذاريات: ٥٤): لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي ﷺ بالتولي عنا، فنزلت: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فطابت أنفسنا»[2].

❖ في قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ (الأعلى: ٩):

**❖ مسألة: إن قال قائل: كيف قال: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾، وهو مأمور بالتذكير على العموم نفعت أو لم تنفع؟**

ومما قاله المفسرون في الجواب عن ذلك:

أ/ قيل: هناك محذوف، والتقدير: إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، كقوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ (النحل: ٨١)[3].

ب/ فيه ذم للمذكَّرين، واستبعاد تأثير تذكيره فيهم، قال أبو السعود: «هو

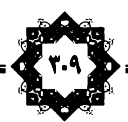
---

=(١٤٤/٨)، «فتح القدير»: (٩٢/٥).

(١) «فتح القدير»: (٩٢/٥).

(٢) «تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم»: (٣٣١٣/١٠).

(٣) انظر: «معالم التنزيل»: (٤٦٧/٤)، «تفسير أبي السعود»: (٤٦/٩).



ذم للمذكّرين، وإخبار عن حالهم، واستبعاد لتأثير التذكير فيهم، وتسجيل عليهم بالطبع على قلوبهم»[1].

ج/ أن فيه إشارة للنبي ﷺ بأن يخص بالتذكير من ينتفع بالذكرى، حيث «لما أن رسول الله ﷺ طالما كان يذكرهم، ويستفرغ فيه غاية المجهود، ويتجاوز في الجد كل حد معهود، حرصاً على إيمانهم، وما كان يزيد ذلك بعضهم إلا كفراً وعناداً، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يخص التذكير بمواد النفع في الجملة، بأن يكون من يذكره كلاً أو بعضاً ممن يرجى منه التذكر، ولا يتعب نفسه في تذكير من لا يورثه التذكير إلا عتواً ونفوراً من المطبوع على قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٥)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ (النجم:٢٩)»[2].

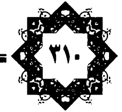
## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفتي البيان، والتذكير للنبي ﷺ:

**١ – من قوله تعالى:** ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ (الزخرف:٢٩): **في وصف الرسول ﷺ بالمبين:** يقول ابن عاشور: «وفي هذا التبيين إبطال لمعاذيرهم كأنه قيل: فقد جاءتكم البينة، على حد قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ

---

(١) «تفسير أبي السعود»: (٩/٤٥).

(٢) «المصدر السابق».



﴿وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ (المائدة: ١٩))[(١)].

**٢ – من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾** (البينة: ١):

لفظ الإتيان مضارع، بينما معناه في الماضي، وذلك لسببين:

١ – باعتبار حال المحكي لا باعتبار حال الحكاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ (البقرة: ١٠٢) أي: تلت[(٢)].

٢ – لتجدد البيان في كل وقت بتجدد الرسالة والتلاوة[(٣)].

**٣ – من قوله تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾** (البقرة: ١٠١):

- لم يذكره تعالى بأسلوب الإضافة فلم يقل: رسول الله يتلو ـ أو الذي يتلو ـ صحفاً مطهرة وذلك لفائدة، وهي: الإشعار بعظمة هذا الرسول[(٤)].

**٤ – أكثر ما أتت صفة البيان للنبي ﷺ بعد صفة النذارة،** للإلماح بأن إنذاره ﷺ بين واضح، لا يحتمل مع وضوحه التراخي في الاستجابة للإنذار.

**٥ – الفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ لفائدة:**

وهي: ترتيب ما بعدها على ما قبلها، والأمر له ﷺ بالدوام على تذكيرهم وأن لا يؤيسه إصرارهم على الإعراض وعدم استجابتهم لمواعظه،

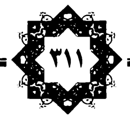
---

(١) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤٧٥ ـ ٤٧٦).

(٢) انظر: «تفسير أبي السعود»: (٩/١٣٤).

(٣) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (٨/٤٩٦).

(٤) انظر: «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤٧٦)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٨/٤٩٦).



وتثبيته بأنه لا تبعة عليه من عدم إصغائهم إذ لم يُبعث مُلجئاً لهم على الإيمان، فالأمر مستعمل في طلب الاستمرارِ والدوام[1].

**٦ – القصر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ لفائدتين:**

أ/ تعليل للأمر بالدوام على التذكير.

ب/ فيه تطمين لنفس النبي ﷺ لما فيه من الإشارة إلى عدم تقصيره في تذكيرهم[2] ﷺ.

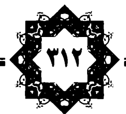
## رابعاً: تمثل صفتي البيان، والتذكير في النبي ﷺ:

إن سيرة النبي ﷺ كلها تشهد بأنه بين لأمته أمور دينهم ودنياهم أتم البيان، ولم يترك سبيلاً لتذكيرهم إلا ذكرهم بها ﷺ، وكَم زخرت كتب صحيح السنة، وصحيح السيرة، بدلائل بيانه وتذكيره لأمته ﷺ، تارة من باب إنفاذ الرسالة والتبليغ والدعوة، وتارة لبيان ما تحتاج إليه الأمة في أمر دينها ودنياها، وتارة من باب الشفقة والحرص والرأفة بهذه الأمة، وتارة للرجال، وللنساء تارة، وتارة للعبيد، وللإماء تارة، وتارة للأطفال واليتامى، وتارة في العبادات، والمعاملات، والعلاقات، والعادات، حتى في الدعابة والمزاح بل حتى في أخص الأمور بين الرجل وزوجه، بل وبينه وبين نفسه، بيَّن ﷺ فأوضحَ البيان، وذكَّرَ ووعظ ﷺ فأبلغ الذكرى وأبلغ الموعظة، ونصح فأسدى النصيحة،

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير»: (٣٠٦/٣٠).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (٣٠٦/٣٠ـ٣٠٧).



فكان بحقٍّ: الأب، والزوج، وكان المعلم والمربي، وكان القائد والحاكم، حتى قال ﷻ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ ﴾ (المائدة: ٣)، يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ ﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة؛ حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴾ (الأنعام: ١١٥) أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة»[(١)].

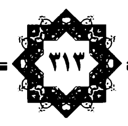
**وفيما يلي نخبة يسيرة تذكرنا ببيانه ﷺ لأمته وتذكيره إياهم:**

❖ حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه[(٢)] قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت لها الأعين، ووجلت منها القلوب، قلنا أو قالوا: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فأوصنا، قال:

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (١٣/٢).

(٢) قال ابن عبد البر: «العرباض بن سارية السلمي، يكنى أبا نجيح، كان من أهل الصفة، سكن الشام ومات بها سنة خمس وسبعين، وقيل بل مات في فتنة ابن الزبير»: «الاستيعاب»: (١٢٣٩/٣).



«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم يرى بعدي اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدَثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة»[(١)].

❖ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»[(٢)].

❖ وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يدنيني من الجنة، ويباعدني من النار، قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»، فأدبر الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن تمسك بما أمر به دخل الجنة»[(٣)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: (٣٧٣/٢٨/ح١٧١٤٤)، وابن ماجه، كتاب السنة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، (٢٤٧٩/ح٤٤)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في الحاشية: «حديث صحيح، ورجاله ثقات ـ ونقل قول الحاكم: هذا حديث صحيح ليس له علة» (٣٧٣/٢٨ ـ ٣٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، (٢١٩/١/ح٢٥١).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الأدب، باب فضل صلة الرحم، (٢٢٣١/٥/ح ٥٦٣٧)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان باب الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة، (٤٣/١/ح١٣) واللفظ له.

❖ وقال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم»(١).

❖ وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يبين لنا منهج النبي ﷺ في تذكير أصحابه ووعظهم «فعن أبي وائل قال: كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوَددتُ أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أمَا إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني لأتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»(٢).

❖ حتى في آخر لحظات حياته، وهو يبين ويذكر ﷺ فعن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(٣).

## خامساً: الصفة في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في ضوء هاتين الصفتين:

١ – هناك أصل عظيم لهاتين الصفتين في سنة النبي ﷺ حيث قال:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن صحبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، (١/٧٤/ح ٥٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، (١/٣٩/ح ٧٠).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده: (٢/٢٤/ح٥٨٥)، وابن ماجه، أبواب الوصايا، باب: وهل أوصى رسول الله ﷺ، (٢٦٣٩/ح٢٦٩٨)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، (١٦٠٠/ح٥١٥٦)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في الحاشية: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أم موسى سُرِّيَّة علي، فقد وثقها العجلي، وقال الدارقطني: حديثها مستقيم، يُخَرَّج حديثها اعتباراً» (٢/٢٤).

«الدين النصيحة»، قلنا لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[(١)].

قال النووي: «وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل»[(٢)].

٢ – لا تزال الأمة بخير مادام فيها من يقوم بالبيان والتذكير، والنصيحة والموعظة، ولكن على هدي النبي ﷺ، فالعالم الحق هو الذي يبين للناس ويذكرهم بقول الله، وقول الرسول ﷺ، وأقوال السلف الصالح، وتربية العامة كباراً وصغاراً على التمسك بالتوحيد والسنة، لا بالأساليب البدعية والتي كثرت وتنوعت في زماننا هذا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعلى العامة عموماً وطلبة العلم خصوصاً الالتفاف حول العلماء وأن يؤخذ العلم ممن هو أهل له، لا ممن أحسن منطقه، وأساء مورد علمه، فشتان بين هذا وذاك، والله المستعان.

٣ – على المرء أن يحب النصيحة، ويفرح بها، لاسيما إذا كانت على وجهها، «وقد كان بعض الصالحين يقول: أحب الناس إلي من أهدى إلي عيوبي، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ويأمر الإخوان بذلك: «رحم الله

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (١/٧٤/ح ٥٥).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٢/٣٩).

امرءاً اهتدى إلى أخيه عيوب نفسه»»[1].

٤ – على من يقوم بالنصح والتذكير، أن يكون أهلاً لذلك، وأن يحسن الموعظة، وأن يتأدب بآدابها، والتي منها النصيحة سراً بينه وبين المنصوح، لا أن يقرعه بها في الملأ.

**٥ – من الحِكَم في البيان والتذكير:**

❖ أشار الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[2] رحمه الله إلى بعض حِكَم التذكير، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥) حيث قال عنها:

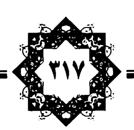
«فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهي: رجاء انتفاع المذكر به؛ لأنه تعالى قال هنا: ﴿ وَذَكِّرْ ﴾، ورتب عليه قوله جل وعلا: ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ومن حكم ذلك أيضاً: خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جمع الله هاتين الحكمتين في قوله: ﴿ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٤).

ومن حكم ذلك أيضاً: النيابة عن الرسل في إقامة حجة الله على خلقه في أرضه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ

(١) «قوت القلوب» لأبي طالب المكي: (٢/٣٧٠).

(٢) سبقت ترجمته ص: (٦٧).



حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ (النساء: ١٦٥)»[1].

**٦ – ومن فوائد البيان والتذكير:**

أ/ إشاعة روح الألفة والمحبة بين المسلمين، وذلك إذا اقتدى المسلم بنبيه ﷺ في حسن البيان، وحسن التذكير، لا الإساءة فيهما.

ب/ بهما يتحقق التعاون على البر والتقوى، كما أمر الله تعالى.

ج/ فيهما دليل على حب المؤمن لغيره ما يحب لنفسه، ويكره له، ما يكرهه لنفسه.

د/ بهما تشاع الفضيلة، وتستر الرذيلة، فيصلح المجتمع الإسلامي، وتستقر حياة أفراده.

٧ – إن العالم الرباني، إذا بيَّنَ بدعة مبتدع، أو خطأ مخطئ، فإن هذا من النصيحة الواجبة لا من الغيبة المحرمة.



(١) «أضواء البيان»: (٧/٤٤٣).

## المطلب الثالث

## الشهادة، والبراءة من المشركين

«إن النفوس تتهالك على مثل هذا الشاهد الذي جاء بالشهادة في هذه الدنيا وهو وحيد منفرد، ثم ارتحل منها وحوله جم غفير وجمع حاشد من الشهداء على الناس، والحقيقة أن الله أطلع الناس على ميزة بارزة، وسمة ظاهرة للنبي ﷺ حين وصفه بالشاهد والشهيد»[1].

- قال ابن عمر رضي الله عنه في الولاء والبراء: «أحِبَّ في الله، وأبغِضْ في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فإنك لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك»[2].

### أولاً: المعنى اللغوي لصفتي: الشهادة، والبراءة من المشركين:

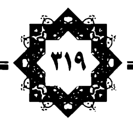
**١ – المعنى اللغوي للشهادة:**

- قال ابن فارس: «(شَهَدَ): الشين والهاء والدال: أصل يدل على حضور، وعلم، وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه عن الذي ذكرناه.

من ذلك: الشهادة، يجمع الأصول التي ذكرناها من الحضور والعلم

(١) «رحمة للعالمين» لصفي الرحمن المباركفوري: (٢/٣٧٦).

(٢) «حلية الأولياء» للأصبهاني: (١/٣١٢).



والإعلام، يقال: شَهِدَ يَشهَدُ شَهَادَةً»[1].

**٢ – المعنى اللغوي للبراءة:**

قال ابن فارس: «(بَرَأَ): فأما الباء والراء والهمزة، فأصلان إليهما ترجع فروع الباب، أحدهما: الخلق... والأصل الآخر: التباعد من الشيء ومزايلته، من ذلك: البُرْء، وهو السلامة من السُّقْم، يقال: بَرِئتُ وبَرَأْتُ... وأهل الحجاز يقولون: أنا بَرَاءٌ منك، وغيرهم يقول: أنا بَرِئٌ منك... ومن ذلك: البراءة من العيب والمكروه»[2].

❖ من آيات وصفه ﷺ بالشهادة:

❖ **مما جاء بلفظ: (شاهداً):**

- قوله ﷻ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا** ﴾ (الأحزاب: ٤٥).

- قوله ﷻ: ﴿ **إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا** ﴾ (الفتح: ٨).

- قوله ﷻ: ﴿ **إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ** ﴾ (المزمل: ١٥).

❖ مما جاء بلفظ: (شهيداً):

- قوله ﷻ: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ** ﴾ (البقرة: ١٤٣).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣/٢٢١).

(٢) «المصدر السابق»: (١/٢٣٦).



- قوله ﷻ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١).

- قوله ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ (النحل: ٨٩).

- قوله ﷻ: ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ (الحج: ٧٨).

❖ من آيات وصفه ﷺ بالبراءة من المشركين:

- قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩).

- قوله ﷻ: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ (التوبة: ٣).

- قوله ﷻ: ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٤١).

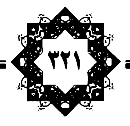
## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفتي: الشهادة، والبراءة من المشركين في حق النبي ﷺ:

### ١ – الشهادة:

وصف الله ﷻ نبيه ﷺ في كتابه الكريم بالشاهد، والشهيد:

**أ/ في وصفه ﷺ بالشاهد:**

- قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥).



- وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الفتح: ٨).

لا خلاف بين المفسرين في أن الشاهد هنا هو النبي ﷺ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الشاهد نبي الله»[١].

وأما المشهود به فالجمهور منهم على أنه ﷺ يشهد بإبلاغه الرسالة لأمته، قاله: قتادة[٢].

- من قوله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ (المزمل: ١٥).

- لا خلاف بين المفسرين في أن المراد **بالشاهد** في هذه الآية هو النبي ﷺ.

- والجمهور منهم على أن **المشهود به** هو التبليغ، والإيمان والكفر.

وتشهد لهذا بعض آيات شهادة الأنبياء على أممهم بالتوحيد والكفر، والنبي ﷺ من جملة الأنبياء، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٩): قال الإمام أحمد: «(أما قوله يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) فإنه يسألهم عند زفرة جهنم فيقول: ماذا أجبتم في التوحيد؟...»[٣].

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (النحل: ٨٤)، ووجه الدلالة: أنه تعالى أخبر أنه بعد الشهادة عليهم لا اعتذار لهم ولا استعتاب، مما يدل على أن الشهادة كانت

---

(١) «تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم»: (٩٥٦/٣).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (١٨/٢٢)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٥٤٢/٢).

(٣) «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد: (١٣/١).

عليهم وضدهم، ولا يكون ذلك إلا بفضائحهم من كفرهم ونحوه، والله أعلم.

قال السعدي رحمه الله: «﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد عليهم بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله، أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم: الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم. ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في الاعتذار؛ لأن اعتذارهم بعدما علموا يقيناً بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب، لا يفيدهم شيئا، وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا، لم يجابوا، ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد، الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال، من حين يرونه، لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقرون بها، ويفتضحون»[(١)].

فقال الطبري في معنى الآية: «يقول تعالى ذكره إنا أرسلنا إليكم أيها الناس رسولا شاهداً عليكم، بإجابة من أجاب منكم دعوتي، وامتناع من امتنع منكم من الإجابة، يوم تلقوني في القيامة»[(٢)].

- وأما **المشهود عليهم** ففيهم قولان:

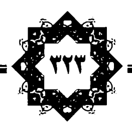
١ – جمهور المفسرين على أنهم كفار العرب وأهل مكة خاصة[(٣)].

---

(١) «تفسير السعدي»: (١٤٦).

(٢) «جامع البيان»: (١٣٦/٢٩).

(٣) وممن قال بذلك: البيضاوي في تفسيره: (٤٠٧/٥)، والنسفي في المدارك: (٢٩٢/٤)، والخازن في لباب التأويل: (١٦٩/٧)، وابن كثير في تفسيره: (٤٣٩/٤)، وأبي السعود في تفسيره: (٥٢/٩).



٢ – وقيل: جميع الناس أو جميع كفار العرب من أمته ﷺ[1].

❖ **والذي تميل إليه النفس هو القول الأول، أي أن المراد بالمشهود عليهم في آية المزمل، أنه ﷺ يشهد على كفار العرب وأهل مكة خاصة؛ لأن هذا الذي يتسق والسياق الذي أتت فيه الآية، قبلها وبعدها:**

- قبلها: حيث أتت الآية بعد أمره ﷺ بهجرهم، وتوعده تعالى لهم بقوله: ﴿ وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (المزمل: ١١)، فكان الكلام عنهم.

- وبعدها: حيث انتقل الحديث في نفس الآية وما بعدها إلى الكلام عن إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون، وإنما كان موسى مرسلاً إلى قومه خاصة، فناسب أن يكون الحديث قبلها عن كفار مكة خاصة، والله أعلم.

**ب/ وفي وصفه ﷺ بالشهيد:**

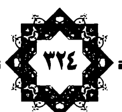
❖ من قوله عز وجل: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

قال الطبري: «فمعنى ذلك: وكذلك جعلناكم أمة وسطا: عدولا (لتكونوا) **شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ**، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمد **شهيداً عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي**»[2].

---

(١) وممن قال بذلك: الطبري في تفسيره: (١٣٦/٢٩)، والشوكاني في: «فتح القدير»: (٣١٨/٥).

(٢) «جامع البيان»: (٨/٢).



❖ من قوله ﷻ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١).

- لا خلاف بين المفسرين في أن المراد بـ (شهيد) الأولى: رسول كل أمة يشهد عليها بتبليغ الرسالة، وأن المراد بـ (شهيداً) الثانية: هو الرسول ﷺ.

- أما المشهود عليهم من قبل الرسول ﷺ ففيهم قولان:

١ — أنه ﷺ يشهد على أمته[(١)].

٢ — أنه ﷺ يشهد على الرسل في أممهم[(٢)].

❖ والحقيقة أن كلا القولين ينصره الدليل، فالأول دلت عليه الآيات المتضافرات السابقة.

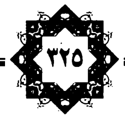
والثاني يدل عليه: ما رواه البخاري من حديث أبي سعيد[(٣)] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ **فيقول محمد وأمته**، قال فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣)، قال والوسط العدل، فتدعون

---

(١) وممن قال به: الطبري في تفسيره: (٩٢/٥)، والسمرقندي في «بحر العلوم»: (٣٣٠/١)، والماوردي في «النكت والعيون»: (٤٨٨/١)، والسمعاني في تفسيره: (٤٢٨/١)، والبغوي في «معالم التنزيل»: (٤٢٩/١).

(٢) ذكره الشيخ عطية سالم في «تتمة الأضواء»: (٤٧٧/٨).

(٣) سبقت ترجمته ص: (١٥١).



فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم»(١).

**٢ – البراءة من الشرك:**

**أعلن النبي ﷺ تبرأه من المشركين: مما أشركوا به، ومن عهدهم، ومن عملهم:**

❖ **من قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾** (الأنعام: ١٩).

- قال الطبري في معناها: «﴿ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾: يقول: قل: وإنني بريء من كل شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه، لا أعبد سوى الله شيئاً، ولا أدعو غيره إلهاً»(٢).

- دلت الآية على إثبات التوحيد، والبراءةِ من الشِّرْكِ من ثلاثة أوجه:

«أولها: قوله: ﴿ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ (الأنعام: ١٩) بما تذكرونه من إثبات الشّركَاءِ.

وثانيها: قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (الأنعام: ١٩)، وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحَصْرَ، ولفظ الواحد صريحٌ في التوحيد، ونفي الشركاء.

وثالثها: قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾، وفيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشُّرَكَاءِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، (١٦٣٢/٤/ح ٤٢١٧).

(٢) «جامع البيان»: (١٦٣/٧).



قال العلماء: يُسْتَحَبُّ لمن أسلم ابتداءً أن يأتي بالشهادتين، ويبرأ من كل دينٍ سوى دين الإسلام.

ونصَّ الشَّافعي رحمه الله على استحباب ضَمَّ التَّبَرِّي إلى الشهادة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾، عقيب التّصريح بالتوحيد»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾** (التوبة: ٣):

- **الآية صريحة في براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين، قال الطبري في معناها:** «ومعنى الكلام: وإعلام من الله ورسوله إلى الناس في يوم الحج الأكبر أن الله ورسوله من عهد المشركين بريئان»[2].

وذلك أن «من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله وأمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر، فإن الله بريء من المشركين ورسولُه»[3].

- **مسألة: لا فرق بين قوله: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾** (التوبة: ١)**، وبين قوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾؟ فما الفائدة في هذا التكرير؟**

**«الجواب عنه من وجوه:**

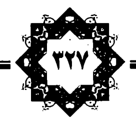
**الوجه الأول:** أن المقصود من الكلام الأول الإخبار بثبوت البراءة،

---

(١) «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (٨/٦٧ ـ ٦٨).

(٢) «جامع البيان»: (١٠/٧٦).

(٣) «بحر العلوم»: (٢/٣٨).



والمقصود من هذا الكلام إعلام جميع الناس بما حصل وثبت.

**والوجه الثاني**: أن المراد من الكلام الأول البراءة من العهد، ومن الكلام الثاني البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد، والذي يدل على حصول هذا الفرق أن في البراءة الأولى بريء إليهم، وفي الثانية: بريء منهم، والمقصود: أنه تعالى أمر في آخر سورة الأنفال المسلمين بأن يوالي بعضهم بعضاً، ونبه به على أنه يجب عليهم أن لا يوالوا الكفار وأن يتبرؤوا منهم، فهاهنا بين أنه تعالى كما يتولى المؤمنين فهو يتبرأ عن المشركين ويذمهم ويلعنهم، وكذلك الرسول ﷺ، ولذلك أتبعه بذكر التوبة المزيلة للبراءة.

**والوجه الثالث**: في الفرق أنه تعالى في الكلام الأول، أظهر البراءة عن المشركين الذين عاهدوا ونقضوا العهد، وفي هذه الآية أظهر البراءة عن المشركين من غير أن وصفهم بوصف معين، تنبيهاً على أن الموجب لهذه البراءة كفرهم وشركهم»[1].

وجميع هذه الوجوه يقوي بعضها بعضاً، وترجع إلى معنى واحد، وهو تأكيد وصفه ﷺ بالبراءة من المشركين.

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾** (يونس: ٤١).

- **قال الشوكاني في معنى الآية**: «فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يقول

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٥/١٧٧ ـ ١٧٨).

لهم إن أصروا على تكذيبه واستمروا عليه: «﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ (يونس: ٤١) أي: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، وليس علي غير ذلك، ثم أكد هذا بقوله: ﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: لا تؤاخَذون بعملي ولا أؤاخَذُ بعملكم»[1].

- **والآية صريحة في تبرئة النبي ﷺ من المشركين**، قال الشنقيطي[2]: «أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة، أن يظهر البراءة من أعمال الكفار القبيحة إنكاراً لها، وإظهاراً لوجوب التباعد عنها، وبين هذا المعنى في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الكافرون: ١)، إلى قوله: ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ٦)، ونظير ذلك، قول إبراهيم الخليل وأتباعه لقومه: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (الممتحنة: ٤)»[3].

- **دعوى النسخ للآية:**

ذهب غير واحد من التابعين إلى القول بنسخ الآية، ومنهم: (مجاهد، والكلبي، ومقاتل)[4].

قال ابن جرير: «وقيل: إن هذه الآية منسوخة، نسخها الجهاد والأمر

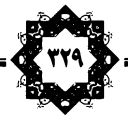
---

(١) «فتح القدير»: (٢/٤٤٧).

(٢) سبقت ترجمته ص: (٦٧).

(٣) «أضواء البيان»: (٢/١٥٧).

(٤) وقد عزاها إليهم: القرطبي في تفسيره: (٨/٣٤٦)، وأبو حيان في البحر: (٥/١٦١).



بالقتال...قال بن زيد في قوله: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾...الآية (يونس:٤١). قال: «أمره بهذا ثم نسخه وأمره بجهادهم»»[١]، كما ذكرها غير واحد من المفسرين[٢].

**والذي يظهر - والله تعالى أعلم -:**

أنها محكمة غير منسوخة لما يلي:

١ – لأنه لا تنافي بين الآيتين، قال ابن الجوزي: «وليس هذا بصحيح؛ لأنه لا تنافي بين الآيتين»[٣].

٢ – لأن من شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، وآية القتال لم ترفع شيئاً من مدلولات هذه الآية، قال الرازي: «وهذا بعيد، لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وذلك لا يقتضي حرمة القتال، فآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً»[٤].

وقال الشنقيطي: «والظاهر أن معناها محكم؛ لأن البراءة إلى الله من عمل

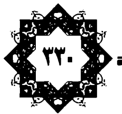
---

(١) «جامع البيان»: (١١/١١٩).

(٢) كالسمرقندي في بحر العلوم: (٢/١١٨)، والبيضاوي في تفسيره: (٣/١٩٩)، والشوكاني في فتح القدير: (٢/٤٤٧).

(٣) «زاد المسير»: (٤/٣٤)، وانظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (٣/٤٤٦).

(٤) «التفسير الكبير» للرازي: (١٧/٨١)، وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان: (٥/١٦١).



السوء لا شك في بقاء مشروعيتها»[1].

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفتي الشهادة، والبراءة من المشركين للنبي ﷺ:**

**أ/ في آيات شهادة النبي ﷺ:**

❖ **من قوله ﷻ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٤٥).

جاء «الخطاب للنبي ﷺ، في معرض الامتنان عليه، حيث شرفه بالرسالة، وبعثه إلى الكافة شاهداً على أعمال أمته»[2].

❖ **قوله ﷻ:** ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ ﴾ (المزمل: ١٥).

**أ/ جاء لفظ: (رسولاً) نكرة، لعدة فوائد:**

١ – تنبيهاً على أن النبي ﷺ أولى بالنصرة (من قبل قومه)؛ لأنهم قبيلته وأهله، بخلاف موسى عليه السلام فهو ليس من قوم فرعون، فمن كانت له قبيلة تحامي عنه فهو أولى بالنصرة[3].

٢ – لأن المقصود من السياق واضح للمخاطبين.

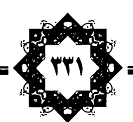
٣ – ولأن المهَدَّد به هو صفة الإرسال، لا ذات الرسول ﷺ.

---

(١) «أضواء البيان»: (٢/١٥٧).

(٢) «لباب التأويل» للخازن: (٦/١٩٠).

(٣) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (٨/٢١٣).



قال ابن عاشور: «ونكر (رسولاً)؛ لأنهم يعلمون المعنيَّ به في هذا الكلام، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول ﷺ بل هو صفة الإرسال، وأدمج في التنظير والتهديدِ وصفُ الرسول ﷺ بكونه شاهداً عليهم»[1].

- **الحكمة في تشبيه إرساله ﷺ إلى أهل مكة بإرسال موسى إلى فرعون على التعيين؛** «لأن كلاً منهما ربا في قومه واستحقروا بهما، وكان عندهم علم بما جرى من غرق فرعون، فناسب أن يشبه الإرسال بالإرسال»[2].

- **فائدة إعادة لفظي: (فرعون) و(الرسول)؟**

«فيه تفظيع لشأن عصيانه، وإن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى، وفيه أن عصيان المخاطبين أفظع وأدخل في الذم إذ زاد وعلا لهذا الرسول وصفاً آخر، أعني شاهداً عليكم، وأدمج فيه أنهم لو آمنوا كانت الشهادة لهم»[3].

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾** (البقرة: ١٤٣).

- **فائدة الإتيان بحرف الاستعلاء (على)[4]:**

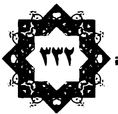
---

(١) «التحرير والتنوير»: (٢٩/٢٧٣).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٥٦).

(٣) «روح المعاني» للألوسي: (٢٩/١٠٨).

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي»: (١/٤١٦)، وانظر: «تفسير أبي السعود»: (١/١٧٢).



١ – لأن الرسول ﷺ كالرقيب المهيمن على أمته لذا عدي بـ: (على).

٢ – للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم».

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾** (النساء: ٤١).

أـ وُجِّه الخطاب للنبي ﷺ تشريفاً له، قال ابن عاشور: «فضمير (بك) واقع موقع الاسم الظاهر؛ لأنّ مقتضَى هذا أن يكون الكلام مسوقاً لجميع الأمّة، فيقتضي أن يقال: وجئنا بالرَّسُول عليهم شهيداً، فعُدل إلى الخطاب تشريفاً للرسول ﷺ بعزّ الحُضور والإقبال عليه»[١].

ب/ جيء في هذه الآية بأسلوب الاستفهام والتعجب لفائدتين:

١ – للتوبيخ والتقريع[٢].

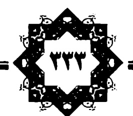
٢ – فيه تصوير حالة المشركين من التحسر ومحاولة إنكار مجيء رسول إليهم، فإذا بالشهيد يقطع عليهم محاولاتهم الكاذبة.

ج/ على قول من قال بأن الإشارة في قوله: ﴿ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إلى كفار قريش فيكون قد «خص كفار قريش بالذكر؛ لأن وظيفة العذاب أشد عليهم منها على غيرهم؛ لعنادهم عند رؤية المعجزات، وما أظهره الله على يديه من خوارق

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٥/٥٦).

(٢) انظر: «فتح القدير»: (١/٤٦٧).



العادات»[1].

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ ﴾** (النحل: ٨٩).

- زيد في الآية قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾:

وذلك «زيادة في التذكير بأن شهادة الرسل على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها؛ لأنها شهود من قومهم، لا يجد المشهود عليهم فيها مساغاً للطعن»[2].

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾** (الحج: ٧٨).

قدمت شهادة الرسول للأمة، بينما قدمت شهادة الأمة في آية سورة البقرة **﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾** (البقرة: ١٤٣)؛ «لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدّين الذي جاء به الرسول. فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية سورة البقرة صُدّرت بالثناء على الأمّة فكان ذكر شهادة الأمة أهمّ»[3].

❖ **بين آيتي سورتي: الأحزاب والفتح:**

**قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**

---

(١) «تفسير القرطبي»: (١٩٨/٥).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٥٠/١٤).

(٣) «المصدر السابق»: (٣٥٢/١٧).



﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦)، **بينما في سورة الفتح اقتصر على الثلاثة من الخمسة، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾** (الفتح: ٨) **والحكمة في ذلك من وجوه:**

١ – أن الاختلاف في أوصافه ﷺ جاء تبعاً لاختلاف المقام بين السورتين.

٢ – أن وصف (شاهداً) في الأحزاب لا ينبئ عن أنه ﷺ يدعو، فقال: (وداعياً)، أما في الفتح فإنه ينبئ عن أنه ﷺ يدعو فتم الاستغناء عنها[1].

٣ – أن الاختلاف في أوصافه ﷺ جاء أيضاً تبعاً لاختلاف السياق القرآني بين السورتين، ذلك أن السياق في الفتح كان لإبطال شك وتكذيب الذين شكوا وكذبوا بالوعد، أما في الأحزاب فالسياق في تنزيه النبي ﷺ عن مطاعن المنافقين، فزيد في صفاته زيادة في التنزيه[2].

**❖ بين آيتي سورتي: المزمل والبقرة:**

يقول ابن عاشور: «والمراد بالشهادة هنا ـ في آية المزمل ـ: الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس، وبذلك يكون وصف (شاهداً) موافقاً لاستعمال الوصف باسم الفاعل في زمن الحال، أي هو شاهد عليكم الآن بمعاودة الدعوة والإبلاغ.

وأما شهادة الرسول ﷺ يوم القيامة فهي شهادة بصدق المسلمين في شهادتهم على الأمم، بأنَّ رسلهم أبلغوا إليهم رسالات ربّهم، وذلك قوله

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» للرازي: (٢٨/٥٧).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير»: (٢٦/١٥٦ ـ ١٥٧).

تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (البقرة: ١٤٣)»[١].

**❖ مقارنة بين الشهادة للأمم، وشهادة الرسول ﷺ على أمته، فجاء الفعل في الأولى مضارعاً: (نبعث)، وفي الثانية ماضياً: (جئنا):**

- اختير لفظ المضارع في قوله: (نبعث): لأن بعث الشهداء للأمم الماضية إنما يراد به بعثهم يوم القيامة.

- ولأن النبي ﷺ لما كان حيّاً في آن نزول هذه الآية كان شهيداً في الحال والاستقبال، اختير لفظ الماضي في (جئنا) للإشارة إلى أنه مجيء حصل من يوم بعثته ﷺ[٢].

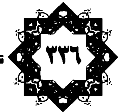
**ب/ في آيات براءة النبي ﷺ من المشركين:**

**❖ قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩).**

أ/ هذه الآية صريحة في براءته ﷺ عن إثبات الشركاء، حيث دلت على إيجاب التوحيد بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد، قال أبو حيان: «أمره تعالى أن يخبرهم أنه لا يشهد شهادتهم، وأمره ثانياً أن يفرد الله تعالى بالإلهية، وأن يتبرأ من إشراكهم، وما أبدع هذا الترتيب، أمر أولاً بأن يخبرهم بأنه لا يوافقهم في الشهادة، ولا يلزم من ذلك إفراد الله بالألوهية، فأمر به ثانياً؛

(١) «التحرير والتنوير»: (٢٧٣/٢٩).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (٢٥١/١٤).



ليجتمع مع انتفاء موافقتهم إثبات الوحدانية لله تعالى، ثم أخبر ثالثاً بالتبرؤ من إشراكهم وهو كالتوكيد لما قبله»[1].

ب/جيء بالجملة الاسمية للتأكيد على هذه البراءة، »ولما كان معنى هذا البراءة من إنذارهم، صرح به في قوله مؤكداً في جملة اسمية: ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ أي: الآن وفي مستقبل الزمان؛ إبعاداً من تطمعهم أن تكون الموافقة بينه وبينهم باتخاذه الأنداد، أو شيئاً منها ولياً[2] وكذلك فيه قطع للمجادلة معهم.

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾** (التوبة: ٣).

أ/ في الكلام حذف والتقدير: (وأذان من الله ورسوله بأن الله بريء من المشركين)، إلا أن الباء حُذفت هنا لدلالة الكلام عليها[3].

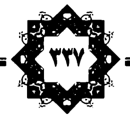
ب/ يُلاحظ في الآية الكريمة عطفُ لفظ: (ورسولُه) مرفوعاً، على لفظ الجلالة المنصوب وذلك للدلالة على إرادة عطف الجمل دون عطف المفردات، ولتظهر قوة رابطة الدين على رابطة النسب، والتي تظهر من غرابة كونه ﷺ يتبرأ من المشركين مع أنه منهم نسباً.

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٩٦/٤)، وانظر: «التفسير الكبير» للرازي: (١٤٨/١٢)، «لباب التأويل»: للخازن: (١٢٤/٢ ـ ١٢٥).

(٢) «نظم الدرر» للبقاعي: (٦٠١/٢).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» للرازي: (١٧٨/١٥)، «لباب التأويل» للخازن: (٦١/٣).



## رابعاً: تمثل صفتي: الشهادة، والبراءة من المشركين في النبي ﷺ:

١ – الشهادة من صفته ﷺ في التوراة، حيث كانت من جملة الصفات التي امتدحه الله ﷻ بها، وبشر بها الناس «فعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٤٥) وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذانا صماً، وقلوباً غلفاً»[(١)].

٢ – صرح النبي ﷺ في كثير من الأحاديث عن شهادته ﷺ يوم القيامة، منها:

- قال رسول اللَّهِ ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾،

---

(١) سبقت ترجمة عطاء وعبد الله رضي الله عنهما، وسبق تخريج الحديث في ص: (٣٠٠).

والوسط: العدل»[1].

- عن جابر بن عبد الله[2] رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن»؟ فإذا أشير له إلى أحدهما، قدمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة»، وأمر بدفنهم في دمائهم، ولم يُغسَّلوا، ولم يُصَلَّ عليهم»[3].

- عن عقبة بن عامر[4] رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوماً، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»[5].

٣ – وقد كانت للنبي ﷺ مع آية النساء دمعات رقيقة، تحمل في طياتها

---

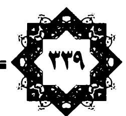
(١) سبق تخريجه ص: (٣٣٩).

(٢) هو: جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري السلمي، يكنى أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن وأبا محمد، أحد المكثرين عن النبي ﷺ، له ولأبيه صحبة، وفي الصحيح عنه أنه كان مع من شهد العقبة، قال قتادة: كان آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتاً بالمدينة جابر، والجمهور على أنه توفي سنة ٧٨هـ. انظر: «الإصابة»: (١/٤٣٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، (١/٤٥٠/ح ١٢٧٨).

(٤) هو: عقبة بن عامر الأنصاري السلمي، له صحبة، فشهد العقبة الأولى وبدرا وأحدا، وشهد الخندق وسائر المشاهد واستشهد باليمامة. انظر: «الإصابة»: (٤/٥٢١).

(٥) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، (١/٤٥١/ح ١٢٧٩).



معنى الوعظ لهذه الأمة، كما تعبر عن رحمة، ومسرة، وأسف، وبهجة، وتدل على شدة الموقف وهول المطلع:

❖ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي»، قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك، وعليك أنزل؟! قال: «نعم»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا** ﴾ قال: «حسبك الآن»، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»[١].

- قال ابن بطال: «وبكاؤه إشارة منه إلى معنى الوعظ؛ لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه، والإيمان به وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن»[٢].

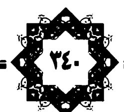
- وقال القرطبي: «قال علماؤنا: بكاء النبي ﷺ إنما كان لعظيم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع وشدة الأمر إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب ويؤتى به ﷺ يوم القيامة شهيداً»[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، (١٩٢٥/٤/ ح ٤٧٦٣)، واللفظ له، ومسلم، كتاب فضائل القرآن، وما يتعلق به، باب فضل استماع القرآن...، (٥٥١/١/ح ٨٠٠).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: (٢٧٨/١٠ ـ ٢٧٩).

(٣) «تفسير القرطبي»: (١٩٧/٥).



- بينما نظر البعض إلى بكائه ﷺ بمنظار آخر، حيث رآه من خلاله يعبر عن رحمة، ومسرة، وأسف، وبهجة:

يقول ابن عاشور: «وكما قلت: إنه أوجز في التعبير عن تلك الحال في لفظ كيف فكذلك أقول هنا: لا فِعل أجمع دلالة على مجموع الشعور عند هذه الحالة من بكاء رسول الله ﷺ فإنّه دلالة على شعور مجتمع فيه دلائلُ عظيمة: وهي المسرّة بتشريف الله إيّاه في ذلك المشهد العظيم، وتصديق المؤمنين إيّاه في التبليغ، ورؤيةِ الخيرات التي أنجزت لهم بواسطته، والأسف على ما لحق بقية أمّته من العذاب على تكذيبه، ومشاهدةِ ندمهم على معصيته، والبكاء ترجمانُ رحمةٍ ومسرّة وأسف وبهجة»[1].

٤ — وهاهو في آخر حياته ﷺ يُشهد الله على تبليغه أمته ﷺ:

ومن ألطف ما ذكر في شهادة النبي ﷺ، خطبته في حجة الوداع لما انتهى قال: ألا هل بَلَّغْتُ؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشْهَدْ...»[2].

٥ — امتثل النبي ﷺ أمر ربه ﷻ حين أمره بالتبرؤ من المشركين، فنادى بها في الناس: فعن حميد بن عبد الرحمن[3] قال: أن أبا هريرة ﷺ قال: «بعثني

(١) «التحرير والتنوير»: (٥/٥٨).

(٢) سبق تخريجه ص: (٢٧٠).

(٣) قال السيوطي: «حميد بن عبد الرحمن بن عوف أبو عبد الرحمن المدني روى عن أبيه وأمه أم كلثوم بنت عقبة وعمر وعثمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس، وثقه العجلي وأبو زرعة وغيرهما ومات سنة خمس وتسعين وقيل سنة خمس ومائة»، «إسعاف المبطأ»: (١/٨).

أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(1).

٧ – وأي دليل على براءته ﷺ من الشرك وأهله، أبلغ وأعظم من هجرته من مكة، مسقط رأسه، وأحب البلاد إلى قلبه؟

## خامساً: الصفتان في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ فيهما:

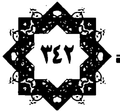
**١ – أمر الله ﷻ بالشهادة بين الناس:**

- في الحقوق المتعلقة بالأموال: سواء في الدَّيْن كما في آخر البقرة: [﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾، وقال: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾، وقال: ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾] (البقرة: ٢٨٢)، أو في حقوق اليتامى، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٦)، وغيرهما.

- وندب إلى الشهادة بالعدل فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء: ١٣٥)، وقال:

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: (وأذان من الله إلى الناس...)، (١٧١٠/٤/ح ٤٣٧٩) واللفظ له، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك...، (٩٨٢/٢/ح١٣٤٧).



﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ (المعارج: ٣٣).

- وكذا الشهادة في الحقوق المتعلقة بالأعراض، كآيات اللعان والقذف.

- وكذا الشهادة في الأنكحة، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ (الطلاق: ٢).

٢ – أخذ بها النبي ﷺ وعلقت عليها بعض العبادات، كالشهادة برؤية هلال رمضان.

٣ – على المرء أن يحذر من كتمان الشهادة، فإن إثم ذلك عظيم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

٤ – على المرء أن يحذر من شهادة الزور، فإنها من الكبائر، وشدد فيها النبي ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً - فقال: ألا وقول الزور، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[1].

٥ – علينا أن نتأسى بالنبي ﷺ عند تذكر شهادته على الأمة، «فإذا كان هذا الشاهد تفيض عيناه لهول هذه المقالة وعظم تلك الحالة، فماذا لعمري يصنع

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، (٢/٩٣٩/ح ٢٥١١).



المشهود عليه، وكأنه بالقيامة وقد أناخت لديه؟»[1]. فهل من معتبر؟

٦ – إن الولاء والبراء أصل عظيم من أصول العقيدة، وبه يجد المرء حلاوة الإيمان، قال ﷺ: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرءَ لا يحبه إلا له، وحتى أن يُقذفَ في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله، وحتى لا يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[2].

٧ – إن من عِظَم الولاء والبراء أنه مستمر مع المؤمن حتى بعد موته، قال ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم»[3].

٨ – يقع الكثير من العامة في موالاة الكفار، وذلك بالإعجاب بهم، وتفضيلهم على المسلمين، أو التشبه بهم في لباس ونحوه، فكيف يتفق هذا مع صحة الولاء والبراء؟ فلا بد أن يُعلم أن من موالاة الكفار وعدم التبرؤ منهم: التقرب إليهم، وموادتهم بالأقوال، أو الأفعال، أو النوايا، أو التشبه بهم، ونحو ذلك، والله المستعان.

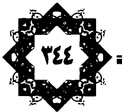
٩ – البراءة من الشرك وأهله تورث تفضل الله ﷻ على العبد بالذرية الصالحة، قال الشنقيطي في تفسير سورة يونس: «بين تعالى في موضع آخر أن

---

(١) «روح المعاني» للألوسي: (٥/٣٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحب في الله، (٥/٢٢٤٦/ح ٥٦٩٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم، (٦/٢٤٨٤/ح ٦٣٨٣)، ومسلم، كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر، ولا يرث الكافر المسلم، (٣/١٢٣٣/ح ١٦١٤).



اعتزال الكفار والأوثان، والبراءة منهم من فوائده: تفضل الله تعالى بالذرية الطيبة الصالحة، وهو قوله في مريم: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٤٩ ـ ٥٠)»[١].



(١) «أضواء البيان»: (٢/١٥٧).

## المطلب الرابع

## الحرص على المؤمنين، والرحمة، والرأفة، واللين.

### أولاً: المعنى اللغوي لصفات: الحرص على المؤمنين، والرحمة، والرأفة، واللين:

**١ – الحرص على المؤمنين:**

الحرص على الشيء: الإفراط في الرغبة فيه.

- قال ابن فارس: «(حَرَصَ): الحاء والراء والصاد، أصلان: ... والآخر الجشع... وأما الجشع والإفراط في الرغبة، فيقال: حَرِص إذا جَشِع، يحرِصُ حِرْصاً فهو حريص، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ ﴾ (النحل: ٣٧)»[١].

- وقال ابن منظور: «حَرَصَ: الحِرْص: شدة الإرادة، والشَّرَه إلى المطلوب، وقال الجوهري: الحِرْص الجَشَع، ... والمعروف: حَرِصْتُ عليه - وقال - الأزهري: قول العرب: (حَرِيصٌ عليك) معناه: حريص على نفعِك»[٢].

**٢ – الرحمة:**

قال ابن فارس: «(رَحَمَ): الراء والحاء والميم: أصل واحد يدل على: الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك: رَحِمَه يَرْحَمُهُ، إذا رقَّ له وتعطَّفَ

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/ ٤٠).

(٢) «لسان العرب»: (٧/ ١١).

عليه»[1].

**٣ – الرأفة:**

قال ابن فارس: «(رَأَفَ): الراء والهمزة والفاء، كلمة واحدة: تدل على: رقة ورحمة، وهي الرأفة»[2].

وقال ابن منظور: «رأَفَ: الرأفة: الرحمة، وقيل: أشد الرحمة... والرأفة أخص من الرحمة وأرق»[3].

**❖ ومما قيل في الفرق بين الرحمة والرأفة:**

– قال ابن منظور: «و الرأفة أرق من الرحمة ولا تكاد تقع في الكراهة، والرحمة قد تقع في الكراهة للمصلحة»[4].

**٤ – اللين:**

– قال ابن فارس: «اللام والياء والنون: كلمة واحدة وهي: اللين: ضد الخشونة... وفلان مَلْيَنَةٌ، أي: لَيِّنُ الجانب»[5].

**❖ من الآيات التي وصف فيها ﷺ بالحرص على المؤمنين، وبالرحمة، والرأفة واللين:**

---

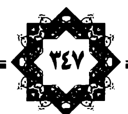
(١) «مقاييس اللغة»: (٤٩٨/٢).

(٢) «المصدر السابق»: (٤٧١/٢).

(٣) «لسان العرب»: (١١٢/٩).

(٤) «المصدر السابق».

(٥) «مقاييس اللغة»: (٢٢٥/٥).



- قوله ﷻ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

- قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

- قوله ﷻ: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ ﴾ (التوبة: ٦١).

- قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في هذه الصفات في حق النبي ﷺ:

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ (آل عمران: ١٥٩):**

❖ قال الطبري: «فتأويل الكلام: فبرحمة الله يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك ﴿ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾: لأتباعك وأصحابك، فسهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك، ففارقك ولم يتبعك، ولا ما بعثت به من الرحمة ولكن الله رحمهم ورحمك معهم فبرحمة من الله لنت لهم...

وأما قوله: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾: فإنه يعني

بالفظ: الجافي، وبالغليظ القلب: القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة، وكذلك صفته ﷺ كما وصفه الله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾... وأما قوله: ﴿ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾: فإنه يعني: لتفرقوا عنك»[1].

❖ **ومما دلت عليه هذه الآية**: «أن رحمة الله هي المؤثرة في صيرورة محمد عليه الصلاة والسلام رحيماً بالأمة، فإذا تأملت حقيقة هذه الآية عرفت دلالتها على أنه لا رحمة إلا لله سبحانه، والذي يقرر ذلك وجوه: أحدها: أنه لولا أن الله ألقى في قلب عبده داعية الخير والرحمة واللطف، لم يفعل شيئاً من ذلك وإذا ألقى في قلبه هذه الداعية، فعل هذه الأفعال لا محالة»[2].

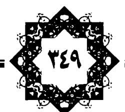
❖ **من كمال رحمة الله تعالى بنبيه ﷺ** أن بين له سبب كونه رحيماً، وأن عرفه مفاسد الفظاظة والغلظة فقال: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

❖ **من لوازم تبليغ الرسالة إلى الخلق هو كون المبلّغ ﷺ رحيماً**، قال الرازي: «إن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول ﷺ تكاليف الله إلى الخلق، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيماً كريماً، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن

---

(١) «جامع البيان»: (٤/١٥١).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٩/٥١).



يكون الرسول ﷺ مبرأ عن سوء الخلق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير التجاوز عن سيئاتهم، كثير الصفح عن زلاتهم، فلهذا المعنى قال: ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾، ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة»[1].

❖ **بينت الآية ثمرة اللين** فقال ﷻ: «﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ قال أبو حيان: «بين تعالى أن ثمرة اللين هي المحبة، والاجتماع عليه، وأن خلافها من الجفوة والخشونة مؤد إلى التفرق»[2].

❖ **متعلق الرحمة في الآية:**

ذُكِرت احتمالاتٌ ثلاثةٌ لمتعلق الرحمة في الآية[3]:

١ – فقيل هو: المؤمنون، والمعنى: فبرحمة من الله عليهم لِنْت لهم، فتكون الرحمة امتن بها عليهم. أي: دمثت أخلاقك ولان جانبك لهم بعدما خالفوا أمرك وعصوك.

٢ – وقيل: متعلق الرحمة المخاطب ﷺ، أي برحمة الله إياك جعلك لين الجانب موطأ الأكناف، فرحمتهم ولنت لهم، ولم تؤاخذهم بالعصيان والفرار

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٩/٥٢).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٣/١٠٤).

(٣) «المصدر السابق»: (٣/١٠٣).



وإفرادك للأعداء، ويكون ذلك امتناناً على رسول الله ﷺ.

٣ – ويحتمل أن يكون متعلق الرحمة النبي ﷺ بأن جعله على خلق عظيم، وبعثه بتتميم محاسن الأخلاق والمؤمنين، بأن لينه لهم.

❖ **العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**، وعليه فإن الآية عامة، وليست خاصة بما وقع في أُحُد، ولكن يدخل فيها دخولاً أولياً أمر الصحابة الذين عصوا أمره ﷺ في غزوة أحد.

❖ **قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾** (التوبة: ١٢٨).

- **قال الطبري في معناها**: «يقول تعالى ذكره للعرب لقد جاءكم أيها القوم رسول الله إليكم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ تعرفونه لا من غيركم فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي عزيز عليه عنتكم وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى، ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ يقول حريص على هدى ضلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق، ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ ﴾: أي رفيق رحيم»[1].

❖ **القراءات في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ والمعنى المترتب على كل قراءة[2]:**

---

(١) «جامع البيان»: (١١/٧٦).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٢/٤١٧ ـ ٤١٨)، «زاد المسير»: (٣/٥٢٠ ـ ٥٢١).



**في الآية قراءتان[1] :**

أ/ قراءة الجمهور (من أنفسكم): بضم الفاء، وفي تأويلها أربعة أوجه:

١ – يعني من المؤمنين لم يصبه شيء من شرك.

٢ – يعني من نكاح لم يصبه من ولادة الجاهلية شيء.

٣ – ممن تعرفونه بينكم.

٤ – يعني من جميع العرب لأنه لم يبق بطن من بطون العرب إلا قد ولدوه.

❖وكلها صحيحة في حقه ﷺ.

ب/ وقرأ ابن محيصن: (من أنفَسكم): بفتح الفاء، ويحتمل تأويلها ثلاثة أوجه:

١ – من أكثركم طاعة لله تعالى.

٢ – من أفضلكم خلقاً.

٣ – من أشرفكم نسباً.

**❖ قوله ﷻ: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾: فيه ثلاثة أقوال[2] :**

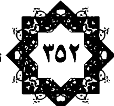
١ – شديد عليه ما شق عليكم.

٢ – شديد عليه ما ضللتم.

---

(١) انظر: «إتحاف فضلاء البشر» للدمياطي: (١، ٣٠٨).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٢/٤١٨ ـ ٤١٩).



٣ – عزيز عليه عنت مؤمنكم.

❖ وكلها متحققة فيه ﷺ.

❖ **قوله ﷻ:** ﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُم** ﴾: حريص عليكم، أي: أن تؤمنوا[١].

❖ **قوله ﷻ:** ﴿ **بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾: يحتمل ثلاثة أوجه:

١ – بما يأمرهم به من الهداية ويؤثره لهم من الصلاح[٢].

٢ – بما يضعه عنهم من المشاق ويعفو عنهم من الهفوات[٣].

٣ – «وقيل رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين»[٤].

❖وكلها متحققة فيه ﷺ.

❖ **هذه الآية من أعظم منته تعالى على عباده:**

**قال الشنقيطي** رحمه الله: «هذه الآية الكريمة تدل على أن بَعْثَ هذا الرسول الذي هو من أنفسنا الذي هو متصف بهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال، وغاية شفقته علينا هو أعظم منن الله تعالى، وأجزل نعمه علينا، وقد بين ذلك في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وقوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟**

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٢/٤١٨ ـ ٤١٩).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (٢/٤١٩).

(٣) انظر: «المصدر السابق».

(٤) «زاد المسير»: (٣/٥٢١).

﴿ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ (إبراهيم:٢٨)، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) إلى غير ذلك من الآيات»[(١)].

❖ **قوله ﷻ: ﴿ وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ ﴾ (التوبة:٦١):**

- أي: «وهو رحمة لأنه كان سبب إيمانهم»[(٢)].

❖ **قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧):**

- قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي»[(٣)].

❖ **واختلف المفسرون في معنى (العالمين): على قولين:**

١ – جميع العالَم: المؤمن والكافر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[(٤)].

٢ – أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر، قاله ابن زيد[(٥)].

❖ **والحقيقة إن المتأمل في حال النبي ﷺ مع أمته يرى أنه رحمة للمؤمن والكافر، وقد رجح هذا ابن جرير رحمه الله فقال:**

«وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن بن عباس رضي الله عنهما وهو أن الله أرسل نبيه محمدا ﷺ رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم:

---

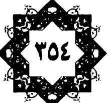
(١) «أضواء البيان»: (١٤٩/٢).

(٢) «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي: (٤٧٠/١)، وانظر: «زاد المسير»: (٤٦١/٣).

(٣) «جامع البيان»: (١٠٦/١٧).

(٤) انظر: «المصدر السابق».

(٥) انظر: «المصدر السابق».



فأما مؤمنهم: فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة.

وأما كافرهم: فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله»[1].

قال أبو حيان: «ومن رحمته تعالى أن لا يعذّبهم والرسول فيهم، ولما كان الإمطار للحجارة عليهم مندرجاً تحت العذاب، كان النفي متسلّطاً على العذاب الذي إمطار الحجارة نوع منه، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ (الأنفال: ٣٣) ولم يجيء التركيب: (وما كان الله ليمطر أوليائي بعذاب)، وتقييد نفي العذاب بكينونة الرسول ﷺ فيهم، إعلام بأنه إذا لم يكن فيهم وفارقهم، عذّبهم، ولكنه لم يعذبهم إكراماً له، مع كونهم بصدد من يعذَّب لتكذيبهم»[2].

**بل ويدخل فيها المنافق أيضاً:**

فقوله تعالى: ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾: «أي لجميع الخلق؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمة للمؤمنين: حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين: حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين: بتأخير العذاب»[3].

---

(١) «جامع البيان»: (١٧/١٠٦).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/٤٨٣).

(٣) «بحر العلوم»: (٢/٤٤٥).

❖ فدلت الآية بجلاء على عالمية رحمة النبي ﷺ، فما من أحد من الجن، والإنس، بل حتى الحيوان والجماد، إلا وقد نال حظاً من رحمته ﷺ كما سيأتي عما قريب إن شاء الله تعالى.

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفات:

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾** (آل عمران: ١٥٩).

**أ/ في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا ﴾:**

أُتيَ بالفاء لترتيب عفو الله تعالى عن المخالفين، وإلانة رسوله ﷺ لهم، على حكاية ما كان منهم من المخالفة لأمره ﷺ[(١)].

ب/ **أُتيَ بالباء لبيان مصاحبة لينه ﷺ لرحمة الله تعالى**، يقول ابن عاشور:

«والباء للمصاحبة، أي لنتَ مع رحمة الله: إذ كان لينه في ذلك كلّه ليناً لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراةً لهم في التساهل في أمر الدّين، فلذلك كان حقيقاً باسم الرحمة»[(٢)].

**ج/ قُدِّمَ الجار والمجرور لفائدتين:**

١ – لإفادة الحصر.

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير»: (٤/١٤٤).

(٢) «المصدر السابق».



٢ – للإلماح إلى فضل الله ورحمته بإلانة رسوله ﷺ لهم.

قال ابن عاشور في تقديم المجرور في معنى الآية: «أي: برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم، وهذا القصر مفيد التعريض بأنّ أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم، ولكن الله ألاَن خُلُقَ رسوله ﷺ رحمة بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمَّة»[1].

**د/ للمفسرين في (ما) قولان[2]:**

١ – أن (مَا) صلة دخلت لحسن النظم، والتقدير: (فبرحمة من الله).

٢ – وجوز بعضهم أن تكون استفهامية للتعجب، والتقدير: (فبأي رحمة)؟

❖ والأول أولى؛ لأنه يتناسب مع السياق، والله تعالى أعلم.

**هـ/ في الآية تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ[3]**، لقوله تعالى قبلها: ﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ (آل عمران:١٥٧)، و﴿ **وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ (آل عمران:١٥٨)، ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾.

**و/ عُبِّرَ بالفعل الماضي (لِنْتَ)**: ليدل على استقرار هذا الوصف فيه ﷺ

(١) «التحرير والتنوير»: (١٤٤/٤).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٤٣٢/١).

(٣) انظر: «تفسير أبي السعود»: (١٠٥/٢)، «روح المعاني» للألوسي: (١٠٢/٤).



وتمكنه منه، وأنه مفطور عليه[1].

**ز/ فائدة في الفرق بين الفظ وبين غليظ القلب[2]:**

١ – قيل هما بمعنى واحد، واجتماعهما في الآية للتوكيد.

٢ – وقيل الفظ في القول، والغليظ القلب في الفعل.

٣ – وقيل: الفظ الذي يكون سيئ الخلق، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه عن شيء، فقد لا يكون الإنسان سيئ الخلق ولا يؤذي أحدا، ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم.

**ح/ فائدة في الجمع بين نفي الغلظة عنه ﷺ هنا، وبين أمره بها ﷺ في آيتي التوبة والتحريم:**

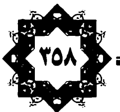
١ – وذلك أن لينه ﷺ للمؤمنين، وغلظته على الكافرين.

٢ – وتنبيهاً له ﷺ على سلوك الوسطية والاعتدال بين اللين والغلظة.

يقول الرازي: «وههنا دقيقة أخرى: وهي أنه تعالى منعه من الغلظة في هذه الآية، وأمره بالغلظة في قوله: ﴿ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ (التوبة: ٧٣)، فههنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمره بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤)، وقوله: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ (الفتح: ٢٩)، وتحقيق القول فيه: إن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة

(١) «التحرير والتنوير»: (١٤٥/٤).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٤٨٦/١)، «التفسير الكبير» للرازي: (٥١/٩ ـ ٥٢).



في الوسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه، إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم، فلهذا السر مدح الله الوسط فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)»[1].

❖ **من قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾** (التوبة: ١٢٨).

**أ/ افتتحت هذه الآية العظيمة بحرفي التوكيد: (اللام) و(قد) لمقاصد** عدة[2]:

١ – للاهتمام بهذه الجملة.

٢ – ولأن فيها إثباتاً لرسالته ﷺ مما أنكره المنكرون.

٣ – تنبيهاً للمخاطبين إلى المبادرة بالانتفاع من هذا الرسول الكريم ﷺ.

٤ – في الإخبار بمجيئه ﷺ وقد جاء منذ زمن بعيد، إشارة إلى اقتراب رحيله ﷺ، وفيه حث على المبادرة إلى الانتفاع به قبل أن يعاجله الرحيل ﷺ.

**ب/ في قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾** أي من جنسكم ونسبكم: تنبيه على أن ما يذكر بعده، وهو قوله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ إنما هو من لوازم هذه المجانسة والنسب[3].

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٩/٥٣).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير»: (١١/٧١).

(٣) انظر: «الكشاف»: (٢/٣١١).

❖ من قوله ﷻ: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ (التوبة: ٦١).

**أ/ خص سبحانه رحمته ﷺ فقال: (منكم) مع أنه ﷺ رحمة للعالمين، وذلك:**

١ – للدلالة على كونه ﷺ رحمة للمؤمنين الخُلَّص دون المنافقين الكاذبين.

٢ – وللدلالة على حصول مزية المؤمنين على من دونهم.

**ب/ الفائدة في ذكر الرحمة عقيب ذِكْر الخير مع أن كل رحمة خير:**

وذلك لأن «أشرف أقسام الخير هو الرحمة، فجاز ذكر الرحمة عقيب ذكر الخير، كقوله: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ (البقرة: ٩٨)»[(١)].

## رابعاً: تمثل هذه الصفات في النبي ﷺ:

وهكذا فقد دلت الآيات الكريمة على أن النبي ﷺ كان رحيماً كل الرحمة، رؤوفاً كل الرأفة.

ولما وصفه ربه سبحانه بأنه: ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ «ولم يُسَمِّ أحداً من أنبيائه قبله بهما، دل ذلك على أنه أرحم الخلق، وأعطفهم، وأشفقهم، وأرقهم قلباً، فكان كله رحمة في شمائله وصفاته، في حياته ومماته، فإن كان النبي ﷺ هو

(١) «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (١٠/١٣١).



ذاته رحمة، فكيف يتصور تمثل الرحمة فيه»[1].

❖ **وفيما يلي بعضاً مما يبين تَمَثُّلَ هذه الصفات الكريمة في نبينا ﷺ:**

١ – «لم تقف رحمته ﷺ عند الإعراض عن أذى قومه والعفو والصفح عنهم، والحلم عن جهالاتهم، بل إنها تعدت ذلك إلى حد الحرص العظيم على هدايتهم، وإبعادهم عما يوجب لهم عذاب الله وأليم عقابه، إذ لم يفتأ يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له، ليجنبهم بذلك ما لا طاقة لهم به من العذاب، ولم يزل ذلك دأبه معهم ﷺ حتى أجهد بدنه، وأتعب نفسه حتى عاتبه الله تعالى»[2] فقال: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ (الكهف: ٦)، ﴿ **لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (الشعراء: ٣)، وقال: ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (يونس: ٩٩).

٢ – بلغت رحمة النبي ﷺ مداها، وأناخت للعالمين مطاياها، ومهما ذكرتُ فلن أذكر إلا غيضاً من فيضِ رحمته ﷺ فأقول:

❖ **تدور رحمته ﷺ ـ العالمية ـ حول مظاهر رائعة، ومن ذلك:**

**أ/ رحمته ﷺ بالمؤمنين:**

وهي حقيقة دل عليها الكتاب قبل السنة ـ كما مر معنا ـ ولها شواهد عملية من حياة النبي ﷺ، ومن ذلك:

---

(١) انظر: «أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة» للحداد: (٢/٦١٨).

(٢) «المصدر السابق»: (٢/٦٣٣).



- عن أسامة بن زيد[1] رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابناً لنا قُبضَ فائتنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام، ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبي، ونفسه تتقعقع، قال حسبته أنه قال: كأنها شنٌّ[2] ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[3].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»[4].

**ب/ رحمته ﷺ بالكافرين:**

أما رحمته ﷺ بالكافرين، فكفى بهم أنه ﷺ سبب في رفع عذاب

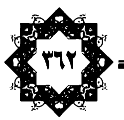
---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة، الحِبُّ بن الحِبِّ، ولد في الإسلام، ومات النبي ﷺ وله عشرون سنة، مات بالمدينة سنة أربع وخمسين على الأصح. انظر: «الإصابة»: (١/ ٤٩).

(٢) الشَّنُّ: القربة الصغيرة القديمة، انظر: «القاموس المحيط»: (١٥٦١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه...»، (١/ ٤٣١/ح ١٢٢٤)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، (٢/ ٦٣٥/ ح ٩٢٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، (١/ ٢٥٠/ح ٦٧٧)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة...، (١/ ٣٤٣/ح ٤٧٠).



الاستئصال عنهم في الدنيا، كما حصل للأمم السابقة، وقد كان من رحمته ﷺ بهم أنهم آذوه، وقاتلوه، وشجوا وجهه الشريف، وكسروا رباعيته، ومع ذلك لم يدع عليهم بالعذاب أو الهلاك.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، ادعُ على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة»[1].

- وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت... ـ إلى أن ذكر ﷺ قول جبريل عليه السلام له فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملَك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهمُ الأخشبين ـ فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به»[2].

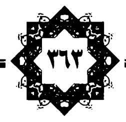
**ج/ رحمته ﷺ بالحيوان:**

- لقد كان للنبي ﷺ بالحيوانات رحمة ورأفة، وأوصى أمته بذلك حتى

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، (٤/٢٠٠٦/ ح٢٥٩٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، (٣/١١٨٠/ح ٣٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (٣/١٤٢٠/ح١٧٩٥).



رقت لها قلوب الناس.

- فعن ابن مسعود ﵁ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَةً[(١)] معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تُفَرِّش[(٢)] فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها» قال ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: «من أحرق هذه»؟ فقلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا ربُّ النار»[(٣)].

- ودخل يوماً حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ، وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفراه[(٤)] فسكت، فقال: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل»؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه[(٥)]»[(٦)].

---

(١) الحُمَّرَةُ: نوع من الطيور، انظر: «القاموس المحيط»: (٤٨٥).

(٢) تُفَرِّشُ: ترفرف، انظر: «القاموس المحيط»: (٧٧٥).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، (١٤٢١/ح ٢٦٧٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: (٢/٥٠٩/ح ٢٣٢٩).

(٤) الذّفرُ: العظم الشاخص خلف الأذن، انظر: «القاموس المحيط»: (٥٠٧).

(٥) تُدْئِبُهُ: أي تتعبه، انظر: «القاموس المحيط»: (١٠٥).

(٦) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، (١٤١٢/ح ٢٥٤٩)، وأحمد في المسند، (٣/٢٨١/ح ١٧٥٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: (٢/٤٥٨/ح٢٢٢٢).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثلُ الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رَقِيَ فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟! قال: «في كل كبد رطبة أجر»[1].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خَشاش[2] الأرض حتى ماتت هزْلاً»[3].

**د/ رحمته صلى الله عليه وسلم بالجماد:**

فتأمل اتساع رحمة هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم كيف رحم ورحم حتى بلغت رحمته الجمادات!

فعن جابر بن عبد الله[4] رضي الله عنهما قال: «كان المسجد مسقوفاً على جذوع من

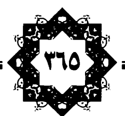
---

(١) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، (٢/٨٣٣/ح ٢٢٣)، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، (٤/١٧٦١/ح ٢٢٤٤).

(٢) خِشاشِ الأرضِ ـ مثلثة ـ: أي حشرات الأرض، والعصافير ونحوها، انظر: «القاموس المحيط»: (٧٦٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم...، (٣/١٢٠٥/ح ٣١٤٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، (٤/٢٠٢٣/ح ٢٦١٩).

(٤) سبقت ترجمته ص: (٣٣٩).



نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت»[1].

**٣- وكان النبي ﷺ في رحمته متلبسا ﷺ بالحكمة، وقافاً عند حدود الله تعالى،** ممتثلاً أمره سبحانه، فكان دائما يضع هذه الحكمة في موضعها المناسب:

❖ فهو الرحيم الذي لا تأخذه رأفة في دين الله تعالى عند إقامة الحدود، بل كانت الرحمة تكمن في حنايا غلظته إذا أغلظ تطلعاً للرحمة الأعم للأمة كلها.

فعن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمتهم المرأة الْمَخْزُومِيَّةُ[2] التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلم رسول الله ﷺ، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله»؟ ثم قام فخطب، قال: «يا أيها الناس، إنما ضَلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأَيْمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣/١٣١٤/ح ٣٣٩٢).

(٢) قال ابن حجر: «واسمها على الصحيح: فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وهي بنت أخي أبي سلمة بن عبد الأسد الصحابي الجليل الذي كان زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ»، «فتح الباري»: (١٢/٨٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، (٦/٢٤٩١/=



❖ وكما هو معلوم من سيرته ﷺ كيف ذهب في تأليف القلوب كل مذهب، فعاهدهم، فخانوا العهد، ورحَّلَ بعضَهم، فما لبثوا أن بدأوا باتصالات مشبوهة مع دولة الفرس، وتحركات مشبوهة لصالح مشركي العرب، حتى جمع بنو قريظة لحرب رسول الله ﷺ الجموع يوم الأحزاب؛ لاستئصاله وهدم دولة الإسلام، فكان منه ﷺ التصرف الحكيم مما لابد له منه، وتصرف بعنف لردع بقية اليهود عن التحرك ضد دولة الإسلام، فقتل محاربة بني قريظة، وسبى نساءهم وأولادهم[١].

**٤ – من مما يدل على لينه ﷺ مظاهر عدة:**

- «أن القوم لما انهزموا عن النبي ﷺ يوم أحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول ﷺ بالتغليط والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين»[٢].

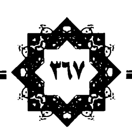
- كونه ﷺ لَيِّناً مع أمته في تنفيذ الشريعة، قال ابن عاشور: «أرسل محمَّد ﷺ مفطوراً على الرحمة، فكان لِينه رحمة من الله بالأمَّة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمةٍ من الله أودعها الله فِيه، إذ هو قد بعث للنَّاس كافّة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أولَ شيء لحكمةٍ أرادها الله تعالى في أن يكون العرب هم مبلغي

---

=ح ٦٤٠٦)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف...، (١٣١٥/٣/ ح ١٦٨٨).

(١) انظر: «دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة» لقلعه جي: (٨٥).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٥٠/٩).

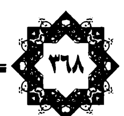


الشَّريعة للعالم.

والعرب أمَّة عُرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامةِ الفطرة. وسرعةِ الفهم. وهم المتلقُّون الأوّلون للدين فلم تكن تليق بهم الشّدة والغلظة، ولكنّهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنّبوا بذلك المكابرةَ الَّتي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحقّ. وورد أن صفح النَّبيء ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام»[1].

- كان لينه ﷺ صورة صادقة تعكس حسن خلقه ﷺ، قال الرازي: «اعلم أن لينه ﷺ مع القوم عبارة عن حسن خلقه مع القوم قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥)، وقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، وقال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)... وروي عن بعض الصحابة أنه قال: لقد أحسن الله إلينا كل الإحسان، كنا مشركين، فلو جاءنا رسول الله بهذا الدين جملة، وبالقرآن دفعة لثقلت هذه التكاليف علينا، فما كنا ندخل في الإسلام، ولكنه دعانا إلى كلمة واحدة، فلما قبلناها وعرفنا حلاوة الإيمان، قبلنا ما وراءها كلمة بعد كلمة على سبيل الرفق إلى أن تم الدين وكملت

(١) «التحرير والتنوير»: (١٤٥/٤).



الشريعة»[1].

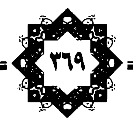
٥ — ومن اللطيف ذكره: أن الله تعالى حبا نبيه ﷺ هذه الرحمة، مع كل ما تعرض له من مصاعب في حياته، من يُتم، وصد وأذى من قومه، واستضعاف بينهم، ثم لما أمكنه الله تعالى، لم يتجبر، ولم يعنف، ولم يقسُ شأن من نشأ نشأة قاسية، بل كان بحق الرؤوف الرحيم، الهين اللين، العطوف الحنون ﷺ.

## خامساً: الصفات في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفات:

❖ خير من تأسى بنبينا ﷺ في هذه الصفات ـ وكل الصفات ـ هم صحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم، وبها أثنى عليهم عز وجل في محكم تنزيله فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (الفتح: ٢٩).

أي: «أن فيهم غلظة وشدة على أعداء الدين، ورحمة ورقة على إخوانهم المؤمنين، وفي وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس، فإنه إن اكتفى بالوصف الأول لربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر فيتوهم الفظاعة والغلظة مطلقاً، فدفع بإرادف الوصف الثاني، ومآل ذلك أنهم مع كونهم أشداء على الأعداء رحماء على الإخوان، ونحوه قوله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٩/ ٥٠ ـ ٥١).



عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤))»[١].

❖ حريٌّ بالمرء أن يكون حريصاً على مصلحة الغير، رحيماً رؤوفاً بهم، ولاسيما مع من وليَ أمره، فليتق الله فيهم بالرحمة واللين والعدل والسوية ونحو ذلك.

- قال ﷺ: «اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فرَفقَ بهم فارفق به»[٢].

❖ وفي المقابل على المرعِيِّ أن يكون ليناً مع من تولى أمره ـ بعد السمع والطاعة في المعروف ـ وبذا تستوي الأمور على سوقها، ويستتب الأمن.

- «قال عمرو بن العاص[٣] لابنه عبد الله[٤]: «ما الرفق»؟ قال: «تكون ذا أناة، فتلاين الولاة»، قال: «فما الخَرَق»؟ قال: «معاداة إمامك، ومناوأة من يقدر على ضررك»[٥].

- وقال السعدي رحمه الله: «فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدنيا تجذب

---

(١) «روح المعاني» للألوسي: (١٢٣/٢٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل، وعقوبة الجائر...، (١٤٥٨/٣/ ح ١٨٢٨).

(٣) عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، أمير مصر، يكنى: أبا عبد الله، وأبا محمد، أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان، وقيل: بين الحديبية وخيبر، مات سنة ٤٣ على الأصح. انظر: «الإصابة»: (٦٥٠/٤).

(٤) سبقت ترجمته ص: (٢٩٩).

(٥) «إحياء علوم الدين» للغزالي: (١٨٦/٣).

الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين، تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به ﷺ من اللين وحسن الخلق والتأليف امتثالاً لأمر الله وجذباً لعباد الله لدين الله؟»[1].

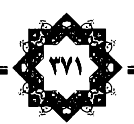
- وقال رحمه الله: «فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل به من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدَّعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة، غليظ القلب، فظ القولِ فظيعُه؟ وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق وقد حصل من هذه المعاملة من المفاسد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً، لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وذكر نفسه ورفعها، وأعجب بعمله! فهل يعد هذا، إلا من جهله، وتزيين الشيطان، وخدعه له؟»[2].

❖ كما ينبغي التنبه إلى حكمة النبي ﷺ في حرصه على أمته، ورحمته

---

(١) «تفسير السعدي»: (١/١٥٤).

(٢) «المصدر السابق»: (١/٥٩٩).



ورأفته بهم، ولينه معهم ـ كما مر معنا ـ.

- «قال سفيان لأصحابه: تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: «أن تضع الأمور من مواضعها: الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه» قال الغزالي: وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين، والفظاظة بالرفق»[1].

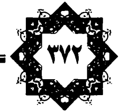
- قال ابن تيمية رحمه الله: «وبهذا يتبين أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض، فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق كما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بمرضاهم، وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم، وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر، ويتركونه من الخير، رأفة بهم فيكون ذلك بسبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم»[2].

- وقال ابن القيم رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع

---

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي: (٣/١٨٦).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (١٥/٢٩٠).



المضارِّ عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل»(١).

❖ نحن أولى برحمة الحيوان والرفق به من الغرب والكفار، فلنا في نبينا ﷺ أسوة في ذلك، ونحن أحق الناس به، سواء كان ذلك في رعايته، أو إطعامه، أو علاجه، أو إبعاده من الأخطار، بل وحتى في ذبحه.

**❖ من فوائد صفة: الحرص على المؤمنين:**

تكوين مجتمع إسلامي مترابط قوي، وتعزيز أواصر المودة والأخوة بين فئات المجتمع وأفراده:

- قال رسول اللهِ ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٢).

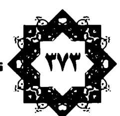
- وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»(٣).

---

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم: (٢/١٧٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاضدهم وتعاطفهم، (٤/١٩٩٩/ح٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، (١/١٤/ح ١٣)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما=



❖ **ومن ثمرات صفتي: الرحمة، والرأفة[1]:**

١ – تستجلبان رحمة الله تعالى.

٢ – تثمران محبة الله، ومحبة الناس.

٣ – تورثان الجنة.

٤ – هما دليل على رقة القلب، وسمو النفس.

٥ – إشاعة الرحمة والرأفة بين أفراد المجتمع ترفع من مستواه، وتجمع شمله.

٦ – تنميان روح المحبة، والتعاون بين الناس.

٧ – تنشئان مجتمعاً سالماً من الغل والعنف.

٨ – هما دليل على فقه المرء، وأناته، وحكمته.

❖ **ومن فوائد صفة اللين[2]:**

١ – اللين من صفات المؤمنين البررة.

٢ – اللين أثر من آثار رحمة الله تعالى.

٣ – اللين في القول أدعى إلى الإجابة والقبول خاصة في مجال الدعوة إلى الله عز وجل.

---

=يحب لنفسه من الخير، (١/٦٧/ح ٤٥).

(١) انظر: «نضرة النعيم»: (٦/ ٢١٠٢ ـ ٢١٦٨).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (٨/٣٣٠٢).

٤ – اللين في المعاملة يعطف قلوب الناس ويجمعهم حول من يلين لهم.

٥ – اللين يورث المحبة والتعاطف بين الرؤساء والمرؤوسين، ويجعلهم صفاً واحداً.



## المطلب الخامس

## الأسوة، والنور، والسراج المنير

### أولاً: المعنى اللغوي لصفات: الأسوة، والنور، والسراج المنير:

١ – المعنى اللغوي للأُسوة:

الأسوة: القدوة.

قال ابن منظور: «ولي في فلان أُسوة وإِسوة: أي: قدوة، وهو بكسر الهمزة وضمها: القدوة»[(١)]، وفي المعجم الوسيط: «ائتسى به: اتخذه أسوة واقتدى به»[(٢)].

٢ – النور:

يدل لفظ النور على الإضاءة.

قال ابن فارس: «(نَوَرَ): النون والواو والراء: أصل صحيح يدل على إضاءة واضطراب وقلة ثبات، منه النور والنار، سميا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأن ذلك يكون مضطرباً سريع الحركة»[(٣)].

---

(١) «لسان العرب»: (١٤/٣٥).

(٢) «المعجم الوسيط»: (١/١).

(٣) «مقاييس اللغة»: (٥/٣٦٨).

**٣ – السراج المنير:**

**- السراج:**

السراج: المصباح المضيء.

- قال ابن فارس: «(سَرَجَ): السين والراء والجيم: أصل صحيح، يدل على الحسن والزينة والجمال، من ذلك السراج، سمي لضيائه وحسنه»(١).

- وقال ابن منظور: «والسراج: المصباح الزاهر الذي يُسْرَجُ بالليل»(٢).

**- المنير:**

المنير: المشرق، أو الذي ينير لغيره.

قال ابن منظور: «وفي صفة النبي ﷺ: أنور المتجرد: أي نيِّر الجسم، يقال للحَسَنِ المُشْرِقِ اللون: أنور، وهو أَفْعَلُ من النور، يقال: نار فهو نيِّر، وأنار فهو منير»(٣).

**❖ من الآيات التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفات:**

- قوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ (المائدة: ١٥).

(١) «مقاييس اللغة»: (٣/١٦٥).

(٢) «لسان العرب»: (٢/٢٩٧).

(٣) «المصدر السابق»: (٥/٢٤٢).

- قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١).

- قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى هذه الصفات الواردة في الآيات:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾:**

- اختلف المفسرون في تحديد المراد بالنور في الآية الكريمة:

١ – ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالنور في الآية هو: محمد ﷺ[1]؛ لأنه يُتبين به الأشياء كما يُتبين بالنور.

٢ – بينما ذهب البعض إلى أن المراد به هو: الإسلام[2].

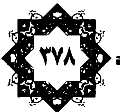
٣ – كما ذهب البعض الآخر إلى أنه: القرآن[3]؛ لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانته ما كان خافياً عن الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز.

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٦/١٦١)، «النكت والعيون»: (٢/٢٢)، «تفسير القرآن» للسمعاني: (٢/٢٣)، «التفسير الكبير» للرازي: (١١/١٥٠)، «تفسير البيضاوي»: (٢/٣٠٧)، «تفسير النسفي»: (١/٢٧٥)، «لباب التأويل» للخازن: (٢/٢٨).

(٢) انظر: «تفسير السمعاني»: (٢/٢٣)، «التفسير الكبير» للرازي: (١١/١٥٠)، «لباب التأويل»: (٢/٢٨).

(٣) انظر: «الكشاف»: (١/٦٥١)، «التفسير الكبير»: (١١/١٥٠)، «تفسير البيضاوي»: (٢/٣٠٧)، «تفسير النسفي»: (١/٢٧٥).



❖ **والقول الذي ترتاح إليه النفس، هو القول الأول لما يلي:**

لأنه هو الذي يتمشى مع ظاهر العطف في الآية، حيثُ:

أ/ لو كان المراد الإسلام: لظلت الآية ينقصها ما يُظهِر حال الدعوة، فمن الذي سيبين الإسلام، ويبلغ القرآن؟

ب/ ولو كان المراد القرآن: فلن يستقيم العطف في الآية، إذ إن العطف يوجب المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه الذي هو القرآن بدون خلاف.

ج/ ولو كان المراد محمداً ﷺ: فهذا أشمل، كما أن فيه بياناً وإبرازاً لنعمة الله تعالى على أهل هذا الدين، بل على الناس كافة، وهي إرسال محمد ﷺ بدين الإسلام، وإنزال القرآن الكريم، واللذان بهما يتبين الإسلام والشرع كله، كما أنه اختيار الجمهور، والله أعلم.

❖ **من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾:**

اختلف المفسرون في معنى الأسوة في حق النبي ﷺ على النحو التالي:

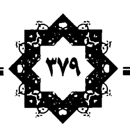
١ – أنه ﷺ آساكم بنفسه في مواطن الحرب والشدة، فكسرت رباعيته، وجرح، وقتل عمه، إلى غير ذلك، قال به مقاتل(١)، والسدي(٢).

٢ – أن الآية عتاب من الله تعالى لمن تخلف عن رسول الله ﷺ، وحث

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل»: (٣/٤٢).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٤/٣٨٨)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٦/٥٨٣).



للمؤمنين على أن يكونوا معه في كل أمر(١).

٣ – أن المراد كونه ﷺ قدوة حسنة(٢).

٤ – أن المراد: أنه ﷺ فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع، وهي المواساة بنفسه(٣)، وهذا داخل في القول الأول.

❖ والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الآية عامة، ويدخل فيها أمر الحرب من الثبات ونحوه دخولاً أولياً، لذا يحسن الجمع بين الأقوال الثلاثة الأُوَل، فالنبي ﷺ كان مواسياً لأصحابه في المعركة بنفسه الشريفة، وأبلى فيها بلاء حسناً ﷺ، كما أن المؤمنين مطالبين بأن لا يتخلفوا عنه ﷺ ويكونوا معه حيث كان، وهو في الوقت نفسه خير من يُقتدى به ﷺ.

- قال الشوكاني: «وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً فهي عامة في كل شيء، ومثلها: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (الحشر: ٧)، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١)»(٤).

وقال السعدي: «حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، والبطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم، عن أمر جاد

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٢١/١٤٣)، «تفسير القرطبي»: (١٤/١٥٥)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٧/٢١٥)، «فتح القدير»: (٤/ ٢٧١).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٤/٣٨٨)، «الكشاف»: (٣/٦٣٩).

(٣) انظر: «الكشاف»: (٣/٦٣٩).

(٤) «فتح القدير»: (٤/٢٧١).



رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟ فتأسوا به في هذا الأمر وغيره»[1].

- **قرئت كلمة (أسوة) بقرائتين[2]:**

١ – قرأ عاصم: (أُسوة)، بضم الألف.

٢ – وقرأ الباقون: (إِسوة)، بكسرها.

- **اختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين[3]:**

أحدهما: المنافقون عطفاً على ما تقدم من خطابهم.

الثاني: المؤمنون لقوله: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾.

**❖ من قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾:**

الآية تصف بوضوح النبي ﷺ بأنه سراج منير، وهذا ما وقفت عليه لجمهور المفسرين[4] إلا ما ندر ممن قالوا بأن السراج المنير هنا هو القرآن[5]، وذهبوا إلى تقدير الآية: وداعياً إلى الله بإذنه وذا سراج منير، أو وتالياً سراجاً منيراً، ويظهر أن فيه تكلفاً، إضافة إلى أنه لا يوجد ما يمنع من وصفه ﷺ بالسراج

---

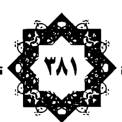
(١) «تفسير السعدي»: (٦٦١).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد: (١/٥٢٠ – ٥٢١)، «التيسير» للداني: (١/١٧٨).

(٣) «النكت والعيون»: (٤/٣٨٨).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (٢٢/١٨)، «بحر العلوم»: (٣/٦١)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/٢٣١)، «معالم التنزيل»: (٣/٣٥٣)، «الكشاف»: (٣/٥٥٦).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للنحاس: (٥/٣٥٨)، «النكت والعيون»: (٤/٤١١) حيث نسبه الماوردي لابن عباس وقتادة، وغريب وصف النسفي له بأنه قول الجمهور، انظر: «تفسير النسفي»: (٣/٣٠٩).



المنير، بل مع وجود المؤيدات لا سيما من حيث المعنى، وكذلك من حيث البلاغة على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

- قال الطبري في معنى الآية: «﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾: يقول: وضياء لخلقه، يستضيء بالنور الذي أتيتهم به من عند الله عباده، ﴿ مُّنِيرًا ﴾: يقول: ضياء ينير لمن استضاء بضوئه، وعمل بما أمره، وإنما يعني بذلك أنه يهدي به من اتبعه من أمته»[1].

- قال السعدي رحمه الله: «وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة، قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به، لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة»[2].

- وقد ربط بعض المفسرين بين وصفه ﷺ بالسراج، وبين المثل النوري في سورة النور في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ﴾...الآية (النور: ٣٥):

حيث ذُكرت في إيضاح هذا المثل أقوال عدة، منها أن المراد بالمشكاة محمد

---

(١) «جامع البيان»: (١٨/٢٢).

(٢) «تفسير السعدي»: (٦٦٨).



ﷺ، وهو مروي عن كعب الأحبار[1]، وابن عمر رضي الله عنهما، وقيل بل إن المراد بالمصباح في الآية هو محمد ﷺ[2].

قال البغوي: «واختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل، فقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور محمد ﷺ، قال ابن عباس لكعب الأحبار: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ (النور: ٣٥)، فقال كعب: «هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة، يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار»[3].

وقال القرطبي: «وقال ابن عمر: المشكاة جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله تعالى في قلبه، يوقد من شجرة مباركة أي أن أصله من إبراهيم، وهو شجرته، فأوقد الله تعالى في قلب محمد ﷺ النور، كما جعله في قلب إبراهيم عليه السلام، وقال محمد بن كعب: المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين، سماه الله تعالى مصباحاً كما سماه سراجاً فقال: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾»[4].

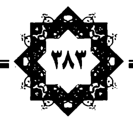
---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٣٦/٢٨)، «معالم التنزيل»: (٣٤٦/٣).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي»: (٢٣٦/١٢).

(٣) «معالم التنزيل»: (٣٤٦/٣ - ٣٤٧).

(٤) «تفسير القرطبي»: (٢٦٣/١٢).



❖ ومعلوم أن السراج هو المصباح، ولعل الجامع بين وصفه ﷺ بالسراج، وهذا المَثَل ـ على هذا القول ـ هو الإضاءة المعنوية.

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفات:**

**❖ من قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾:**

**أ/ العلة في تسميته ووصفه ﷺ بالنور:**

«لأن النور الظاهر هو الذي يتقوى به البصر على إدراك الأشياء الظاهرة، والنور الباطن أيضاً هو الذي تتقوى به البصيرة على إدراك الحقائق والمعقولات»[(١)].

**ب/ العلة في وصفه ﷺ بالنور، دون وصفه بالضياء:**

١ – وقال ابن رجب: «والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق، كضياء الشمس، بخلاف القمر، فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق، قال الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ (يونس: ٥)»[(٢)].

٢ – «والنور منشأ الضياء ومبدؤه، كما يشير إليه استعمال العرب حيث أضافوا الضياء إليه كما قال ورقة بن نوفل: «ويَظْهَرُ في البلادِ ضياءُ نورٍ»[(٣)] وقال

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١١/١٥٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم»: (١/٢١٩).

(٣) هذا صدر بيت عجزه: (يُقيمُ به البريَّة أن تَموجا) وفي بعض الروايات: (يقوم به البرية أن تموجا)، انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام: (٢/١١)، «البداية والنهاية»: (٢/٢٩٦)، «تاريخ=



العباس رضي الله عنه: «وأنت لما ظهرت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق»[1]، ولهذا أطلق عليه سبحانه النور دون الضياء»[2].

**❖ من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾...الآية:**

أ/ جاء في سياق الآية حرف (في)، ولم يقل سبحانه لقد كان رسول الله لكم أسوة حسنة:

قال ابن عاشور: إن ذلك جاء على «أسلوب ما يسمى: بالتجريد المفيد للمبالغة إذ يجرد من الموصوف بصفة موصوف مثله ليكون كذاتين... فالأصل: رسولُ الله إسوة، فقيل: في رسول الله إسوة»[3].

**ب/ ذُكر ﷺ في الآية بعنوان الرسالة**، وذلك لأنها «حظ الخلق منه؛ ليقتدوا بأفعاله وأقواله، ويتخلقوا بأخلاقه وأحواله»[4].

**ج/ جعل ﷻ متعلق الائتساء هو ذات الرسول ﷺ دون أن يوصف بوصف معين، كأن يقال مثلاً: لقد كان لكم في (صبر) رسول الله أسوة حسنة،**

---

=الإسلام»: (١/١٢٤).

(١) وفي بعض الروايات: (وأنت لما وُلِدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق)، انظر: «سير أعلام النبلاء»: (٢/١٠٣)، «تاريخ الإسلام»: (١/٤٣)، «البداية والنهاية»: (٢/٢٥٨)، والحديث رواه الحاكم في المستدرك: (٣/٣٦٩)، وقال: «هذا حديث تفرد به رواته الأعراب عن آباءهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) «روح المعاني» للألوسي: (١/١٦٦).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٢١/٣٠٣).

(٤) «نظم الدرر» للبقاعي: (٦/٩١).



ونحوه، وذلك ليكون الائتساء به شاملاً كل ما يمكن أن يُتخذَ فيه ﷺ أسوة، قال ابن عاشور:

«وجعل متعلقُ الائتساء ذاتَ الرسول دون وصف خاص ليشمل الائتساء به في أقواله بامتثال أوامره واجتناب ما ينهَى عنه، والائتساءَ بأفعاله من الصبر والشجاعة والثبات»[1].

**❖ من قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾:**

**أ/ سبب تسمية الله تعالى لنبيه ووصفه إياه بالسراج، قيل:**

١ – «تشبيها له بالسراج الذي به يستنار الأشياء في الظلمة؛ لأنه بعث ﷺ وقد طبقت على الأرض ظلمة الشرك فكان كالسراج الذي يظهر في الظلمة»[2].

٢ – ولأنه: «أمدّ الله بنور نبوّته نور البصائر، كما يمدّ بنور السراج نور الأبصار»[3].

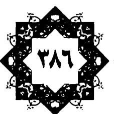
**ب/ لم يُكتفَ بوصفه ﷺ بالسراج فحسب، بل وصف تعالى هذا السراج بالإنارة وذلك:**

١ – «لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودقت فتيلته، وفي كلام بعضهم: ثلاثة تضني: رسول بطيء، وسراج لا يضيء، ومائدة ينتظر لها من

(١) «التحرير والتنوير»: (٣٠٣/٢١).

(٢) «أحكام القرآن» للجصاص: (٢٣١/٥)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٣٥٣/٣)، «الكشاف»: (٥٥٦/٣).

(٣) «الكشاف»: (٥٥٦/٣).



يجيء، وسئل بعضهم عن الموحِشَيْنِ؟ فقال: ظلام ساتر، وسراج فاتر»[1].

٢ – ولأنه «لما كان المقام مرشداً إلى إنارته، وكان من السرج ما لا يضيء، وكان للتصريح والتأكيد شأن عظيم قال: (منيراً): أي ينير من أتبعه ليسير في أعظم ضياء، ومن تخلف عنه كان في أشد ظلام، فعرف من التقييد بالنور أنه محط الشبه»[2].

**ج/ جاء وصف السراج بـ (منيراً) مع أن الإنارة من لوازم السراج وذلك:**

«كوصف الشيء بالوصف المشتق من لفظه في قوله: شعر شاعر، وليلٌ أَلْيَل؛ لإفادة قوة معنى الاسم في الموصوف بهِ الخاص، فإن هديَ النبي ﷺ هو أوضح الهدى، وإرشاده أبلغ إرشاد»[3].

**د/ وُصفَ ﷺ بـ: (السراج المنير)، عقيب وصفه بـ: (الداعي إلى الله بإذنه) مباشرة:**

لأنه «لما كان الداعي إلى الله يلزمه النور لظهور الأدلة قال: (وسراجاً) يمد البصائر فيجلي ظلمات الجهل بالعلم المبصر لمواقع الزلل كما يمد النور الحسي نور الأبصار»[4].

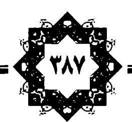
---

(١) «الكشاف»: (٥٥٦/٣)، وانظر: «تفسير القرطبي»: (٢٠١/١٤)، «روح المعاني» للألوسي: (٤٦/٢٢).

(٢) «نظم الدرر» للبقاعي: (١١٦).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٥٥/٢٢).

(٤) «نظم الدرر» للبقاعي: (١١٦/٦).



**هـ/ قال تعالى في حق النبي ﷺ (سراجاً) ولم يقل إنه شمس، مع أنه أشد إضاءة من السراج، وذلك لفوائد منها:**

«أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه، وكذلك إن غاب والنبي ﷺ كان كذلك إذ كل صحابي أخذ منه نور الهداية... وكذلك الصحابي إذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي ﷺ ولا يأخذ منه إلا قول النبي ﷺ وفعله، فأنوار المجتهدين كلهم من النبي ﷺ»[1].

**و/ في الآية أسلوب استعارة، وتشبيه بليغ، فقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾:** «استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه، فكأن المهديين به والمؤمنين يخرجون به من ظلمة الكفر»[2].

**ز/ كما أن فيه تشبيهاً بليغاً** «بطريق الحالية وهو طريق جميل، أي أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها، والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقّاد ظلمة المكان، وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبي ﷺ من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله في الأديان من مسالك للتبديل والتحريف فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم، فإن العلم يشبَّه بالنور

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٨٧/٢٥ ـ ١٨٨).

(٢) «المحرر الوجيز»: (/٣٩٨)، وانظر: «تفسير القرطبي»: (٢٠٠/١٤).

فناسبه السراج المنير، وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التي وصف بها آنفاً فهو كالفذلكة(١) وكالتذييل»(٢).

**رابعاً: تَمَثُّل صفات: (الأسوة، والنور، والسراج المنير) في النبي ﷺ:**

**أ/ النبي ﷺ أسوة:**

١ – نبينا العظيم ﷺ هو أعظم وأشمل وأتم وأعم قدوة لأن الله تعالى جمع له في ثلاث وعشرين سنة كل ما تحتاج إليه البشرية إلى يوم القيامة.

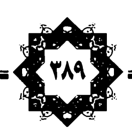
ولعل هذا مما تميز به ﷺ عن سائر إخوانه من الأنبياء ـ أعني كونه قدوة في جميع الأحوال لكل الأفراد ـ فعلى سبيل المثال: عيسى عليه السلام قدوة كفقير زاهد محكوم صابر، لكنه لا يمكن أن يُتَّخذَ قدوة كجد ولا أب ولا زوج، فهو لم يتزوج، وسليمان عليه السلام قدوة كحاكم وغني، ولكن لا يمكن اتخاذه قدوة كفقير ومضطهد، وهكذا، بينما النبي ﷺ هو القدوة والمثل الأعلى للغني وللفقير، للحاكم وللمحكوم، للمعاهد والمسالم والمحارب، تعامل مع الحضر، وتعامل مع البدو، ومثال للأب، والجد، والزوج، والقائد، للعالم والمعلم، للزاهد والعابد، إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

٢ – جعل الله تعالى من نبيه ﷺ أعظم وأشمل قدوة بكمال ائتماره ﷺ

---

(١) الفذلكة، الانتهاء والتختم والتذييل، يقال: فَذْلَكَ حسابه: أي أنهاه، والفَذْلَكَةُ: جملةُ عددٍ قد فُصِّل، وهو تعبيرٌ أحدثه المُوَلَّدون، انظر: «تاج العروس»: (٢٩٣/٢٧).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٢/٥٤ ـ ٥٥).



بأمر ربه، وانتهائه عما نهاه عنه، وبكمال تبليغه الشرع إلى الناس، وبعظمة خلقه، وبسماحة طبعه، وغير ذلك مما يحتاج إلى أسفارٍ وأسفار للكتابة عنه ﷺ.

٣ – كان ﷺ المثل الأعلى والقدوة العظمى في شتى الأمور، ومختلف الأحوال، وأذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

❖ **في التشريع والعبادات:**

- ومن ذلك قوله ﷺ: «وصلوا كما رأيتموني أصلي»(١) وليس هذا فحسب، بل تعمد أن يكون مرة على المنبر ليراه الناس كلهم، فيتعلموا الصلاة، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا، ولِتَعلَّموا صلاتي»(٢).

- وما كان منه ﷺ في الحج: عن جابر رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: «لتأخذوا عني مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»(٣).

❖ **في المعاملات:**

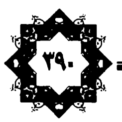
- فكان ﷺ أروع المَثَل في معاملاته، ففي قضائه للدين مثلاً روى أبو هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً تقاضى رسول الله ﷺ فأغلظ له، فهمَّ أصحابه،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة...، (١/٢٢٦/ح ٦٠٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، (١/٣١٠/ح ٨٧٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم»، (٢/٩٤٣/ح ١٢٩٧).



فقال: «دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً واشتروا له بعيراً فأعطوه إياه»، وقالوا لا نجد إلا أفضل من سِنِّهِ، قال: «اشتروه فأعطوه إياه، فإن خيركم أحسنكم قضاءً»(١).

❖ **في العادات:**

كالأكل، والشرب، والركوب، والمشي، وغيرها، وكتب السنة طافحة بذلك.

❖ **في الأخلاق:**

كما مر معنا في صدقه ﷺ، وحيائه، ورحمته، وتواضعه، وغيرها من أخلاقه العظيمة ﷺ.

❖ **في بيته ومع أهله:**

- فعن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو»(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب استقراض الإبل، (٨٤٢/٢/ح ٢٢٦٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه، وخيركم أحسنكم قضاءً، (١٢٢٥/٣/ح ١٦٠١).

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة، (٢٠٠٦/٥/ ح ٤٩٣٨)، واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد، (٦٠٨/٢/ح ٨٩٢).

- وقد سُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله ـ تعني في خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[1].

❖ في الدعوة:

فكما مر معنا في مطالب هذا المبحث من صفاته ﷺ داعياً، فكان البشير النذير، وكان المبين المذكر، وكان الرحيم الرؤوف اللين، الحريص على المؤمنين ﷺ.

❖ في التعليم:

وسيأتي معنا لاحقاً[2] إن شاء اله تعالى.

❖ في القيادة:

فالناظر في قيادة النبي ﷺ، يحار فكره في ذكائه وفطنته وحكمته وحسن سياسته.

٤ – النبي ﷺ كان أعظم قدوة، ولكن لأي شريحة من شرائح المجتمع، وفي أي ساحة من ساحاته؟ إنه قدوة للمجتمع بأسره: رجاله ونسائه، حكامه ومحكوميه، أغنياءه وفقراءه ـ كما مر ـ وفي جميع الساحات ديناً ودنيا، فبعد

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، (١/٢٣٩/ ح ٦٤٤).

(٢) في المطلب الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل، انظر: ص (٤١٧).

الـدين، هـو قـدوة في الحيـاة الـسياسية، والماديـة، والزوجيـة، والاجتماعيـة، والتعليمية، والعلمية، والعملية، إلخ.

**ب/ النبي ﷺ نور، والنبي ﷺ سراجٌ منير:**

١ – لقـد كانـت البـشرية قبـل بعثـة الـنبي ﷺ في ظـلام دامـس مـن جميـع النواحي، فمن الناحية الدينية: شرك وأوثان، ومن ناحية تاريخية وسياسية: ظلم وقهر واستبداد وطغيان، ومن ناحية اجتماعية: شـرب للخمر وزنـا ووأد للبنـات وفساد وفجور وفواحش، ومن ناحيـة ماديـة: ربـا وأكـل للأمـوال بالباطـل وغـش وتطفيف، وغير ذلك من الظلمات، فـأزال الله تعـالى ببعثـة هـذا الـنبي ﷺ هـذه الظلمات، فأشرقت الأرض بنوره، فكان بحق نوراً، وسراجاً منيراً ﷺ.

٢ – كان من دعائه ﷺ بأن يجعل له نوراً في جوارحه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نام مرة عند رسول الله ﷺ في بيت خالته ميمونة، فقال: «فاستيقظ رسول الله ﷺ فتسوك وتوضأ، وهو يقول: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (آل عمران: ١٩٠) فقرأهن حتى ختم السورة، ثم صلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات ست ركعات، كل ذلك يستاك، ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي لساني نورا، واجعل في سمعي نورا، واجعل في بصري نورا، واجعل من خلفي نورا، ومن أمامي نورا، واجعل من فوقي نورا،

ومن تحتي نورا، اللهم أعطني نورا»[1].

- علق السيوطي على هذا الحديث، فذكر أقوال بعض أهل العلم فيه، ومن ذلك قوله: «وقال القرطبي: «هذه الأنوار التي دعا بها النبي ﷺ يمكن أن تحمل على ظاهرها، فيكون معنى سؤاله: أن يجعل الله تعالى له في كل عضو من أعضائه نوراً يوم القيامة يستضيء به في تلك الظلم هو ومن تبعه، والأولى أن يقال: هي مستعارة للعلم والهداية»، وقال النووي: «قال العلماء: سأل النور في أعضائه وجهاته، والمراد: بيان الحق وضياؤه والهداية إليه، فسأل النور في جميع أعضائه وجسمه وتصرفاته وتقلباته وحالاته وجملته في جهاته الست حتى لا يزيغ شيء منها عنه»[2].

## خامساً: الصفة في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في ضوء هذه الصفات:

❖ إذا تقلد المرء منصباً ما، كبيراً كان أو صغيراً، وكان محور الحديث ومحط الأنظار، فليتق الله وليعلم أنه أصبح قدوة يقتدى بها شاء أم أبى، وأشد الناس في ذلك: العلماء، والمعلمين، والآباء، والأمهات، والقادة، والرؤساء.

❖ إذا رأى المرء من نفسه خيراً، فعليه أن يُحسن عمله، وخُلُقه، ويراقب

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، (١/٥٢٥/ ح ٧٦٣).

(٢) «شرح السيوطي على سنن النسائي»: (٢/٢١٩).

مولاه سبحانه في كل أموره الدينية والدنيوية، وأن يُخلص النية في ذلك لربه أولاً، ثم لعلمه أنه سيكون قدوة، وليعلم أنه بذلك يدخل في قوله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فعُمِلَ بها بعده، كُتب مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعُمل بها بعده، كُتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»[(١)].

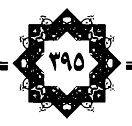
❖ يجمل بالمرء أن يحمل نفسه على الورع عن ما يدخله في مظان القدوة السيئة.

❖ ضل كثير ممن ضل بسبب اتخاذهم الفساق والضُّلالَ قدوة، فضلوا وأضلوا، مما يدل على أهمية القدوة الحسنة، وخطورة القدوة السيئة في المجتمع الإسلامي وفي كل زمان ومكان، وأنهما مناط النجاح أو الفشل في مجال التربية.

❖ كون النبي ﷺ نوراً، وكونه سراجاً منيراً، إنما يُتأسى به في ذلك بتبليغ الدين وبيانه للناس، وإخراجهم من ظلمات الشرك والبدع والمعاصي، إلى نور التوحيد والسنة والطاعات.

- فمن هنا كان العلماء هم ورثة الأنبياء، قال الإمام أحمد رحمه الله: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى،

(١) رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة أو دعا إلى هدى أو ضلالة، (٢/٧٠٥/ح١٠١٧).



يبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم»[1].

- ألا وإن الظلام الذي أزاله الله تعالى ببعثة السراج المنير إنما يعود بقبض العلماء، كما قال ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعاً من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فسُئلوا فأفتَوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[2].



(١) «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد: (١/ ٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب كيف يُقبضُ العلم...، (١/ ٥٠/ح ١٠٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، (٤/ ٢٠٥٨/ح ٢٦٧٣).

# المبحث الثاني

# صفاته ﷺ مربياً

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: التزكية.
- المطلب الثاني: التعليم.
- المطلب الثالث: تلاوة الآيات.
- المطلب الرابع: الهداية.

## المطلب الأول

## التزكية

لما كثرت رذائل الجاهلية، وخيم الظلام تلك الحقبة، شاء المولى تبارك وتعالى بعثة هذا الرسول الكريم ﷺ؛ ليطهر ذلك المجتمع من تلك الرذائل، ويتبعونه فيكونون أزكياء في الأرض وفي السماء.

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة التزكية:

التزكية: الطهارة، والنماء، والزيادة.

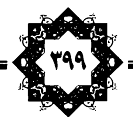
قال ابن فارس: «(زكى): الزاء والكاف والحرف المعتل: أصل يدل على نماء وزيادة، ويقال: الطهارة زكاة المال:

- قال بعضهم: سميت بذلك؛ لأنها مما يرجى به زكاء المال وهو زيادته ونماؤه.

- وقال بعضهم: سميت زكاة؛ لأنها طهارة، قالوا وحجة ذلك: قوله جل ثناؤه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة: ١٠٣)، والأصل في ذلك كله راجع إلى هذين المعنيين، وهما: النماء والطهارة»[(١)].

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٧/٣).



❖ الآيات التي وُصِف فيها ﷺ بالتزكية والتعليم والتلاوة[1]:

- قوله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

- وقوله ﷻ: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١).

- وقوله ﷻ: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

- وقوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢).

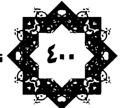
❖ ويُزاد على ما سبق في صفة: (تلاوة الآيات):

- قوله ﷻ: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

- وقوله ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ

---

(١) هذه الصفات الثلاث: التلاوة، والتزكية، والتعليم، وردت آياتها في جميع مواضعها في القرآن مرتبطات ببعضها متتاليات، لذا أوردتها جملة واحدة هنا، ثم أفرد الحديث عن كل واحدة منها على حدة، إلا في دراسة الأسلوب القرآني لها فقد نبهت عليه في موضعه، وسيأتي إن شاء الله تعالى.



﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ (الرعد: ٣٠).

- وقوله ﷻ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ (النمل: ٩١ ـ ٩٢).

- وقوله ﷻ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ (الكهف: ٢٧).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة التزكية:

❖ اختلفت عبارات المفسرين في معنى تزكية الرسول ﷺ للأمة على النحو التالي:

١ – أن معنى: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾: يأخذ صدقاتهم[1] وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ – التزكية: دعوتهم إلى طاعة الله والإخلاص، وهو منسوب إلى ابن عباس أيضاً[2].

٣ – «أن معنى التزكية: التطهير وأن معنى الزكاة: النماء والزيادة، فمعنى قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾: في هذا الموضع: ويطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان»[3]

---

(١) انظر: «تفسير ابن زمنين»: (١/١٧٩)، «النكت والعيون»: (١/٤٣٤)، «زاد المسير»: (١/١٤٦).

(٢) انظر: «التفسير الكبير»: (٤/٦٢)، «البحر المحيط»: (١/٥٦٤)، «تفسير ابن كثير»: (١/١٨٥).

(٣) «جامع البيان»: (١/٥٥٨)، وانظر: «النكت والعيون»: (١/١٩٢)، «زاد المسير»: (١/١٤٦)، «التفسير الكبير» للرازي: (٤/٦٢)، «لباب التأويل» للخازن: (١/١١٢)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/٥٦٤)، «الدر المنثور» للسيوطي: (١/٣٣٥).

وهو قول الحسن، ومقاتل، وابن جريج.

٤ – أن المعنى: يزكيهم بدينه إذا اتبعوه فيكونون به عند الله أزكياء[١].

٥ – أن المعنى: (يزكيهم) من التزكية، بأن يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة[٢].

❖ إن الذي يتسق مع المعنى اللغوي هو القول الثالث: أي يطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان، وبما أن الأقوال معناها حاصل وصحيح، فإن الذي يتضح مما سبق أن هذا الاختلاف بين المفسرين، لا يعدو عن أن يكون تنوع عبارة، لا تضاد فيه، فالرسول ﷺ مكلَّف بأن يأخذ صدقاتهم فيردها على الفقراء منهم، وفي ذلك تزكية لهم ولأموالهم، وكل حياته ﷺ دعوة لهم إلى الطاعة والإخلاص بل وزيادة على ذلك، ومن أعظم مننه ﷺ أن طهر هذه الأمة بفضل الله تعالى من الشرك وعبادة الأوثان، وإذا اتبعوه ﷺ زَكَوا باتِّباعه فصاروا أزكياء عند الله وعند الناس، وهو إذا شهدت هذه الأمة على غيرها، شهد لها بالعدالة[٣]، فتبين إذاً أن النبي ﷺ قام بكل ذلك.

**❖ بدأ تعالى الصفات الثلاثة: التلاوة، والتزكية، والتعليم، بالامتنان ببعثة**

(١) انظر: «تفسير ابن زمنين»: (١/١٧٩)، «النكت والعيون»: (١/٤٣٤)، «زاد المسير»: (١/١٤٦)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/٥٦٤).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (١/٤٣٤)، «لباب التأويل» للخازن: (١/١١٢)، «البحر المحيط»: (١/٥٦٤).

(٣) وقد سبق الحديث عن ذلك في صفة الشهادة للنبي ﷺ، انظر ص: (٢٧١).

**الرسول ﷺ، حال كونه منهم، أو من أنفسهم،** ففي البقرة قال: ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٩)، ومرة: ﴿ رَسُولاً مِّنكُمْ ﴾ (البقرة: ١٥١)، وفي آل عمران ﴿ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وفي الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢)، والعلاقة بين هذه الصفات الثلاث، وبين كونه ﷺ منهم، ما يلي:

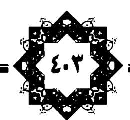
١ – لأن هذه الأمور تحتاج إلى تفاعل وقبول من المدعويين، فلما كان الرسول ﷺ منهم يعرفون نسبه ومولده ومنشأه، وكذلك يعرفون صدقه وأمانته، كان ذلك أقرب لقبول قوله.

٢ – أن هذه الأمور أيضاً تحتاج إلى تفاعل من المدعويين في الفهم، والاستجابة، وسؤال الاسترشاد، وما إلى ذلك، فلما كان الرسول ﷺ منهم وكتابه بلغتهم، كان ذلك أدعى إلى أن يفقهوا عنه، وأعون على تلقي الإرشاد منه، إذ ينطلق بلسانهم ويحملهم على ما يصلح أخلاقهم ليكونوا حملة هذا الدين إلى غيرهم.

٣ – أن هذا فيه إظهار لمنة الله تعالى عليهم، بقدر زائد على منة الهدي والإرشاد.

❖ بما أن التزكية: تطهير وفي الوقت نفسه زيادة ونماء، فإن هذا يلفت إلى أن التزكية عموماً، وتزكية النبي ﷺ للناس خصوصاً إنما تتم بأمرين: التخلية والتحلية.

❖ **في قوله تعالى:** ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة: ٢)،



**ثلاث مسائل:**

- **الأولى: في المراد بالأميين[1].**

فيهم قولان:

١ – أنهم قريش خاصة لأنها لم تكن تكتب حتى تعلم بعضها في آخر الجاهلية من أهل الحيرة.

٢ – أنهم جميع العرب لأنه لم يكن لهم كتاب ولا كتب منهم إلا قليل.

❖ والذي تميل إليه النفس هو القول الأول لأنه هو الذي يتمشى مع ما تدور حوله الآية.

- **الثانية: في سبب تسميتهم بالأميين[2].**

«في تسميتهم أميين قولان:

١ – لأنه لم ينزل عليهم كتاب، قاله ابن زيد.

٢ – لأنهم لم يكونوا يكتبون ولا كان فيهم كاتب، قاله قتادة.

❖ وكلاهما منطبق على قريش.

- **الثالثة: وجه الامتنان في كون الرسول ﷺ أمياً[3].**

فالجواب من ثلاثة أوجه:

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٥/٥ ـ ٦).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (٥/٥ـ ٦)، «تفسير السمعاني»: (٥/٤٣١)، «زاد المسير»: (٨/٢٥٨).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٦).



١ – لموافقته ما تقدمت بشارة الأنبياء به.

٢ – لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم.

٣ – لينتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها.

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة التزكية:**

سأرجئ الحديث عنه لاحقاً[1]؛ لترابط الآيات والمطالب الثلاثة ترابطاً وثيقاً، ولتماثل الكلام فيها، مما يُغني عن تكرار الكلام.

**رابعاً: تمَثُّل صفة التزكية في النبي ﷺ:**

كان النبي ﷺ المربي الحق للرعيل الأول، والمعلم الفذ للبشرية أجمع، وتعد التزكية أحد عناصر التربية التي استخدمها النبي ﷺ مع هذه الأمة، وهي ضرب أساس من ضروب التربية التي تسبق تعليم دقائق الأمور، حتى نشأ جيل كريم، في ثلاث وعشرين من السنين، رَبَى على يدِ خير المرسلين، بشهادة خاتم النبيين، لما قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»[2]، فأعطوا لواء التربية لمن بعدهم حتى وصلت إلينا بيضاء نقية،

---

(١) في نهاية المطالب الثلاثة الأولى من هذا المبحث ـ المبحث الثاني من الفصل الرابع ـ انظر ص: (٣٤٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهِد، (٩٣٨/٢/ح ٢٥٠٩)، واللفظ له، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، (١٩٦٣/٤/ح ٢٥٣٣).

ولكن.. الناس حيالها ما بين آخذ وتارك، والآخذ ما بين مقل ومكثر.

فنجد أن النبي ﷺ اعتمد قواعد تربوية ربانية، اتسمت بالدقة والشمولية، والمرونة والسماحة، والذكاء الحاد، والنظرة البعيدة الثاقبة، فأينعت الثمار، وفاحت بطيبها الورود والأزهار، ومن هذه القواعد:

**١ – تزكية النفس البشرية:**

حيث تبدأ التربية السليمة بإصلاح الداخل وما يعتقده المرء أولاً، وإنما يكون ذلك بالتمسك بأمرين اثنين، وثالثهما يتحقق بهما وهذه الأمور هي:

أ/ تحقيق التوحيد، والبراءة من الشرك.

ب/ التمسك بالقرآن والسنة حق التمسك، والعمل بمقتضاهما.

ج/ ثم في ضوءهما كان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة، فلا ينس الإنسان نصيبه من الرقائق، كتذكر الموت، وأحوال البرزخ، وأهوال القيامة، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وما إلى ذلك (في ضوء التوحيد والقرآن والسنة)، بعيداً عن الأساليب البدعية، التي لم يفعلها النبي ﷺ ولا أصحابه مع قيام المقتضي، وانتفاء المانع.

**وكل هذه الأمور تمثَّلت في النبي ﷺ أيما تمثُّل، ومن ذلك:**

- تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك:

فقد كان هذا هو الهدف الأسمى، والغاية العظمى التي وضعها النبي ﷺ نصب عينيه، وتحمل في سبيلها المصاعب الثِّقال، وعقبات أمثال الجبال، فكان

يسير في السوق يدعو الناس ويقول: «أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[1].

- التمسك بالقرآن والسنة:

قال ﷺ: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله»[2]، وقال ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة»[3]، وقال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد...»[4].

**٢ – التزكية بالبيان العملي:**

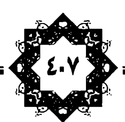
فقد قرن الله تعالى الإيمان بالعمل الصالح في أكثر من خمسة وخمسين موضعاً من كتابه الكريم، كما في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ

(١) هذا جزء من حديثٍ رواه أحمد في المسند، (٢٥/٤٠٤/ح ١٦٠٢٣)، وقال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن».

(٢) هذا جزء من حديثٍ طويلٍ رواه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، (٢/٨٩٠/ح ١٢١٨).

(٣) رواه أحمد في المسند: (٢٨/٣٧٣/ح ١٧١٤٤)، والترمذي في الجامع، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، (١٩٢١/ح ٢٦٧٦)، وابن ماجه في مقدمة السنن، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، (٢٤٧٩/ح ٤٢)، والدارمي في مقدمة السنن، باب: اتباع السنة، (٥٧/ح ٩٥)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح ليس له علة»، ولم يتعقبه الذهبي: «المستدرك»: (١/٩٥)، وصححه أيضاً الشيخ: شعيب الأرناؤوط في تحقيق مسند الإمام أحمد فقال: «حديث صحيح ورجاله ثقات».

(٤) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (٣/١٣٤٣/ح ١٧١٨).



﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ (الرعد: ٢٩).

فقد بين ﷺ التطبيق العملي لسائر العبادات وبجلاء، كالصلاة، والزكاة، والحج، وكذلك في المعاملات، والحدود، والكفارات، ونحو ذلك ـ مما مر معنا في صفة الأسوة الحسنة.

- بل وحتى تعليم الصحابة العادات والآداب كآداب الأكل والشرب، وآداب الخلاء، وآداب الجماع، فعن عمر بن أبي سلمة[1] يقول: «كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» فما زالت تلك طعمتي بعد»[2].

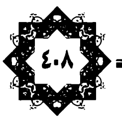
وهكذا حتى أكمل الله ﷻ به الدين، فقال عز من قائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

**٣ – التزكية التي تسمو بالخلق، وتُقِيمُ السلوك:**

وقد مر معنا هذا في معرض الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(١) هو عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد، وهو ربيب النبي ﷺ، أمه أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، ولد بالحبشة في السنة الثانية، وقيل قبل ذلك وقبل الهجرة إلى المدينة، روى عن النبي ﷺ أحاديث في الصحيحين وغيرهما، مات بالمدينة سنة ثلاث وثمانين، في خلافة عبد الملك بن مروان. انظر: «الإصابة»: (٤/٥٩٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، (٥/٢٠٥٦/ح ٥٠٦١)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، (٣/١٥٩٩/ح ٢٠٢٢).



(القلم: ٤)[١].

**٤ – التزكية باتخاذ الأساليب التربوية النبوية[٢] ومنها:**

**أ/ حسن الخطاب، وروعة الإلقاء:**

- عن أَنسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا تكلم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه[٣]...

**ب/ مراعاة أحوال المخاطبين في طريقة الخطاب:**

- لذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[٤].

**ج/ اختيار الوقت المناسب للتوجيه التربوي:**

- فإن ذلك يجعل التوجيه أكثر قبولاً، وأكثر رسوخاً في النفس، فمن ذلك، أن حكيم بن حزام[٥] رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من المال فأعطاه، ثم

---

(١) انظر: ص (١٥٩).

(٢) انظر: «دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة»: (٢٧٤ ـ ٢٧٥)، «الرسول العربي المربي»: (٢٨١ ـ ٢٨٣ ـ ٢٩٩ ـ ٣٢٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عن...، (١/٤٨/ح ٩٥).

(٤) رواه مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، (١/١٠/ح ٥).

(٥) هو حَكيم بن حِزامٍ بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي الأسدي، ابن أخي خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ولد قبل الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان صديق النبي صلى الله عليه وسلم قبل المبعث وكان يوده ويحبه بعد البعثة ولكنه تأخر إسلامه حتى أسلم عام الفتح، قال البخاري في التاريخ: «مات سنة ستين وهو بن عشرين ومائة سنة». انظر: «الإصابة»: (٢/١١٢).



سأله شيئاً آخر فأعطاه، ثم سأله شيئاً آخر فأعطاه، فأحب رسول الله ﷺ أن لا تفوت هذه الفرصة ـ فرصة الحرص على المال ـ فقال ﷺ: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارَك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: «فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا»، فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئاً، فقال عمر: «إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه» فلم يرزأ[(١)] حكيم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي»[(٢)].

### د/ التربية على تقديم الأَوْلى فالأَوْلى:

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، قال: «وما ذا أعددت لها»؟ قال: «لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ»، فقال: «أنت مع من أحببت»[(٣)]، فعلمه أن الإعداد لها أولى من السؤال عن موعدها.

---

(١) «لم يرزأ»: أي لم يصب ولم يأخذ من مال أحد شيئاً، انظر «لسان العرب»: (١/٨٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، (٢/٥٣٥/ح ١٤٠٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (٣/١٣٤٩/ ح ٣٤٨٥)، واللفظ له، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، (٤/٢٠٣٢/ح ٢٦٣٩).

**هـ/ مراعاة الفروق الفردية في التربية:**

وأمثلته في تربية النبي ﷺ كثيرة فمن ذلك أن كان ﷺ يُعامل النساء بغير معاملة الرجال، والأطفال غير الكبار، والأعراب غير الحضر من الصحابة، وحديث الإسلام غير قديمه والراسخ فيه، وهكذا.

**و/ التكليف بقدر الطاقة:**

فكان طريقته ﷺ في التربية، قوله ﷺ: «وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»(١).

**ز/ أسلوب الحوار لغرس قيمة أو طرح أخرى:**

وهو أسلوب تربوي مؤثر، فإنه يثير في نفس السامع سؤالاً لمزيد من الإيضاح، كقوله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»(٢).

**ح/ أسلوب المثل:**

فكان ﷺ يضرب أروع الأمثال التي تقشعر لها الأبدان، وترسخ في

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، (٢٦٥٨/٦/ح ٦٨٥٨)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، (٩٧٥/٢/ح ١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه...، (٢٥٥٠/٦/ح ٦٥٥٢).

النفوس، وتثبت في الأذهان، كقوله ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما أن تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يُحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحاً خبيثة»(١).

ط/ أسلوب السؤال:

وفيه إثارة نفسية لتقوية الانتباه، وتنبيهها من الغفلة، أو الشرود الذهني، وهذا كقوله ﷺ: «أتدرون ما المفلس»؟ قالوا: «المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع»، فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طُرِحَ في النار»(٢).

ي/ أسلوب القصة:

القصة من أكثر الأساليب تأثيراً في النفوس، حيث إن لها تأثيراً تربوياً واجتماعياً وعلمياً عميقاً، كما قص ﷺ علينا قصة الثلاثة نفر من بني

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، (٢/٧٤١/ح ١٩٩٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، (٤/٢٠٢٦/ ح ٢٦٢٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم، (٤/١٩٩٧/ح ٢٥٨١).

إسرائيل: الأبرص، والأقرع، والأعمى عند الشيخين[1] وغيرها كثير.

**ك/ أسلوب التشويق:**

كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مَثَلُ المسلم، فحدثوني ما هي؟»، فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال: «هي النخلة»، فذكرت ذلك لعمر، قال: «لأن تكون قلت: هي النخلة، أحب إلي من كذا وكذا»[2].

**ل/ الاستعانة بالرسوم التوضيحية البيانية:**

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خط النبي ﷺ خطا مربعا، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه وخط خُطَطَاً صِغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبيه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخُطَطُ الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[3].

---

(١) رواها البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، (١٢٧٦/٣/ح ٣٢٧٧)، ومسلم، كتاب الزهد (٢٢٧٥/٤/ح ٢٩٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، (٣٤/١/ح ٦٢)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٢٦٤/٤/ح ٢٨١١)، واللفظ له.

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، (٢٣٥٩/٥/ح ٦٠٥٤).

م/ التوجيه المباشر واللامباشر:

فكان ﷺ يتعامل مع الموقف بحكمة فمتى ما رأى المصلحة تتحقق في أحدهما فعله.

- **فمن التوجيه المباشر:** حديث ابن عمر رضي الله عنهما **قال:** «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»»(1).

- **ومن التوجيه اللامباشر:** عن عائشة رضي الله عنها قالت: «صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب فحمِدَ الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»»(2).

ن/ عدم تعجل قطف الثمار:

وذلك لأن التربية تزكية للنفس، وتهذيب للسلوك، فعلى المربي التأني، وعدم الاستعجال، فلن يتم ذلك في يوم وليلة، فالرسول ﷺ ظل يزكي الأمة ويربيها طيلة ثلاث وعشرين سنة ﷺ.

---

(1) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، (٢٣٥٨/٥/ح ٦٠٥٣).

(2) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، (٢٢٦٣/٥/ح ٥٧٥٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، (١٨٢٩/٤/ ح ٢٣٥٦).

**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في صفة التزكية:**

١ – على المرء أن يبدأ بتزكية نفسه أولاً ومن يعول، وهذا من تمام رعاية الرعية، قال ﷺ: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، ثم عليه المبادرة إلى العمل على تزكية غيره، مستحضراً إخلاص النية لله ﷻ.

٢ – عند القيام بعملية التزكية والتربية، لا بد من مراعاة أمور عدة يجعلها المربي نصب عينيه:

أ/ على المربي أن يتأسى بالنبي ﷺ في تزكيته الرعيل الأول، متدرجاً في ذلك من تزكية النفس، والتطبيق العملي، وتهذيب الخلق والسلوك، واستعمال الأساليب التربوية النبوية.

ب/ على المربي أن ينظر إلى العملية التربوية من واقع السنة، وفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

ج/ على المربي أن يوسع مداركه في استعمال الأساليب التربوية المختلفة والمتجددة، إحياء للعملية التربوية، وتنشيطاً للمتعلمين، وأن يجمع بين الجانب النظري والتطبيقي، وكل ذلك حسب الشريحة التي يتعامل معها تربوياً.

د/ الاهتمام في التزكية بالتوحيد والسنة أولاً، ثم بالرقاق والمواعظ ثانياً،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، (٢٦١١/٦/ح ٦٧١٩)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل...، (١٤٥٩/٣/ ح ١٨٢٩).

ولا غنى لأحدٍ عن جميعها، إلا أن الاهتمام بالثانية مع إهمال الأولى خطأ كبير في الدعوة والتربية، ومخالف لهدي السلف من جهة ثانية.

هـ/ على المربي أن يطرق شتى أبواب العلم في تزكية من يربيهم، فيجمع بين القرآن والسنة، والفقه والعقيدة.

و/ على المربي أن يتسم بالرحمة، والصبر، والتواضع، والصدق، والفطانة، والذكاء، وحسن التعامل مع مختلف فئات المجتمع، وحسن التصرف في المواقف التربوية المختلفة، والسماحة والتيسير، بما يوافق الكتاب والسنة.

ز/ على المربي أن يحذر من أسلوب القصاصين في العملية التعليمية، فيستعمل أسلوب القصة، بصدق بعيداً عن القصص المكذوبة، وأن لا يحذوَ حذوهم في جعلها ديدنهم في الوعظ والتذكير مع إهمال الدليل الشرعي الأصيل من الكتاب والسنة، ولكن، ليتخذها فاكهة يسيرة يطرد بها السآمة، ويحقق بها الغاية والهدف.



## المطلب الثاني

## التعليم

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة التعليم:

التعليم: تفعيل من عَلِمَ، والعِلْم بالشيء: المعرفة به.

قال ابن فارس: «والعلم نقيض الجهل... وتعلمت الشيء إذا أخذت علمه»[1].

- وقال الفيروز آبادي: «عَلِمَهُ كسَمِعَه، عِلْماً بالكسر: عَرَفَه»[2].

### ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة تعليم الكتاب والحكمة للنبي ﷺ:

❖ من أقوالهم في المراد بالكتاب:

١ – قول جمهور المفسرين: أنه القرآن[3].

٢ – وقيل المراد: الإخبار بما في الكتب السالفة من أخبار القرون الخالية[4].

٣ – وقيل المراد: معرفة الخير والشر[5].

---

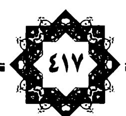
(١) «مقاييس اللغة»: (٤/١٠٩).

(٢) «القاموس المحيط»: (١٤٧١).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (١/٥٥٧)، «النكت والعيون»: (١/١٩٢ ـ ٢٠٨)، «نظم الدرر»: (١/٢٤٣)، «مدارك التنزيل»: (١/٧٩)، «لباب التأويل»: (٧/٨٦).

(٤) «النكت والعيون»: (١/٢٠٨).

(٥) «المصدر السابق»: (٥/٥ ـ ٦).



٤ – وزاد بعض المفسرين في آية الجمعة خاصة: أنه الخط بالقلم، قاله ابن عباس[(١)].

❖ والذي تميل إليه النفس، هو القول الأول؛ لأنه قول الجمهور، ولأنه يشمل القولين بعده الثاني والثالث، أما عن القول الرابع، فيبدو أنه خاص بآية الجمعة لأنه ورد فيها التنصيص على الأمِّيين، والأمِّي في أغلب الأقوال هو من لا يقرأ ولا يكتب، كما مر معنا[(٢)] والله أعلم.

**❖ من أقوالهم في معنى الحكمة والمراد بها:**

**أ/ مما قيل في حقيقة الحكمة:**

- قال ابن زيد: «والحكمة شيء يجعله الله في القلب ينور له به»[(٣)].

- وقال الطبري في العلم بالحكمة: «وهو عندي مأخوذ من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، بمنزلة الجلسة والقعدة من الجلوس والقعود، يقال منه إن فلانا لحكيم بين الحكمة يعني به أنه لبين الإصابة في القول والفعل»[(٤)].

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٥/٦ـ٧)، «تفسير السمعاني»: (٥/٤٣١)، «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (١٩/٧٠).

(٢) انظر صفة الأمية للنبي ﷺ، ص: (٧٧).

(٣) «جامع البيان»: (١/٥٥٧ـ٥٥٨).

(٤) «المصدر السابق».

**ب/ المراد بالحكمة، فيه أقوال:**

١ – قيل هي السنة[١].

وإليه ذهب الشافعي، ودلل على ذلك بعض أصحابه فقال: «والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولاً وتعليمه ثانياً ثم عطف عليه الحكمة، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئاً خارجاً عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول ﷺ»[٢].

٢ – وقيل: هي المعرفة في الدين، والفقه فيه[٣].

٣ – وقيل: هي مواعظ القرآن الكريم[٤].

٤ – وقيل: هي العلم والعمل به[٥].

٥ – وقيل: هي حكمة تلك الشرائع، وما فيها من وجوه المصالح والمنافع[٦].

**والذي تميل إليه النفس هو القول الأول، لاسيما أن بقية الأقوال تندرج**

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١/٥٥٧) ـ (٢٨/٩٤)، «النكت والعيون»: (١/١٩٢)، «تفسير ابن كثير»: (١/١٨٥).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٤/٦١).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (١/٥٥٧)، «النكت والعيون»: (١/١٩٢).

(٤) انظر: «النكت والعيون»: (١/٢٠٨)، «معالم التنزيل»: (١/١٢٨).

(٥) انظر: «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (٢/٤٩٣).

(٦) «المصدر السابق».

تحته، وقد جاءت السنة بتحقيقها وزيادة عليها، قال السعدي: «﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾، أي: عِلْمُ الكتاب والسنة، المشتمل على علوم الأولين والآخرين. فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية، من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقا، وأحسنهم هديا وسمتا. اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم فصاروا أئمة المهتدين، وقادة المتقين، فلله تعالى عليهم، ببعثة هذا الرسول ﷺ، أكمل نعمة، وأجل منحة»[١]، بل وكل فعل وقول من النبي ﷺ فإنه يحمل في طياته تعليماً وحكمة.

❖ ولقد كان تعليم النبي ﷺ الكتاب والحكمة، يتضمن وبشكل رئيس تعليمهم «معاني الكتاب وحقائقه؛ لأن المقصود الأعظم تعليم ما في القرآن من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية، فلما ذكر الله تعالى أولاً أمر التلاوة، وهي حفظ القرآن ودراسته ليبقى مصوناً عن التحريف، والتبديل ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره»[٢].

❖ **في قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾** (البقرة: ١٥١).

كثيرا ما يردف سبحانه تعليم النبي ﷺ الكتاب والحكمة، بأنه يعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه:

قال الطبري في معناها:

---

(١) «تفسير السعدي»: (١/ ٨٦٢).

(٢) «لباب التأويل» للخازن: (١/ ١١٢).

«وأما قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾: فإنه يعني: ويعلمكم من أخبار الأنبياء، وقصص الأمم الخالية، والخبر عما هو حادث وكائن من الأمور التي لم تكن العرب تعلمها، فعلموها من رسول الله ﷺ، فأخبرهم جل ثناؤه أن ذلك كله إنما يدركونه برسوله ﷺ»[1].

وقال أبو حيان: «وختم هذا بقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾، وهو ذكر عام بعد خاص، لأنهم لم يكونوا يعلمون الكتاب ولا الحكمة. وفسر بعضهم ذلك بأن الذي لم يكونوا يعلمون: قصص من سلف، وقصص ما يأتي من الغيوب»[2]، كما أن فيه تنبيهاً على «أنه تعالى أرسله على حين فترة من الرسل وجهالة من الأمم، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم فبعث الله تعالى محمداً بالحق حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم وذلك من أعظم أنواع النعم»[3].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

سيأتي إن شاء الله لاحقاً[4]، على ما نبهت عليه سابقاً.

## رابعاً: تمثُّل صفة التعليم في النبي ﷺ:

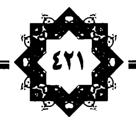
❖ بأبي هو وأمي ﷺ، فأيُّ مرب كان وأيُّ معلم؟ كان ﷺ «إمام

(١) «جامع البيان»: (٢/٣٧).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/٦١٩)، وانظر: «التحرير والتنوير»: (٢/٥٠).

(٣) «التفسير الكبير» للرازي: (٤/١٣٠).

(٤) انظر: ص (٤٢٩).



العلماء، بل المنهل الذي ترده العلماء فتغترف منه وتنهل من حياضه، وهو الذي تفجرت منه ينابيع العلم والحكمة، فاستقت منه كِرام الأمة، وليس لهم منهل دونه»[1].

وهذا شاهد عيان من صحابته الكرام[2] رضوان الله عليهم يقول: «.. فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»..»[3].

❖ كان ﷺ النبي الأمي ـ وقد سبق الحديث عن هذه الصفة ـ ومع ذلك كان إمام المعلمين.

❖ كان ﷺ أول من يأتمر وينته في نفسه بما يعلمه للناس، ويُلزم نفسه بما وصى به أمته، وزيادة على ذلك، وهو الذي غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

❖ كانت علاقته ﷺ بصحابته كمعلم، تشفُّ عن شعور عميق يتسم بالرحمة والعطف والحنان الدفاق، وحب الخير لهم، مما أنتج تعليماً مبهراً مثمراً.

❖ كان من هديه ﷺ أن يعَلِّم الأَوْلى فالأوْلى، فبدأ بالتوحيد أولاً ثم انطلق يعلم الناس الفرائض، ومجامع الخيرات.

---

(١) «أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة»: (١١٧١/٣).

(٢) وهو معاوية بن الحكم السلمي، لما صلى مع الرسول ﷺ فتكلم في الصلاة، فعلمه ﷺ برفق.

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، (٣٨١/١/ح ٥٣٧).



❖ كان ﷺ يُعَلِّم بتواضع ولين ولطف، فكان قوله إلى القبول أقرب، وإلى القلوب أسبق.

❖ لم يألُ ﷺ جهداً، ولم يدَّخِر وسعاً في التعليم، حتى في لحظاته الأخيرة من حياته المنيرة، بكلمات يسيرة، تحمل معانيَ غزيرة، وعبراً وفيرة.

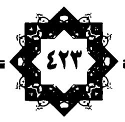
❖ كان ﷺ معلماً في جميع الأحوال والظروف، كل ظرف بحسبه، فعلَّم ﷺ في السلم والحرب، وعلَّم في الحضر والسفر، وعلَّم في الصحة والمرض، وغير ذلك.

❖ وكان ﷺ معلماً لجميع فئات المجتمع، للصغار والكبار، للنساء والرجال، للأفراد والجماعات، للخدم، والعبيد والإماء، إلى غير ذلك.

❖ تميز تعليمه ﷺ بالحرص على إيصال الخير والعلم والمنفعة إلى الجميع، لا سيما المؤلفة قلوبهم، والجاهل الذي لا يدري ما دينه، عن أبي رِفَاعَةَ[1] رضي الله عنه: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب قال فقلت: يا رسول الله رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه! قال فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته، حتى انتهى إلي، فأُتيَ بكرسي حسِبتُ قوائمه حديداً، قال فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها»[2].

(١) قال ابن حجر: «أبو رفاعة العدوي، تميم بن أَسَد بفتحتين... قال بن عبد البر: كان من فضلاء الصحابة بالبصرة، قتل بكابل سنة أربع وأربعين»: «الإصابة»: (١٣٩/٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب حديث التعليم في الخطبة، (٥٩٧/٢/ح ٨٧٦).



❖ اتسم تعليم النبي ﷺ لأمته بوسام الحكمة، ومن ذلك أن اتخذ مكاناً ينبثق منه شعاع العلم في المرحلتين، المكية والمدنية، ويلجأ إليه كل صاحب حاجة وإرشاد، ومعقلاً للعلم يبلغ فيه وحي الله تبارك وتعالى، فاتخذ ﷺ في بداية الدعوة في مكة: دار الأرقم ابن أبي الأرقم، وفي العهد المدني: المسجد النبوي الشريف.

❖ وكان يتسم أيضاً بالتدرج في التعليم، ليسهل التلقي، والقبول، والتطبيق.

❖ وكان يتسم أيضاً بالسماحة واليسر والسهولة، قال ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»[1].

❖ ولم يزل ﷺ ديدنه التعليم، ونشر العلم، حتى لم يكتف بمن هم حوله، بل تعداهم إلى القاصي والداني فكان يبعث البعوث والسرايا لتعليم مبادئ الإسلام.

## خامساً: صفة التعليم في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

❖ مَثَلُ المعلمين والعلماء كالنجوم في السماء يُهتدى بهم، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «مَثَلُ العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها»[2]، وكفى بهم

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، (٢/١١٠٤/ ح ١٤٧٨).

(٢) «أخلاق العلماء» للآجري: (٢٩).



شرفاً أن قدوتهم في هذا هو خير من مشى على قدم ﷺ.

❖ وعلى المعلم عند تعليمه الناس مراعاة ما يلي:

١ - أن يكون المعلم في نفسه مطبقاً لما يقوم بتعليمه، متخلقاً بخلق نبيه ﷺ، مترفعاً عن سفاسف الأمور، بعيداً عن مواطن الشبه والريبة.

٢ - أن يحرص على هذا الفضل العظيم، قال ﷺ: «إذا مَات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(١).

٣ - وفي المقابل عليه أن يحرص على عدم كتمان العلم الضروري، لما فيه من الوعيد الشديد على ذلك.

٤ - الحرص على إخلاص النية لله ﷻ، والحذر من تعلم العلم أو تعليمه للتباهي ولفت الأنظار واستجلاب مدح الناس وثناءهم.

٥ - أن يحرص المعلم على تعليم الأهم فالأهم.

٦ - أن يستحضر المعلم أنه مبلغ عن النبي ﷺ، فقد قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»(٢)، والفضل العظيم في ذلك.

٧ - أن يستحضر المعلم حاجة الناس إلى علمه، مما يعلي همته في التعليم، لأن «الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى

(١) رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (٣/١٢٥٥/ح ١٦٣١).

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص (٢٦٩).

الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه»[1].

٨ – أن يستحضر المعلم أن تعليمه غيره هو من الإنفاق مما رزقه الله، قال تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، وقال علي رضي الله عنه: «العلم خير من المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق»[2].

٩ – على المعلم أن يعلم ما يحسنه، وأن يتكلم في الفن الذي يتقنه، أما إن أكرمه الله بالجمع بين أبواب العلوم ولاسيما الشرعية منها، فيجدر به أن ينظم لطلاب العلم وقتاً لكل علم على حدة، كما هو فعل السلف، لتتم الفائدة.

١٠– على المعلم أن يتقن التعامل والتعليم لكل فئة من فئات المتعلمين بحسبها، ليكون ذلك أدعى للقبول، وأفهم للعقول.

١١– على المعلم مهما ارتقى في درجات العلم أن يحرص على الاستزادة منه، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤)، قال ابن كثير: «أي: زدني منك علماً، قال ابن عيينة رحمه الله: «ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة حتى توفاه الله عز وجل»»[3].



(١) «مدارج السالكين» لابن القيم: (٢/ ٤٧٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» للغزالي: (١/ ٧).

(٣) «تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٦٨).



## المطلب الثالث

## تلاوة الآيات

### أولاً المعنى اللغوي للتلاوة:

التلاوة: القراءة والتتابع.

- قال ابن فارس: «(تَلَوَ): التاء واللام والواو: أصل واحد وهو الإتْبَاع، يقال: تَلَوْتُه، إذا تَبِعْتُهُ، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنه يتبع آية بعد آية»[1].

- وقال الفيروز آبادي: «تلوته... القرآن أو كل كلام تلاوةً ككتابة: قرأته»[2].

### ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى صفة تلاوة الآيات للنبي ﷺ:

❖ جمهور المفسرين على أن المراد من تلاوته ﷺ للآيات هو قراءته للقرآن[3] وهم في ذلك ما بين تقييد للمعنى وتعميم:

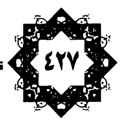
- فقيدها بعض المفسرين بالمداومة والمواظبة على قراءة القرآن، قال

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١/٣٥١).

(٢) «القاموس المحيط»: (١٦٣٤).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (١/٥٥٧)، «بحر العلوم»: (٢/٢٢٧)، «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي: (١/١٣٩)، «تفسير السمعاني»: (٣/٩٣)، «معالم التنزيل»: (٢/١٤١)، «المحرر الوجيز»: (٢/٣٦١)، «التفسير الكبير»: (١/١١١)، «تفسير القرطبي»: (٧/١٣٠)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٢/٢٥).



الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (النمل:٩٢): «أي أداوم تلاوته وأواظب على ذلك»[(١)].

- وعممها بعضهم بتلاوة الآيات القرآنية وغيرها، بمعنى: تلاوة القرآن، وكذلك سرد الآيات المبينة للحق من الباطل[(٢)].

- قال السعدي: «﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ (البقرة:١٥١): وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولا على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني»[(٣)].

**❖ وبالنظر في المعنى اللغوي، وأقوال المفسرين يظهر أنه لا منافاة بين التقييد والتعميم، لما يلي:**

١ – لأن المداومة على القراءة مطلوبة ولاشك.

٢ – ولأن التلاوة تشمل القراءة والسرد وحكاية اللفظ - كما ذكره ابن عاشور - قال: «والتّلاوة القراءة، والسّردُ وحكاية اللّفظ»[(٤)]، فتصْدُق إذاً

(١) «فتح القدير»: (١٥٦/٤)، وانظر: «تفسير أبي السعود»: (٣٠٦/٦).

(٢) انظر: «لباب التأويل» للخازن: (٨٦/٧)، «فتح القدير»: (١٥٦/٤).

(٣) «تفسير السعدي»: (٧٤/١).

(٤) «التحرير والتنوير»: (١٥٧/٨).

على التعميم، أي على حكاية الحلال والحرام، وكل ما بلَّغه النبي ﷺ إلى أمته، والله تعالى أعلم.

❖ هذه الصفة للنبي ﷺ مع تكرارها في القرآن، فيها حجة على الكافرين بعنادهم، «وهذا احتجاج عليهم؛ لأنهم عرفوا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فلما قرأ عليهم القرآن تبين لهم صدقه في النبوة»[1].

❖ فيها إلماح إلى نعم عظيمة جليلة، تشير إلى حصول الخير العميم في الدنيا والآخرة، قال ابن عاشور: «أما قوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ فاعلم أنه من أعظم النعم؛ لأنه معجزة باقية، ولأنه يتلى فيتأدى به العبادات، ولأنه يتلى فيستفاد منه جميع العلوم، ولأنه يتلى فيستفاد منه مجامع الأخلاق الحميدة، فكأنه يحصل من تلاوته كل خيرات الدنيا والآخرة»[2].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن الصفات الثلاث: (التزكية، والتعليم، وتلاوة الآيات):

**❖ تكرر في هذه الآيات التنويه والامتنان ببعثة النبي ﷺ من العرب، فقال ﷻ: (منهم)، (منكم)، (من أنفسهم) وذلك لما يلي[3]:**

١ – تشريفاً لهم، فيكون محلهم ورتبتهم في العز والدين أعظم، لأن

---

(١) «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي: (١/ ١٣٩).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢/ ٥٠).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» للرازي: (٤/ ٥٩ ـ ٦٠ و١٢٩ ـ ١٣٠)، «التحرير والتنوير»: (٢/ ٥٠).



الرسول والمرسل إليه إذا كانا معاً من ذريته، كان أشرف لطلبته إذا أجيب إليها.

٢ – ولأن المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير فبعثه الله تعالى من واسطتهم ليكونوا إلى القبول أقرب.

٣ – ولأنه إذا كان منهم كان أحرص عليهم وأشفق من أجنبي لو أرسل إليهم.

❖ «**وقدم كونه منهم**، أي يعرفونه شخصاً ونسباً ومولداً ومنشأً، لأن معرفة ذات الشخص متقدمة على معرفة ما يصدر من أفعاله»[١].

❖ **قوله ﷻ: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾** (البقرة: ١٥١) **فيه أربعة مسائل:**

**١ – إعادة الفعل (يُعَلِّمُكُم):**

قال ابن عاشور: «وإنما أعاد قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ﴾ مع صحة الاستغناء عنه بالعطف تنصيصاً على المغايرة لئلا يظن أن: ﴿ مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ هو الكتاب والحكمة»[٢].

**٢ – فيه تعميم لتعليمه ﷺ أمته غير أمور الشرع:**

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ تعميم لكل ما كان غير شريعة ولا حكمة، من معرفة أحوال الأمم، وأحوال سياسة الدول،

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٦١٨/١).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٥٠/٢).



وأحوال الآخرة، وغير ذلك»[1].

**٣ - إن هذه الجملة ليست تكراراً لحكاية تلاوته ﷺ الآيات، وتزكيته لهم**، وقد نفى أبو حيان ذلك فقال: «أما قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فليس بتكرار؛ لأن تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم»[2].

**٤ - فيه «تنبيه على أنه تعالى أرسله على حين فترة من الرسل وجهالة من الأمم**، فالخلق كانوا متحيرين ضالين في أمر أديانهم فبعث الله تعالى محمداً بالحق حتى علمهم ما احتاجوا إليه في دينهم وذلك من أعظم أنواع النعم»[3].

❖ **في قوله ﷻ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾...الآية** (الأنعام: ١٥١)، **مسألتان:**

**١ - الابتداء بفعل (قل) وذلك لما يلي:**

أ/ انتقالاً من ادعاءهم تحريم ما لم يُحرم عليهم إلى مقام التعليم والإرشاد.

ب/ جلباً لاهتمامهم، واسترعاء لأسماعهم.

قال ابن عاشور: «استئناف ابتدائي للانتقال من إبطال تحريم ما ادّعوا تحريمه من لحوم الأنعام، إلى دعوتهم لمعرفة المحرّمات، التي علمُها حقّ وهو أحقّ بأنْ يعلموه ممّا اختلقوا من افترائهم وموّهوا بجدلهم، والمناسبة لهذا الانتقال

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٢/٥٠).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/١٣٠).

(٣) «المصدر السابق».

ظاهرة فالمقام مقامُ تعليم وإرشاد، ولذلك ابتدئ بأمر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بفعل القول استرعاء للأسماع»[1].

**٢ – في قوله ﷻ: ﴿ تَعَالَوۡاْ ﴾ فائدتان:**

١ – للتنويه بأن ما سيُذكر أولى بالاهتمام من سفائف الأمور التي كانوا عليها.

٢ – للتنويه بأنهم كانوا على خلاف ما سيُذكر، مما أفسد عليهم حالهم ومعاشهم.

قال ابن عاشور: «عُقّب بفعل: (تعالوا): اهتماماً بالغرض المنتقل إليه بأنّه أجدى عليهم من تلك السّفاسف التي اهتمّوا بها؛ ... ليعلموا البون بين ما يَدعون إليه قومهم، وبين ما يدعوهم إليه الإسلام، من جلائل الأعمال، فيعلموا أنَّهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهانهم»[2].

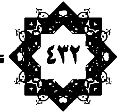
❖ **لوحظ الإتيان بهذه الصفات على صيغة الفعل المضارع، وذلك للدلالة على التجدد والاستمرارية**، قال أبو حيان: «وأتى بهذه الصفات فعلاً مضارعاً؛ ليدل بذلك على التجدد، لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائماً، وأما الصفة الأولى، وهي كونه منهم، فليست بمتجددة، بل هو وصف ثابت له»[3].

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٨/١٥٥).

(٢) «المصدر السابق»: (٨/١٥٦).

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/٦١٨).



**٣ – في ترتيب هذه الصفات في السياق القرآني:**

نلاحظ أن ترتيب هذه الصفات يكون على النحو التالي: التلاوة أولاً ـ وهذا في جميع المواضع ـ، ثم التزكية ثانياً، ثم التعليم ثالثاً، وذلك في:

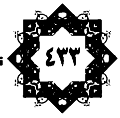
- قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١).

- وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

- وقوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢).

- أما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩)، (في دعاء إبراهيم عليه السلام)، فبتقديم التعليم على التزكية، وقد ذكر المفسرون عدة توجيهات لذلك، ومنها:

أ/ أن دعاء إبراهيم عليه السلام جاء على الأصل في تقديم العلم أولاً ثم العمل به



لأن العلم شرط في العلم[1].

ب/ أن دعاء إبراهيم عليه السلام كان حسب ترتيب وجود هذه الجمل، قال ابن عاشور: «وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة: ١٨ ـ ١٩) العلم تحصل به التزكية وهي في العمل بإرشاد القرآن»[2].

ج/ إن تقديم التعليم على التزكية أو العكس إنما هو بحسب المجالس والمخاطبين، «فحيث تقدم التعليم تكون تلك الآية نزلت عليه بمحضر الخواص ومن هو أهل للتعليم، فيكون التعليم أَهَمّ، وحيث تقدم التزكية تكون الآية نزلت عليه في موضع أكثره عوام، فتكون التزكية في حقهم أهمّ»[3].

د/ أنه لما كان ظاهر دعاء إبراهيم عليه السلام بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمة المسلمة، كانوا أحوج إلى التعليم منه إلى التزكية، لأن أصلها موجود فيهم بإسلامهم، فقدم التعليم وأخر التزكية.

ولما كانت البعثة في آية الجمعة مثلاً في الأميين عامة قدَّم التزكية ـ وأساسها التوحيد، والبراءة من الشرك ـ ليقبلوا ما جاءهم من العلم[4].

---

(١) انظر: «تفسير ابن عرفة»: (١/ ٤١٩).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ٧٢٣).

(٣) «تفسير ابن عرفة»: (١/ ٤٢٠)، وانظر: نفس المصدر: (٢/ ٤٦٧).

(٤) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (١/ ٢٤٤)، ثم إن قيل: قد قُدِّمت التزكية أيضاً في آل عمران=



هـ/ في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١)، مثلاً كان المقام «للامتنان على المسلمين فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها وبعثاً لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلاً للبشارة بها. فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنن»[(١)].

و/ أن اختلاف تقديم التزكية وتأخيرها لاختلاف المراد بالتزكية، ففي دعاء إبراهيم المراد بها: الشهادة بأنهم خيار أزكياء ـ وهذا متأخر عن تعليم الشرائع والعمل بها ـ وفي قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١). المراد بها: التطهير من الكفر، وهذا مهم قبل تعليم تفاصيل الشرع[(٢)].

## رابعاً: تمثل صفة تلاوة الآيات في النبي ﷺ:

❖ تلا النبي ﷺ القرآن الكريم حق تلاوته، كيف لا وهو مبلغه عن رب

---

=١٦٤، مع أن البعث كان للمؤمنين، فالجواب: مراعاة للحال «بالمعاتبة على الإقبال على الغنائم الذي كان سبب الهزيمة؛ لكونها إقبالاً على الدنيا التي هي أم الأدناس»، انظر: (نفس المصدر).

(١) «التحرير والتنوير»: (٢/٤٩ ـ ٥٠).

(٢) انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/٦١٩).

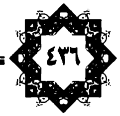


العزة والجلال، ولم يكن الأمر سهلاً، بل واجه ﷺ في سبيل ذلك عقبات كثيرة ومع ذلك فقد «كان ﷺ مستمراً في هذا العمل ليل نهار، كان يحضر بمكة في كل مجتمع فيتلو آيات القرآن، ويلقى كل شخص بمفرده فيبلغه رسالة الرب، وكان يقف في كل طريق خارج مكة ويلقى المارة، فيُسمِعهم أوامر الله تعالى في ضوء النهار، وظلمة الليل، ولم تكن سوق شهيرة أو عيد معروف من أعياد العرب إلا ذهب إليه النبي ﷺ فبلغ الدعوة، وتلا آيات القرآن، ونشر الدين، وتشهد لتلاوته ﷺ كل ذرة من ذرات عكاظ، وكل ورقة من أوراق أشجار الطائف... ومن يرى اليوم تلاوة القرآن أمراً سهلاً، عليه أن يدرك أن عمل التلاوة في زمرة المعارضين ليس سهلاً اليوم أيضاً، وما نراه اليوم من تسهيل في التلاوة، فإن ذلك من بركات تلاوة النبي ﷺ وآثارها، التلاوة التي تَحَمَّلَ لها ﷺ أنواعاً من المصائب والنوائب»[1].

❖ وكانت الغاية من تلاوته ﷺ آيات الله ﷻ إما التعبد، وإما البلاغ وبيان الشرع للناس ونحوه، وإنما كان ذلك في إطار الأدب النبوي في تلاوة آيات الله ﷻ، وكان من تمثُّل هذه الصفة فيه ﷺ ما يلي:

١ - كان ﷺ يتلو آيات الله آناء الليل وأطراف النهار، وكان مما يفعله ﷺ أن يحشد الناس لقراءته: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ

(١) «رحمة للعالمين»: (٣/٥٩ - ٦٠).



فقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١)، ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أُرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن»[(١)].

٢ – ولما كان ﷺ رسولاً إلى الثقلين، فقد قرأ هذا الكتاب الهادي على الجن أيضاً، قال ﷺ: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم...»[(٢)].

٣ – وكما قرأه على الجماعات فقد قرأه على الأفراد فقد قال ﷺ لأُبي بن كعب رضي الله عنه: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك» قال: «آلله سماني لك»؟ قال: «الله سماك لي»، قال فجعل أُبي يبكي»[(٣)].

٤ – وكما قرأه على غيره كان يحب أن يسمعه من غيره: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ «اقرأ علي»، قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، (١/٥٥٧/ح ٨١٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح، والقراءة على الجن، (١/٣٣٢/ح ٤٥٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة لم يكن (٤/١٨٩٦/ح ٤٦٧٦)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق...، (١/٥٥٠/ح٧٩٩) واللفظ له.

الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾، قال: «حسبك الآن»، فالتفَتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان»[(١)].

٥ – كان ﷺ يحرص على حفظه وعدم نسيانه، حتى بلغ به الأمر في أول البعثة، إلى أن يحرك شفتيه أثناء الوحي لئلا ينساه، حتى تكفل الله له بحفظه إياه، كما في قول ابن عباس: «وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه...»[(٢)].

٦ – كان ﷺ متأنياً في قراءته للقرآن، فلا يتعجل، ولا يهُذُّهُ هَذًّا كهَذِّ الشعر، بل كانت قراءة متأنية مفصلة تدخل القلوب وتأخذ بالألباب، فعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: «كان يَمُدُّ مَدًّا»[(٣)].

٧ – كان ﷺ مما يُحسن به صوته، حتى يشهد من سمعه أنه لم يسمع أحسن صوتاً منه: فعن البراء رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ (التين: ١) في الْعِشَاءِ، وما سمعت أحداً أَحْسَنَ صَوْتًا منه أو قِرَاءَةً»[(٤)].

٨ – كان ﷺ يحب أن يطيل بالقرآن تلاوته، لاسيما إذا كان يصلي منفرداً.

٩ – وقد كانت تلاوته ﷺ للقرآن هي مفتاح تربيته لأمته، وتعليمه وتزكيته لهم، وهدايته إياهم بإذنه سبحانه.

---

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٣٤٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله فإذا قرأناه فاتبع قرآنه...، (١٨٧٧/٤/ح ٤٦٤٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، (١٩٢٤/٤/ح ٤٧٥٨).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب القراءة في العشاء، (٢٦٦/١/ح ٧٣٥)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، (٣٣٩/١/ح ٤٦٤).



## خامساً: الصفة في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

١ – كفى في فضل القرآن الكريم أن قال عنه ربنا تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩).

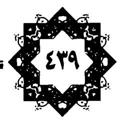
وإن أول منازل النوال من هدي القرآن الكريم هو تلاوته فهو حبل الله المتين، وهو نور، وعصمة.

٢ – وقد ضرب نبينا ﷺ لتلاوة القرآن من عدمها مثلاً نبوياً من أروع الأمثال، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة[1] ريحها طَيِّبٌ وطعمها طيب، وَمَثَلُ الْمؤْمن الذي لا يقرأ القرآن كَمَثَلِ التمرة، لا رِيح لها وطعمها حلو، وَمَثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآن مَثَلُ الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، ليس لها ريح وطعمها مر»[2].

---

(١) قال العيني: «الأُتْرُجَّة: أفضل الثمار للخواص الموجودة فيها مثل: كبر جرمها، وحسن منظرها، ولين ملمسها، ولونها يسر الناظرين، ثم أكلها يفيد بعد الالتذاذ طيب النكهة ودباغ المعدة، وقوة الهضم، واشتراك الحواس الأربعة: البصر والذوق والشم واللمس في الاحتظاء بها، ثم إن أجزاءها تنقسم على طبائع: فقشرها حار يابس، وجرمها حار رطب، وحماضها بارد يابس، وبزرها حار مجفف»: «عمدة القاري» للعيني: (٢٥/٢٠٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، (٥/٢٠٧٠/ح ٥١١١)، واللفظ له، =



٣ – على قارئ القرآن أن يتذكر الوقوف عند حدوده، فيتمسك به، ويعمل بمقتضاه، لا أن يقيم حروفه، ويضيع حدوده، حتى يكون حجة له لا حجة عليه.

- تلاوة القرآن عز ورفعة لأصحابها عند الله تعالى وبين الناس، قال ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»[١].

- على صاحب القرآن أن يترفع عما لا يليق بحمَلَته من سفا سف الأمور، وأن يتجنب مواطن الشُّبَه.

- على قارئ القرآن أن يتأنى في تلاوته، لفَهمه، وإفهامه، وتدبره، ولا يهُذُّهُ هَذّاً[٢] كَهَذِّ الشعر[٣]، وللسلف مع تدبر القرآن أحوال رائعة، سواء داخل الصلاة أو خارجها.

- على المرء أن يحذر هجر القرآن، بل يحرص على ملازمته، فقد قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء

---

=ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، (١/٤٥٩/ح ٧٩٧).

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه...، (١/٥٥٩/ح ٨١٧).

(٢) الهَذُّ: هو شدة الإسراع والإفراط في العجلة: «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٦/١٠٥).

(٣) كما أطلق عليه ابن مسعود رضي الله عنه كما عند البخاري، كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة، (١/٢٦٩/ح ٧٤٢)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ...، (١/٥٦٣/ح ٨٢٢).

النهار، ورجل آتاه مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»[1].

- تلاوة القرآن أفضل الذكر، وبالذكر تطمئن القلوب، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨) فكيف إذا كان هذا الذكر المُطَمْئِن أفضل الذكر على الإطلاق؟

- على قارئ القرآن أن يستحضر النية عند تلاوته، نية زيادة الأجر: من أن الحرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، وما أكرم اللطيف الكريم، لما جعل قارئ القرآن بين أجر وأجرين، قال ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[2].

- جميل أن يجعل المرء له ورداً يومياً يحرص على عدم فواته، أو الانشغال عنه، بحيث يختم كتاب الله تلاوة في فترة يحددها يقدر عليها، مع الحرص على عدم التفريط في الحقوق الواجبة عليه.

- ما أروع شعور المؤمن إن دمعت عيناه من تدبر آية في كتاب الله، حتى لا يكاد يفارق مصحفه إلا مكرهاً، كما كان حال السلف من تذوق القرآن حتى

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «رجل آتاه الله القرآن...»، (٦/٢٧٣٧/ ح ٧٠٩١)، واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه...، (١/٥٥٨/ح٨١٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة عبس...، (٤/١٨٨٢/ح ٤٦٥٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، (١/٥٤٩/ ح ٧٩٨)، واللفظ له.

كان يختلج في صدورهم فيلازم أنفاسهم.

- مما يعين على تلاوة القرآن حسن تلاوته والتغني به، قال رسول اللّهِ ﷺ: «لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي ﷺ أن يتغنى بالقرآن»[(١)]، ومن حسن تلاوته إقامة حروفه وإحكام النطق به، وتجويده، لذا جُعِل الماهر بالقرآن في منزلة عظيمة، كما في الحديث السابق، من قوله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[(٢)].

- وقد جعل النبي ﷺ الخيرية المطلقة لمن تعلم القرآن وعلمه فقال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[(٣)].

- ثم حريٌّ بنا أن نتأمل، إن كان كل هذا ـ وأكثر مما لم يُذكَر هاهنا ـ في تلاوة القرآن، فكيف بمن حَفِظَه، وضمه بين خافقيه، وجعله مشعلاً يهتدي به، فحَملهُ في صدره، وبين جنبيه؟ نسأل الله من فضله.

- على صاحب القرآن أن يتق الله في الأمانة التي حمَّله الله إياها، وأكرمه وأنعم عليه بها، فليؤد حقها وشكرها بالعمل به، والوقوف عند أوامره، والانتهاء عن نواهيه، والبعد عن معاصيه سبحانه.



(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، (١٩١٨/٤/ح ٤٧٣٥).

(٢) سبق تخريجه قبل قليل ص: (٤٤١).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، (١٩١٩/٤/ح ٤٧٣٩).



## المطلب الرابع

## الهداية

### أولاً: المعنى اللغوي للهداية:

الهداية من الهُدَى، والهدى: الإرشاد والدلالة.

- قال الأزهري:

«الهُدَى: البَيان، والهُدَى: إخراج شيء إلى شيء»[(١)].

- وقال ابن فارس:

«(هَدَى): الهاء والدال والحرف المعتل: أصلان أحدهما التقدم للإرشاد والآخر بعثة بلطف، فالأول قولهم: هَدَيْتُهُ الطريق هدايةً، أي: تقدمته لأرشده، وكل متقدم لذلك هاد... ويتشعب هذا فيقال: الهدى: خلاف الضلالة»[(٢)].

❖ **من الآيات التي وصف فيها ﷺ بالهداية:**

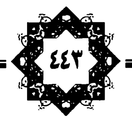
وصف الله ﷻ نبيه ﷺ بهدايته غيره إلى الصراط المستقيم في سورة الشورى بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢).

### ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الهداية للنبي ﷺ:

❖ **لا خلاف بين المفسرين في أن المراد بهداية النبي ﷺ إلى الصراط المستقيم**

(١) «تهذيب اللغة»: (٦/٢٠١).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٦/٤٢).



هنا، هو: الدعوة، والبيان[١]، وممن قال به: قتادة[٢]، والسدي[٣]، ومقاتل[٤]، ونص بعض المفسرين على الإرشاد والدلالة[٥] وهما بمعنى الدعوة والتبيين.

❖ في المعنى العام للآية:

- قال الطبري:

«﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢) يقول: تدعو إلى دين مستقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ٥٣) يقول جل ثناؤه: وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، وهو الإسلام، طريق الله الذي دعا إليه عباده، الذي له ملك جميع ما في السماوات وما في الأرض لا شريك له في ذلك»[٦].

- وقال الشوكاني:

«﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ ﴾ (الشورى: ٥٢): أي ولكن جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك، ضياء ودليلا على التوحيد والإيمان، نهدي به من

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل»: (١٨٣/٣)، «جامع البيان»: (٤٧/٢٥)، «النكت والعيون»: (٢١٣/٥)، «تفسير السمعاني»: (٨٨/٥)، «الكشاف»: (٢٣٩/٤)، «زاد المسير»: (٣٠٠/٧)، «تفسير البيضاوي»: (١٣٧/٥)، «لباب التأويل» للخازن: (١٢٥/٦)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٣٦٤/٧)، «فتح القدير»: (٤٥٤/٤).

(٢) «جامع البيان»: (٤٧/٢٥)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٣٦٤/٧)، «فتح القدير»: (٤٥٤/٤).

(٣) «جامع البيان»: (٤٧/٢٥)، «فتح القدير»: (٤٥٤/٤).

(٤) «تفسير مقاتل»: (١٨٣/٣)، «فتح القدير»: (٤٥٤/٤).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢٨/١ و٤١)، «اللباب في علوم الكتاب» لاب عادل: (٢٧٠/١).

(٦) «جامع البيان»: (٤٧/٢٥).

نشاء هدايته من عبادنا، ونرشده إلى الدين الحق»[1].

❖ **مسألة:**

**كيفية التوفيق بين قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، حيث أثبت تعالى لنبيه ﷺ الهداية، بينما نفاها عنه في سورة القصص، فقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾** (القصص: ٥٦):

وذلك «أن الهدى المثبت له ﷺ هو الهدى العام الذي هو البيان، والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك ﷺ فبين المحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها هالك، والهدى المنفي عنه في آية: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق، لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ (المائدة: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ ﴾ (النحل: ٣٧)»[2].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة الهداية للنبي ﷺ:

❖ في أسلوب الآية ما يدل على أن هداية النبي ﷺ للأمة، إنما هي بهداية

---

(١) «فتح القدير»: (٤/٤٥٤).

(٢) «أضواء البيان»: (٧/٢٠ ـ ٢١)، وانظر: «بحر العلوم»: (١/٢٠٥ ـ ٣/٢٣٨)، «التفسير الكبير» للرازي: (٢٤/٣)، «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (١٧/٢٢٤)، «تفسير السعدي»: (٦٢٠).

الله تعالى له، وأنه عبد لله يتصرف بأمره سبحانه، وذلك لأنه تعالى نفى عن نبيه ﷺ في بداية الآية عدم معرفته بالكتاب والإيمان، ثم أثبت له بعد ذلك كونه ﷺ هادياً إلى صراط مستقيم، فمن كانت هذه صفته - أي المنفية عنه - فكيف له أن يكون كذلك؟ - أي بالصفة المثبتة له - إلا بهداية ودلالة وإرشاد الله تعالى إياه، ووحيه إليه ﷺ.

❖ جاءت الصفة بالفعل المضارع: (تهدي) للدلالة على الدوام والاستمرارية، فقد كان يهدي ﷺ ويدل ويرشد ويبين، في جميع الأحوال والأوقات، في حياته وكذلك بعد مماته ﷺ، فسنته باقية وهديه باق ﷺ.

❖ أُكِّدَت الصفة بمؤكِّدَيْن: إِنَّ، واللام، زيادة في ثبوت الصفة له ﷺ، فتكون آكد - ولا شك - من عبارة خلت من المؤكدات كما لو قيل: (وأنت الهادي إلى صراط مستقيم) مثلاً.

## رابعاً: تَمَثُّل صفة الهداية في النبي ﷺ:

❖ بعثة رسول الله ﷺ من أعظم المنن، وأجل النعم، فبه هدى من الضلالة، وأنقذ من الجهالة، وأنار البصائر بعد العمى، فكان بحق هادي الأمة، بل البشرية جمعاء، بل هادي الثقلين: الإنس، والجن.

وما صفة الهداية له ﷺ إلا كعنوان ضُمِّنَ ما سبق من الصفات كالبلاغ، والدعوة إلى الله، والبشارة، والنذارة، والبيان، والتذكير، والتعليم، والتزكية، وغيرها.

❖ هدى الله نبيه ﷺ فقال: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى: ٧)(١)، وكان ﷺ كثير الامتنان لربه سبحانه، معترفاً بنعمة الهداية عليه من مولاه ﷻ، فهاهو يرتجز وهو ينقل التراب يوم الخندق، فيقول:

«اللهم لولا أنت ما اهتدينا ❖ ولا تصدقنا ولا صلينا»(٢)

❖ وكان ﷺ يستزيد هداية الله ﷻ فكان من دعاءه ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»(٣).

❖ وكان ﷺ متفانياً في حرصه على هداية الأمة، ودلالتها، وإرشادها، وتبيين الهدى للناس في أحواله وأوقاته كلها، بل حتى في حركاته وسكناته، وهذا ما جرى عنه الحديث باستفاضة في الصفات السابقة التي أشرت إليها قبل قليل.

❖ ومن هدايته ﷺ أن كان يدعو بالهداية للأفراد والجماعات، حتى لمن كان على غير الجادة، وهذا إن دل على شيء دل على رحمته وحرصه على أمته ﷺ، فمن ذلك: دعاؤه ﷺ لأم أبي هريرة رضي الله عنه بالهداية فقال: «اللهم اهد أم أبي هريرة»(٤)، فأسلمت.

---

(١) وقد سبق الحديث عن هذه الآية بالتفصيل في الفصل الأول، وكيف أن الله ﷻ هداه، وهدى به، وهدى إليه ﷺ، انظر: ص (٦٦).

(٢) سبق تخريجه انظر: ص (٢٠٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عُمل ومن شر ما لم يُعمل، (٤/٢٠٨٧/ح ٢٧٢١).

(٤) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه، (٤/١٩٣٨/=



❖ وكان يعلم أصحابه أن يدعوا لأنفسهم بالهداية، فكان ﷺ إذا أسلم الرجل علمه الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهذه الكلمات: «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني»[١]، وعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول اللَّهِ ﷺ: «قل اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى، هدايتك الطريق، والسداد، سداد السهم»[٢].

❖ ومن هدايته ﷺ أن يَحُث أصحابه على هداية الناس وإرشادهم، ويبين لهم عِظَم أجر ذلك، قال ﷺ: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»[٣].

❖ فداه أبي وأمي ﷺ فلقد هدى وبين وأرشد وذكر ووعظ وبشر وأنذر ودعا وبلغ وأصلح، في العقائد، والأقوال، والأفعال، والأخلاق، والسلوك، والعبادات، والمعاملات، والعادات، والحياة الأسرية، والزوجية، والاجتماعية،

---

=ح ٢٤٩١).

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٢٠٧٣/٤/ح ٢٦٩٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عُمل ومن شر ما لم يُعمل، (٢٠٩٠/٤/ح ٢٧٢٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، (١٠٩٦/٣/ ح ٢٨٤٧)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (١٨٧٢/٤/ح٢٤٠٦)، و(حُمْرُ النَّعَم): كرامها وأعلاها منزلة: انظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: (١٦٦/٥).

والعلمية، والتربوية، وكل هذا وزيادة، في ثلاث وعشرين سنة، فما أعظمه من قائد حكيم، ومعلم رحيم، ومرب كريم ﷺ.

**خامساً: الصفة في الواقع المشاهد، والتأسي به ﷺ في هذه الصفة:**

لا تخفى حاجة الأفراد والجماعات إلى الهداية والإرشاد، والدلالة على أبواب الخير، والتحذير من أبواب الشر، فمن نذر نفسه لله، فليخدم دينه، ويسعى إلى أن يهدي الله به، وللوصول إلى ذلك فلابد من أن يضع المرء في اعتباره أموراً عدة:

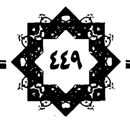
١ – أن يسعى المرء لتحصيل الهداية في نفسه أولاً ليتمكن من إيصالها إلى غيره، وإنما يكون ذلك بأخذ الأسباب من التوحيد الخالص، واتباع السنة، والعمل الصالح، والعلم النافع، والاستعانة دائماً وأبداً بالدعاء.

٢ – أن يستحضر المرء في ذهنه أجر هداية الله غيره على يديه، كما في الحديث السابق، في قوله ﷺ: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعَم»[1]، فالدنيا زائلة منقطعة، والآخرة باقية دائمة، فالزادَ الزادَ لتلك الآخرة.

٣ – أن يتحلى بالصفات التي لابد للداعية والمربي من التحلي بها بأن تكون له ديدناً وطبعاً، ومنها:

---

(١) سبق تخريجه قبل قليل، انظر: ص (٤٤٨).



- إخلاص النية لله تعالى، وأن ينبع قوله وعمله من القلب ليصل إلى القلب.

- التحلي بحسن الخلق، وحسن سمت الهُداة، لينال القبول عند الله وعند الناس.

- التحلي بالصبر الذي هو زاد الداعين، والهداة المهتدين.

- التسلح بالعلم النافع، ليكون مسانداً له فيما يفعل أو يقول.

- التواضع، وتأليف القلوب.

- حسن المنطق، ورصانة العبارة، وجزالة الأسلوب.

٤ – عليه أن ينوع جهده في الهداية والدلالة والإرشاد لكل محتاج وضال، سواء الضال الكافر، فيرشده إلى الإسلام، أو الضال المسلم، جاهلاً كان فيرشده إلى ما يزول به جهله، أو فاسقاً كان فيرشده إلى ما يَصْلُحُ به أمرُه.

٥ – كما عليه أن ينوع جهده ما بين الأفراد والمجتمعات، بحسب ما تقتضيه المصلحة، وأن يرد كل الثغور للإصلاح، فنشْرُ الهدى في المجتمعات يزيد من حصانتها، ويُضعف من تهافتها نحو الرذائل.

٦ – وليعلم المرء أنه متى ما نذر نفسه لخدمة دينه، فإنه قد أصبح قدوة يقتدى بها، شاء أم أبى، فليتق الله، وليكن قدوة حسنة لغيره، ليظفر بأجر نفسه وأجر من اقتدى به إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيئاً.

٧ – والبشرى كل البشرى في أن الهداية تجر الهداية، يقول ابن القيم:

«الهداية تجر الهداية، والضلال يجر الضلال، فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازددت منها ازداد الهدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر، فيجازي عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور، ويجازي عليها بالضلال والشقاء»[1].



(١) «تنوير الحوالك شرح موطأ مالك» للسيوطي: (١/٣٣٨).

# الفصل الخامس

# صفاته ﷺ المُتَعَلِّقَةُ بِالتَّشْرِيعِ

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
- المبحث الثاني: تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث.
- المبحث الثالث: وضع الإصر والأغلال.

# الفصل الخامس

# صفاته ﷺ المُتَعَلِّقَةُ بِالتَّشْرِيعِ

## توطئة:

إن من أهم الغايات التي بُعِث من أجلها نبينا محمد ﷺ هي بيان التشريع للأمة، بواسطة هذه الرسالة العالمية الخاتمة، فكان تشريعاً يمتاز بالبيان، والكمال، والوضوح، والسماحة، والتيسير.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وقوله سبحانه في صفة نبينا ﷺ: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ (الأعراف:١٥٧)، هو بيان لكمال رسالته فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وأحل كل طيب، وحرم كل خبيث، ولهذا روي عنه ﷺ أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[1]»[2].

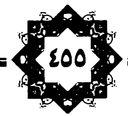
وقال السعدي رحمه الله: «فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه، وأمر به، ونهى عنه، وأحله، وحرمه»[3].



(١) ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ص (٤٥).

(٢) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»: (١/ ٢١).

(٣) «تفسير السعدي»: (٣٠٥).



# المبحث الأول

# الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر

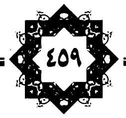
## المبحث الأول

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قدوتنا ونبينا العظيم، ومنهاجنا ورسولنا الكريم، شرع وسن لنا الطريق والشرع القويم، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي بعث الله لها الأنبياء والمرسلين، ولو أهملت هذه المهمة لتفشى الضلال، وكثر الجهال، واستشرى الفساد، واتسع الخرق على الراقع.

قال النووي: «واعلم أن هذا الباب أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣)، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل، أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم لاسيما وقد ذهب معظمه»[١].

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٢/٢٤).



**أولاً: المعنى اللغوي لصفة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:**

**١ – المعنى اللغوي للأمر بالمعروف:**

**أ/ الأمر:**

الأمر المقصود هنا: هو ما كان ضد النهي.

قال ابن فارس: «(أَمَرَ): الهمزة والميم والراء أصول خمسة: ... والأمر الذي هو نقيض النهي»[1].

**ب/ المعنى اللغوي للمعروف:**

المَعْروف هنا، ضد المنكر، وما عُرِفَ بالشرع والعقل حسنه.

جاء في المعجم الوسيط: «(المَعْروف): اسم لكل فعل يعرف حسنه بالعقل أو الشرع، وهو خلاف المنكر»[2].

**٢ – المعنى اللغوي للنهي عن المنكر:**

**أ/ المعنى اللغوي للنهي:**

النَّهْي: ضد الأمر.

قال ابن منظور: «نَهَيَ: النَّهْيُ: خلاف الأمر، نهاه ينهاه نهياً فانتهى وتناهى: كَفَّ... وتناهوا عن الأمر، وعن المنكر: نهى بعضهم بعضا»[3].

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١/١٣٧).

(٢) «المعجم الوسيط»: (٢/٥٩٥).

(٣) «لسان العرب»: (١٥/٣٤٣ ـ ٣٤٤)، وانظر: «العين»: (٤/٩٣)، «أساس البلاغة»: (١/٦٦١)، «مختار الصحاح»: (١/٢٨٤).



ب/ المعنى اللغوي للمنكر:

المُنْكَر: ضد المعروف، وهو كل ما عرف بالعقل والشرع قبحه.

قال ابن فارس: «(نَكَرَ): النون والكاف والراء: أصل صحيح يدل على خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب، ونَكَرَ الشيءَ وأَنْكَرَهُ: لم يقبله قلبُه، ولم يعترف به لسانُه»[(١)].

وقال ابن منظور: «والمُنْكَر: من الأمر: خلاف المعروف، ... وهو ضد المعروف، وكل ما قَبَّحَهُ الشَّرْعُ وحَرَّمَهُ وكَرِهَهُ، فهو مُنْكَر»[(٢)].

**ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للنبي ﷺ:**

❖ قال أبو حيان: «هذا من بقية خطابه تعالى لموسى عليه السلام وفيه تبشير له ببعثة محمد ﷺ وذكر لصفاته وإعلام له أيضاً أنه ينزل كتاباً يسمى الإنجيل»[(٣)] وأن من مواصفات هذا النبي الأمي أنه يقوم بهذه الأفعال، ومنها: أنه يأمر أتباعه بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ﷺ.

❖ **اختلفت عبارات المفسرين في معنى المعروف الذي أمر به النبي ﷺ، والمنكر الذي نهى عنه، وهم في ذلك ما بين مخصص ومعمم، على النحو التالي:**

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٥/٤٧٦).

(٢) «لسان العرب»: (٥/٢٣٣).

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/٤٠٢).



١ – أن المعروف هو مكارم الأخلاق، وصلة الأرحام، وأن المنكر هو عبادة الأوثان، وقطع الأرحام، وهو قول ابن عباس[١] رضي الله عنهما، وعطاء[٢].

٢ – أن المعروف هو الإيمان، والمنكر هو الشرك، وهو قول مقاتل[٣]، والطبري[٤].

٣ – وقيل: لمعروف هو الحق، والمنكر هو الباطل[٥].

٤ – وقيل: المعروف هو ما عرف في الشريعة والسنة، والمنكر هو ما لا يعرف في الشريعة والسنة[٦].

٥ – المعروف هو جميع ما أمر الله به، والمنكر هو جميع ما نهى الله عنه[٧].

❖ وكما هو واضح من عرض هذه الأقوال أنه لا تضاد بينها، وإن كان أعمها أن يقال: بأنهما: الإيمان والشرك، وما عداهما يندرج تحتهما على أنه من خصالهما أو فروعهما، والله تعالى أعلم.

❖ سمي المعروف معروفاً؛ لأنه معروف الصحة في العقول، والمنكر منكراً؛ لأنه منكر الصحة في العقول[٨].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٢٧٢/٣)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤).

(٢) انظر: «لباب التأويل» لابن عادل: (٢٩٨/٢)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤).

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٢٧٢/٣)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (٨٤/٩)، «لباب التأويل» لابن عادل: (٢٩٨/٢).

(٥) انظر: «النكت والعيون»: (٤٠٢/٤).

(٦) انظر: «لباب التأويل» لابن عادل: (٢٩٨/٢).

(٧) انظر: «دقائق التفسير» لابن تيمية: (٦٩/٢).

(٨) انظر: «النكت والعيون»: (٢٦٨/٢)، «زاد المسير»: (٢٧٢/٣).



**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للنبي ﷺ:**

سأرجئ الحديث عنه إلى نهاية هذا الفصل إن شاء الله تعالى[1]؛ لترابط الصفات جميعها، وورودها في نفس الآية.

**رابعاً: تَمَثُّل صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النبي ﷺ:**

❖ نبينا ﷺ بذل نفسه رخيصة لأجل الله تعالى وإبلاغ دينه، فكان جُلُّ قوله وفعله وتقريره ﷺ يتضمن أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وصولاً بالأمة إلى رضى ربها جل وعلا.

❖ **ولما كان ﷺ هو الشارع والمبلغ والقدوة والمعلم والمربي، فقد صرّح ﷺ آمراً بهاتين الصفتين العظيمتين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

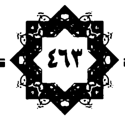
- فقال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

- وضرب لنا ﷺ مثلاً عظيماً هو العَلَم المرفوع، والفيصل الموضوع، في أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للفرد والمجتمع، فقال ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء، مَرُّوا على

---

(١) انظر: ص (٤٩٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان... (١/٦٩/ح ٤٩).



من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خَرْقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا وَنَجَوْا جميعا»[1].

قال العيني: «قوله: (هلكوا جميعاً) أي: كلهم الذين سكنوا فوق والذين سكنوا أسفل؛ لأن بخرق السفينة تغرق السفينة ويهلك أهلها، قوله: (وإن أخذوا على أيديهم) أي: وإن منعوهم من الخرق نجوا أي: الآخذون (ونجوا جميعاً) يعني: جميع من في السفينة، ولو لم يذكر قوله: (ونجوا جميعاً)، لكانت النجاة اختصت بالآخذين فقط، وليس كذلك، بل كلهم نجوا لعدم الخرق، وهكذا إذا أقيمت الحدود وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، تحصل النجاة للكل، وإلاَّ هلك العاصي بالمعصية، وغيرهم بترك الإقامة»[2].

❖ **من هديه ﷺ في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:** أنه كان يأمر وينهى بحسب المقام، وحاجة المخاطب وحاله.

❖ **من نماذج أمره ﷺ بالمعروف ونهيه عن المنكر بقوله ﷺ وفعله:**

مرة استعمل النبي ﷺ عاملاً على الصدقات فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وحاسبه قال هذا الذي لكم وهذه هدية أهديت لي، فقال رسول الله ﷺ: «فهلا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً»، ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني

(١) رواه البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، (٢/٨٨٢/ح ٢٣٦١).

(٢) «عمدة القاري» للعيني: (١٣/٥٧).



أستعمل رجالاً منكم على أمور مما ولاني الله فيأتي أحدكم، فيقول: هذا لكم وهذه هدية أهديت لي، فهلا جلس في بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئا ـ بغير حقه ـ إلا جاء الله يحمله يوم القيامة، ألا فلا أعرفن ما جاء الله رجل ببعير له رغاء أو ببقرة لها خوار أو شاة تيعر[1] ثم رفع يديه ـ يقول الراوي: حتى رأيت بياض إبطيه ـ «ألا هل بلغت»[2].

- وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده»، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، قال: «لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ»[3].

**❖ من هديه ﷺ في ذلك أيضاً، أنه لا يتخذ من أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، وسيلة للانتقام لنفسه، بل لله ﷻ فحسب.**

قال ابن تيمية: «وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه، ولا ينتقم لنفسه، لكن يعاقب لله، وينتقم لله، وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه، وأما حدود الله فقد قال: «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت

---

(١) (الرغاء: صوت البعير، والخوار: صوت البقرة، واليُعار: صوت الماعز)، انظر: «فتح الباري»: (١٣/١٦٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب محاسبة الإمام عماله، (٦/٢٦٣٢/ح ٦٧٧٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ونسخ ما كان من إباحته في أول الإسلام، (٣/١٦٥٥/ح ٢٠٩٠).

يدها»[1]، أخرجاه في الصحيحين، وهذا هو كمال الإرادة، فإنه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح، وأمر بذلك وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، ونهى عن ذلك، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧)، وأما لحظ نفسه، فلم يكن يعاقب، ولا ينتقم، بل يستوفي حق ربه، ويعفو عن حظ نفسه»[2].

❖ كان ﷺ يستصحب في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، الرفق، واللين، والتواضع، والصبر، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ولم يكن هذا يمنعه أن يظهر في وجهه الشريف ﷺ إنكاره للمنكر، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ، قام على الباب فلم يدخله، فعرفت في وجهه الكراهية، فقلت: يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله ﷺ، ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٣٦٦).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (١٠/٥٠٣ ـ ٥٠٤).



ما بال هذه النمرقة؟ قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون، فيقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، وقال: «إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»[1].

وكذلك لما غضب ﷺ من أسامة لما شفع في المخزومية التي سرقت، وفيه: «فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال أتكلمني في حد من حدود الله»[2]، ولكنه مع ذلك كان رفيقاً في نصحه وأمره ونهيه ﷺ.

## خامساً: صفتا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هاتين الصفتين:

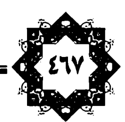
١ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الشريعة، فتجب العناية به وعدم إهماله، وهو فرض كفاية بإجماع الأمة[3]، وقد أطال علماء الفقه النفس في شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراتبه، وأحواله، ومتى يسقط عن المكلف، ونحو ذلك من المسائل الفقهية.

٢ – على المرء التأسي بحكمة النبي ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بأن يكون ذلك بحسب المقام، وما يقتضيه الحال، وإن كان في السر أولى

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، (٢/٧٤٢/ح ١٩٩٩)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان...، (٣/١٦٦٩/ح ٢١٠٧).

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص (٣٦٦).

(٣) انظر: «روضة الطالبين» للنووي: (١٠/٢١٨)، «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية: (١/٢٦).



وأجمل ؛ لأن ذلك أدعى لإخلاص النوايا ، وأرعى لشعور الطرف الآخر ، وأقرب إلى الستر منه إلى الفضيحة ، فعن أم الدرداء رضي الله عنها قالت : «من وعظ أخاه سراً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه»[1].

٣ - حب السلف لمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويناصحهم ويذكرهم ، فعن ميمون بن مهران أنه قال لصاحب له : «قل لي في وجهي ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره»[2].

٤ - على الآمر والناهي ، أن يستصحب في أمره ونهيه جملة من الأخلاق : كالعلم ، والإخلاص - بأن يريد الانتصار لله لا لنفسه - والرفق ، والعدل ، والصبر ، والتواضع ، وغيرها مما يجعل أمره ونهيه أقرب إلى القبول والإجابة.

٥ - لا يمنعن المرء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجردُ ظنه أن كلامه لا يؤثر عادة ، ونحو ذلك ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

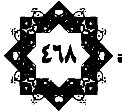
٦ - علينا مساندة أهل الحسبة ، والذب عنهم وعن أعراضهم ، والدعاء لهم ، وأن نوضح لأبناء المجتمع وبناته أهمية وعِظم ما يقومون به ، ورد الشائعات والاتهامات التي تفترى عليهم من المغرضين ، وأن خطأ أحدهم لا يعمم عليهم كلهم ، فكلنا ذو خطأ ، والله المستعان.

٧ - على المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب ترجح المصلحة

---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي : (١١٢/٦).

(٢) «الآمرون بالمعروف في الإسلام» للمنجد : (٥٤)، بواسطة : «نضرة النعيم» : (٥٣٨/٣).



على المفسدة، قال ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بعثت الرسل، ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به هو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم الفساد والمفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته، لم يكن مما أمر الله به وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله، وليس عليه هداهم، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ (المائدة: ١٠٥)، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضال»[(١)].

٨ – على المرء عدم ترك إنكار المنكر بتاتاً، ولو بأدنى مراتبه، وهو الإنكار بالقلب، قال ابن تيمية رحمه الله: «فأما القلب فيجب بكل حال إذ لا ضرر في فعله ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وذلك أدنى أو أضعف الإيمان»[(٢)]، وقال: «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[(٣)].

---

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»: (٣٠ ـ ٣١).

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص (٤٦٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان... (٦٨٨/ح ٥٠).

وقيل لابن مسعود ﵁ : من ميت الأحياء؟ فقال الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، «وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مجخياً في حديث حذيفة بن اليمان ﵁ في الصحيحين : «تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير»[1]... الحديث»[2].

٩ – في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ما لا يحصى كثرة ، من المنافع والفوائد التي تعود على الفرد والمجتمع ، ومن ذلك[3] :

أ/ هو صمام أمان للمجتمع ، وصيانة له من عوامل الانحراف من الداخل والخارج.

ب/ يهيئ الجو الصالح الذي تنمو فيه الآداب والفضائل ، وتقل فيه المنكرات والرذائل.

ج/ يكون الرأي العام المسلم الذي يحرس آداب الأمة وفضائلها وأخلاقها وحقوقها ، ويجعل لها شخصية وسلطاناً قوياً.

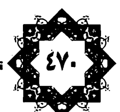
د/ يبعث الإحساس بمعنى الأخوة والتكافل والتعاون على البر والتقوى واهتمام المسلمين بعضهم ببعض.

---

(١) لم أجده إلا عند مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، ... (١/١٢٨/ح١٤٤).

(٢) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية : (٣٠).

(٣) انظر : «نضرة النعيم» : (٣/٥٣٩).



هـ/ هو سر أفضلية هذه الأمة، لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

و/ هو سبب للنصر والتمكين.



# المبحث الثاني

# تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث

## المبحث الثاني

## تحليل الطيبات وتحريم الخبائث

من أعظم نعمه تعالى على عباده أن أحل لهم ما ينفعهم، وحرم عليهم ما يضرهم، لحكمته تعالى، ولقصور العقل البشري عن معرفة جميع الأسرار التي أودعها الله تعالى في ما خلقه من المطعومات مما يضره منها أو ينفعه، قال ابن كثير رحمه الله: «قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين»[(١)].

### أولاً: المعنى اللغوي لصفتي: تحليل الطيبات وتحريم الخبائث:

١ - تحليل الطيبات:

أ/ التحليل:

تفعيل من (الحِل)، وهو ضد الحرام، وهو المباح.

قال ابن فارس: «(حَلَّ): الحاء واللام له فروع كثيرة ومسائل، وأصلها كلها عندي فتح الشيء، لا يشذ عنه شيء... والحلال: ضد الحرام»[(٢)].

وفي المعجم الوسيط: «(حَلَّ) الشيء حلالاً: صار مباحاً فهو حِلٌّ...

(١) «تفسير ابن كثير»: (٢/٢٥٥).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٢/٢٠).



(الحلال) المباح»[1].

ب/ الطيبات:

جمع: (طَيِّبَة)، مؤنث: (طَيِّب)، وهو ضد الخبيث.

قال ابن فارس: «(طَيَبَ): الطاء والياء والباء: أصل واحد صحيح، يدل على خلاف الخبيث، من ذلك: الطيب، ضد الخبيث»[2].

وقال ابن منظور: «وماء طيب إذا كان عذباً، وطعام طيب إذا كان سائغاً في الحلق، ... وماء طيب أي طاهر»[3].

وفي المعجم الوسيط: «الطَّيِّب: كل ما تستلذه الحواس أو النفس، وكل ما خلا من الأذى والخُبْث»[4].

٢ – تحريم الخبائث:

أ/ التحريم:

تفعيل من الحرام، وهو ضد الحلال، وهو الممنوع.

قال ابن فارس: «(حَرَمَ): الحاء والراء والميم: أصل واحد وهو: المنع والتشديد، فالحرام ضد الحلال»[5].

---

(١) «المعجم الوسيط»: (١/١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٣/٤٣٥).

(٣) «لسان العرب»: (١/٥٦٦).

(٤) «المعجم الوسيط»: (٢/٥٧٣).

(٥) «مقاييس اللغة»: (٢/٤٥).



وفي المعجم الوسيط: «(حَرَّمَ) الشيءَ عليه أو على غيره: جَعَلَهُ حراماً»[1].

ب/ الخبائث:

جمع: (خبيثة)، مؤنث (خبيث)، وهو ضد الطيب.

قال ابن فارس: «(خَبَثَ): الخاء والباء والثاء: أصل واحد يدل على خلاف الطَّيِّب، يقال: خَبيث: أي ليس بطَيِّب»[2].

وقال الزبيدي: «والخَبَائثُ: ما كَانَتْ العَرَبُ تَستَقْذِرُه ولا تَأْكُلُه، مثل: الأَفَاعِي والعَقَارِبِ»[3].

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صِفَتَيْ: تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، للنبي ﷺ:

❖ **اختلفت أقوال المفسرين في ضبط ماهية الطيبات التي أحلها النبي ﷺ لهم، والخبائث التي حرمها عليهم على الأقوال التالية:**

١ – أن الطيبات: ما كانت الجاهلية تحرمه من: (البحائر والسوائب والوصائل والحوامي)[4].

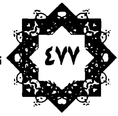
---

(١) «المعجم الوسيط»: (١/١٦٩).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٢/٢٣٨).

(٣) «تاج العروس»: (٥/٢٣٦).

(٤) **البحيرة** هي: الناقة، يشقون أذنها، ثم يحرمون ركوبها، ويرونها محترمة، **والسائبة** هي: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت سناً اصطلحوا عليه، سيبوها، فلا تركب، ولا يحمل عليها، ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئا من ماله، يجعله سائبة، **والوصيلة** هي: الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى، =



وأن الخبائث: لحم الخنزير، والربا، وما كانوا يستحلونه من المطاعم والمشارب التي حرمها الله[1]. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[2].

ويندرج تحت هذا القول: ما أضافه بعض المفسرين إلى تفسير الخبائث بأنها: ما حُرِّم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها[3].

٢ – أن الطيبات: ما طاب في الشريعة والحكم مما ذكر اسم الله عليه، وأن الخبائث: ما خبث في الشريعة والحكم[4].

٣ – أن الطيبات: هي الحلال[5]، وأن الخبائث: هي الحرام، وهو قول مالك[6].

---

=وقيل: هي الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، والحام هو: الجمل، يحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم. انظر: «فتح القدير»: (٨٢/٢)، «تيسير الكريم الرحمن»: (٢٤٦).

(١) انظر: «جامع البيان»: (٨٤/٩)، «النكت والعيون»: (٢٦٩/٢)، «زاد المسير»: (٢٧٣/٣)، «لباب التأويل»: (٢٩٨/٢)، «تفسير ابن كثير»: (٢٥٥/٢)، «الدر المنثور»: (٥٨٢/٣).

(٢) عند الطبري في «جامع البيان»: (٨٤/٩)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٥٨٢/٣).

(٣) انظر: «الكشاف»: (١٥٦/٢)، «زاد المسير»: (٢٧٣/٣)، «لباب التأويل» للخازن: (٢٩٨/٢)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤ ـ ٤٠٣).

(٤) انظر: «الكشاف»: (١٥٦/٢)، «التفسير الكبير» للرازي: (٢١/١٥ ـ ٢٢)، «روح المعاني»: (٨١/٩).

(٥) انظر: «زاد المسير»: (٢٧٣/٣)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٥١/٢)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٠٢/٤ ـ ٤٠٣)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٥٨٢/٣).

(٦) وهو عند ابن جزي في: «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٥١/٢).



٤ – أن الطيبات: هي ما تستطيبه الأنفس بالطبع وتستلذه؛ لأن تناولها يفيد اللذة والمنفعة، والأصل في المنافع الحل إلا لدليل منفصل، وأن الخبائث هي: ما تستخبثه الأنفس بالطبع وتستقذره؛ لأن تناولها يسبب الألم والضرر، والأصل في المضار الحرمة إلا لدليل منفصل[١]، وهو قول الشافعي[٢].

❖ **وعند تأمل الأقوال أعلاه، فإن الذي تميل إليه النفس، هو القول الرابع**؛ لأنه موافق للمعنى اللغوي لكل من الطيبات والخبائث، كما أنه يشمل ما قيل في القول الأول وزيادة.

- أما عن **القول الأول** فهو صحيح بلا شك، وموافق للواقع الذي أتى به النبي ﷺ، إلا أن الآية تشمله وزيادة.

- **أما القول الثاني**، فقد استبعده بعضهم مضعفاً إياه، كالرازي فقال:

«من الناس من قال: المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها وهذا بعيد لوجهين:

الأول: أن على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذا محض التكرير.

الثاني: أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة، لأنا لا ندري أن

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٢٧٣/٣)، «التفسير الكبير» للرازي: (٢١/١٥ ـ ٢٢)، «لباب التأويل» للخازن: (٢٩٨/٢)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٥١/٢).

(٢) وهو عند ابن جزيء في: «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٥١/٢).



الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟»[1].

- ولا شك أن **القول الثالث** لا يخرج عن معنى القول الثاني بحال، فيقال فيه ما قيل في سابقه من الاعتراض، وهو اعتراض وجيه، وله مكان من الصحة.

❖ وقد يرد إشكال يسير، ذلك أن بعض الأنفس قد تستلذ ما يستقذره غيرها مع حله (كالضب)، وبعض الأنفس قد تستقذر ما يستلذه غيرها مع حرمته (كلحم الخنزير)، لذا وضع بعضهم ضابطاً في هذه الأنفس التي يعول على استطابتها المطعومات أو استقذارها إياها، وهو: ما استطابه العرب واستقذروه، وخاصة أهل الحجاز، إذ أنهم هم المخاطبون بالقرآن[2].

وعلق ابن عاشور على ذلك ما مراده: بأن هذا فيه تقييد لا يناسب بعض عادات الناس، فقال: «وفيه من التحكّم في تحكيم عوائد بعض الأمّة دون بعض ما لا يناسب التشريع العامّ... والذي يظهر لي: أنّ الله قد ناط إباحة الأطعمة بوصف الطيّب فلا جرم أن يكون ذلك منظوراً فيه إلى ذات الطعام، وهو أن يكون غير ضارّ ولا مستقذر ولا مناف للدين، وأمارة اجتماع هذه الأوصاف أن لا يحرّمه الدّين، وأن يكون مقبولاً عند جمهور المُعتدلين من البشر، من كلّ ما يعدّه البشر طعاماً غير مستقذر، بقطع النظر عن العوائد والمألوفات، وعن الطبائع

(١) «التفسير الكبير»: (٢١/١٥)، وانظر: «البحر المحيط»: (٤/٤٠٢ ـ ٤٠٣)، «روح المعاني»: (٨١/٩).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير»: (١١٢/٦).

المنحرفات، ونحن نجد أصناف البشر يتناول بعضهم بعض المأكولات من حيوان ونبات، ويترك بعضهم ذلك البعض»[١].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، للنبي ﷺ:

سيأتي إن شاء الله تعالى لاحقاً[٢]، على ما نبهت عليه سابقاً.

## رابعاً: تمثل هاتين الصفتين في النبي ﷺ:

❖ كان ﷺ نعم المبلغ عن الله ﷻ، بغير زيادة ولا نقصان، أحل الحلال وحرم الحرام، في كل شؤون الحياة، ومن ذلك ما يتصل بأمر المطعومات.

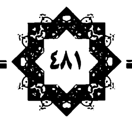
❖ ينبغي أن يعلم أن النبي ﷺ لا يجسر على تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحله الله، وقد عاتبه مولاه جلَّ وعلا عندما حرم العسل على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه، في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ...** ﴾ (التحريم: ١)، فما شرعه الله تعالى لأمته شامل له ﷺ لا يخرج عنه إلا باستثناء الله تعالى إياه، كتحليل أكثر من الأربع نسوة ونحو ذلك.

❖ وصف الله ﷻ نبيه ﷺ بأنه يحرم الخبائث، ولم يحرم النبي ﷺ الثوم مع وصفه له بأنه شجرة خبيثة، وذلك عند مسلم:

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٦/١١٢ ـ ١١٣).

(٢) انظر: ص (٤٩٣).



عن أبي سعيد[1] رضي الله عنه قال: لم نعد أن فتحت خيبر فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ في تلك البقلة: الثوم، والناس جياع، فأكلنا منها أكلاً شديداً، ثم رحنا إلى المسجد، فوجد رسول الله ﷺ الريح، فقال: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً، فلا يقربنا في المسجد»، فقال الناس: حرمت حرمت، فبلغ ذاك النبي ﷺ فقال: «أيها الناس، إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجرة أكره ريحها»[2]، وورد في روايات أخرى أنه ﷺ ألحق بالثوم: البصل والكراث، فكيف يُجاب عن هذا؟

**الجواب كالتالي:**

١ – أن النبي ﷺ سماها خبيثة، لِقُبْحِ رائحتها، وكراهيته ﷺ لتلك الرائحة.

٢ – ذكر أهل العلم الإجماع على عدم تحريمهما، بدليل قوله ﷺ في نفس الحديث: «أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجرة أكره ريحها»، وفي رواية أخرى عند مسلم أيضاً: قال ﷺ: «من أكل من هذه البقلة فلا يقربن مساجدنا حتى يذهب ريحها يعني الثوم»[3].

---

(١) هو أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، وقد سبقت ترجمته، انظر: ص (١٥١).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوهما، (١/٣٩٥/ح ٥٦٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوهما، (١/٣٩٤/ح٥٦١).

قال النووي: «قوله ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة»: سماها خبيثة؛ لقبح رائحتها، قال أهل اللغة: الخبيث في كلام العرب: المكروه من قول، أو فعل، أو مال، أو طعام، أو شراب، أو شخص، قوله ﷺ: «أيها الناس، إنه ليس لي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجرة أكره ريحها»: فيه دليل على أن الثوم ليس بحرام وهو إجماع من يعتد به»[(1)].

٣ – وأنه ﷺ نهى عن أكلهما عند حضور المساجد؛ لأن فيه إيذاءً للملائكة، وأيضاً لبني آدم، قال ﷺ: «من أكل من هذه البقلة الثوم ـ وقال مرة ـ من أكل البصل والثوب والكراث، فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[(2)].

وقال ابن حجر: «وقد روي عن عمرَ رضي الله عنه، أنه قال: من أكل البصل والكراث فلا يأكله عند قراءة القرآن، ولا عند حضورِ المساجد»[(3)].

## خامساً: الصفة في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هاتين الصفتين:

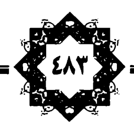
❖ النبي ﷺ هو الشارع والمبلغ عن الله عز وجل، أما أمته فليس لها في ذلك

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٥/٥٠ ـ ٥١).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أكل ثوماً او بصلاً أو كراثاً أو نحوهما، (١/٣٩٤/ح ٥٦٤).

(٣) «فتح الباري»: (٥/٢٨٧).



إلا الالتزام والوقوف عند ما أحله لنا الشارع أو حرمه، فللمسلم تناول الطيبات ما اشتهتها نفسه، كما عليه الامتناع عن الخبائث المحرمة، سواء اشتهتها نفسه أو لم تشتهها.

❖ على المسلم أن يستحضر النية في ذلك بالتعبد لله ﷻ، في الطيبات: بحمد الله تعالى وشكره، أن امتن بها على المسلمين كما قال: (ورزقهم من الطيبات)، وفي الخبائث: بالامتناع عنها لأجل حرمتها قبل أن يكون هذا الامتناع بسبب أن النفس تعافها، ولأجل الصبر عن المعصية إن كانت النفس تشتهيها ولا تعافها.

❖ على المسلم أن يعلم أن كل ما حرمه الله فإن فيه ضرراً ولابد، والعكس بالعكس، كما في قول ابن كثير: «قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين وكل ماحرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين»[1].

❖ على المسلم العمل بحِلِّ الطيبات، وحرمة الخبائث، عن اعتقاد ورضاً بحكم الله تعالى وشرعه، لا عن إرغام، وكراهية للحكم الشرعي نفسه.

❖ وبتحليل النبي ﷺ للطيبات، وتحريمه الخبائث، نجد أنه ﷺ قد وضع لنا قاعدة عريضة في ذلك، فكل ما جد مما لم يكن في عهد النبي ﷺ، فإنه يلحق بما أحله ﷺ أو حرمه صراحة، ومثال ذلك:

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (٢/٢٥٥).



- في تحريم الخمر، فإنه يلحق بها كل المسكرات من المخدرات ونحوها، قياساً على الخمر وقد قال ﷺ: «كل مُسْكِرٍ حرام»[1]، وقال ﷺ: «كل مُسْكِرٍ خَمْرٌ وكل مُسْكِرٍ حَرَامٌ»[2].

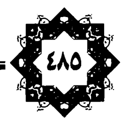
- وكذلك فإن القاعدة في التداوي الحل إلا ما استثنى الشارع تحريمه، كالتداوي بالخمر، وكذا الاستشفاء بالموسيقى وما إلى ذلك.

❖ ❖ ❖

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع، (٤/١٥٧٩/ح ٤٠٨٧)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام، (٣/١٥٨٦/ح ١٧٣٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام، (٣/١٥٨٧/ ح ٢٠٠٣).



# المبحث الثالث

# وضع الإصر والأغلال

## المبحث الثالث

## وضع الإصر والأغلال

إن المتأمل في حال شرائع من سبق من الأمم، في أحكامها وعقوباتها ونحو ذلك، يرى بارقة الإعجاز البياني، التي تتجلى في بلاغة هذه الكلمات الربانية: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ (الأعراف:١٥٧)، ويرى عمق كلمَتَيْ: الإصر والأغلال، ومناسبتهما لحال شرائع الأمم السابقة، وأن لا مقارنة بين أديانهم وبين ديننا الإسلامي الحنيف، الذي اتسم باليسر والسهولة والسماحة والتخفيف، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ (الحج:٧٨)، وإذ يقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥)، وإذ يقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٢٨).

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة: (وضع الإصر والأغلال):

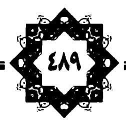
أ/ المعنى اللغوي لـ: (وضع):

الوَضْعُ: الحَطُّ، والإِسْقاطُ.

قال ابن فارس: «(وَضَعَ): الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخفض للشيء وحطه»[1].

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٦/١١٧).



وقال ابن منظور: «وضع: الوضع: ضد الرفع.... وضع عنه الدين والدم وجميع أنواع الجناية يضعه وضعا: أسقطه عنه»[1].

**ب/ المعنى اللغوي للإصر:**

الإِصْر: العهد المؤكد، والذنب، والثقل الذي يثقل صاحبه فيحبسه عن الحِراك.

- قال ابن فارس: «(أَصَرَ): الهمزة والصاد والراء: أصل واحد يتفرع منه أشياء متقاربة، فالإِصْرُ: الحَبْسُ والعَطْفُ، وما في معناهما»[2].

- وفي المعجم الوسيط: «(الإِصْرُ): العهد المؤكد، وفي التنزيل العزيز: ﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ (آل عمران: ٨١)؛ والثقل وفي التنزيل العزيز: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)»[3].

**ج/ المعنى اللغوي للأغلال:**

الأغلال: جمع غُلٍّ، وهو قيد من حديد يوضع في العنق أو اليد.

- قال ابن منظور: «والغُلُّ: جامعة توضع في العنق أو اليد، والجمع أغلال... ويقال: في رقبته غل من حديد... وقولك للرجل: (هذا غُلٌّ في عنقك)

(١) «لسان العرب»: (٣٩٦/٨).

(٢) «مقاييس اللغة»: (١/١١٠ - ١١١).

(٣) «المعجم الوسيط»: (١٩/١).



للشيء يعمله: إنما معناه: أنه لازم لك، وأنك مجازى عليه بالعذاب»[1].

**ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة وضع الإصر والأغلال، للنبي ﷺ:**

❖ **المعنى العام للآية**، يدل على أن من ضِمْنِ أوصاف هذا النبي الأمي ﷺ أنه: يضع عنهم ما كان عليهم من إصر وأغلال، بأن يريحهم منها، ويقيلهم عنها، إلى دين اليسر والسماحة[2].

❖ **ثم إن المفسرين اختلفوا في المراد بالإصر، وكذا في المراد بالأغلال على النحو التالي:**

**أ/ اختلفوا في المراد بالإصر على قولين:**

١ – أنه العهد والميثاق الذي كان الله تعالى قد أخذه على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة والإنجيل، ما أخذه عليهم من ميثاق فيما حرمه عليهم.

وهو قول: ابن عباس رضي الله عنهما[3]، و(الحسن، ومجاهد، والضحاك)[4]، والسدي[5].

٢ – أنه التشديد الذي كان على بني إسرائيل في دينهم.

---

(١) «لسان العرب»: (١١/٥٠٤).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٩/٨١).

(٣) انظر: «المصدر السابق»: (٩/٨٤)، «النكت والعيون»: (٢/٢٦٩)، «زاد المسير»: (٣/٢٧٣)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٣/٥٨٢)، «فتح القدير»: (٢/٢٥٤).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (٩/٨٤).

(٥) انظر: «المصدر السابق»، «الدر المنثور» للسيوطي: (٣/٥٨٢).



وهو قول: سعيد بن جبير[١]، ومجاهد[٢]، وقتادة[٣]، وابن زيد[٤].

❖ والآية تجمع المعنيين، قال ابن عطية: «وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال، فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال»[٥].

**ب/ واختلفوا في المراد بالأغلال على قولين:**

١ – أن بني إسرائيل إذا قاموا إلى الصلاة كانوا يلبسون **المُسوح**[٦]، ويغلون أيديهم إلى أعناقهم تواضعاً لله ﷻ[٧]. قاله عطاء[٨]، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة، وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة[٩]، وعلى هذا القول فالأغلال هنا مرادة على الحقيقة.

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٩/٨٤ ـ ٨٥)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٣/٥٨٢)، «فتح القدير»: (٢/٢٥٤).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٩/٨٤ ـ ٨٥).

(٣) انظر: «المصدر السابق»، «النكت والعيون»: (٢/٢٦٩)، «زاد المسير»: (٣/٢٧٣).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (٩/٨٤ ـ ٨٥).

(٥) «المحرر الوجيز»: (٢/٤٦٣).

(٦) (المُسوح): جمع (مَسْح)، وهو البِلاس، أي: اللباس الخَلِق، انظر: «كتاب الكليات»: (١/٨٥٩).

(٧) انظر: «التفسير الكبير» للرازي: (١٥/٢٢).

(٨) انظر: «روح المعاني» للألوسي: (٩/٨١).

(٩) انظر: «تفسير أبي السعود»: (٣/٢٨٠).

٢ – أنها الشدائد التي كانت على بني إسرائيل في الدين والشريعة وذلك مثل:

قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القاتل عمداً كان أو خطأً، وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني إسرائيل(١)، وعليه الأغلال هنا مرادة على المجاز.

❖ **ويبدو أن الاختلاف هنا ـ في كل من المراد بالإصر والأغلال ـ اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد؛ لأنه ﷺ جاء بإسقاط كل ذلك عنهم.**

❖ **استدل بعضهم بالآية على أن الشارع لا يشرع ما فيه ضرر على العباد ألبتة**، قال الرازي: «واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة، لأن كل ما كان ضرراً كان إصراً وغلاً، وظاهر هذا النص يقتضي عدم المشروعية»(٢).

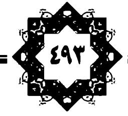
## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفات الخمس: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الإصر والأغلال) للنبي ﷺ:

❖ جاءت الصفات الخمس للنبي ﷺ كلها بصيغة الفعل المضارع، للدلالة على الاستمرار والتجدد، وأن هذا دأبه ﷺ في حياته، وبسنته وشرعه باق في

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٥/٢٢)، «لباب التأويل» للخازن: (٢/٢٩٨)، «البحر المحيط»: (٤/٤٠٣).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (١٥/٢٢).



أمته بعد مماته.

❖ في وصف الطيبات والخبائث على جمع التأنيث، يقول ابن عاشور:

«والطيبات: جمع طيبة، وقد روعي في التأنيث معنى الأكِيلة، أو معنى الطُّعمة، تنبيهاً على أن المراد الطيبات من المأكولات، كما دل عليه قوله في نظائِرها نحو: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ في (البقرة:١٦٨) وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ ﴾ في (المائدة:٤)، وليس المراد الأفعال الحسنة؛ لأن الأفعال عُرّفت بوصف المعروف والمنكر، والمأكولات لا تدخل في المعروف والمنكر»[١].

❖ وصف المحلل، والمحرم بالطيبات والخبائث، قرينة للتحليل والتحريم، وأن الطيب هو علة التحليل، والخبث هو علة التحريم، يقول ابن عاشور:

«و(الطّيّبات): وصف للأطعمة قُرِن به حكم التحليل، فدلّ على أنّ الطِّيبَ علّة التحليل، وأفاد أنّ الحرام ضدّه وهو الخبائث»[٢].

❖ في الآية تشبيه الأمور والشدائد الثقيلة على بني إسرائيل بالأغلال ووجه الشبه: أنها «شبهت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق، كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذي نهيت عنه»[٣].

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٣٥/٩).

(٢) «المصدر السابق»: (١١١/٦).

(٣) «لباب التأويل»: (٢٩٨/٢)، وانظر: «روح المعاني»: (٨١/٩)، «اللباب في علوم الكتاب»: =



❖ عطف تعالى لفظ: (الأغلالَ) وهو جمع على لفظ: (الإصْرِ) وهو مفرد، لأنَّ الإصرَ مصدرٌ، وهو يقع على الكثير والقليلِ[1].

❖ في قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧): تصوير رائع يبين لطف النبي ﷺ بهم ورحمته إياهم، فكأنه أقبل إلى أحدهم وانتزع عنه ما أثقله من إصر، وما كبله من أغلال في عنقه ويديه، فأسقطها، وجعلها أرضاً، وألقاها بعيدا بلا عودة، ثم ساقهم برفق ولين إلى الطاعة والجنان، في ظل سماحة الإسلام.

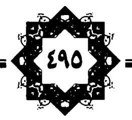
## رابعاً: تمثل هذه الصفة: (وضع الإصر والأغلال)، في النبي ﷺ:

❖ وضع النبي ﷺ عن الناس المشقة، وجلب لهم التيسير والسماحة وفي الدين، وكما مر معنا في كلام المفسرين، كيف كانت تلك الأمور الواجبة على بني إسرائيل عظيمة المشقة، ثقيلة القيود، فأبدلها الله على يد نبيه ﷺ شريعة سمحة والحمد لله رب العالمين.

❖ ولما رفع الله عن أمة محمد ﷺ الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٦)، وقد

=(٩/٣٤٤).

(١) «اللباب في علوم الكتاب»لابن عادل: (٩/٣٤٤).



ثبت أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: «قد فعلت قد فعلت»(١).

❖ هذه الصفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بصفات أخرى له ﷺ سبق الحديث عنها تفصيلاً، كالرحمة، وكونه خاتماً للرسل، وعموم هذه الرسالة.

❖ ولما كان النبي ﷺ للعالمين رحمة، وكانت نبوته للعرب والعجم عامة، فقد وضع الإصر أيضاً حتى مشركي العرب، كوأدهم البنات، وطوافهم عرايا حول البيت، وغير ذلك.

## خامساً: الصفة في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

١ - من الجميل التأسي في هذه الصفة بالنبي ﷺ بالتيسير على عباد الله في كل أمر، ما لم يكن إثماً، ولاسيما على من ولاه الله أمر أحد من عباده.

٢ - ليتذكر المسلمون عِظَم هذه النعمة من الله تعالى عليهم، والقيام بحقها بحمده سبحانه، وشكره عليها، بالمقال والأفعال.

٣ - الاستحياء من الله عز وجل، وعدم الجرأة على معصيته تعالى بعد كل هذا التيسير، بل إن هذا التيسير والتسهيل للأمة على يد نبيها ﷺ لابد وأن يكون داعياً للاجتهاد في الطاعة، والبعد كل البعد عن المعصية، وهذا من شكر هذه النعمة أيضاً.



(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق... (١/١١٦/ح ١٢٦).



# الفصل السادس

# الصفات العقدية للنبي ﷺ

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: الإخلاص.
- المبحث الثاني: الإسلام.
- المبحث الثالث: الإيمان.
- المبحث الرابع: الخوف.
- المبحث الخامس: الرضا.

## الفصل السادس

## الصفات العقدية للنبي ﷺ

**توطئة:**

إن عقيدتنا الإسلامية، لهي من أوجب الواجبات، وهي التي عليها مدار سعادة العبد ونجاته وفلاحه في دنياه وأخراه.

ثم إن هذه العقيدة، إنما أتانا بها وعلمنا إياها نبينا محمد ﷺ، وجاهد في سبيل إيصالها إلينا حق الجهاد، وقضى ثلاثة عشر سنة من دعوته ﷺ التي بمكة كلها في تأسيس العقيدة الإسلامية، وتثبيت أركان الإسلام وترسيخ الإيمان في النفوس حتى بلَّغ الأمانة، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها، وحذرنا بأن من يزغ عنها ومات على زيغه، فإنما هو هالك لا محالة.

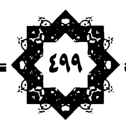
وحاجتنا إلى فهم العقيدة الصحيحة فوق كل حاجة، وضرورتنا إلى التوحيد فوق كل ضرورة، **وتتجلى أهمية ذلك في أمور منها:**

- أنها سبيل النجاة لكل البشر، وسبيل تحقيق الأمن والاستقرار.

قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (الأنعام: ٨٢).

- بها يحصل التمكين والرفعة والازدهار.

قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى**



ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ (النور: ٥٥).

- بها تحصل الألفة بين القلوب، وينتشر العدل والصلاح، ويحارب الظلم والفساد.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣).

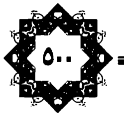
- أنها سبب قبول العمل.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف: ٣٠).

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٤).

وقد وصف الله جل وعلا نبيه ﷺ في القرآن بأمهات صفات العقيدة، من الإخلاص والإسلام والإيمان والخوف والرضا وهذا ما سأتناوله بالدراسة والبحث في هذا الفصل إن شاء الله تعالى.



وعند التأمل في صفات هذا الفصل نجد أنها إنما تصب في مصب واحد وهو التوحيد لبه وأساسه ولوازمه، وقد أشار جملة من السلف إلى لطائف تربط بين هذه الصفات وتبين التداخل الذي بينها:

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما **الإخلاص** فهو حقيقة الإسلام إذ **الإسلام** هو الاستسلام لله لا لغيره»[1].

وقال رحمه الله: «**فالإخلاص** هو سبيل الخلاص، **والإسلام** هو مركب السلامة، **والإيمان** خاتم الأمان»[2].

وقال: «والذي يحسم مادة **الخوف**: هو التسليم لله، فإن من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع، أيضا فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها، وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها، فلا معنى للخوف من غير الله بوجه»[3].

وقال رحمه الله: «وإن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح في **الرضا** واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، فإذا باشر القلب اليقين امتلأ

(١) «أمراض القلوب»: (١/ ٤١).

(٢) «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٧٢).

(٣) «مدارج السالكين»: (٢/ ٣١).

نوراً، وانتفى عنه كل ريب وشك، وعوفي من أمراضه القاتلة، وامتلأ شكراً لله وذكراً له، ومحبة وخوفا»[1].



(١) «مفتاح دار السعادة»: (١/١٥٤).

# المبحث الأول

# الإخــــلاص

## المبحث الأول

## الإخلاص

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الإخلاص:

وضع الإخلاص في اللغة لعدة معان، ومن هذه المعاني:

- تنقية الشيء وتهذيبه.

قال ابن فارس: «(خَلَصَ): الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه»(١).

- ومنها: نجاة الشيء: يقال: «خَلُصَ الشيءُ، خُلُوصاً: إذا كان قد نَشِبَ ثم نجا وسلم»(٢).

- ومنها: الوصول، يقال: «وخَلَصْتُ إليه: وصلت إليه»(٣).

- ومنها: الصفاء والمصافاة قال الزمخشري: «وهذا ثوب خالص إذا كان صافي البياض»(٤).

وقال الرازي: «وخالصه في العشرة: صافاه»(٥).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/٢٠٨).

(٢) «العين»: (٤/١٨٦).

(٣) «المصدر السابق».

(٤) «أساس البلاغة»: (١/١٧٢).

(٥) «مختار الصحاح»: (١/٧٧).

ولقد تعددت عبارات السلف في معنى الإخلاص الشرعي، وكلها ترجع إلى معنى واحد، قال ابن القيم: «الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب»[1].

وقال الحكيم الترمذي: «وأما حقيقة الإخلاص فأن ينفي عن قلبه وصدره حب المحمدة والثناء ويكون مخلصا لله تعالى في أمور يعملها من أعمال البر وذلك لأن النفس تحب المحمدة والثناء لينفذ قوله وينال نهمته في دنياه من خلقه»[2].

وقال النووي: «الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن»[3].

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن الإخلاص يصب في معين التجرد لله وحده لا شريك له، وتصفية التوحيد لله جل وعلا.

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بالإخلاص هي في قوله تعالى:**

- ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ** ﴾ (الزمر: ٢).
- ﴿ **قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ** ﴾ (الزمر: ١١).
- ﴿ **قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى** ﴾ (الزمر: ١٤).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الإخلاص للنبي ﷺ:

اختلفت عبارات المفسرين في المراد بهذه الآيات الكريمات على النحو التالي:

---

(١) «مدارج السالكين»: (٢/ ٩٢).

(٢) «نوادر الأصول» للترمذي: (٢/ ٥٠).

(٣) «الأذكار» للنووي: (١/ ٦).



**أ/ في المراد بالإخلاص، وذلك على قولين:**

١ – الإخلاص بالتوحيد، وبه قال السدي[١].

٢ – الإخلاص في النية[٢].

❖ وكلاهما مطلوبان في الإخلاص، إذ لا إخلاص بدون نية، ولا يستقيم الإخلاص إلا بتوحيد الله تعالى، فلا توحيد بدون إخلاص.

**ب/ في المراد بالدين، وذلك على قولين[٣]:**

١ – الطاعة.

٢ – العبادة.

❖ **ولا يعدو الأمر هنا عن كونه اختلاف عبارة لا اختلاف تضاد، وذلك لما يلي:**

- أن قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ ﴾ عام في كل عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (البينة: ٥).

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٩٠/٢٣)، «النكت والعيون»: (١١٣/٥)، «بحر العلوم»: (١٦٨/٣)، «تفسير السمعاني»: (٤٥٧/٤)، «زاد المسير»: (١٦١/٧)، «تفسير ابن كثير»: (٤٦/٤).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (١٩٠/٢٣)، «النكت والعيون»: (١١٣/٥)، «الكشف والبيان» للثعلبي: (٢٢١/٨)، «لباب التأويل» للخازن: (٦٧/٦).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (١١٣/٥)، «تفسير السمعاني»: (٤٥٧/٤)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٤١٤/٦).

- أن الطاعة لاتعدو عن كونها عبادة.

لذا جمع الإمام الطبري ذلك فقال: «وقوله فاعبد الله مخلصا له الدين يقول تعالى ذكره فاخشع لله يا محمد بالطاعة وأخلص له الألوهة وأفرده بالعبادة ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا كما فعلت عبدة الأوثان»[1].

وقال السعدي رحمه الله: «﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة، والشرائع الباطنة: الإسلام، والإيمان، والإحسان بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد بها وجهه، لا غير ذلك من المقاصد»[2].

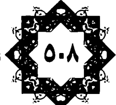
❖ **ثم قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ (الزمر: ٣):**

قال السعدي رحمه الله: «﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾: هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبينا أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص، والصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه، وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، وتحصيل مطالب عباده، وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من

---

(١) «جامع البيان»: (٢٣/ ١٩٠)، وانظر: «تفسير السمعاني»: (٤/ ٤٥٧)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٦/ ٤١٤).

(٢) «تفسير السعدي»: (٧١٨).



العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح، والدنيا والآخرة، مشق للنفوس غاية الشقاء»(١).

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة الإخلاص للنبي ﷺ:**

❖ لما وردت صفة الإخلاص للنبي ﷺ صريحة وردت في سورة الزمر، في ثلاث آيات، ولم ترد في سورة الإخلاص ذاتها، بل سميت سورة التوحيد بسورة الإخلاص، وأوثر ذكر الإخلاص هنا صراحة لفائدة: وهي ذكر التوحيد وزيادة، قال ابن عاشور: «وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي إفراد الله بالإلهية، وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد وأخصَّ منه، وهو أن تكون عبادة النبي ﷺ ربه غير مشوبة بحظ دنيوي، كما قال تعالى: قُلْ مَا أسألكم عَلَيهِ مِن أجْرٍ»(٢).

**❖ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾:**

**١ – في امتنان الله تعالى على نبيه ﷺ بإنزال الكتاب عليه بالحق:**

❖ أن من الحق الإخلاص في عبادة الله تعالى لذا أمره به مباشرة، وربط بالفاء، قال أبو حيان: «ولما امتن تعالى على رسوله بإنزال الكتاب عليه بالحق، وكان الحق إخلاص العبادة لله، أمره تعالى بعبادته فقال: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ ﴾، وكأن

---

(١) «تفسير السعدي»: (٧١٨).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٣١٦/٢٣).



هذا الأمر ناشىء عن إنزال الكتاب، فالفاء فيه للربط، كما تقول: أحسن إليك زيد فاشكره»[1].

٢ – في إخلاص النبي ﷺ شكر لربه سبحانه على نعمة إنزال الكتاب عليه بالحق، قال ابن عاشور: «وهذا إيماء إلى أن إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول ﷺ بالشكر بإفراده بالعبادة، وإيماء إلى أن إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعَمِه التي أنعم بها، فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)»[2].

**٣ – في أمره ﷺ بعبادة الله جل وعلا:**

- أتى بلفظ الجلالة؛ لأنه الجامع لصفات الكمال له سبحانه، تعظيماً لقدر العبادة في هذا الموضع لأنها المقصودة هنا[3].

- أمره ﷺ بالعبادة أمر لأمته؛ لأنه ﷺ منزهٌ عن عبادة غير الله تعالى[4].

- إن المقصود هنا زيادة التصريح بالإخلاص، قال ابن عاشور: «ولذلك أيضاً لم يُؤت في هذا التركيب بصيغة قصر خلاف قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٣٩٨/٧).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٣١٦/٢٣).

(٣) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (٤١٤/٦).

(٤) انظر: «بحر العلوم»: (١٦٨/٣).

(الزمر:٦٦)؛ لأن المقصود هنا: زيادة التصريح بالإخلاص، والرسول ﷺ منزه عن أن يعبد غير الله»(١).

❖ **في الآيتين من قوله تعالى:**

- ﴿ **قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ** ﴾ (الزمر:١١).

- ﴿ **قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى** ﴾ (الزمر:١٤).

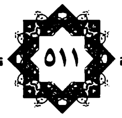
❖ **العلاقة بين الآيتين:**

أن الأولى إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة، والثانية إخبار بأنه يخص الله فقط دون غيره بإخلاص العبادة له سبحانه، قال الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى التكرير في قوله: ﴿ **قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ** ﴾، وقوله: ﴿ **قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى** ﴾، قلت: ليس بتكرير؛ لأنّ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص. والثاني: إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأوّل، فالكلام أوّلاً: واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً: فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله: ﴿ **فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ** ﴾ (الزمر:١٥)، والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية»(٢).

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٣١٦/٢٣).

(٢) «الكشاف»: (١٢١/٤)، وانظر: «تفسير النسفي»: (٥٠/٤)، و«المحرر الوجيز»: (٥٢٤/٤).



❖ كما أن فيه تأكيداً للمعنى الأول وإعلاماً بامتثاله كله للأمر[1].

❖ أمر النبي ﷺ بالإخبار عن إخلاصه لما يلي[2]:

- قطعاً لأطماع الكفار في أن يعبد غير الله.

- وإظهاراً لقوة دينه ﷺ.

- وتمهيداً لتهديدهم بقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ ﴾.

## رابعاً: تمَثُّل صفة الإخلاص في النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ كله إخلاصاً لربه جل وعلا، كيف لا وهو المخلَص منه سبحانه لرسالته؟ فما كان منه ﷺ إلا أن يكون مخلَصاً مخلِصاً خالِصاً كله لربه جل وعلا.

والمتأمل في سيرته ﷺ يجد أن إخلاصه ﷺ كان يلازمه ﷺ في كل شؤونه الدينية والدنيوية، ومن ذلك:

❖ **إخلاصه ﷺ في تبليغ الرسالة إلى الأمة.**

- حيث كان ﷺ حريصاً متفانياً في إيصال دعوته إلى قومه، حتى عاتبه الله تعالى بقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: ٦).

---

(١) «المحرر الوجيز»: (٤/٥٢٤).

(٢) انظر: «تفسير أبي السعود»: (٧/٢٤٧).

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر: ٨).

❖ **في عبادته.**

فقد كانت عبادته مبنية على كمال الإخلاص لله جل وعلا، فقد شهد له ربه تبارك وتعالى فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣).

❖ **في ولائه لربه وبراءته من المشركين:**

فقد قال عز من قائل: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ (التوبة: ٣).

❖ **في دعائه.**

فكان من دعائه ﷺ أَنَّهُ يقول: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[1].

❖ **في إقامة الحدود.**

فعن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهمتهم المرأة الْمَخْزُومِيَّةُ التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلم رسول الله ﷺ، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله»؟ ثم قام

(١) أخرجه أحمد، (٣/٤٠٩/ح ١٥٣٩٧)، صححه الشيخ شعيب الأرناؤوط، (٢٤/٧٧/ ح ١٥٣٦٠)، (٢٤/٧٩/ح ١٥٣٦٣)، (٢٤/٨١/ح ١٥٣٦٧).



فخطب فقال: «يا أيها الناس! إنما ضَلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأَيْمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[1].

والحديث عن إخلاصه ﷺ متعدد الجوانب، ليس هنا محل بسط الحديث عنه، لأن ذلك يعني الحديث عن حياته التي كانت ـ كما أسلفت ـ كلها إخلاصاً لله جلا وعلا، فما ذكرته إنما هو غيض من فيض إخلاصه ﷺ.

## خامساً: صفة الإخلاص في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

الإخلاص من آداب النفوس التقية، وأعمال القلوب الخفية، ودليل سلامة القلوب النقية، والحديث عنه من هذا الجانب يكمن في نقاط عدة وهي:

**١ – أهمية الإخلاص:**

**الإخلاص باب واسع، ومما يدور في فلك فضيلته وأهميته الأمور التالية:**

- أنه شرط صحة الإسلام، فكلمة الإخلاص هي كلمة التوحيد:

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأعلم كلمةً، لا يقولها عبد حقاً من قلبه، إلا حرم على النار»، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أنا أحدثك ما هي كلمة الإخلاص التي أعز الله تبارك وتعالى بها

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٣٦٦).



محمداً ﷺ وأصحابه، وهي كلمة التقوى التي أَلاَصَ[1] عليها نبي الله ﷺ عمه أبا طالب عند الموت: شهادة أن لا إله إلا الله»[2].

- وأن عليه مدار العمل.

- فقد قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[3]، وهو أحد شرطي قبول الأعمال اللذان هما: الإخلاص والمتابعة.

- وأنه علامة صحة قلب صاحبه:

ذكر ابن القيم من علامات صحة القلب فقال: «ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل فيحرص على الإخلاص فيه والنصحية والمتابعة والإحسان ويشهد مع ذلك منة الله عليه فيه وتقصيره في حق الله»[4].

- وأنه سبب في اطمئنان القلب:

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبداً وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده فهو دائما يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده فحينئذ يباشر روح الحياة ويذوق طعمها»[5].

---

(١) ألاصه عليها: أي راوده عليها، انظر: «لسان العرب»: (٨٨/٧).

(٢) أخرجه أحمد، (١/٦٣/ح٤٤٧)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده قوي»، (١/٤٩٩/ح ٤٤٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (١/٣/ح ١).

(٤) «إغاثة اللهفان»: (١/٧٢).

(٥) «المصدر السابق»: (١/٧١).

**٢ – من فقد الإخلاص والعياذ بالله، فقد ألقى بنفسه في المهالك التالية:**

١ – يوقع الإنسان في الشرك الأصغر وهو الرياء.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

٢ – إحباط العمل وعدم قبوله.

قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣).

قال السعدي رحمه الله في هذه الآية: «فالعمل الذي يقبله الله، هو ما صدر من المؤمن المخلص، المصدق للرسل المتبع لهم فيه»[٢].

٣ – سبب في كون فاقده من أول من تسعر بهم النار والعياذ بالله.

بوب الإمام مسلم رحمه الله فقال: «باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار»، وذكر الحديث: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه... ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب تحريم الرياء، (٤/٢٢٨٩/ح ٢٩٨٥).

(٢) «تفسير السعدي»: (٥٨١)

ألقي في النار...)»[1].

**٣ – مما يعين على الإخلاص:**

١ – الخلوة مع الله عز وجل.

٢ – إخفاء الأعمال كالدعاء والصدقات وما يمكن إخفاؤه منها.

٣ – تجديد النية والتيقن من خلو العمل من آفات الرياء.

**٤ – من أخلاق صاحب الإخلاص:**

١ – أن يكون وجلاً خائفاً مترقباً هل يقبل عمله أم لا.

«فصاحب الإخلاص خائف وجل حزين متواضع منتظر للفرج من عند الله يود أنه نجا كفافا لا له ولا عليه والجاهل فرح فخور متكبر مدل بعمله»[2].

٢ – عدم حب المحمدة من الناس.

قال ابن القيم رحمه الله: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار»[3].

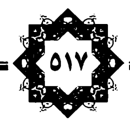
٣ – أن يستوي عنده المدح والذم، والتعظيم والتحقير، فيسدد ناظريه لرضا ربه وحسب.



(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، (٣/١٥١٩/ح ١٩٠٥).

(٢) «المدخل» لابن الحاج: (٣/٤٧).

(٣) «الفوائد» لابن القيم: (١/١٤٩).



# المبحث الثاني

# الإســــــلام

## المبحث الثاني

## الإسلام

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الإسلام:

قال ابن فارس: «(سَلَمَ): السين واللام والميم: معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ والشاذ عنه قليل، فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى... ومن الباب أيضا: الإسلام وهو الانقياد؛ لأنه يسلم من الإباء والامتناع، والسلام: المسالمة»(١).

**وأما تعريف الإسلام شرعاً**: فقد عرَّفه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فقال: الإسلام هو: «الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله»(٢).

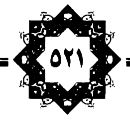
**❖ الآيات التي وردت فيها صفة الإسلام للنبي ﷺ:**

١ - ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣/٩٠).

(٢) «ثلاثة الأصول» للشيخ محمد بن عبد الوهاب: (١/١٨٩).



٢ – ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤).

٣ – ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣).

٤ – ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الزمر: ١١-١٢).

٥ – ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٦).

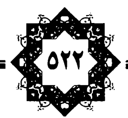
## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الإسلام للنبي ﷺ:

عند تأمل الآيات التي وصف فيها ﷺ بالإسلام نجدها تدور بين إسلام وجهه ﷺ لله جل وعلا، وكونه أول من أسلم، وكونه مأموراً بالإسلام، وفيما يلي عرض لأبرز أقوال المفسرين:

**١ – من آية آل عمران في قوله جل وعلا:**

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠).

**اختلفت أقوال المفسرين في المراد بإسلام وجهه ﷺ لله، ويمكن أن تكون**



**هذه الأقوال في قولين رئيسين وهما:**

١ – أن المراد بقوله تعالى: ﴿ **فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ** ﴾ أي: أسلمت نفسي وانقدت لأمره تعالى بكل جوارحي مخلصاً توحيدي له سبحانه[1].

٢ – أن المراد: أخلصت ديني وعملي وعبادتي لله تعالى[2].

- **من قوله تعالى:** ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام: ١٤).

- **وقوله تعالى:** ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣).

- **وقوله تعالى:** ﴿ **قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (الزمر: ١١ـ١٢).

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٣/٢١٤)، «معاني القرآن» للنحاس: (١/٣٧٣)، «النكت والعيون»: (١/٣٨٠)، «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي: (١/٢٠٣)، «معالم التنزيل»: (١/٢٨٧)، «تفسير البيضاوي»: (٢/٢٠)، «لباب التأويل» للخازن: (١/٣٢٨)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٢/٤٢٧)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٢/٤٦)، «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (٥/١١٠)، «فتح القدير»: (١/٣٢٦)، «روح المعاني» للألوسي: (٣/١٠٧ ـ ١٠٨).

(٢) انظر: «تفسير السمعاني»: (١/٣٠٣ ـ ٣٠٤)، وانظر: «الكشف والبيان» للثعلبي: (٣/٣٥)، «زاد المسير»: (١/٣٦٣)، «النكت والعيون»: (١/٣٨٠)، «الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي: (١/٢٠٣)، «تفسير ابن كثير»: (١/٣٥٥).



فإنه عند تأمل أقوال المفسرين في هذه الآيات ـ والتي ورد فيها كون محمد ﷺ أول المسلمين ـ نجد أنه اختُلِف فيها على مسألتين:

- **المسألة الأولى:**

**في المراد بإسلامه ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، وذلك على خمسة أقوال:**

١ ـ أن المراد: التصديق، أي: أول المصدقين، قاله: ابن عباس رضي الله عنهما[١].

٢ ـ أن المراد: الإخلاص[٢]، أي: أن أكون أول من أخلص، قاله: الحسن[٣]، ومقاتل[٤].

٣ ـ أن المراد: أن أكون أول من استسلم لأمر الله، وخضع لله تعالى بالعبودية، وتذلل لأمره ونهيه، وانقاد له، واستقام على التوحيد[٥].

---

(١) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٢٧٠/٤).

(٢) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي: (١٣٨/٤)، «معالم التنزيل»: (٨٨/٢)، «اللباب في علوم الكتاب»: لابن عادل (٥٦/٨)، «تفسير أبي السعود»: (١١٦/٣)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٩٠/٤).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي»: (٣٩٧/٦).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل»: (٢١٤/٣).

(٥) انظر: «جامع البيان»: (١٦٠/٧)، «النكت والعيون»: (٩٨/٢)، «بحر العلوم»: (٤٥٩/١)، «تفسير السمعاني»: (٩٢/٢)، «معالم التنزيل»: (٨٨/٢)، «تفسير القرطبي»: (٣٩٧/٦)، «لباب التأويل» للخازن: (١٢٢/٢)، «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (٥٦/٨)، «فتح القدير»: (١٠٤/٢)، «تفسير السعدي»: (٢٥٢).

٤ – أن المـراد بإسـلامه ﷺ هنـا: دخولـه في سـلم الله وخروجـه مـن عداوته[١].

٥ – أن المراد بإسلامه ﷺ هنا: دخوله في دين إبراهيم عليه السلام[٢].

**❖ وعند تأمل هذه الأقوال نجد أنها تؤول إلى معنى واحد وحاصلة، ومتحققة في النبي ﷺ، فلا يعدو تعدد الأقوال عن كونه اختلاف عبارة لا اختلاف تضاد.**

- **المسألة الثانية:**

**في نسبة أولية إسلامه ﷺ، على ستة أقوال:**

١ – أنه ﷺ أول من أسلم من أهل زمنه[٣]، وهم أهل مكة[٤].

٢ – أنه ﷺ أول من أسلم من أمته[٥].

٣ – أنه ﷺ أول من أسلم من أهل الميثاق، فيكون إسلامه سابقاً على إسلام الخلق أجمعين، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن**

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٢/ ٩٨).

(٢) انظر: «المصدر السابق»، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/ ٩٠).

(٣) «جامع البيان»: (٧/ ١٦٠).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل»: (١/ ٣٣٩)، «بحر العلوم»: (١/ ٤٥٩)، «النكت والعيون»: (٢/ ٩٨).

(٥) انظر: «تفسير القرطبي»: (٦/ ٣٩٧)، «تفسير السمعاني»: (٢/ ٩٢)، «زاد المسير»: (١/ ٣٦٣)، «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (٨/ ٥٦)، «فتح القدير»: (٢/ ١٠٤)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ١٢٦).

نُوحٍ ﴾ (الأحزاب: ٧)[١].

٤ – أنّه ﷺ أول من يتّصف بالإسلام الذي بعثه الله به، «فهو الإسلام الخاصّ الذي جاء به القرآن، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة، فلا ينافي أنّ بعض الرسل وصفوا بأنّهم مسلمون، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب: ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٢)»[٢].

٥ – أنه ﷺ أول من أسلم ممّن دعوا إلى الإسلام[٣].

٦ – أن المراد بكونه ﷺ الأول هو الكناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام، «لأنّ الأول في كلّ عمل هو الأحرص عليه والأعلق به، فالأوليّة تستلزم الحرص والقوة في العمل»[٤].

❖ وعند تأمل هذه الأقوال نجد أنها حاصلة أيضاً في النبي ﷺ متحققة فيه فهو ﷺ أول من أسلم من أمته وهم أهل زمنه عامة وأهل مكة خاصة، وهو أول من أسلم ممن دعي إلى الإسلام الخاص الذي بعث به هو ﷺ، كما أنه الأقوى والأمكن في الإسلام بدون شك ﷺ، ما عدا القول الرابع القائل بأن

(١) انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/٩١).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٧/١٥٨).

(٣) انظر: «المصدر السابق».

(٤) «المصدر السابق».



المراد أنه أول من أسلم ﷺ من أهل الميثاق، يعني أول من أسلم مطلقا فهذا لا يكاد يستقيم مع ما ثبت من آيات الذكر الحكيم.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾، يعني: أول من أسلم من هذه الأمة التي أرسلتُ إليها، وليس المراد أول من أسلم من جميع الناس، كما بينه تعالى بآيات كثيرة، تدل على وجود المسلمين قبل وجوده ﷺ، ووجود أمته، كقوله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: ١٣١)، وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١)، وقوله: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقوله عن لوط عليه السلام وأهله: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الذاريات: ٣٦)، إلى غير ذلك من الآيات»[١].

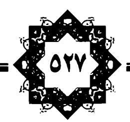
❖ **من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٦).**

**اختلفت أقوال المفسرين في المراد بإسلام النبي ﷺ لربه جل وعلا على ثلاثة أقوال:**

١ - أن المراد: الخضوع لله تعالى بالطاعة دون غيره[٢].

(١) «أضواء البيان»: (١/٤٥٧).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٢٤/٨١).



٢ – أن المراد: الاستقامة على التوحيد[١].

٣ – أن المراد: الانقياد وإخلاص الدين[٢].

❖ **وهذه أيضاً كسابقاتها، فإن الاختلاف هنا اختلاف تنوع لا تضاد، فهو ﷺ أمر - وقد امتثل - بالخضوع لله تعالى، والطاعة، والاستقامة على التوحيد، والانقياد، والإخلاص، فكلها متحققة فيه، وكلها يفسر بعضها بعضاً.**

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة الإسلام للنبي ﷺ:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ ﴾** (آل عمران: ٢٠).

- **خص تعالى الوجه بالذكر مع أن الانقياد حاصل قلبا وقالبا:**

وذلك لأن الوجه أكرم الجوارح، ولأن فيه كناية عن شدة الامتثال لله ﷻ:

قال الطبري: «وإنما خص جل ذكره بأمره بأن يقول أسلمت وجهي لله لأن الوجه أكرم جوارح بن آدم عليه وفيه بهاؤه وتعظيمه فإذا خضع وجهه لشيء فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه»[٣].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ**

---

(١) انظر: «بحر العلوم»: (٣٠٣/٣).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي»: (١٠٠/٥).

(٣) «جامع البيان»: (٢١٤/٣).

وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤).

- جاء السياق بلفظ (أمرت) بدلا من: (قيل لي) للعلم به من ظاهر السياق(١)، **فبني للمجهول**: للعلم بالفاعل وهو الله تعالى، قال ابن عاشور: «وبني فعل: (أمرت) للمفعول؛ لأنّ فاعل هذا الأمر معلوم بما تكرّر من إسناد الوحي إلى الله»(٢).

- **كما أن الأسلوب القرآني في هذه الآية صرح بالجمع بين الأمر: (أُمرت) والنهي من الله جل وعلا: (ولاتكونن):**

للتأكيد على أن الأمر بالإسلام نهي عن الشرك في الوقت ذاته(٣).

وقال ابن عاشور: «لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه، فذكر النهي عن الضدّ بعد ذلك تأكيد له، وهذا التأكيد لتقطع جرثومة الشرك من هذا الدين»(٤).

- **ومما يستفاد من الأسلوب القرآني في هذه الآية أن النبي ﷺ امتثل أولاً قبل الدعوة، وهذا ما يجب أن يكون عليه الداعية:**

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٦٠/٧)، «تفسير النسفي»: (٣١٦/١).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٥٨/٧).

(٣) «نظم الدرر»: (٥٩٧/٢).

(٤) «التحرير والتنوير»: (١٥٨/٧ ـ ١٥٩).



قال ابن تيمية رحمه الله:

«ومما يوضح ذلك أن رسول الله ﷺ جاء بالرسالة من الله وهذا يختص به وتصديق هذه الرسالة، والإيمان بها واجب على الثقلين، والرسول ﷺ هو أول من يجب عليه الإيمان بهذه الرسالة التي أرسله الله[1] بها ولهذا قال في سورة يونس: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ١٠٤)، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ ﴾ (الأنعام: ١٤)، إلى غير ذلك من الآيات، فهو يتعلق به أمران عظيمان:

**أحدهما:** إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله وهذا مختص به.

**والثاني:** تصديقه فيما جاء به، وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه، وهذا يجب عليه وعلى كل أحد، فإنه قد يوجد فيمن يرسله المخلوق من يصدق في رسالته لكنه لا يتبعها، إما لطعنه في المرسل وإما لكونه يعصيه وإن كان قد أرسل بحق، فالملوك كثيرا ما يرسلون رسولا بكتب وغيرها يبلغ الرسل رسالتهم فيصدقون بها ثم قد يكون الرسول أكثر مخالفة لمرسله من غيره من المرسل إليهم»[2].

**قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا**

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٥/ ٩٠).

(٢) «المصدر السابق»: (١٥/ ٩٠ ـ ٩٢).

شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣).

**في استعمال الأولية هنا فوائد:**

١ - لبيان مسارعته ﷺ إلى الامتثال، وأن ما أمر به ليس من خصائصه ﷺ، بل الكل مأمورون به[١].

٢ - فيه دلالة على إخلاص توحيده ﷺ لله رب العالمين، وإعلاناً منه ﷺ أنه ألهم الشكر على الهداية[٢].

٣ - فيه إغاظة للمشركين، لما فيها من الكناية عن قبول الإسلام والثبات عليه والاغتباط به، لأن من أحب شيئاً أسرع إليه فجاءه أول الناس[٣].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾** (الزمر: ١١-١٢).

- **في عطف قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ الثانية على ﴿ أُمِرْتُ ﴾ الأولى:** لاختلاف جهتي الفعل في كل مرة، قال الزمخشري: «عطف تعالى لفظ أمرت على أمرت أيضاً، وذلك لاختلاف جهتيهما، قال الزمخشري:

«فإن قلت: كيف عطف (أُمِرْتُ) على (أُمِرْتُ) وهما واحد؟ قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما، وذلك أنّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به

---

(١) «تفسير أبي السعود»: (٢٠٧/٣).

(٢) «المصدر السابق»: (٢٠١/٨).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٢٠٤/٨).

ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين»[1].

٤ – تمثل صفة الإسلام في النبي ﷺ:

محمد ﷺ هو رسول الإسلام ومعلم الإسلام لنا فكيف نتصور تطبيق المعلم لما يعلمه، والرسول المخلص لما يرسل به؟

فالحديث عن هذا المطلب واسع البساط، مترامي الأطراف، فليس لي إلا أن أمسك بأطراف الحديث عن إسلامه ﷺ بالنظر إلى جانبين رئيسين:

**أ/ أنه ﷺ كان مسلما في قوله، وفعله، وفي سَمْتِه ودَلِّه، وفي خلقه، وفي كل شأنه:**

- **ففي قوله:**

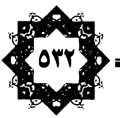
كما في هذه الآيات التي معنا يعلن فيها ﷺ أنه أول المسلمين، وكما في قوله ﷺ حيث كان من دعاءه في اللَّيْلِ: «اللهم لك أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ...»[2].

- **أما عن فعله ﷺ:**

فسيرته خير شاهد على أن كل حياته ﷺ تطبيق لشرائع الإسلام تطبيقاً يعلن عن حبه وتفانيه فيه بل كان ﷺ يجد اللذة وقرة العين وراحة البال في ذلك

(١) «الكشاف»: (٤/١٢٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، (٦/٢٦٨٩/ح ٦٩٥٠).



غير مبال بما يجد في ذلك من مشقة[1].

- **ولقد كان ﷺ مسلما في سمته ودله:**

- فكان ﷺ مسالماً لمن حوله وإن أبدى شراً، فعن أنس بن مالك قال كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء[2].

**ب/ وأما إن نظرنا لإسلامه ﷺ من الجانب الثاني وهو تعريف الإسلام كما عرفه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بأنه: «الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله»[3]:**

فنجد أنه ﷺ كان خير من استسلم لربه موحداً، منقاداً مطيعاً، مخلصاً لربه، متخلصاً من الشرك وأهله.

فكان من دعائه ﷺ كل يوم عند النوم: «اللهم أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ»[4].

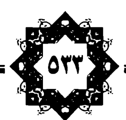
---

(١) وأمثلة ذلك كثيرة ستأتي في الفصل السابع إن شاء الله تعالى، انظر: ص (٥٨٢).

(٢) سبق تخريجه، ص: (١٧٢).

(٣) «ثلاثة الأصول» للشيخ محمد بن عبد الوهاب: (١/١٨٩).

(٤) رواه البخاري، كتاب الدعوات...، باب إذا بات طاهرا، (٥/٢٣٢٦/ح٥٩٥٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، (٤/٢٠٨٢/ ح ٢٧١٠).



قال ابن القيم في الزاد: «قوله: «أسلمت نفسي إليك»: أي: جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه إلى سيده ومالكه، وتوجيه وجهه إليه يتضمن إقباله بالكلية على ربه، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد»[1].

وقال النووي: «قوله ﷺ: «أسلمت نفسي إليك»، أي استسلمت، وجعلت نفسي منقادة لك طائعة لحكمك»[2].

وكان ﷺ براء من المشركين كما في محكم التنزيل: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ (التوبة: ٣).

وهكذا فقد كانت كل حياته إسلاماً لربه جل وعلا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين.

## رابعاً: صفة الإسلام في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

دين الإسلام الحنيف والسنة المطهرة هما أعظم نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة، على الإطلاق، فهما المنة العظمى والكنز الدفين اللذان يحملان في طياتهما سعادة البشرية على مر الأزمان.

---

(١) «زاد المعاد»: (٤/٢٤٥).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (١٧/٣٣).



**فمن ثمرات الإسلام:**

- تحصل عصمة الدم والمال والعرض.

- وبه تتحقق العدالة الاجتماعية والمساواة.

- عند تحقيق الإسلام فإن المجتمع يقضي على النظم الوضعية والمناهج الإلحادية، فيسود الأمن ووتتحقق المصالح الاجتماعية.

- إن الإسلام يورث هداية القلب وراحة البال، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ** ﴾ (التغابن: ١١)، وقال: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ** ﴾ (الرعد: ٢٨).

- بالإسلام تحصل الألفة والمحبة والتآخي بين الناس، قال ﷺ: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك أصابعه»[(١)].

- الإسلام يحقق التكافل بين أبنائه، قال ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس»، وقال: «خمس تجب للمسلم على أخيه رد السلام وتشميت العاطس وإجابة الدعوة وعيادة المريض واتباع الجنائز»[(٢)].

- الإسلام يورث التواضع، ويكسو المسلم ثوب العزة.



(١) رواه البخاري، أبواب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، (١/١٨٢/ح٤٦٧) واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، (٤/١٩٩٩/ح ٢٥٨٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب حق المسلم للمسلم، (٤/١٧٠٤/ ح ٢١٦٢).

# المبحث الثالث

# الإيمـــــان

## المبحث الثالث

## الإيمان

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الإيمان:

الإيمان من (آمن) وأصلها: (أأمن)[1].

وقد اتفق اللغويون على أن الإيمان **هو التصديق**، قال ابن فارس:

«(أَمَنَ): الهمزة والميم والنون: أصلان متقاربان: أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق، والمعنيان كما قلنا متدانيان، ... وأما التصديق فقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ (يوسف: ١٧)، أي: مصدق لنا»[2].

وقال ابن منظور: «واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه: التصديق»[3].

### ❖ وأما معنى الإيمان شرعاً:

هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، والعمل بالجوارح والأركان[4].

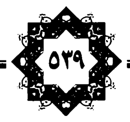
---

(١) انظر: «لسان العرب»: (١٣/ ٢٣)، «تاج العروس»: (٣٤/ ١٨٦).

(٢) «مقاييس اللغة»: (١/ ١٣٣ - ١٣٥).

(٣) «لسان العرب»: (١٣/ ٢٣)، وانظر: «تاج العروس»: (٣٤/ ١٨٦)، «تهذيب اللغة»: (١٥/ ٣٦٩).

(٤) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز: (١/ ٣٧٣).



❖ ومن المناسب ذكره هنا، ما ذكره ابن الجوزي من أن بعض المفسرين ذكر: «**أن الإيمان في القرآن على خمسة أوجه:**

**أحدها: التصديق.** ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ **وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا** ﴾ (يوسف:١٧)، وفي حم المؤمن: ﴿ **وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ** ﴾ (غافر:١٢)، وفي الحشر: ﴿ **ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ** ﴾ (الحشر:٢٣)، قال ابن قتيبة: أي مصدق ما وعده.

**والثاني: الإقرار باللسان** من غير تصديق القلب. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ** ﴾[1] (البقرة: ٦٢)، فمعناه: آمنوا بألسنتهم، فقال: من آمن بقلبه، ونظيره في سورة النساء: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ** ﴾ (النساء:١٣٦)، قيل معناه: (يا أيها الذين أقروا اعملوا واعتقدوا)، وفي سورة المنافقون: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ** ﴾ (المنافقون:٣).

**والثالث: التوحيد.** ومنه قوله تعالى في المائدة: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ** ﴾ (المائدة:٥)، وفي النحل: ﴿ **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ** ﴾ (النحل:١٠٦)، وفي المؤمن: ﴿ **إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ** ﴾ (غافر:١٠).

**والرابع: الإيمان الشرعي.** وهو ما جمع الأركان الثلاثة المذكورة[2]، ومنه

---

(١) «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» لابن الجوزي: (١/١٤٥).

(٢) يقصد قوله: «الإيمان في اللغة: التصديق. ويطلق في الشرع على ثلاثة أشياء: الإقرار باللسان، =

قوله تعالى في البقرة: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (البقرة: ٢٥)، وفي الكهف: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (الكهف: ٣٠)، وهو كثير في القرآن.

**والخامس: الصلاة.** ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٤٣)، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس.

وقد ألحق بعض ناقلي التفسير وجها سادسا وهو: **الدعاء**. ومنه قوله[1] تعالى في سورة يونس: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ ﴾ (يونس: ٩٨)، أي: دعوا»[2].

**وصفة الإيمان في هذا البحث تلت صفة الإسلام مما يدعوا إلى بيان مذهب أهل السنة والجماعة في بيان الفرق بينهما، قال ابن تيمية رحمه الله:**

«فالمقصود هنا: العموم والخصوص بالنسبة إلى ما في الباطن والظاهر من الإيمان، وأما العموم بالنسبة إلى الملل فتلك مسألة أخرى، فلما ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة: الشهادتان، والصلاة، والزكاة،

---

=والاعتقاد بالقلب، وهو طمأنينة النفس إلى صدق ما حصل الإقرار به. والعمل بالأعضاء بمقتضى ما صدق به بإقراره واعتقده بقلبه»، «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر»: (١/ ١٤٥).

(١) «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» لابن الجوزي: (١/ ١٤٦).

(٢) «المصدر السابق»: (١/ ١٤٧).

والصيام، والحج، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وهكذا في الحديث الذي رواه أحمد عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب».

وإذا ذكر اسم الإيمان مجردا دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة، كقوله في حديث الشعب: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: قول لا اله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»، وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان»[1].

❖ **وردت صفة الإيمان للنبي ﷺ في سورة البقرة، في قوله تعالى:**

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

## ثانياً: أقوال المفسرين في صفة الإيمان للنبي ﷺ في الآية:

### ١ - في سبب نزولها:

أكثر المفسرين على أنها نزلت ناسخة للآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٤/٧).



عن ابن عَبَّاسٍ قال لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيَةُ: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾، قال: «دخل قُلُوبَهُمْ منها شَيْءٌ لم يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ من شَيْءٍ فقال النبي ﷺ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا قال فَأَلْقَى الله الإِيمَانَ في قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، قال: (قد فَعَلْتُ)، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، قال: (قد فَعَلْتُ)، ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، قال: (قد فَعَلْتُ)»[1].

روى الطبري عن مجاهد قال كنت عند ابن عمر رضي الله عنهما، فقال: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾...الآية، فبكى، فدخلت على ابن عباس رضي الله عنهما، فذكرت له ذلك، فضحك ابن عباس فقال: «يرحم الله ابن عمر، أو ما يدري فيم أنزلت؟ إن هذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله ﷺ غما شديدا، وقالوا: يا رسول الله هلكنا! فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا»، فنسختها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ[2] وَكُتُبِهِۦ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَلَيْهَا

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٤٩٦).

(٢) «جامع البيان»: (١٤٤/٣).

﴿مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾، فتجوز لهم من حديث النفس وأُخذوا بالأعمال»[1].

- **ذهب بعض المفسرين إلى أنها نزلت في قصة المعراج**[2]، اعتماداً على بعض الروايات المرسلة، **ولكن مثل هذه الروايات قد خلت منها أمهات كتب التفسير بالمأثور، ناهيك عن أن أصحابها إنما ذكروها بصيغة التمريض، فإسنادها مرسل، ومضمونها مخالف للثابت المتواتر من أن القرآن كله نزل على محمد ﷺ بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، عن الله جل وعلا، والله أعلم.**

**٢ – في معناها:**

**أ/ في إيمان النبي ﷺ:**

أكثر المفسرين على أن إيمان النبي ﷺ هنا هو:

- **التصديق والإقرار**، قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: صدق الرسول، يعني رسول الله ﷺ فأقر (بما أنزل إليه): يعني: بما أوحي إليه من ربه من الكتاب، وما فيه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وأمر ونهي، وغير ذلك من سائر ما فيه من المعاني التي حواها»[3].

- **وأنها شهادة من الله تعالى لرسوله ﷺ بالإيمان**، قال ابن تيمية رحمه الله:

(١) «جامع البيان»: (١٥١/٣).

(٢) انظر: «بحر العلوم»: (٢١٤/١)، «تفسير القرطبي»: (٤٢٥/٣).

(٣) «جامع البيان»: (١٥١/٣)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٢٧٣/١)، «تفسير القرطبي»: (٢٦٤/٣).

«فهذه شهادة الله تعالى لرسوله ﷺ بإيمانه بما أنزل إليه من ربه وذلك يتضمن إعطاءه[1] ثواب أكمل أهل الإيمان زيادة على ثواب الرسالة والنبوة؛ لأنه شارك المؤمنين في الإيمان، ونال منه أعلى مراتبه، وامتاز عنهم بالرسالة والنبوة»[2].

**ب/ في تخصيص الرسول ﷺ بالإيمان:**

قال الرازي: «دلّت الآية على أن الرسول ﷺ آمن بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وإنما خص الرسول بذلك؛ لأن الذي أنزل إليه من ربه قد يكون كلاماً متلواً يسمعه الغير، ويعرفه، ويمكنه أن يؤمن به، وقد يكون وحياً لا يعلمه سواه، فيكون هو ﷺ مختصاً بالإيمان به، ولا يتمكن غيره من الإيمان به، فلهذا السبب كان الرسول ﷺ مختصاً في باب الإيمان بما لا يمكن حصوله في غيره»[3].

**ج/ في إيمان المؤمنين:**

إيمان المؤمنين هو:

- **تصديقهم مع نبيهم ﷺ**، قال الطبري: «يقول وصدق المؤمنون أيضا مع نبيهم بالله وملائكته وكتبه ورسله...الآيتين»[4].

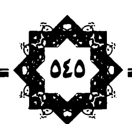
---

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٤/١٣٣).

(٢) «المصدر السابق»: (١٤/١٣٤)، وانظر: «تفسير البيضاوي»: (١/١٨٥).

(٣) «التفسير الكبير» للرازي: (٧/١١٣).

(٤) «جامع البيان»: (٣/١٥٢).



**- وهي شهادة من الله جل في علاه للمؤمنين بأنهم آمنوا مع نبيهم ﷺ،**

قال ابن تيمية رحمه الله: «ثم شهد تعالى للؤمنين بأنهم آمنوا بما آمن به رسولهم ثم شهد لهم جميعا بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله»[(١)].

**د/ في إيمانهم جميعاً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر:**

أوجز السعدي رحمه الله، فأجاد وأفاد في بيان ذلك، فقال:

«يخبر تعالى عن إيمان الرسول ﷺ والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلا، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي»[(٢)].

**هـ/ في عدم التفرقة بين الرسل في الإيمان بهم:**

هذا مما أثنى الله تعالى به على المؤمنين في ثنايا هذه الآية العظيمة، قال العلامة السعدي رحمه الله: «وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٤/١٤).

(٢) «تفسير السعدي»: (١٢٠).

كفر بالله»[1].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «والإيمان بالرسل يجب أن يكون جامعاً، عاماً، مؤتلفاً، لا تفريق فيه، ولا تبعيض، ولا اختلاف، بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما أنزل إليهم، فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض، أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض، فهو كافر»[2].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة الإيمان للنبي ﷺ:

١ – في تقديم قوله تعالى: ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ على ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: اعتناء بشأنه، وإيذان بأصالته ﷺ في الإيمان به[3].

٢ – في قوله تعالى: ﴿ مِن رَّبِّهِۦ ﴾: «في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ تشريف له وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له ﷺ»[4].

٣ – في قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ ﴾ أُتي بلفظ (كل) ووُحد الفعل (آمن) على صيغة المفرد، فيه دلالة على أن ذلك الإيمان متحقق من كل واحد منهم، قال البغوي: «قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾: أي: صدق بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ يعني: كل واحد منهم، ولذلك وحد الفعل»[5].

---

(١) «تفسير السعدي»: (١٢٠).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (١١/١٢).

(٣) انظر: «تفسير أبي السعود»: (١/٢٧٥).

(٤) «المصدر السابق».

(٥) «معالم التنزيل»: (١/٢٧٣)، وانظر: «المحرر الوجيز»: (١/٣٩١).



٤ — في الترتيب الوارد في قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾، قال أبو حيان: «وهذا الترتيب في غاية الفصاحة، لأن الإيمان بالله هو المرتبة الأولى، وهي التي يستبد بها العقل إذ وجود الصانع يقربه كل عاقل، والإيمان بملائكته هي المرتبة الثانية؛ لأنهم كالوسائط بين الله وعباده، والإيمان بالكتب هو الوحي الذي يتلقنه الملك من الله، يوصله إلى البشر، هي المرتبة الثالثة، والإيمان بالرسل الذين يقتبسون أنوار الوحي فهم متأخرون في الدرجة عن الكتب، هي المرتبة الرابعة»[1].

## رابعاً: تمثل صفة الإيمان في النبي ﷺ:

❖ كان ﷺ مؤمنا بكل ما أوتي الإيمان من معنى، فلقد علمنا ﷺ الإيمان كما علمنا كل أمورنا الدينية والدنيوية، فقالها لجبريل عليه السلام: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»، فكان ﷺ أول من امتثل قول نفسه ﷺ.

**❖ وكان ﷺ مؤمناً مصدقاً ربه في كل أموره، مطمئن عامر قلبه بالإيمان، ومن ذلك:**

فانظر إلى إيمان قلبه، واطمئنانه وثقته بربه في أصعب المواقف وأحرج اللحظات، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: «لو أن أحدهم

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٢/٣٧٩).



نظر تحت قدميه لأبصرنا»، فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[1].

❖ **ولقد كان إيمانه ﷺ بربه دافعه إلى:**

- اجتهاده في العبادة من صلاة وصيام وصدقة ونحو ذلك مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، شكراً منه لربه، ويقيناً راسخاً في قلبه.
- صبره على مشاق الرسالة وتحمل الأمانة.
- زهده في هذه الدنيا ورغبته عنها.
- رحمته بأمته وشفقته عليها.
- توكله على الله، وتفويض أموره إليه في كل صغيرة وكبيرة.
- توليه لكل مؤمن وتبرئه من كل كافر.

ولكل ما سبق أمثلة كثيرة مرت معنا في هذا البحث المتواضع.

❖ **إيمان النبي ﷺ أذاقه حلاوة العبودية لله جل وعلا، فكان ﷺ عبداً رسولاً، لا ملكاً رسولاً.**

ومهما استفضت في الحديث عن إيمانه ﷺ فلن أتجاوز ساحله، لأن سيرته ﷺ كلها إيمان، وإيمانه ﷺ كله سيرة، ﷺ تسليماً كثيراً.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم...، (٣/١٣٣٧/ ح٣٤٥٣)، واللفظ له، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، (٤/١٨٥٤/ح٢٣٨١).



**خامساً: صفة الإيمان في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

**١ - مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص.**

قال البخاري رحمه الله: «بَاب الإيمان، وقول النبي ﷺ بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْسٍ، وهو قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ، قال الله تَعَالَى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ (الفتح: ٤)، ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف: ١٣)، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ ﴾ (مريم: ٧٦)، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد: ١٧)، ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ۙ ﴾ (المدثر: ٣١)، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (التوبة: ١٢٤)، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، وَالْحُبُّ في اللَّهِ وَالْبُغْضُ في اللَّهِ من الإيمَانِ، وَكَتَبَ عُمَرُ ابن عبد الْعَزِيزِ إلى عَدِيِّ بن عَدِيٍّ[1]: إِنَّ لِلإيمَانِ فَرَائِضَ، وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا، وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإيمَانَ، وَمَنْ لم يَسْتَكْمِلْهَا لم يَسْتَكْمِلْ الإيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حتى تَعْمَلُوا بها، وَإِنْ أَمُتْ فما أنا على صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ،

(١) هو: عَدِيُّ بنُ عديٍّ الكندي، أبو فروة، وكان ثقة ناسكاً فقهياً محدثاً، وكان عاملاً لعمر بن عبدالعزيز على الجزيرة، توفي سنة عشرين ومائة، انظر: «مختصر تاريخ دمشق»: (٢٦١/٥).

وقال إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وقال مُعَاذُ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً»[١].

وقال البخاري: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص»[٢].

**٢ – الإيمان سبب لعصمة النفس في الدنيا.**

قال رسول اللّهِ ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[٣].

**٣ – الإيمان سبب في تثبيت صاحبه عند سؤال الملكين في القبر.**

فعن النبي ﷺ قال: «إذا أقعد المؤمن في قبره أُتِيَ ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)»[٤].

**٤ – الإيمان يبلغ صاحبه أعلى المنازل.**

قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءَوْنَ أهل الغرف من فوقهم كما

(١) «صحيح البخاري»: (١/١٢).

(٢) «فتح الباري»: (١/٤٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...، (١/٥٢/ح ٢١).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر...، (١/٤٦١/ح١٣٠٣).

تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضُل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(١).

**٥ – الإيمان بالله ورسوله أفضل العمل.**

سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»(٢).

**٦ – الإيمان يريح صاحبه من نصب الدنيا إلى رحمة الله تعالى.**

فكان رسول الله ﷺ قد مر عليه بجنازة فقال: «مستريح ومستراح منه»، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»(٣).

**٧ – الإيمان سبب في مجازاة صاحبه في الدنيا والآخرة، أما الكافر فتعجل له حسناته في الدنيا ويعذب في الآخرة والعياذ بالله.**

قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطى بها في الدنيا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يُرى الكوكب في السماء، (٤/٢١٧٧/ح٢٨٣١).

(٢) رواه البخاري، كتاب افيمان، باب من قال إن اللإيمان هو العمل...، (١/١٨/ح٢٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، (٥/٢٣٨٨/ ح ٦١٤٧).



ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»[1].

**٨ – الإيمان سبب في تكافل المجتمع وتراحم أهله.**

قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[2].

**٩ – للإيمان حلاوة لا تحصل إلا لمن سعى في تحصيل أسبابها.**

فعن أنس عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»[4].

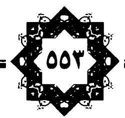
**١٠– الإيمان هو التطبيق الفعلي للإسلام، فمن أسلم بلسانه لابد وأن**

(١) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا...، (٤/٢١٦٢/ح٢٨٠٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (٥/٢٢٣٨/ ح ٥٦٦٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١/١٤/ح ١٦)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (١/٦٦/ح ٤٣).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن، (١/٦٢/ ح٣٤).



يصدق بقلبه ويعمل بجوارحه حتى يكون مؤمناً.

فعن سفيان بن عبد الله الثقفي[1] رضي الله عنه: قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ـ وفي حديث أبي أسامة غيرك ـ قال: «قل آمنت بالله فاستقم»[2].

**١١ – من صفات أفاضل المؤمنين أن يكون تقياً كافّاً عن الناس أذاه.**

فقد سؤل رسول الله ﷺ أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»، قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمن في شعب[3] من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره»[4].

**١٢ – المؤمن مبتلى فإن صبر نال.**

قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[5].

---

(١) هو: سفيان بن عبد الله الثقفي الطائفي، له صحبه، وَليَ الطائفَ لعمر رضي الله عنهما، انظر: «الكاشف»: (١/٤٤٩)، «تقريب التهذيب»: (١/٢٤٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، (١/٦٥/ ح ٣٨).

(٣) الشِّعْبُ: ما انفرج بين جبلين، والشِّعبَةُ: صِدْعٌ في الجبل يأوي إليه الطير. انظر: «لسان العرب» (١/٤٩٩).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله...، (٣/١٠٢٦/ح٢٦٣٤).

(٥) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، (٤/٢٢٩٥/ ح٢٩٩٩).

- وقال ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته»(١).

**١٣ – المؤمن قوي، ويستمد قوته من إيمانه.**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(٢).

**١٤ – الإيمان سبب في دخول الجنة والبعد عن النار.**

قال ﷺ: «يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار، ثم يقول: «انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه» فيخرجون منها حمماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر الحياة أو الحيا، فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية»(٣).



---

(١) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، (٥/٢١٣٧/ ح ٥٣١٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه...، (٤/١٩٩٢/ ح ٢٥٧٣)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، (٤/ ٢٠٥٢/ ح ٢٦٦٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٥/٢٤٠٠/ ح ٦١٩٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، (١/١٧٢/ ح ١٨٤) واللفظ له.

# المبحث الرابع

# الخـــــوف

# المبحث الرابع

# الخوف

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الخوف:

الخوف ضد الأمن[1]، ويدل على الفزع.

وقال ابن فارس: «(خَوَفَ): الخاء والواو والفاء: أصل واحد يدل على الذعر والفزع، يقال: خِفْتُ الشيءَ خَوْفاً وخِيفَةً، والياء مبدلة من واو لمكان الكسرة»[2].

❖ **الآيات التي وردت بصفة الخوف للنبي ﷺ:**

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأنعام: ١٥).

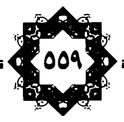
- وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس: ١٥).

- وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (هود: ٣).

---

(١) انظر: «جمهرة اللغة»: (٦١٧/١).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٢٣٠/٢).



- وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الزمر: ١٣).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في الآيات التي وردت فيها صفة الخوف للنبي ﷺ:

عند تأمل الآيات التي وردت فيها صفة الخوف للنبي ﷺ، نجد أن آية الأنعام، ويونس، والزمر، قد اتفقت عند قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأنعام: ١٥):

**فعند تأمل أقوال المفسرين نخرج بما يلي:**

**١ - معنى الخوف في قوله: ﴿ أَخَافُ ﴾:**

أكثر المفسرين[١] على أن الخوف هنا على بابه فيراد به توقع المكروه.

بينما ذهب قلة[٢] منهم أنه بمعنى (أعلم)، وعزوه إلى ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى على هذا: أي: «إني أعلم أن من عصى الله وخالف أمره له عذاب يوم عظيم يعني يصيبه العذاب»[٣].

وعلى كلا القولين، فالمؤدى واحد من أنه ﷺ يتوقع عذاب يوم عظيم في

(١) انظر: «جامع البيان»: (١١/٩٥)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/٩١)، «فتح القدير»: (٢/١٠٤)، «تفسير ابن زمنين»: (٤/١٠٦)، ، «لباب التأويل» للخازن: (٢/١٢)، «تفسير أبي السعود»: (٣/١١٦)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٦١).

(٢) كالسمرقندي، والقرطبي، انظر: «بحر العلوم»: (١/٤٥٩)، (٢/١٠٧-١٠٨)، «تفسير القرطبي»: (٦/٣٩٧)

(٣) «بحر العلوم»: (٢/١٠٨).

حال عصيانه ﷺ.

**٢ – وأما المراد بالعصيان في قوله: ﴿ عَصَيْتُ ﴾:**

فيختلف في كل آية بحسبها:

- **ففي آية سورة الأنعام، يراد به: عبادة الأوثان.**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله الذين يدعونك إلى عبادة أوثانهم إن ربي نهاني عن عبادة شيء سواه وإني أخاف إن عصيت ربي فعبدتها عذاب يوم عظيم يعني عذاب يوم القيامة، ووصفه تعالى بالعظم لعظم هوله وفظاعة شأنه»(١).

- **وفي سورة يونس، يراد به: تبديله ﷺ للوحي.**

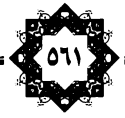
قال الطبري: «﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ (يونس: ١٥)، يقول: إني أخشى من الله إن خالفت أمره، وغيرت أحكام كتابه، وبدلت وحيه فعصيته بذلك، عذاب يوم عظيم هوله، وذلك يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى»(٢).

- **وفي آية الزمر، يراد به: عموم مخالفة أمر الله تعالى، وعدم إخلاص العبادة له، وتوحيده**، قال الطبري: «وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي

---

(١) «جامع البيان»: (١٦٠/٧).

(٢) «المصدر السابق»: (٩٥/١١).



عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الزمر:١٣): يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهم: إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من عبادته مخلصا له الطاعة ومفرده بالربوبية عذاب يوم عظيم، يعني عذاب يوم القيامة، ذلك هو اليوم الذي يعظم هو له»[(١)].

❖ **وأما آية سورة هود**، فورد فيها خوفه ﷺ على قومه، ووصف اليوم فيها بالكبير، فقال تعالى على لسان محمد ﷺ: ﴿ **فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾ (هود:٣):

**فعند تأمل أقوال المفسرين في معنى (يوم كبير) نجد أن فيه أقوالاً ثلاثة:**

١ - أكثر المفسرين على أن المراد هو يوم القيامة[(٢)].

٢ - وقيل بأن المراد هو يوم الشدائد، كالقحط الذي أصابهم حتى أكلوا الجيف[(٣)].

٣ - وقيل بأن المراد هو يوم من أيام الدنيا كيوم بدر مثلاً[(٤)].

❖ **والذي تميل إليه النفس هو**: القول الأول، وهو أن المراد بـ: (يوم

---

(١) «جامع البيان»: (٢٠٤/٢٣).

(٢) «المصدر السابق»: (١٨٢/١١)، وانظر: «بحر العلوم»: (١٣٨/٢)، «النكت والعيون»: (٤٥٧/٢)، «المحرر الوجيز»: (١٥٠/٣)، «تفسير القرطبي»: (٤/٩)، «لباب التأويل» للخازن: (٢١٧/٣)، «تفسير ابن كثير»: (٤٣٧/٢)، «تفسير أبي السعود»: (١٨٤/٤)، «فتح القدير»: (٤٨١/٢)، «تفسير السعدي»: (٣٧٦).

(٣) انظر: «بحر العلوم»: (١٣٨/٢)، «تفسير أبي السعود»: (١٨٤/٤).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز»: (١٥٠/٣)، «فتح القدير»: (٤٨١/٢).



كبير)، هو يوم القيامة ؛ لأنهم إن عذبوا في الدنيا كبدر، أو كأيام القحط، فسيظل هناك عذاب أكبر يوم القيامة إن لم يتوبوا ويستغفروا، كما أن هذا هو ما عليه جمهور المفسرين، والله أعلم.

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة الخوف للنبي ﷺ:**

١ - **في إفصاحه ﷺ عن خوفه من عذاب يوم عظيم** «قطع لأطماعهم الفارغة وتعريض بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم»[١].

٢ - فيه دفع لتوهم ما قد يرد على الأذهان من أنه ﷺ لا يخاف ذلك[٢].

٣ - فيه بيان أدبه ﷺ مع ربه[٣].

٤ - إن هذا ديدن الرسل من إخوانه قبله ﷺ، كما قال تعالى عن صالح: ﴿ **قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ** ﴾ (هود: ٦٣)، وقوله تعالى عن نوح: ﴿ **وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ** ﴾ (هود: ٣٠).

٥ - في إيراد صفة الخوف بالمضارعة: (أخاف) دليل على التجدد والاستمرارية، فهو ﷺ دائم الخوف من ربه جل وعلا.

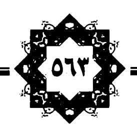
٦ - في إضافة صفة الربوبية لله جل وعلا إلى ضميره ﷺ:

---

(١) انظر: «تفسير أبي السعود»: (١١٧/٣)، وانظر: «تفسير البيضاوي»: (٣٩٧/٢).

(٢) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (٤٣٠/٦).

(٣) انظر: «تفسير السعدي»: (٣٦٠).



للدلالة على اعترافه ﷺ بإحسان ربه إليه، وتشديده ﷺ شأن العصيان مقابل اعترافه بذلك، وكونه منزهاً عنه[1].

٧ – إيراد لفظ: (يوم) منكراً، ومنوناً، وموصوفاً بالعظم، وبالكبر، وذلك للتهويل، والتعظيم، وتعظيم العذاب الذي فيه[2].

٨ – في آية سورة هود يدل خوفه على أمته ﷺ في قوله: ﴿ **فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ** ﴾ على حرصه ورأفته ورحمته بهم، كما طفحت سيرته بذلك ﷺ.

## رابعاً: تمثل صفة الخوف في النبي ﷺ:

- الخوف من الصفات البشرية الجبلية، وهي صفة تنم عن حرص وإدراك وتنبه وبعد نظر، ولطالما كان النبي ﷺ حريصاً في شأن دينه كله، على نفسه وعلى أمته، والمتأمل في سيرته ﷺ، يرى خوفه من ربه؛ لأنه أعرف الناس به، وكلما ازدادت معرفة الإنسان بربه، ازداد إليه قرباً، ومنه خوفاً.

- وليُعلم أن خوفه من ربه إنما هو خوف مقرون بأنس وحلاوة وطمأنينة، متلبس بالسكينة نقي عن المعصية، وما ذاك إلا لأنه ﷺ ـ كما أسلفت ـ أعرف الناس بربه، وأقربهم إليه، وأتقاهم له.

- خوفه ﷺ من ربه تعبد له وإجلال وإعظام، لأنه كان يعلم ﷺ أنه

---

(١) انظر: «تفسير أبي السعود»: (١٢٩/٤).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (١٢٩/٤)، «نظم الدرر»: (٤٣١/٦)، «التحرير والتنوير»: (٣١٩/١١).

معصوم من ربه، وأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فخوفه إجلال لربه وشكر له وإعظام.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن قيل: فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه أقرب الخلق إلى الله؟ قيل عن هذا أربعة أجوبه - وذكر منها - أن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده، وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد؛ لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره»[1].

- خوفه ﷺ قدوة لأمته أن يحيوا قلوبهم بالخوف التعبدي، لأنه إن خاف من هو للأمان مظنة ﷺ، فمن دونه من أمته من باب أولى.

## خامساً: صفة الخوف في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

١ – أثنى الله تعالى على الذين يخافون ربهم في عدد من آي الذكر الحكيم، قال تعالى:

- **﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾** (الرعد: ٢٠ - ٢١).

---

(١) «طريق الهجرتين»: (١/ ٤٢٨).

- ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ (الإسراء: ٥٧).

- ﴿ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦).

- ﴿ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١٤).

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

إلى غير ذلك من الآيات.

٢ – خوف العبد من ربه سبب في استجلاب رحمة الله تعالى:

كما قال ﷺ «إنه ذكر رجلاً فيمن سلف أو فيمن كان قبلكم قال كلمة يعني أعطاه الله مالاً وولداً فلما حضرت الوفاة قال لبنيه أي أب كنت لكم قالوا خير أب قال فإنه لم يبتئر[1] أو لم يبتئز عند الله خيراً وإن يقدر الله عليه يعذبه فانظروا إذا مت فأحرقوني حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني أو قال فاسحكوني فإذا كان يوم ريح عاصف فأذروني فيها فقال نبي الله ﷺ فأخذ مواثيقهم على ذلك وربي ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف فقال الله ﷻ كن فإذا هو رجل قائم قال الله أي عبدي ما حملك على أن فعلت قال مخافتك أو فرق منك قال فما تلافاه أن رحمه عندها»[2].

---

(١) أي لم يدخر عند الله خيرا، انظر: «لسان العرب»: (٣٧/٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾...، (٢٧٢٦/٦=



٣ – خوف العبد من ربه سبب في إظلاله بظله تعالى يوم لا ظل إلا ظله.

عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة ربه ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(١).

٤ – الخوف من الله سلاح للمؤمن وقوة له:

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية: «قال بعض العلماء إلى بعض إخوانه: «أما بعد فإنه من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»(٢).

٥ – خوف العبد من ربه يحجز صاحبه عن المعاصي وعن محارم الله.

قال ابن القيم رحمه الله «قال ابن تيمية رحمه الله: «الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله»»(٣).

٦ – الخوف من مقام الله جل وعلا يقض المضاجع ناهضاً بها للعمل.

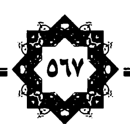
---

=ح ٧٠٦٩).

(١) رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، (١/٢٣٥/ ح ٦٢٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، (٢/٧١٥/ ح ١٠٣١).

(٢) «الآداب الشرعية»: (٢/٣٢).

(٣) «مدارج السالكين»: (١/٥١٤).



٧ – الخوف من الله تعالى يرد المؤمن إلى ساحة العبودية.

قال ابن القيم رحمه الله: «قال أبو حفص: «الخوف سوط الله يقوم به الشاردين عن بابه»»[١].

٨ – الخوف سراج في القلب يضيء لصاحبه فيقوده إلى ربه.

قال ابن القيم رحمه الله: «الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله عز وجل، فإنك إذ خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه»»[٢].

٩ – خوف المطيع يورثه هرباً إلى ربه وهو يجمع القلب على سكينته وطمأنينته بربه، لا وحشة معه، بخلاف هرب المسيء من ربه، ففرق بينهما، قال ابن القيم رحمه الله: «وأما الخوف فإنه يوجب هروبا إلى الله، وجميعة عليه، وسكونا إليه، فهي مخافة مقرونة بحلاوة وطمأنينة وسكينة ومحبة، بخلاف خوف المسيء الهارب من الله، فإنه خوف مقرون بوحشة ونفرة، فخوف الهارب إليه سبحانه محشو بالحلاوة والسكينة والأنس لا وحشة معه، وإنما يجد الوحشة من نفسه، فله نظران: نظر إلى نفسه وجنايته فيوجب له وحشة، ونظر إلى ربه وقدرته عليه وعزه وجلاله، فيوجب له خوفا مقرونا بأنس وحلاوة وطمأنينة»[٣].

❖ ❖ ❖

(١) «مدارج السالكين»: (١/٥١٣).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) «طريق الهجرتين»: (١/٤٢٦).



# المبحث الخامس

# الرضـــــــــــا

## المبحث الخامس

## الرضا

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الرضا:

الرضا: ترك السخط.

قال ابن فارس: «(رَضَى): الراء والضاد والحرف المعتل: أصل واحد يدل على خلاف السخط»[1].

❖ **الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالرضا هي في قوله تعالى:**

- قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ (الضحى: ٥).

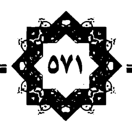
### ثانياً: أقوال المفسرين في صفة الرضا للنبي ﷺ في الآيتين:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).**

❖ **في معناها:**

قال السعدي رحمه الله: «هذه تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/٤٠٢).



إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم، سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم؛ لأن الله جعل العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم، كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه، بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، ولعلك إن فعلت ذلك، (ترضى): بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر»[1].

- **أقوال المفسرين في الرضا الذي يرضاه ﷺ:**

١ – قيل أي: لعلك ترضى في الآخرة ثواب عملك[2].

٢ – وقيل أي: يُرضيك الله بكرامته، وقيل بالشفاعة خاصة[3].

---

(١) «تفسير السعدي»: (٥١٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن زمنين»: (٣/١٣٧)، «معالم التنزيل»: (٣/٢٣٦)، «لباب التأويل»: (٤/٢٨٦)

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٣/٤٣٣)، «معالم التنزيل»: (٣/٢٣٦)، «لباب التأويل»: =



٣ – وقيل أي: يرضاك ربك [١].

❖ **ولا تضاد بينها فكلها حاصلة له ﷺ ولاشك.**

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾:**

❖ **في معناها:**

قال الطبري: «وقوله ولسوف يعطيك ربك فترضى يقول تعالى ذكره ولسوف يعطيك يا محمد ربك في الآخرة من فواضل نعمه حتى ترضى» [٢].

- **وقد اختلف أهل العلم في العطاء الذي وعده إياه على أقوال كثيرة:**
- قيل: ألف قصر من لؤلؤ ترابهن المسك وفيهن ما يصلحهن [٣].
- وقيل: بأن لا يدخل أحد من أهل بيته النار [٤].
- وقيل: بأن لا يدخل أحد من أمته النار [٥].
- وقيل: الجنة، والمنزلة العالية، وما يعطيه إياه ﷺ من الكرامة ومنها

---

=(٤/٢٨٦).

(١) انظر: «لباب التأويل»: (٤/٢٨٦)، «فتح القدير»: (٣/٣٩٤).

(٢) «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٢).

(٣) انظر: «المصدر السابق»: (٣٠/٢٣٢)، «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٠/٣٤٤٣)، «المحرر الوجيز»: (٤/١٧٣)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٨/٥٤٢)، «تفسير أبي السعود»: (٩/١٧٠)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٢)، «المحرر الوجيز»: (٤/١٧٣)، «الدر المنثور»: (٨/٥٤٢).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز»: (٤/١٧٣)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٨/٥٤٢).



الكوثر[١].

- وقيل: الشفاعة[٢].

- وقيل النصر والفتوحات والتمكين في الدنيا[٣].

**❖ ولا يمنع أن يكون هذا على سبيل الإجمال مما فصل في مواضع أخر، فالله حري أن يكرم رسوله ﷺ بخيري الدنيا والآخرة.**

قال الشوكاني: «والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة»[٤].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن صفة الرضا للنبي ﷺ:

**❖ من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).**

- **قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ متعلق بالفعل: (سَبِّح):**

«أي: سبح في هذه الأوقات طمعا أن تنال عند الله ما به ترضي نفسك»[٥].

---

(١) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٠/٣٤٤٣)، «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٢٤)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨).

(٢) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٠/٣٤٤٣)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٢٩٣)، «معالم التنزيل»: (٤/٤٩٨)، «المحرر الوجيز»: (٤/١٧٣)، «تفسير أبي السعود»: (٩/١٧٠)، «فتح القدير»: (٥/٤٥٨).

(٤) «فتح القدير»: (٥/٤٥٨)، وانظر: «أضواء البيان»: (٨/٥٥٩).

(٥) «تفسير البيضاوي»: (٤/٧٨)، وانظر: «تفسير أبي السعود»: (٦/٥٠).

- **فائدة إيراد الفعل بـ: (لَعَلَّ):**

«لما كان الغالب على الإنسان النسيان فكان الرجاء عنده أغلب، ذكر الجزاء بكلمة الإطماع؛ لئلا يأمن فقال: ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾، أي افعل هذا لتكون على رجاء من أن يرضاك ربك فيرضيك في الدنيا والآخرة، بإظهار دينك وإعلاء أمرك، ولا يجعلك في عيش ضنك في الدنيا والآخرة، ولا تكون كذلك إلا وقد أعطاك ربك جميع ما تؤمل»[1].

- **الفائدة في أمره بالتسبيح بعد أمره بالصبر:**

«فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به، والصلاة داخلة في التسبيح المذكور»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾:**

- **ورد في الآية الجمع بين (اللام) و(سوف):**

وذلك للدلالة على تحقق وقوع العطاء، قال الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخّر، لما في التأخير من المصلحة»[3].

- **إن قيل: إن بعض هذه العطايا حاصلة للمؤمنين، فلم أفرد بها في**

---

(١) «نظم الدرر» للبقاعي: (٥/٥٨).

(٢) «أضواء البيان»: (٧/٤٣٢).

(٣) «الكشاف»: (٤/٧٧٢).



الخطاب النبي ﷺ؟

الجواب: لوجهين:

«أحدها: أنه المقصود وهم أتباع.

وثانيها: أني إذا أكرمت أصحابك فذاك في الحقيقة إكرام لك؛ لأني أعلم أنك بلغت في الشفقة عليهم إلى حيث تفرح بإكرامهم فوق ما تفرح بإكرام نفسك»(١).

- **فائدة حذف المفعول الثاني من قوله تعالى: ﴿يُعۡطِيكَ﴾:**

قال ابن عاشور: «وحذف المفعول الثاني ليعطيك؛ ليعمّ كل ما يرجوه ﷺ من خير لنفسه ولأمته، فكان مفاد هذه الجملة: تعميم العطاء»(٢).

- **جيء بفاء التعقيب في قوله تعالى: ﴿فَتَرۡضَىٰٓ﴾:**

«لإفادة كون العطاءِ عاجلَ النفع بحيث يحصل به رضى المعطَى عند العطاء فَلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تَربص»(٣).

## رابعاً: تمثل صفة الرضا في النبي ﷺ:

**بأبي هو وأمي ﷺ، فلقد كان ﷺ راضياً مرضياً، يتجلى ذلك في الأمور التالية:**

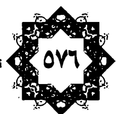
١ — في إرضاء الله تعالى له، فرضي وسلم وشكر ﷺ، كما مر معنا في

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٣١/١٩٣).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٣٩٨).

(٣) «المصدر السابق».



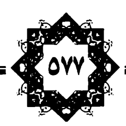
أقوال المفسرين في بداية هذا المبحث.

٢ – في إرضائه هو لله جل وعلا، ويتمثل ذلك في طاعته لربه، بالفعل والترك، والحرص على البلاغ، وأداء الرسالة على أكمل وجه بإخلاص وتفان ﷺ.

٣ – في رضا الله تعالى عنه ﷺ، كيف لا وقد اتخذه خليلا وحبيباً، وأمر أمته بتوقيره وتعظيمه، قال تعالى: ﴿ **لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ (الفتح: ٩)، وقرن اسمه تعالى باسمه ﷺ في القرآن كثيراً وفي الشهادتين، وغير ذلك كثير مما يدل أنه تعالى راض عن نبيه وحبيبه ﷺ، مما يغني عن الحديث في ذلك.

٤ – في رضاه ﷺ عن ربه جل وعلا، فرضي من هذه الدنيا بزهيد العيش، حتى يؤثر الحصير في جنبه، وقد لا يوجد في بيته سوى تمرات ﷺ، كان راض عن ربه في النصر والهزيمة كهزيمة أحد، في الصحة والمرض كسحره ومرض موته ﷺ، راض لما رجع منتصراً، وراض لما شج وجهه، وكسرت رَباعيته ﷺ.

٥ – وكان الحبيب المصطفى ﷺ مُرضياً لأمته في النصيحة والبلاغ، وفي الغنيمة والقسائم، وفي الكلمة الطيبة، رجالاً ونساء، شيباً وشُبَّاناً، وأطفالاً، وإماءً وعبيداً، ويكفيهم من ذلك: أن كان بقلبه وقالبه يعيش في أوساطهم ﷺ.



**خامساً: صفة الرضا في الواقع المشاهد، وكيفية التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

كل عمل ابن آدم في هذه الدنيا إنما هو أولاً وآخراً لإرضاء ربه، ومن ذلك رضاه بربه وعن ربه، إنه ليورث القلب حلاوة واستسلاماً لله جل وعلا.

- **حمده تعالى من أسباب رضاه عن العبد**، قال رسول اللَّهِ ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»(١).

- **وتتبع مراضي الله تعالى سبب في رضاه عن العبد**، قال رسول اللَّهِ ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»(٢).

- **وإنه لمن أوجب الواجبات علينا أن نرض بالله على كل أحوالنا:**

فهو أدب أدبناه نبينا ﷺ، ففي دعاء الاستخارة: «واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»(٣).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، (٤/٢٠٩٥/ح ٢٧٣٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل...، (٣/١٣٤٠/ ح ١٧١٥).

(٣) رواه البخاري، أبواب التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى...، (١/٣٩١/ ح ١١٠٩).

ومن ذلك الرضا حال المصيبة، فعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها»، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها»، قالت: «فلما توفي أبو سلمة قلت: كما أمرني رسول اللَّهِ ﷺ فأخلف الله لي خيرا منه رسول الله ﷺ»[1].

- **والرضا يقرب العبد من الله جل وعلا**، ففي وصية لقمان لابنه: «أوصيك بخصال تقربك من الله وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئا وأن ترضى بقدر الله فيما أحببت وكرهت»[2].

- **والرضا دليل قوة الإيمان والاعتماد على الله وتسليم الأمر وتفويضه إليه سبحانه.**

❖ **من فوائد الرضا[3]:**

١ – الفرح والسرور بالله تبارك وتعالى.

٢ – يثمر محبة الله ورضاه وتجنب سخطه.

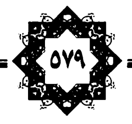
٣ – الفوز بالجنة والنجاة من النار.

٤ – دليل حسن ظن العبد بربه.

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، (٢/٦٣٢/ ح ٩١٨).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم: (٢/٢٢٠).

(٣) انظر: «نضرة النعيم»: (٦/٢١٢٤).



٥ – يضفي على الإنسان المسلم راحة نفسية وروحية.

٦ – يجنب المسلم الأزمات النفسية من قلق وتوتر.

٧ – طريق واضح إلى تحقيق السلام الاجتماعي.



# الفصل السابع

# الصفات التعبدية للنبي ﷺ

وفيه ثمانية مباحث:

- المبحث الأول: العبودية، والعمل، والرغب، والنصب، والاستقامة.
- المبحث الثاني: إقامة الصلاة، والسجود.
- المبحث الثالث: الاستعاذة، والاستغفار، والتسبيح، والتكبير، والذكر.
- المبحث الرابع: الحمد، والشكر.
- المبحث الخامس: التبتل، والترتيل، والتهجد.
- المبحث السادس: الصبر.
- المبحث السابع: العدل.
- المبحث الثامن: العفو والصفح.
- المبحث التاسع: جهاد العدو.

# الفصل السابع

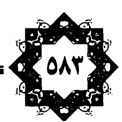
# الصفات التعبدية للنبي ﷺ

## توطئة:

قال عز من قائل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وما كان للجن والإنس أن يعبدوا ربهم جل في علاه، ويمتثلوا ما خلقوا من أجله، إلا إذا بين تعالى لهم هذه العبادة، فكان ﷺ هو النبراس الذي يحذون حذوه، يعلمهم، ويبين لهم، ويشرع لهم عن ربه جل وعلا، ولا يكون له ذلك إلا وقد امتثل العبودية في نفسه ﷺ، فكانت صفاته التعبدية، شرحاً وافياً، ومثالاً كافياً للعبادة في الإسلام.

ومباحث هذا الفصل بكل الصفات الواردة فيه للنبي ﷺ تتحدث عن صفاته ﷺ التعبدية خاصة، وكيف كان هذا الرسول العظيم ﷺ.. عبداً رسولاً..





# المبحث الأول

وفيه خمس صفات:

- الصفة الأولى: العبودية.
- الصفة الثانية: العمل.
- الصفة الثالثة: الرغب.
- الصفة الرابعة: النصب.
- الصفة الخامسة: الإستقامة.

# الصفة الأولى

# العبودية

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة العبودية:

العبودية: التذلل واللين.

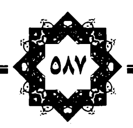
قال ابن فارس: (عَبَدَ): العين والباء والدال: أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، والأول من ذينك الأصلين، يدل على: لين وذل، والآخر: على شدة وغلظ... وأما عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً، فلا يقال إلا لمن يعبد الله تعالى، يقال منه: عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً، وتَعَبَّدَ يَتَعَبَّدُ تَعَبُّداً، فالمُتَعَبِّدُ: المُتَفَرِّدُ بالعبادة، واستعْبَدْتُ فلاناً: اتخذته عَبْداً»[1].

❖ من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بصفة العبودية:

- قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣).

- قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٤١).

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/٢٠٥ ـ ٢٠٦).



- قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ١٠٤).

- قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء: ١).

- قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ (الكهف: ١).

- قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١).

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ١١).

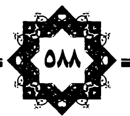
- قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ (الزمر: ١٤).

- قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٦).

- قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم: ١٠).

- قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحديد: ٩).

- قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن: ١٩).



- قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ (العلق: ٩-١٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر: ٩٩).

**ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بصفة العبودية:**

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣).

- **المراد بالعبد:**

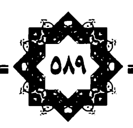
المراد بالعبد هنا هو النبي ﷺ، قال الطبري رحمه الله: «قال الله جل ثناؤه: وإن كنتم أيها المشركون من العرب، والكفار من أهل الكتابين، في شك وهو الريب مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ، من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي وأني الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به ولم تصدقوه فيما يقول، فأتوا بحجة تدفع حجته»[1].

- **شرف العبودية، وذكره ﷺ بعنوان العبودية دون غيرها من الصفات:**

- ولما كانت العبادة من التذلل، وكان التذلل لله تعالى من أشرف الأمور وأجلها، كانت صفة العبودية لله تعالى من أجل الصفات وأشرف الخصال.

- وآثر الله تبارك وتعالى في مثل هذه الآيات ذكر رسوله ﷺ بعنوان

(١) «جامع البيان»: (١/١٦٥).



العبوديـة دون النبـوة أو الرسـالة أو الاسـم الـصريح، لمناسـبة المقـام، ولزيـادة التشريف له ﷺ إزاء نعمة إنزال الكتاب.

- **وردت الآية هنا بلفظ التنزيل دون الإنزال:**

لأن المقام مقام تحد للكافرين، قال الرازي: «إنما قال: (نَزَّلْنَا) على لفظ التنزيل دون الإنزال لأن المراد النزول على سبيل التدريج، وذكر هذا اللفظ هو اللائق بهذا المكان؛ لأنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله ومخالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة على حسب النوازل ووقوع الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً بحسب ما يظهر من الأحوال المتجددة والحاجات المختلفة فإن الشاعر لا يظهر ديوان شعره دفعة والمترسل لا يظهر ديوان رسائله وخطبه دفعة فلو أنزله الله تعالى لأَنزله على خلاف هذه العادة جملة»(١).

❖ **من قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾** (الأنفال: ٤١).

**المراد بالعبد هنا هو محمد ﷺ**، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أيقنوا أيها المؤمنون، أنما غنمتم من شيء فمقسوم القسم الذي بينته، وصدقوا به إن كنتم أقررتم بوحدانية الله وبما أنزل الله على عبده محمد، يوم فرق بين الحق

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، وانظر: «الكشاف»: (١/ ١٢٧).

والباطل ببدر، فأبان فلج المؤمنين وظهورهم على عدوهم، وذلك يوم التقى الجمعان: جمع المؤمنين وجمع المشركين، والله على إهلاك أهل الكفر وإذلالهم بأيدي المؤمنين وعلى غير ذلك مما يشاء، قدير لا يمتنع عليه شيء أراده»[1].

- **قال أبو حيان في بيان شرف مقام العبادة:** «ومقام العبادة شريف وقد جاء الأمر به في مواضع قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾ (الحجر: ٩٩)، ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (البقرة: ٢١)، والكناية به عن أشرف المخلوقين ﷺ: قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾ (الإسراء: ١)، ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾ (الأنفال: ٤١)، وقال تعالى حكاية عن عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام قال: ﴿ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ (مريم: ٣٠)، وقال تعالى وتقدس: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ (طه: ١٤)، فذكر العبادة عقيب التوحيد؛ لأن التوحيد هو الأصل والعبادة فرعه»[2].

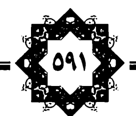
❖ **من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: ١٠٤).**

جاءت هذه الآية في معرض حوارات النبي ﷺ مع قومه، وإعلانه عبادة ربه وحده دون غيره من معبوداتهم الباطلة، قال الطبري:

---

(١) «جامع البيان»: (٨/١٠).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (١٤٣/١).



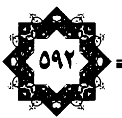
«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، الذين عجبوا أن أوحيت إليك: إن كنتم في شك أيها الناس من ديني الذي أدعوكم إليه، فلم تعلموا أنه حق من عند الله، فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان، التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئاً، فتشكوا في صحته، وهذا تعريض ولحن من الكلام لطيف، وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شك من ديني لا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئاً، ولا تضر ولا تنفع، فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، لأني أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إذ شاء، وينفعهم ويضر من يشاء، وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة، وأما عبادة الأوثان فينكرها كل ذي لب وعقل صحيح، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾: يقول ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم، فيميتكم عند آجالكم، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: يقول وهو الذي أمرني أن أكون من المصدقين بما جاءني من عنده»(١).

- **وإنما خص الله تعالى صفة المتوفى دون غيرها من صفاته سبحانه لفوائد(٢):**

---

(١) «جامع البيان»: (١١/١٧٦).

(٢) انظر: «فتح القدير»: (٢/٤٧٧)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٣/٤٩٤)، «التحرير والتنوير»: (١١/٣٠١).



١ – لما في ذلك من التهديد لهم أي أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد.

٢ – ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة فكأنه قال أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم.

٣ – ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً.

٤ – ولكونه أشد الأحوال مهابة في القلوب.

٥ – وللدلالة على كمال التصرف في المخلوق فإن المشركين لم يبلغ بهم الإشراك إلى ادعاء أن الأصنام تُحيي وتميت، فاختيار ذلك من بين الصفات الخاصة بالله تعالى تعريض بتذكيرهم بأنهم مُعَرَّضون للموت فيقصّرون من طغيانهم.

❖ **من قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾** (الإسراء: ١).

وصف الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بالعبودية في أحد أبهى مقاماته ﷺ وأعجزها وهو الإسراء، قال البغوي في قوله تعالى: «﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾: سبحان الله تنزه الله تعالى من كل سوء ووصف بالبراءة من كل نقص على طريق المبالغة وتكون سبحان بمعنى التعجب، ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾: أي: سيره وكذلك سرى به، والعبد هو محمد ﷺ»[1]، والسُّرى: سير الليل»[2].

---

(١) «معالم التنزيل»: (٩٢/٣).

(٢) «النكت والعيون»: (٢٢٤/٣).

**- فائدة تنكير وذكر توقيت الإسراء بأنه كان ليلاً مع ظهور ذلك من معنى اللفظ:**

قال الرازي: «فإن قيل: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟ قلنا: أراد بقوله: ﴿ لَيْلًا ﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية»(١).

**- وفي قوله تعالى: ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾، تشريف له ﷺ، وزيادة في تعظيمه، وذلك بأمرين:**

١ – بوصفه ﷺ بصفة العبودية في مقام عظيم، وهو مقام الإسراء «قال أهل العلم: لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية»(٢).

٢ – بإضافته ﷺ بوصف العبودية إلى ضمير الجلالة(٣).

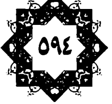
❖ **من قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾** (الكهف: ١).

العبد هنا هو محمد ﷺ ولا شك، وفيها يعلم الله تعالى عباده كيف

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٢٠/١١٧).

(٢) «فتح القدير»: (٣/٢٠٦)، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (١/٢٧).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير»: (١٥/١٢).



يحمدوه على هذه النعمة الجليلة وهي إنزال الكتاب، قال الشوكاني: «عَلَّمَ عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم، ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما في حيز الصلة لما قبله، ووجه كون إنزال الكتاب وهو القرآن نعمة على رسول الله ﷺ: كونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد وأحوال الملائكة والأنبياء، وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبَّدَه اللهُ، وتَعَبَّد أمته بها، وكذلك العباد، كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم، لمثل ما ذكرناه في النبي ﷺ»[1].

❖ **قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾** (الفرقان: ١).

سبق بحث هذه الآية في مبحث النذارة[2].

❖ **قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾** (الزمر: ١١).

❖ **وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾** (الزمر: ١٤).

سبق بحث هاتين الآيتين في مبحث الإخلاص[3].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾** (الزمر: ٦٦).

- أمر من الله جل وعلا لنبيه المصطفى ﷺ بعدم عبادة آلهة المشركين أو استلام أصنامهم كما أمروه بذلك، وإفراد العبادة وإخلاصها لله وحده.

---

(١) «فتح القدير»: (٣/٢٩٦).

(٢) انظر: ص (٢٨٩).

(٣) انظر: ص (٥٠٥).

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تعبد ما أمرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بعبادته، بل الله فاعبد دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان والأنداد، وكن من الشاكرين لله على نعمته عليك بما أنعم من الهداية لعبادته، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان»[1].

وقال ابن كثير: «﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾** (النجم: ١٠).

- **اختلف في الموحي على قولين[3]:**

١ – أن الله تعالى أوحى إلى عبده محمد ﷺ، قاله ابن عباس.

٢ – أنه جبريل عليه السلام أوحى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه، قال به، والحسن، وقتادة والربيع وابن زيد.

والثاني هو الأظهر، يقول الطبري رحمه الله: «وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فأوحى جبريل إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه، لأن افتتاح الكلام جرى في أول السورة بالخبر عن رسول الله ﷺ، وعن جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ في سياق ذلك ولم يأت ما

(١) «جامع البيان»: (٢٤/٢٤ ـ ٢٥).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٤/٦٢).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (٢٢/٢٠).



يدل على انصراف الخبر عنهما، فيوجه ذلك إلى ما صرف إليه»[1].

**❖ في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾، قولان:**

١ – قيل إن (ما) للإبهام؛ لتعظيم الموحى وتفخيمه.

٢ – وقيل إن (ما) للعموم.

والأول أولى، قال الشوكاني: «وقيل إن ما للعموم لا للإبهام والمراد كل ما أوحى به إليه والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم»[2].

**❖ قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾** (الحديد: ٩).

ومن البدهي أن العبد هنا أيضاً هو محمد ﷺ، قال الطبري:

«يقول تعالى ذكره: الله الذي ينزل على عبده محمد ﷺ ﴿ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾: يعني مفصلات، ﴿ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ يقول جل ثناؤه: ليخرجكم أيها الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى»[3].

**❖ من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾** (الجن: ١٩).

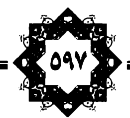
- **المراد بـ: ﴿ عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾ هنا هو النبي محمد ﷺ.**

---

(١) «جامع البيان»: (٢١/٢٢).

(٢) «فتح القدير»: (١٠٦/٥)، وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان: (١٥٦/٨).

(٣) «جامع البيان»: (٢١٩/٢٧).



- **معنى: ﴿ لِبَدًا ﴾: أي جماعات بعضها فوق بعض**[1].

- **في معنى قوله تعالى: ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا ﴾:**

**اختُلف فيه على ثلاثة أقوال**[2]**:**

١ – قيل عني بذلك الجن أنهم كادوا يركبون رسول الله ﷺ لما سمعوا القرآن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك.

٢ – وقيل: بل هذا من قول النفر من الجن لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله ﷺ له وائتمامهم به في الركوع والسجود، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير.

٣ – بل ذلك من خبر الله الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ لعلمه أن الإنس والجن تظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاءهم به فأبى الله إلا إتمامه، قاله: قتادة، وابن زيد.

❖ **ورجح ابن جرير رحمه الله القول الثالث لمناسبته السياق فقال:**

«وأولى الأقوال بالصواب في ذلك: قول من قال: ذلك خبر من الله عن أن رسوله محمداً ﷺ لما قام يدعوه، كادت العرب تكون عليه جميعاً في إطفاء نور الله.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالصواب؛ لأن قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١١٧/٢٩).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (١١٧/٢٩ ـ ١١٩).



يَدۡعُوهُ ﴾ عقيب قوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ (الجن:١٨)، وذلك من خبر الله، فكذلك قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾، وأخرى أنه تعالى ذكره أتبع ذلك قوله: ﴿ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ (الجن:١٨) فمعلوم أن الذي يتبع ذلك الخبر عما لقي المأمور بأن لا يدعو مع الله أحداً في ذلك، لا الخبر عن كثرة إجابة المدعوين وسرعتهم إلى الإجابة»[(١)].

- ووصف ﷺ هنا بالعبودية دون الرسالة أو النبوة، لأمرين[(٢)]:

١ – إما لأنه يحكي عن نفسه ﷺ، فحكى على سبيل التواضع والتذلل، فكأنه قال: (وأوحى إليَّ أنه لما قام عبد الله)، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه: جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل.

٢ – أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله لله ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر، حتى يكونوا عليه لبداً.

❖ **من قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ (العلق: ٩-١٠).**

المراد بالعبد هنا هو النبي ﷺ قال البغوي في نزولها: «﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ نزلت في أبي جهل نهى النبي ﷺ عن الصلاة»[(٣)].

قال الشوكاني: «﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾: قال المفسرون:

---

(١) «جامع البيان»: (٢٩/١١٩).

(٢) انظر: «الكشاف»: (٤/٦٣٢).

(٣) «معالم التنزيل»: (٤/٥٠٧).

الذي ينهى أبو جهل والمراد بالعبد محمد ﷺ وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه من الرؤية»[1].

- ولا شك أن التعجيب من النهي عن الصلاة يكون أكبر لفظاعة العمل إذا عرف أنه كان لرسول الله، قال ابن عاشور: «والمراد بالعبد النبي ﷺ وإطلاق العبد هنا على معنى الواحد من عباد الله أيّ شَخْصٍ كما في قوله تعالى: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ (الإسراء:٥)، أي رجالاً، وعدل عن التعبير عنه بضمير الخطاب لأن التعجيب من نفس النهي عن الصلاة بقطع النظر عن خصوصية المصلّي. فشموله لنهيه عن صلاة النبي ﷺ أوقع، وصيغة المضارع في قوله: ﴿ يَنْهَىٰ ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة وإلا فإن نهيه قد مضى، والمنهي عنه محذوف يغني عنه تعليق الظرف بفعل (ينهى) أي نهاه عن صلاته»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩).**

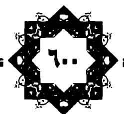
أمر ﷺ بالعبادة في كل لحظة من لحظات حياته حتى الموت، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: واعبد ربك حتى يأتيك الموت الذي هو موقن به»[3].

---

(١) «فتح القدير»: (٤٦٩/٥).

(٢) «المصدر السابق»: (٤٤٧/٣٠).

(٣) «جامع البيان»: (٧٤/١٤).



**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ في ضوء هذه الآيات:**

- **في إضافة العبد إليه تعالى في قوله تعالى: (عبدنا):**

فيه «تنبيه على عظيم قدره، واختصاصه بخالص العبودية، ورفع محله وإضافته إلى نفسه تعالى»[(١)].

وفيه إلماح إلى بيان إخلاصه عبادته لله تعالى وحده، وكونه لم يتعبد لغيره قط ﷺ[(٢)].

- **في قوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿ فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ﴾...الآية** (يونس: ١٠٤):

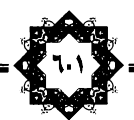
**فيه جمع بين النفي والإثبات، قال ابن عاشور:** «والجمع بين نفي أن يَعبد الأصنام، وبين إثبات أنه يعبد الله؛ يقوم مقام صيغة القصر لو قال: فلا أعبد إلا اللّهَ، فوجه العدول عن صيغة القصر: أنّ شأنها أن يطوى فيها الطرف المنفي للاستغناء عنه بالطرف المثبَت لأنه المقصود، وذلك حين يكون الغرض الأصلي هو طرف الإثبات، فأما إذا كان طرف النفي هو الأهم كما هنا وهو إبطال عبادة الأصنام أوّلاً عدل على صيغة القصر إلى ذكر صيغتي نفي وإثبات»[(٣)].

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/١٤٥).

(٢) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (١/٦٢).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١١/٣٠١ـ ٣٠٢).



- **في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾...الآية، هناك علاقة بين ذكر التسبيح قبل ذكره ﷺ، وذكر التحميد كذلك قبل ذكره ﷺ**، قال الرازي: «أن التسبيح أينما جاء فإنما جاء مقدماً على التحميد، ألا ترى أنه يقال: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ للَّهِ) إذا عرفت هذا فنقول: إنه جل جلاله ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١)، وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (الكهف: ١)، وفيه فوائد:

- ذكر منها ـ أن التسبيح أول الأمر؛ لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي، وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملاً في ذاته، ونهاية الأمر كونه مكملاً لغيره، فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا: سبحان الله، ثم ذكر بعده: الحمد لله؛ تنبيهاً على أن مقام التسبيح مبدأ، ومقام التحميد نهاية»[(١)].

- **في قوله تعالى: ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾...الآية، وضع الاسم الظاهر موضع المضمر:**

قال ابن عاشور: «و(عبد الله) هو محمد ﷺ وضع الاسم الظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: وأنه لما قمتَ تدعو الله كادوا يكونون عليك،

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٦٢/٢١ ـ ٦٣).

أو لما قمتُ أدعو الله، كادوا يكونون عليَّ، ولكن عدل إلى الاسم الظاهر لقصد تكريم النبي ﷺ بوصف (عبد الله) لما في هذه الإضافة من التشريف مع وصف (عبد)»[1].

- **في قوله تعالى: ﴿ يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا ﴾ ولم يقل: ينهاك، وفيه فوائد منها[2]:**

أحدها: أن التنكير في قوله: ﴿ عَبْدًا ﴾ يدل على كونه كاملاً في العبودية، كأنه يقول: إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه في عبوديته فكأنه تعالى قال: ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق.

وثانيها: أن هذا أبلغ في الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى.

وثالثها: أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة.

ورابعها: أنه تفخيم لشأن النبي ﷺ يقول: إنه مع التنكير معرف.

**رابعاً: تمثل صفة العبودية في النبي ﷺ:**

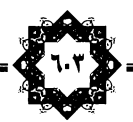
- **كان رسول الله ﷺ أعبد الناس لربه، في قوله، وفعله، وسمته.**

أما في قوله فقد وصف نفسه بالعبودية لما قال: «أفلا أكون عبداً شكورا»؟

وأما في فعله ﷺ فلنا أن نتصور مصدر فِقْهِنا لكل عبادة كبيرة كانت أو

(١) «التحرير والتنوير»: (٢٩/٢٤٢).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٣٢/٢١).



صغيرة قولية أو فعلية أو قلبية إنما كان مصدره رسول الله ﷺ بلغنا بذلك عن ربه جل وعلا، فكيف تمثل هذه العبادات فيه وهو أحب الخلق إلى خالقه، وأقرب الخلق إليه ﷺ؟

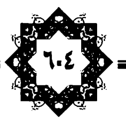
وكل مباحث هذا الفصل وغيرها تمثل لنا عبوديته ﷺ لربه جل وعلا.

وأما في سمته فلا أدل على ذلك من تواضعه ﷺ، كما مر بنا في أمثلة كثيرة في مبحث التواضع.

## خامساً: صفة العبودية في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- **العبودية إن لم تكن لله كانت للشيطان** ويكفي في هذا اتباع الهوى والعياذ بالله، من الافتتان بأسباب الشهوات من النساء والأموال والمعازف والمذاهب الفكرية المنحرفة وغير ذلك، وهذا من القبح بمكان ما يدل عليه قوله تعالى في متبع هواه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (الأعراف: ١٧٦).

- **إن من حقيقة العبودية أن يشعر العبد أنه مفتقر إلى مولاه**، فهذا أمر ذاتي لا عبودية بدونه، فيفتقر إلى ربه من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال وتعظيم، وأن يوقن في قرارة نفسه أن ربه إنما خلقه لعبادته، قال ابن تيمية رحمه الله: «وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتي له، لا وجود له بدون ذلك، والحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات، وذلك هي أنها لخالقها وفاطرها؛ إذ لا قيام لها بدونه وإنما يفترق الناس في شهود هذا الفقر والاضطرار، وعزوبه عن قلوبهم.



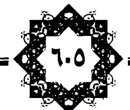
وأيضا فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال وتعظيم، فهو غاية مطلوبه ومراده ومنتهى همته، ولا صلاح له إلا بهذا... فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها وتذل لمن افتقرت إليه وغناه من الصمدية التي انفرد بها فإنه (يسأله من في السموات والأرض) وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال، ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل، وذلك هو عبادته والإنابة إليه، فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه، فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينيب إليه، وذلك قدر زائد على مسألته والافتقار إليه، فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئته قائمة بقدرته وكلمته، محتاجة إليه، فقيرة إليه، مسلمة له طوعاً وكرهاً، فإذا شهد العبد ذلك وأسلم له وخضع، فقد آمن بربوبيته أي حاجته وفقره إليه، صار سائلاً له متوكلاً عليه، مستعيناً به، إما بحاله أو بقاله بخلاف المستكبر عنه، المعرض عن مسألته»[(١)].

- **على العبد أن يوقن أن عبوديته لربه دائمة حتى الممات، فلا تسقط عن العبد بحال ما دام حياً**، قال ابن كثير: «ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ (الحجر: ٩٩) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا فيصلي بحسب حاله»[(٢)].



(١) «كتب وفتاوى ورسائل ابن تيمية في التفسير»: (١٤/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٦١).



# الصفة الثانية

## العمل

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة العمل:

العمل: الفعل.

قال ابن فارس: «(عَمَلَ): العين والميم واللام: أصل واحد صحيح، وهو عام في كل فعل يفعل»[1].

❖ الآيات التي وصف فيها ﷺ بالعمل:

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣٥).

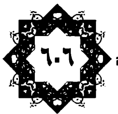
- قوله تعالى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (هود: ٩٣).

- قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴾ (هود: ١٢١).

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٣٩).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٤٥/٤).



**ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة العمل للنبي ﷺ:**

- من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣٥).

في هذه الآية تهديد للكفار الذين دعاهم محمد ﷺ ولم يستجيبوا، ووعيد لهم، قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي»[(١)].

ولما كان التهديد صادراً ممن يعلم العاقبة، قال لهم قول الواثق بوعد ربه ووعيده لهم، أنهم سوف يعلمون العاقبة، قال الطبري: «إني عامل يقول جل ثناؤه لنبيه قل لهم اعملوا ما أنتم عاملون فإني عامل ما أنا عامله مما أمرني به ربي فسوف تعلمون يقول فسوف تعلمون عند نزول نقمة الله بكم أينا كان المحق في عمله والمصيب سبيل الرشاد أنا أم أنتم»[(٢)].

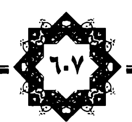
فالمكانة: هي الطريقة والحال، قال القرطبي: «والمكانة الطريقة والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه»[(٣)].

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (١٧٩/٢).

(٢) «جامع البيان»: (٣٩/٨).

(٣) «تفسير القرطبي»: (٨٩/٧).



❖ **مسألة: كيف يؤمرون بالثبات على طريقتهم وهم كفار؟**

قال الطبري: «وقوله تعالى ذكره لنبيه قل لقومك يا قوم اعملوا على مكانتكم أمر منه له بوعيدهم وتهديدهم لا إطلاق لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله»[1].

- **من قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾** (هود: ٩٣).

- **من قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾** (هود: ١٢١).

- **من قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾** (الزمر: ٣٩).

هذه الآيات الكريمات كسابقتها، قال الشوكاني: «لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ تمكن وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله:

---

(١) «جامع البيان»: (٣٩/٨)، وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان: (٢٢٩/٤)، «تفسير القرطبي»: (٨٩/٧).

﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده»[1].

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ في ضوء هذه الآيات:**

- **جملة (إني عامل) تتضمن معنى التعليل للتسوية**، قال ابن عاشور: «وجملة: (إني عامل) تعليل لمفاد التّسوية من الأمر في قوله: (اعملوا) أي لا يضرّني تصميمكم على ما أنتم عليه، لكنّي مستمرّ على عملي، أي أنّي غير تارك لما أنا عليه من الإيمان والدّعاء إلى الله»[2].

- **حذف متعلق: (إني عامل)، وذلك للتّعميم مع الاختصار**، قال ابن عاشور: «وحذف متعلّق: (إني عامِلٌ): ليَعمّ كل متعلّق يصلح أن يتعلق بـ: (عامِل) مع الاختصار فإن مقابلته بقوله: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ يدل على أنه أراد من ﴿ إِنِّى عَـٰمِلٌ ﴾ أنه ثابت على عمله في نصحهم ودعوتهم إلى ما ينجيهم، وأن حذف ذلك مشعر بأنه لا يقتصر على مقدار مكانته وحالته، بل حالة تزداد كل حين قوةً وشدة لا يعتريها تقصير ولا يثبطها إعراضهم»[3].

- **في سورة الأنعام اقترن قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بالفاء، بينما لم يقترن بالفاء في سورة هود، ونكتة ذلك:**

---

(١) «فتح القدير»: (٢/٥٢١)، وانظر: «جامع البيان»: (١٢/١٤٧)، وأيضاً (٢٤/٧ـ٨).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٨/٩١).

(٣) «المصدر السابق»: (٢٤/٢٠).



أثبتت الفاء لأنه «لما كان وقوع المتوعد به سبباً للعلم بالعاقبة، وكان السياق لعدم تذكرهم وغرورهم وقلة فطنتهم، حسن إثبات الفاء في قوله: ﴿ فَسَوْفَ ﴾ دون إسقاطها لأن الاستئناف يتعطف للسؤال فقال: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي يقع لكم ـ بوعد لا خلف فيه ـ العلم، فكأنه قيل: أيّ علم؟ فقيل: (من تكون له) كوناً كأنه جبل عليه (عاقبة الدار) أي بيني وبينكم»[1].

وحذفت الفاء لأنه: «يجعله جواباً عن سؤال مقدر والتقدير: أنه لما قال: ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ﴾ فكأنهم قالوا: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) فظهر أن حذف حرف الفاء هاهنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل»[2].

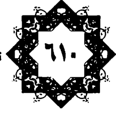
## رابعاً: تمثل صفة العمل في النبي ﷺ:

- إذا أطلقنا العنان لصفة العمل للنبي ﷺ في غير هذه الآيات الأربع، لوجدنا أن فضاءها رحب، وترابها خصب، بل إن كل الصفات الواردة في هذا الفصل: (الصفات التعبدية) إنما تعد من أيسر الأمثلة على عمله ﷺ فكان كل عمله ﷺ لله تعالى سواء كان هذا العمل لدنياه أو لآخرته، ويكفي في ذلك قول الله جل في علاه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾...الآية (الأنعام: ١٦٢).

---

(١) «نظم الدرر» للبقاعي: (٢/ ٧٢٠).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (١٨/ ٤٢).



- كان ﷺ رمزاً للنشاط وحب الحركة، والعمل حتى بين أصحابه، فلم يعرف يوماً متربعاً على عرش، ولا آمراً بحاجاته عن تقاعس أو كبرياء، كما مر معنا في عمله ﷺ في الخندق مع أصحابه[1].

- وإن كان هذا ديدنه في أمور الدنيا، فلعمري كيف هو في أمور آخرته وأنسه بربه ﷺ؟

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ليلة، فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوءٍ، قُلنا: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ»[2].

- وكثير مما سيمر معنا في هذا الفصل إن شاء الله تعالى، إنما هو تطبيق عملي لعمله ﷺ.

## خامساً: صفة العمل في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- العمل في واقعنا المشاهد يشغل بال أفراد المجتمع، وما ذاك إلا لأهميته البالغة، بل إن في غيابه غياب للمسؤولية، ونشأة للبطالة، واتساع في الفراغ،

---

(١) انظر: ص (٢٠٨).

(٢) رواه البخاري، أبواب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل، (١/٣٨١/ح ١٠٨٤)، واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، (١/٥٣٧/ح ٧٧٣).

فبالعمل النافع تصان الأوقات، وتجنى الثمرات.

- ويمكن النظر للعمل وأهميته من حيثيات متعددة منها:

- العمل إما أن يكون عمل خير، وإما أن يكون عمل شر، وهذا ما أستبعد الحديث عنه، إذ الأصل في الحديث عن فوائد العمل أنه صالح نافع.

- العمل في الدنيا وللدنيا: لا بد وأن تصحبه النية الصالحة مهما كانت ماهيته، فبالنية يؤجر الإنسان وإن كان عملاً دنيوياً بحتاً كالأكل والشرب ونحوهما.

- العمل للآخرة: هو ما عليه مناط وجودنا في هذه الدنيا بدءاً بالتوحيد والعبادة، وانتهاء بخاتمة المرء في دنياه، قال علي رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل»[(١)].

- العمل بالعلم: وهو من أهم المهمات، وليس هذا محل الاستفاضة فيه، ولكن أذكر شواهد:

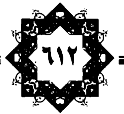
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يغرركم من قرأ القرآن إنما هو كلام نتكلم به ولكن انظروا من يعمل به»[(٢)].

وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: «يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من

---

(١) «شرح السنة» للبغوي: (١٤/٢٤٣).

(٢) «اقتضاء العلم للعمل» للبغدادي: (٧١).



عمل»[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «أيها الناس تعلموا فمن علم فليعمل»[2].

- العمل ركن في الإيمان، عن الحسن رضي الله عنه قال: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال من قال حسنا وعمل غير صالح رده الله على قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه العمل»[3].

- العمل رفيق العبد في قبره، عن الحسن رضي الله عنه قال: «يتوسد المؤمن ما قدم من عمله في قبره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فاغتنموا المبادرة رحمكم الله في المهلة»[4].

- بالعمل يكف المرء نفسه وعياله، ويصون ماء وجهه عن السؤال.



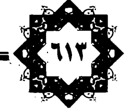
---

(١) «اقتضاء العلم للعمل» للبغدادي: (٢٢).

(٢) «المصدر السابق»: (٢٤).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي: (١/ ٨٠).

(٤) «الزهد» لابن المبارك: (١/ ٥٩).



# الصفة الثالثة

# الرَّغَب

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الرغب:

قال ابن فارس: «(رَغَبَ): الراء والغين والباء: أصلان: أحدهما: طلب لشيء، والآخر: سعة في شيء، فالأول الرغبة في الشيء: الإرادة له، رغبت في الشيء، فإذا لم ترده قلت: رغبت عنه»[(١)].

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بالرغب:**

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (الشرح: ٨):

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الرغب للنبي ﷺ:

الرَّغَبُ إلى الله جل وعلا وتوجيه المقصود إليه تعالى وقصده دون سواه من العبادات الجليلة التي أمر بها الله تعالى نبيه وصفيه محمد ﷺ، قال الطبري:

«وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ يقول تعالى ذكره وإلى ربك يا محمد فاجعل رغبتك دون من سواه من خلقه إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد»[(٢)]، ذكره الطبري عن مجاهد.

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٢/٤١٥).

(٢) «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٧).

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه صفة الرغب للرسول ﷺ:**

في تقديم الجار والمجرور إفادة الحصر، أي أن يكون الرغب إلى ربك فحسب لا إلى سواه.

**رابعاً: تمثل صفة الرغب في النبي ﷺ:**

كان راغباً ومرغِّباً ومرغوباً إليه.

❖ كان ﷺ راغباً إلى ربه جل وعلا في قوله وفعله وكل شأنه:

- فكان من دعائه ﷺ كل يوم عند النوم: «وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك» الحديث، فكان ﷺ يلقن الأمة كلها أن ترغب إلى ربها، وتجديد هذا الرغب في كل يوم.

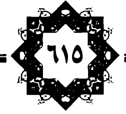
❖ وكان ﷺ راغباً عن غضب ربه وعذابه وعقابه.

❖ وكان مرغباً إلى ربه وثوابه وجنته.

قال ﷺ: «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض، لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها ـ يعني الخمار ـ خير من الدنيا وما فيها»[1].

❖ فلما كان كذلك جعل الله تعالى الخلائق كلها ترغب إليه قال عليه الصلاة

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار...، : (٥/٢٤٠١/ح ٦١٩٩).



والسلام: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم، حتى إبراهيم ﷺ»[1].

**خامساً: صفة الرغب في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

❖ الرغب إلى الله تعالى ـ وهو المقصود هنا ـ هو لب نية الإنسان في التوجه والقصد في مطالبه، وقد كثر من بعض الناس والعياذ بالله في أيامنا هذه قصد السحرة والمشعوذين لنيل مطلوباتهم، وهذا شرك والعياذ بالله، وسبب في تعاسة المرء، وضياع توحيده، وأي صورة للشرك لا بد وأن يدخلها عدم الرغب إلى الله أو الرغب إليه وإلى غيره معاً والعياذ بالله.

**❖ الرغب إلى الله تعالى له ثمرات يانعات منها:**

- أنه يقرب العبد من ربه.
- يجعل عمله خالصاً لوجهه الكريم.
- يضمن لصاحبه السعادة في الدنيا والآخرة.
- يزهده فيما هو بأيدي الناس.
- يثق الناس فيه لزهده فيهم ورغبته في الله وحده.



(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، (١/٥٦١/ ح ٨٢٠).

# الصفة الرابعة

# النَّصَب

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة النصب:

قال ابن منظور: «النَصَبَ: الإعياء من العناء، والفعل: نَصِبَ الرجلُ، بالكسر، نَصَباً: أعيا وتَعِبَ وأنْصَبَهُ هو، وأنصَبَني هذا الأمر... وفي التنزيل العزيز: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾، قال قتادة: فإذا فرغت من صلاتك، فانصب في الدعاء، قال الأزهري: هو من نَصِبَ يَنْصِبُ نصباً: إذا تعب»[(١)].

**❖ الآيات التي وصف فيها ﷺ بالنصب:**

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ (الشرح: ٧).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة النصب للنبي ﷺ:

**اختلف في هذه الآية على الأقوال التالية[(٢)]:**

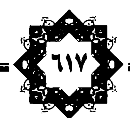
١ — قيل المعنى: (فإذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك في الدعاء وسله حاجاتك)، قاله: ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة.

٢ — وقيل المعنى: (فإذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك)،

---

(١) «لسان العرب»: (١/٧٥٨).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٦ ـ ٢٣٧)، «النكت والعيون»: (٦/٢٩٨ ـ ٢٩٩)، «المحرر الوجيز»: (٥/٤٩٧)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٤٨٤).



قاله: قتادة وابن زيد.

٣ – وقيل المعنى: (فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عبادة ربك)، قاله مجاهد.

❖ قال الطبري مرجحاً: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: إن الله تعالى ذكره، أمر نبيه ﷺ أن يجعل فراغه من كل ما كان به مشتغلا من أمر دنياه وآخرته، مما أدى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النصب في عبادته والاشتغال فيما قربه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالاً من أحوال فراغه دون حال، فسواء كل أحوال فراغه من صلاة كان فراغه أو جهاد أو أمر دنيا كان به مشتغلاً؛ لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ دون حال أخرى»[1].

- القراءات في الآية:

١ – قراءة الجمهور: (فانصَبْ) بسكون الباء مخففة.

٢ – وقرأ قوم: (فانصبّ) بتشديد الباء.

٣ – قراءة بعض الإمامية: (فانصِب) قال أبو حيان: «وقرأ الجمهور: (فَانصَبْ) بسكون الباء خفيفة، وقوم: بشدها مفتوحة من الأنصاب، وقرأ آخرون من الإمامية: فانصب بكسر الصاد بمعنى: إذا فرغت من الرسالة فانصب

(١) «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٧)، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٢٧).

خليفة، قال ابن عطية: وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم، انتهى»[١].

وفصل المؤلف[٢] في الأضواء في هذه المسألة ـ قراءة الكسر ـ ثم قال: «وعلى كل إذا كان الشيعة يحتجون بها، فيكفي لرد احتجاجهم أنها شاذة، وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند علماء التفسير، وهو صرف اللفظ عن ظاهره، لا لقرينة صارفة ولا علاقة رابطة»[٣].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

لم يذكر في الآية متعلق الفراغ، قال ابن عاشور: «ولم يذكر هنا متعلق: (فرغت)، وسياق الكلام يقتضي أنه لازم أعمال يعلمها الرسول ﷺ كما أن مساق السورة في تيسير مصاعب الدعوة وما يحف بها. فالمعنى إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال فأقبل على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة»[٤].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

انظر تمثل صفة العمل في النبي ﷺ[٥].

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٤٨٤).

(٢) الشيخ محمد عطية سالم في تتمته للأضواء.

(٣) «أضواء البيان»: (٨/٥٨٠).

(٤) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤١٦ ـ ٤١٧).

(٥) انظر: ص (٦٠٦).

**خامساً: صفة في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾: «حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العالم حيث لم تترك للمسلم فراغًا في وقته، لأنه إما في عمل للدنيا، وإما في عمل للآخرة.

وقد روي عن ابن عباس: «أنه مر على رجلين يتصارعان فقال لهما: ما بهذا أُمرنا بعد فراغنا».

وروي عن عمر أنه قال: «إني لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سبهللا، لا في عمل دنيا ولا دين» ولهذا لم يَشْكُ الصدر الأول فراغاً في الوقت»[1].

فعلى المرء أن يتخذها قاعدة في أوقاته: أنه إن لم يشغل وقته بالحق، شغل بالباطل، وإن لم يشغل نفسه، شغلته هي، فإذا فرغ من عمل، عليه المبادرة بعمل نافع آخر، حتى راحته واستجمامه ينوي أن تكون لله، فبالنية تكون كل الأوقات طاعات.



(١) «أضواء البيان»: (٨/٥٧٩).

## الصفة الخامسة

## الاستقامة

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الاستقامة:

الاستقامة من الفعل الماضي: (استقام)، أي اعتدل، قال الرازي في مختار الصحاح: «والاستقامة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر، وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ (فصلت: ٦) أي: في التوجه إليه دون الآلهة، وقَوَّمَ الشيءَ تقويماً فهو قَويمٌ: أي مستقيم»[١].

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بالاستقامة:**

- قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (هود: ١١٢).

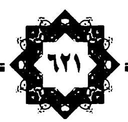
- وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ ﴾ (الروم: ٣٠).

- وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ (الروم: ٤٣).

- وقوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ ﴾ (الشورى: ١٥).

---

(١) «مختار الصحاح»: (١/ ٢٣٢).



## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الاستقامة للنبي ﷺ:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾:**

قال الشوكاني: «أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ أي: كما أمرك الله فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبده بفعله وأمته أسوته في ذلك»[(١)].

❖ **مسألة: فائدة توجيه الخطاب للنبي ﷺ، وكونه ﷺ يؤمر بالاستقامة وهو متلبس بها[(٢)]؟**

١ – للأمر بالدوام والثبوت على الاستقامة.

٢ – للدلالة على أنه ﷺ هو المتلقّي للأوامر الشرعيّة ابتداء، وأمته من بعده.

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ ﴾:**

- يقول ابن كثير في معناها: «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق

(١) «فتح القدير»: (٢/٥٢٩)، وانظر: «جامع البيان»: (١٢/١٢٦)، «معالم التنزيل»: (٢/٤٠٤)، «الكشاف»: (٢/٤٠٧)، «المحرر الوجيز» (٣/٢١١)، «تفسير ابن كثير»: (٢/٤٦٢).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز»: (٣/٢١١)، «التحرير والتنوير»: (١٢/١٧٦).

عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره»[1].

- وفي الآية تمثيل لإقباله على الدين وشدة اهتمامه به، يقول الزمخشري: «﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾: فقوِّم وجهك له وعدِّ له، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه، وسدّد إليه نظره، وقوّم له وجهه، مقبلاً به عليه»[2].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ في ضوء هذه الآيات:

- **فائدة الإتيان بالسين في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ ﴾:**

قال القرطبي: «فاستقم: اطلب الإقامة على الدين من الله واسأله ذلك فتكون السين سين السؤال كما تقول: أستغفر الله أطلب الغفران منه والاستقامة الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال فاستقم على امتثال أمر الله»[3].

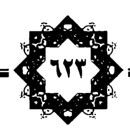
- **في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ عبر بالوجه عن الذات والكل:**

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (٤٣٣/٣)، وانظر: «جامع البيان»: (٤٠/٢١)، «معالم التنزيل»: (٤٨٢/٣).

(٢) «الكشاف»: (٤٨٤/٣)، وانظر: «فتح القدير»: (٢٢٣/٤).

(٣) «تفسير القرطبي»: (١٠٧/٩).



قال الرازي: «أي أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص: ٨٨) أي ذاته بصفاته»(١).

## رابعاً: تمثل صفة الاستقامة في النبي ﷺ:

لم يفتأ رسول الله ﷺ مقبلا على دينه بكل حواسه، مسددا وجهته إليه دون أدنى التفات إلى غيره، مهتما به منذ أن بعثه الله تبارك وتعالى، فلم يأبه بمغريات قومه التي عرضوها عليه، وثبت على أمره، ولم يأبه بالصعوبات والعقبات العظام التي اعترضت طريقه، فاستقام على هذا الطريق دون أيما اعوجاج حاشاه بأبي هو وأمي ﷺ، فكان هذا ما يأمر به أصحابه، ويندب إليه أمته ﷺ.

- فمن ذلك: قوله ﷺ: «قل آمنت بالله فاستقم»(٢).

قال النووي: «هذا من جوامع كلمه ﷺ وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ (فصلت: ٣٠) أي وحدوا الله وآمنوا به ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن توفوا على ذلك»(٣).

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- «سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٠٥/٢٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، (٦٥/١/ح ٣٨).

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم»: (٩/٢).

الاستقامة فقال: (أن لا تشرك بالله شيئاً)، يريد الاستقامة على محض التوحيد»[1].

- «وقال عمر بن الخطاب ﵁: (الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب)»[2].

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة)[3].

ومن فوائد الاستقامة[4]:

- أنه من كمال الإيمان وحسن الإسلام.
- بها ينال الإنسان الكرامات ويصل إلى أعلى المقامات.
- استقامة القلوب استقامة الجوارح.
- المداومة عليها أفضل من كثير من الأعمال التي يتطوع بها.
- صاحبها يثق به الناس، ويحبون معاشرته.
- الاستقامة أعظم الكرامة.
- دليل اليقين ومرضاة رب العالمين.



---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم: (٢/١٠٤).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) «المصدر السابق».

(٤) «نضرة النعيم»: (٢/٣١٩).

# المبحث الثاني

وفيه صفتان:

- الصفة الأولى: إقامة الصلاة.
- الصفة الثانية: السجود.

# الصفة الأولى

# إِقَامَةُ الصَّلاةِ

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة إقامة الصلاة للنبي ﷺ:

- **إقامة:**

من أقام، قال ابن منظور: «وأقام الشيء: أدامه»(١).

- **الصلاة:**

لفظ يطلق على الدعاء، وعلى الرحمة، وعلى العبادة المعروفة، قال الرازي في مختار الصحاح: «ص ل و: الصَّلاةُ: الدعاء، والصلاة من الله تعالى: الرحمة، والصلاة واحدة الصلوات المفروضة، وهو اسم يوضع موضع المصدر، يقال: صَلَّى صَلاةً، ولا يقال: تصلية»(٢).

❖ **من الآيات التي وصف فيها ﷺ بإقامة الصلاة:**

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣).

- قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (هود: ١١٤).

---

(١) «لسان العرب»: (١٢/ ٤٩٩).

(٢) «مختار الصحاح»: (١/ ١٥٤).

- قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٨).

- قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه: ١٣٢).

- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الشعراء: ٢١٨).

- قوله تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (المزمل: ٢).

- قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ (الكوثر: ٢).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها الرسول ﷺ بهذه الصفة:

❖ من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣).

عُلِّمَ النبي ﷺ أن يشكر ربه على هدايته الطريق المستقيم، بأن يجعل كل عباداته وطاعاته خالصة لربه جل وعلا، وأمته من بعده.

- **اختُلِف على معنى الصلاة المذكورة في الآية على أقوال:**

- قيل في المراد: جنسها فيدخل فيه جميع أنواعها[1].

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٢/١٩٥)، «المحرر الوجيز»: (٢/٣٦٩)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/٢٦٢)، «فتح القدير»: (٢/١٨٥).



- وقيل: صلاة الليل[1].
- وقيل: صلاة العيد لمناسبة النسك[2].
- وقيل الدعاء والتذلل[3].

❖ **والقول بالعموم أولى والله أعلم.**

- **في المعنى العام للآية:**

١ – إما أن يراد بها أمر النبي ﷺ أن يقصد بكل عباداته وطاعاته وجه الله جل وعلا.

٢ – أو أن المعنى: أن كل طاعاته وعباداته وحياته وموته بيد الله تعالى.

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي** ﴾ الآية: أمر من الله ﷻ أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها وتصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله ﷻ وإرادة وجهه وطلب رضاه وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله ﷻ ويحتمل أن يريد بهذه المقالة أن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله ﷻ يصرفه في جميع ذلك كيف شاء وأنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم»[4].

---

(١) انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/٢٦٢)، «فتح القدير»: (٢/١٨٥).

(٢) انظر: «المصدرين السابقين».

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤/٢٦٢).

(٤) «المحرر الوجيز»: (٢/٣٦٩)، وانظر: «النكت والعيون»: (٢/٥٠٨).



- قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (هود: ١١٤).

ظاهر الآية أن النبي ﷺ أمر بالصلاة وإقامتها.

- وفي معنى قوله تعالى: ﴿ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ خلاف:

ذكر المفسرون أن الطرف الأول هو صلاة الصبح باتفاق[١]، وأما الثاني فاختلف فيه على أقوال[٢]:

١ – أنه عنى صلاة الظهر والعصر، قاله مجاهد[٣].

٢ – وقيل: صلاة العصر وحدها، قاله الحسن[٤]، والضحاك وقتادة[٥].

٣ – وقيل: صلاة المغرب، قاله ابن عباس»[٦]، والحسن، وابن زيد[٧].

❖ **وقد رجح الطبري** رحمه الله **أنها صلاة المغرب**، فقال: «وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب: قول من قال: هي صلاة المغرب كما ذكرنا عن

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٢/١٢٧)، «النكت والعيون»: (٢/٥٠٨).

(٢) انظر: «معالم التنزيل»: (٢/٤٠٤ ـ ٤٠٨)، «المحرر الوجيز»: (٣/٢١٢)، «تفسير القرطبي»: (٩/١٠٩)، «تفسير ابن كثير»: (٢/٤٦٢)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٤/٤٨١)، «فتح القدير»: (٢/٥٣١ ـ ٥٣٢).

(٣) انظر: «معالم التنزيل»: (٢/٤٠٤)، «المحرر الوجيز»: (٣/٢١٢).

(٤) انظر: «المصدرين السابقين».

(٥) انظر: «جامع البيان»: (١٢/١٢٧).

(٦) انظر: «المصدر السابق»، «النكت والعيون»: (٢/٥٠٨).

(٧) انظر: «جامع البيان»: (١٢/١٢٨).



ابن عباس رضي الله عنهما.

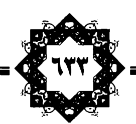
وإنما قلنا هو أولى بالصواب؛ لإجماع الجميع على أن صلاة أحد الطرفين من ذلك: صلاة الفجر، وهي تصلى قبل طلوع الشمس، فالواجب إذ كان ذلك من جميعهم إجماعاً، أن تكون صلاة الطرف الآخر: المغرب؛ لأنها تصلى بعد غروب الشمس، ولو كان واجباً أن يكون مراداً بصلاة أحد الطرفين: قبل غروب الشمس، وجب أن يكون مراداً بصلاة الطرف الآخر: بعد طلوعها، وذلك ما لا نعلم قائلاً قاله، إلا من قال عنى بذلك صلاة الظهر والعصر، وذلك قول لا نخيل فساده؛ لأنهما إلى أن يكونا جميعاً من صلاة أحد الطرفين، أقرب منهما إلى أن يكونا من صلاة طرفي النهار، وذلك أن الظهر لا شك أنها تصلى بعد مضي نصف النهار في النصف الثاني منه، فمحال أن تكون من طرف النهار الأول، وهي في طرفه الآخر.

فإذا كان لا قائل من أهل العلم يقول: عني بصلاة طرف النهار الأول صلاة بعد طلوع الشمس، وجب أن يكون غير جائز أن يقال: عنى بصلاة طرف النهار الآخر صلاة قبل غروبها، وإذا كان ذلك كذلك، صح ما قلنا في ذلك من القول، وفسد ما خالفه»[1].

- **معنى قوله تعالى: ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾**: قال الطبري: «وأما قوله: ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾: فإنه يعني ساعات من الليل وهي جمع زلفة، والزلفة:

---

(١) «جامع البيان»: (١٢/ ١٢٩).



الساعة والمنزلة والقربة»[1].

❖ **مسألة: فائدة ذِكرِ إقامة الصلاة بعد الأمر بالاستقامة.**

١ – لما ذكر الله سبحانه الاستقامة، خص من أنواعها إقامة الصلاة؛ لكونها رأس الإيمان[2].

٢ – وللدلالة على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله، هو الصلاة[3].

- **من قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾** (الإسراء: ٧٨).

- لا خلاف بين المفسرين بأن الله تعالى في هذه الآية يأمر نبيه بإقامة الصلوات المكتوبات.

- ثم اختلف في التوقيت المذكور في الآية وهو ﴿**لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ**﴾ والصلاة المأمور بإقامتها في هذا الحين على قولين:

١ – فقيل: هو وقت غروبها، والصلاة التي أمر بإقامتها حينئذ صلاة المغرب، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ومجاهد[4].

٢ – وقيل: هو ميلها للزوال، والصلاة التي أمر رسول الله ﷺ بإقامتها

---

(١) «جامع البيان»: (١٢/١٢٩).

(٢) انظر: «فتح القدير»: (٢/٥٣١).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» للرازي: (١٨/٥٨).

(٤) انظر: «جامع البيان»: (١٥/١٣٤ ـ ١٣٥).



عند دلوكها هي: صلاة الظهر، قاله: ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك[1].

❖ **ورجح الطبري القول الثاني، حيث قال:**

«وأولى القولين في ذلك بالصواب: قول من قال: عنى بقوله: ﴿ **أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ** ﴾ صلاة الظهر؛ وذلك أن الدلوك في كلام العرب: الميل، يقال منه: دَلَكَ فلان إلى كذا: إذا مال إليه»[2].

- **وأما قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾:**

فقال ابن عطية: «و﴿ **غَسَقِ ٱلَّيْلِ** ﴾: أشير به إلى المغرب والعشاء، ﴿ **وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ** ﴾: أريد به صلاة الصبح فالآية على هذا تعم جميع الصلوات»[3].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾** (طه: ١٣٢).

«أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمتثلها معهم ويصطبر عليها ويلازمها وهذا خطاب للنبي ﷺ ويدخل في عمومه جميع أمته وأهل بيته على التخصيص»[4].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٣٥/١٥)، «المحرر الوجيز»: (٤٧٧/٣).

(٢) «جامع البيان»: (١٣٦/١٥).

(٣) «المحرر الوجيز»: (٤٧٧/٣).

(٤) «تفسير القرطبي»: (٢٦٣/١١).

وقال الشوكاني: «﴿ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾: أي اصبر على الصلاة، ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا، ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾: أي لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، وتشتغل بذلك عن الصلاة، ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ونرزقهم ولا نكلفك ذلك، ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾: أي العاقبة المحمودة وهي الجنة، لأهل التقوى على حذف المضاف كما قال الأخفش، وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾** (الشعراء: ٢١٨).

- **المراد بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ ﴾:**

أي: «أن النبي ﷺ بمحل العناية منه؛ لأنه يعلم توجهه إلى الله ويقبل ذلك منه، فالمراد من قوله: ﴿ يَرَىٰكَ ﴾ رؤيةٌ خاصة، وهي رؤية الإقبال والتقبل، كقوله: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨)»[2]، وبذلك فسرها ابن كثير رحمه الله[3].

- **والمراد بقوله تعالى: ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾:**

أكثر المفسرين على أن المراد: حين تقوم إلى صلاتك، قال البغوي:

---

(١) «فتح القدير»: (٣/٣٩٤)، وانظر: «جامع البيان»: (١٦/٢٣٦)، «النكت والعيون»: (٣/٢٤٣)، «الكشاف»: (٣/٩٩)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٦/٢٧٠)، «تفسير ابن كثير»: (٣/١٧٢).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٩/٢٠٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/٣٥٣).



«﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى صلاتك عن أكثر المفسرين، وقال مجاهد: الذي يراك أينما كنت، وقيل حين تقوم لدعائهم»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾** (المزمل: ٢).

قال الطبري: «وقوله: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: يقول لنبيه ﷺ: قم الليل يا محمد، كله، إلا قليلا منه نصفه، يقول: قم نصف الليل أو انقص منه قليلاً ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾: يقول: أو زد عليه، خَيَّرَهُ اللهُ تعالى ذكره حين فرض عليه قيام الليل بين هذه المنازل، أي ذلك شاء فعل، فكان رسول الله ﷺ وأصحابه فيما ذُكِر، يقومون الليل نحو قيامهم في شهر رمضان فيما ذكر، حتى خفف ذلك عنهم»[2].

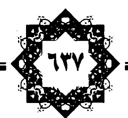
وقال البغوي: «وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ في الابتداء وعلى الأمة لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (المزمل: ١ ـ ٢) ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا في حق الأمة بالصلوات الخمس وبقي الاستحباب قال الله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (المزمل: ٢٠) وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ»[3].

---

(١) «معالم التنزيل»: (٣/٤٠٢)، وانظر: «جامع البيان»: (١٩/١٢٣)، «النكت والعيون»: (٤/١٨٨ ـ ١٨٩)، «تفسير القرطبي»: (١٣/١٤٤)، «فتح القدير»: (٤/١٢٠).

(٢) «جامع البيان»: (٢٩/١٢٤).

(٣) «معالم التنزيل»: (٣/١٢٨).



❖ من قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ (الكوثر: ٢).

اختلف المفسرون في الصلاة التي أمر الله تعالى نبيه ﷺ بإقامتها في هذا الخطاب، وكذا في المراد بقوله تعالى: ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ على النحو الآتي[1]:

١ – قيل المراد: حضه على المواظبة على الصلاة المكتوبة وعلى الحفظ عليها في أوقاتها بقوله فصل لربك وانحر، قاله علي رضي الله عنه.

٢ – وقيل المراد: أن يرفع يديه إلى النحر عند افتتاح الصلاة والدخول فيها.

٣ – وقيل المراد: بقوله فصل لربك المكتوبة وبقوله وانحر نحر البدن، قاله: ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء.

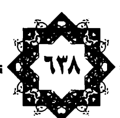
٤ – وقيل المراد: صل يوم النحر صلاة العيد وانحر نسكك، قاله: ابن عباس والحسن والربيع وعطاء وقتادة ومجاهد وعكرمة.

٥ – وقيل: قيل ذلك للنبي ﷺ؛ لأن قوما كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغيره فقيل له اجعل صلاتك ونحرك لله إذ كان من يكفر بالله يجعله لغيره.

٦ – وقيل: بل أنزلت هذه الآية يوم الحديبية حين حصر النبي ﷺ وأصحابه، وصدوا عن البيت، فأمره الله أن يصلي وينحر البدن وينصرف ففعل، قاله: عن سعيد بن جبير.

٧ – وقيل: بل معنى ذلك فصل وادع ربك وسله، ذكره الطبري عن

(١) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٣٢٥-٣٢٨).



الضحاك[1].

❖ **قال الطبري مرجحاً**: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك، اجعله له دون الأوثان، شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفء له، وخصك به من إعطائه إياك الكوثر.

وإنما قلت: ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك؛ لأن الله جل ثناؤه، أخبر نبيه بما أكرمه به من عطيته وكرامته وإنعامه عليه بالكوثر، ثم أتبع ذلك قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾، فكان معلوما بذلك أنه خصه بالصلاة له والنحر على الشكر له على ما أعلمه من النعمة التي أنعمها عليه، بإعطائه إياه الكوثر، فلم يكن لخصوص بعض الصلاة بذلك دون بعض، وبعض النحر دون بعض وجه، إذ كان حثا على الشكر على النعم.

فتأويل الكلام إذن: إنا أعطيناك يا محمد الكوثر، إنعاما منا عليك به وتكرمة منا لك، فأخلص لربك العبادة، وأفرد له صلاتك ونسكك، خلافا لما يفعله من كَفَرَ به وعَبَدَ غيره ونَحَرَ للأوثان»[2].

---

(١) «جامع البيان»: (٣٢٨/٣٠)، وانظر أيضاً: «النكت والعيون»: (٣٥٥/٦)، «معالم التنزيل»: (٥٣٤/٤)، «المحرر الوجيز»: (٥٢٩/٥)، «تفسير القرطبي»: (٢١٨/٢٠)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٥٢١/٨)، «فتح القدير»: (٥٠٢/٥).

(٢) «جامع البيان»: (٣٢٨/٣٠).



- **فائدة الجمع بين الصلاة والنحر في الآية:**

وذلك لأنهما أجل ما يُتقرب به إلى الله تعالى، قال ابن تيمية رحمه الله: «والمقصود: أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر، سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر، والخير الكثير، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان، بل الصلاة نهاية العبادات وغاية الغايات، كأنه يقول: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ (الكوثر: ١): الخير الكثير، وأنعمنا عليك بذلك؛ لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين، شكرا لإنعامنا عليك، وهما السبب لإنعامنا عليك بذلك، فقم لنا بهما، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما وإنعام بعدهما، وأجل العبادات المالية: النحر، وأجل العبادات البدنية: الصلاة، وما يجتمع للعبد في الصلاة، لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات، كما عرفه أرباب القلوب الحية، وأصحاب الهمم العالية، وما يجتمع له في نحره من إيثار الله وحسن الظن به وقوة اليقين والوثوق بما في يد الله، أمر عجيب إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه، فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر»[1].

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٦/ ٥٣٢).

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

- من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢)، أمران:

**١ - افتتاح الجملة المقولة بحرف التوكيد إن:**

١ - للاهتمام بالخبر ولتحقيقه.

٢ - ولأنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام كان يُرائي بصلاته، فتكون (إنّ) على هذا لردّ الشكّ[1].

**٢ - اللام في قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ ﴾:**

قال ابن عاشور: «واللاّم في ﴿ لِلَّهِ ﴾ يجوز أن تكون للملك، أي هي بتيسير الله فيكون بياناً لقوله: ﴿ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام: ١٦١)، ويجوز أن تكون اللام للتعليل أي لأجل الله، وجعل صلاته لله دون غيره تعريضاً بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام. ولذلك أردف بجملة (لا شريك له)»[2].

- **من قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾:**

- قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾، ولم يقل: (فصل لله)، أو: (فصل لنا):

١ - «لأن قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾: أبلغ من قوله: فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ويفيد الوعد

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير»: (٨/٢٠١).

(٢) «المصدر السابق»: (٨/٢٠١).



الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه»[1].

٢ – و«لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة؛ لأجل ربوبيته، فضلاً عن فرط إنعامه»[2].

- **فائدة الإتيان بالفاء في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ ﴾:**

قال الشوكاني: «﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾: الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها والمراد الأمر له ﷺ بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة»[3].

- **فائدة إضافة لفظ: (رَبٍّ) إلى ضمير المخاطب:**

قال ابن عاشور: «وإضافة (رَبٍّ) إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي ﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يَربُّه ويَرْأَفُ به»[4].

- **فائدة اللام في قوله تعالى: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾:**

قال ابن عاشور: «وأفادت اللام من قوله: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾: أنه يخُص الله بصلاته فلا يصلي لغيره، ففيه تعريض بالمشركين بأنهم يصلون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها»[5].

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٦/٥٣٣).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٥٧٤).

(٣) «فتح القدير»: (٥/٥٠٢).

(٤) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٥٧٤).

(٥) «المصدر السابق».



**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

- **عني رسول الله ﷺ** بالصلاة أيما عناية، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام، ورأف فيها بأمته ﷺ إذ فرضت في بادئ الأمر خمسين صلاة، إلى أن خففت إلى الخمس صلوات.

- **ورغب فيها ﷺ**، حيث قال: «يقول أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول ذلك يبقي من درنه؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا»(١).

- **وكان رحيماً في صلاته بالناس**، فعن أنس بن مالك قال: «ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة، ولا أتم من النبي ﷺ، وإن كان ليسمع بكاء الصبي، فيخفف مخافة أن تفتن أمه»(٢).

- **وأوصى بها آخر ما أوصى وهو في أصعب أحواله ﷺ**، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان من آخر وصية رسول الله ﷺ الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره وما يفيض بها لسانه»(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، (١/١٩٧/ح ٥٠٥)، واللفظ له، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، (١/٤٦٢/ح ٦٦٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، (١/٢٥٠/ ح ٦٧٦).

(٣) سبق تخريجه، انظر: ص (٣١٥).



- **وكانت قرة عينه في الصلاة**، قال رسول اللَّهِ ﷺ: «حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة»[1].

- **صلى رسول الله ﷺ في مواطن وأماكن وأوقات كثيرة منها:**

صلاة الجمعة، وصلاة الليل، وصلاة الوتر، وصلاة العيدين، وصلاة المسافرين، وصلاة الجنازة، وصلاة الخوف، وصلاة الخسوف والكسوف، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الضحى، والنوافل، وصلاة تحية المسجد، وصلاة الاستخارة.

## خامساً: الصلاة في الواقع المشاهد، والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- **على المصلي أن يقبل على صلاته بقلبه وقالبه، لأنه يقف بين يدي الله جل وعلا، قال ابن القيم:**

«إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل على الله عز وجل، والآخر ساه غافل، فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه حجاب، لم يكن إقبالا ولا تقريبا، فما الظن بالخالق عز وجل، وإذا أقبل على الخالق عز وجل وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس والنفس مشغوفة بها ملأى منها، فكيف يكون ذلك إقبالا، وقد ألهته

---

(١) رواه أحمد، (١٩/٣٠٥/ح ١٢٢٩٣)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

الوساوس والأفكار وذهبت به كل مذهب»؟[1].

- **والعبد إذا قام يصلي صال الشيطان وجال ليفسد عليه من أي باب كان، فليكن المرء حذراً، قال ابن القيم أيضاً:**

«والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام، وأقربه وأغيظه للشيطان، وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد أن لا قيمة فيه، بل لا يزال به يعده ويمنيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله، حتى يهون عليه شأن الصلاة، فيتهاون بها فيتركها، فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي شيئاً والحاجة وأيس، منها فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله ﷻ، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه، ما يناله المقبل على ربه ﷻ، الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه وأحس بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطا وراحة وروحا، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قرة عينه ونعيم روحه وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها

(١) «الوابل الصيب» لابن القيم: (١/٣٦).



فيستريح بها لا منها»[1].

- وعلى المصلي أن يستحضر إخلاص نيته، في كل مرة لئلا يدخل عليه الرياء مداخله.

- **ومن فوائد الصلاة[2]:**

١ – حضور القلب واستشعار عظمة الله في الصلاة.

٢ – إذا أحضر المصلي قلبه في صلاته، خرج من صلاته وقد غفرت خطاياه.

٣ – في الصلاة يجد المؤمن راحة قلبه وقرة عينه ومستراحه.

٤ – الصلاة رياضة بدنية للجسم، ورياضة روحية للروح.

٥ – الصلاة صلة بين العبد وربه فتذكره مراقبة الله تعالى.

٦ – الصلاة من أسباب إشاعة النظافة بين المؤمنين.

٧ – الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.



(١) «الوابل الصيب» لابن القيم: (٣٦/١).

(٢) انظر: «نضرة النعيم»: (٢٥٨٤/٦).



# الصفة الثانية

# السُّجُود

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة السجود:

قال ابن فارس: «(سَجَدَ): السين والجيم والدال: أصل واحد مطرد، يدل على تَطامُنٍ وذُل، يقال: سَجَدَ: إذا تَطَامَنَ، وكل ما ذَلَّ فقد سَجَدَ»(١).

❖ **الآيات التي وصف فيها بالسجود:**

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨).
- قوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٩).
- قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٦).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة السجود للنبي ﷺ:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨).**

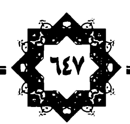
- **في معناها:**

قال الطبري: «﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾: يقول: فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم، إلى الشكر لله والثناء عليه والصلاة، يكفِكَ الله من ذلك ما أهمك»(٢).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٣٣/٣).

(٢) «جامع البيان»: (٧٣/١٤)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٦٠/٣).



- وعُبِّرَ عن الصلاة بالسجود:

وذلك إشارة إلى شرفه وما ينبغي من الدعاء فيه لاسيما عند الشدائد، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة: ٤٥).

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٩).**

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على أقوال[(١)]:

- فقال بعضهم: المعنى: ويرى تقلبك في صلاتك حين تقوم، ثم تركع وحين تسجد، قاله ابن عباس.

- وقيل: المعنى: وتقلبك مع الساجدين أي تصرفك معهم في الجلوس والقيام والقعود، قاله: ابن عباس وقتادة وابن زيد.

- وقيل: المعنى: وتصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك تفعله والساجدون في قول قائل هذا القول الأنبياء، قاله: سعيد بن جبير[(٢)].

- وقيل: المعنى: ويرى تقلبك في المصلين وإبصارك منهم من هو خلفك، كما تبصر من هو بين يديك منهم، قاله: مجاهد والحسن.

- وقيل: المعنى: ويرى تصرفك في الناس، قاله الحسن.

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٩/١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) وانظر أيضاً: «النكت والعيون»: (٤/١٨٩)، «معالم التنزيل»: (٣/٤٠٢)، «المحرر الوجيز»: (٤/٢٤٦)، «تفسير القرطبي»: (١٣/١٤٤)، «تفسير ابن كثير»: (٣/٣٥٣)، «فتح القدير»: (٤/١٢٢).

❖ **وظاهر الآية يدل على القول الثالث، والله أعلم، قال الطبري:**

«وأولى الأقوال في ذلك بتأويله: قول من قال تأويله: ويرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد؛ لأن ذلك هو الظاهر من معناه، فأما قول من وجهه إلى أن معناه: وتقلبك في الناس، فإنه قول بعيد من المفهوم بظاهر التلاوة، وإن كان له وجه؛ لأنه وإن كان لا شيء إلا وظله يسجد لله، فإنه ليس المفهوم من قول القائل فلان مع الساجدين، أو في الساجدين، أنه مع الناس أو فيهم، بل المفهوم بذلك، أنه مع قوم سجود السجود المعروف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأغلب، أولى من توجيهه إلى الأنكر، وكذلك أيضا في قول من قال: معناه تتقلب في أبصار الساجدين، وإن كان له وجه فليس ذلك الظاهر من معانيه، فتأويل الكلام إذن: وتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، ويرى تقلبك في المؤتمين بك فيها، بين قيام وركوع، وسجود وجلوس»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلاً طَوِيلاً ﴾ (الإنسان: ٢٦).**

أكثر المفسرين على أن المراد: صلاتي المغرب والعشاء الآخرة.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلاً ﴾: يعني في أول النهار وآخره، ففي أوله صلاة الصبح، وفي آخره صلاة الظهر والعصر.

---

(١) «جامع البيان»: (١٩/ ١٢٤).



وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ ﴾: يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾: يعني التطوع من الليل[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

**- الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَكُن ﴾ للدلالة على طلب الدوام:**

قال ابن عاشور: «والأمر في: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾ (الحجر: ٩٨ ـ ٩٩): مستعملان في طلب الدّوام»[2].

**- قال تعالى: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، ولم يقل: وكن ساجداً:**

قال ابن عاشور: «و﴿ مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾: أبلغ في الاتّصاف بالسجود من (ساجداً) كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في سورة براءة (التوبة: ١١٩)، وقوله: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ في (سورة البقرة: ٦٧) ونظائرهما»[3].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

**- سجد النبي في مواطن عديدة غير سجود الصلاة المعروفة منها:**

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٢٢٥/٢٩)، «النكت والعيون»: (١٧٢/٦)، «معالم التنزيل»: (٤٣١/٤)، «الكشاف»: (٦٧٥/٤)، «تفسير القرطبي»: (١٥٠/١٩)، «فتح القدير»: (٣٥٣/٥).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٢٥/١٤).

(٣) «المصدر السابق».



سجود التلاوة، وسجود السهو، السجود شكراً لله تعالى.

- **وحث ﷺ على كثرة السجود:**

فقد سؤل ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»[1].

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- **كثرة السجود سبب في مرافقة النبي في الجنة:**

عن رَبِيعَةُ بن كَعْبٍ الأَسْلَمِيُّ[2] قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة قال أو غير ذلك قلت هو ذاك قال: «فأعنى على نفسك بكثرة السجود»[3].

- **على الساجد أن يكثر من الدعاء في السجود:**

فإنه حينها أقرب ما يكون من ربه، وهو يبعث على الراحة والطمأنينة، قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[4].

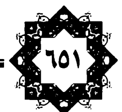
---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، (١/٣٥٣/ح ٤٨٨).

(٢) هو ربيعة بن كعب بن مالك بن يعمر، أبو فراس الأسلمي، حجازي، روى حديثه مسلم وغيره، كان من أصحاب الصفة، ولم يزل مع النبي ﷺ إلى أن قبض، فخرج من المدينة، فنزل في بلاد أسلم وبقي إلى أيام الحرة، ومات بالحرة سنة ثلاث وستين في ذي الحجة. انظر: «الإصابة»: (٢/٤٧٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، (١/٣٥٣/ح ٤٨٩).

(٤) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (١/٣٥٠/ح ٤٨٢).



- **على الساجد أن يحرص على السجود بصفته الصحيحة:**

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اعتدلوا في السُّجُودِ ولا يَبْسُطْ أحدكم ذراعيه انبساط الْكَلْبِ»[1].

- **السجود مظهر من أعلى مظاهر العبودية والخضوع لله تعالى وأشرف حالات العبد إذا اتصل بخالقه:**

قال ابن القيم عن السجود: «السجود من قيام: فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب، خشوعا لربه، واستكانة وخضوعا لعظمته، وذلا لعزته، قد انكسر له قلبه، وذل له جسمه، وخشعت له جوارحه، ثم يستوي قاعدا يتضرع له ويتذلل بين يديه ويسأله من فضله، ثم يعود إلى حاله من الذل والخشوع والاستكانة، فلا يزال هذا دأبه حتى يقضي صلاته، فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنيا على ربه مسلما على نبيه وعلى عباده، ثم يصلي على رسوله، ثم يسأل ربه من خيره وبره وفضله، فأي شيء بعد هذه العبادة من الحسن؟ وأي كمال وراء هذا الكمال؟ وأي عبودية أشرف من هذه العبودية؟»[2].

❖ ❖ ❖

---

(١) رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب لا يفترش ذراعيه في السجود، (١/٢٨٣/ح ٧٨٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة»: (٢/٣).

# المبحث الثالث

وفيه خمس صفات:

- الصفة الأولى: الاستعاذة.
- الصفة الثانية: الاستغفار.
- الصفة الثالثة: التسبيح.
- الصفة الرابعة: التكبير.
- الصفة الخامسة: الذكر.

# الصفة الأولى

# الاستعاذة

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الاستعاذة:

قال ابن فارس: «(عَوَذَ): العين والواو والذال: أصل صحيح، يدل على معنى واحد، وهو: الالتجاء إلى الشيء، ثم يحمل عليه كل شيء لصق بشيء أو لازمه، قال الخليل: «تقول: أعوذ بالله جل ثناؤه: أي: ألجأ إليه تبارك وتعالى، عَوْذاً أو عِياذاً»، ذكر أيضا أنهم يقولون: (فلان عِياذٌ لك) أي: ملجأ، وقولهم: (مَعَاذَ الله) معناه: أعوذ بالله، وكذا أستعيذ بالله»[1].

**❖ من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالاستعاذة:**

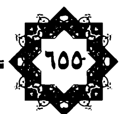
- قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

- قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨).

- قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (المؤمنون: ٩٧).

- قوله تعالى: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون: ٩٨).

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/ ١٨٣ ـ ١٨٤).



- قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٦).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (غافر: ٥٦).

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ (الفلق: ١).

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس: ١).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الاستعاذة للنبي ﷺ:

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

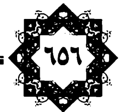
❖ **وقوله تعالى:** ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٦).

- **في معناهما:**

قال الطبري: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾: وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم، ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾: يقول: فاستجر بالله من نزغه... وأصل النزغ: الفساد، يقول نزغ الشيطان بين القوم: إذا أفسد بينهم، وحمل بعضهم على بعض»[1].

وقال: «يقول تعالى ذكره: وإما يلقين الشيطان يا محمد في نفسك وسوسة

(١) «جامع البيان»: (٩/١٥٦ ـ ١٥٧).



من حديث النفس، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة ودعائك إلى مساءته، فاستجر بالله، واعتصم من خطواته، إن الله هو السميع لاستعاذتك منه، واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك، العليم بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحدثتك به نفسك»[(١)].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾** (النحل: ٩٨).

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وإذا كنت يا محمد قارئا القرآ، ن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم»[(٢)].

❖ **وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾** (غافر: ٥٦).

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: فاستجر بالله يا محمد من شر هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر، أن يعرض في قلبك منه شيء، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾: يقول: إن الله هو السميع لما يقول هؤلاء المجادلون في آيات الله وغيرهم من قول، البصير بما تعمله جوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك»[(٣)].

---

(١) «جامع البيان»: (١٢٠/٢٤).

(٢) «المصدر السابق»: (١٧٣/١٤).

(٣) «المصدر السابق»: (٧٧/٢٤).

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨).

❖ في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾:

قال صاحب الكشاف في معنى الهمز:

«الهَمْزُ: النَّخْس. والهمزات: جمع المرّة منه. ومنه: مهماز الرائض. والمعنى: أنّ الشياطين يحثّون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثاً لها على المشي. ونحو الهمز الأزّ في قوله تعالى: ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (مريم: ٨٣)، أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، المكرّر لندائه، وبالتعوّذ من أن يحضروه أصلاً ويحوموا حوله»[(١)].

❖ وفي قوله تعالى: «﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾:

قال الشوكاني: «﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أمره سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره أن يتعوذ من همزاتهم والمعنى وأعوذ بك أن يكونوا معي فى حال من الأحوال فإنهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلا الوسوسة والإغراء على الشر والصرف عن الخير»[(٢)].

- متعلق قوله تعالى: ﴿ أَن يَحْضُرُونِ ﴾:

---

(١) «الكشاف»: (٣/٢٠٤)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٣/٣١٦)، «تفسير القرطبي»: (١٢/١٤٨).

(٢) «فتح القدير»: (٣/٤٩٧).

- قيل: عند تلاوة القرآن.

- وقيل: عند النزع حال الموت.

❖ والأولى أن يقال: عند كل حال.

قال الشنقيطي رحمه الله: «والظاهر في قوله: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أن المعنى: أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمر من أموري كائناً ما كان، سواء كان ذلك وقت تلاوة القرآن، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، أو عند حضور الموت، أو غير ذلك من جميع الشؤون في جميع الأوقات، والعلم عند الله تعالى»[1].

**❖ من قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾** (الفلق: ١).

**اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلْفَلَقِ ﴾[2]:**

- فقال بعضهم: هو سجن في جهنم يسمى هذا الاسم، قاله أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهم، والسدي.

- وقيل: الفلق: الخلق، ومعنى الكلام: قل أعوذ برب الخلق، قاله: ابن عباس رضي الله عنهما.

- وقيل: الفلق: الصبح، قاله: ابن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وابن زيد.

---

(١) «أضواء البيان»: (٥/٣٥٣).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٣٤٩ ـ ٣٥١).

- وقيل: هو اسم من أسماء جهنم.

❖ **ورجح الطبري بقوله:**

«والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول: أعوذ برب الفلق، والفلق في كلام العرب: فلق الصبح، تقول العرب: هو أبين من فلق الصبح، ومن فرق الصبح، وجائز أن يكون في جهنم سجن اسمه فلق، وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن جل ثناؤه وضع دلالة على أنه عني بقوله: ﴿ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾: بعض ما يدعى الفلق دون بعض، وكان الله تعالى ذكره رب كل ما خلق من شيء، وجب أن يكون معنياً به كل ما اسمه الفلق، إذ كان رب جميع ذلك»(١).

❖ **من قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾** (الناس: ١).

- **يقول الطبري رحمه الله في معناها:**

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد أستجير برب الناس، ملك الناس وهو ملك جميع الخلق، إنسهم وجنهم، وغير ذلك إعلاما منه بذلك من كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم، أنه ملك من يُعَظِّمه، وأن ذلك في مُلكه وسلطانه تجري عليه قدرته، وأنه أولى بالتعظيم، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ويتعبد له من غيره من الناس»(٢).

---

(١) «جامع البيان»: (٣٠/٣٤٩-٣٥١).

(٢) «المصدر السابق»: (٣٠/٣٥٤).

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

**- العلة في تخصيص قراءة القرآن من بين الأمور التي يستعاذ عندها:**

قال الشوكاني: «للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم؛ لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كانت عند إرادة غيره أولى»[(١)].

**- العلة في توجيه الخطاب للرسول ﷺ:**

وذلك: «للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة؛ لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته، فكيف بسائر أمته؟»[(٢)].

**- في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، عقب الأمر بالاستعاذة:**

قال الرازي: «قوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك، وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر»[(٣)].

---

(١) «فتح القدير»: (٣/١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) «التفسير الكبير»: (١٥/٨٠).



❖ **مسألة: في وقوع الاستعاذة في سورة الناس منه الناس خاصة؟**

قال صاحب الكشاف: «لأنّ الاستعاذة وقعت من شرّ الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلاههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم»[(١)].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

**استعاذ النبي ﷺ بربه جل وعلا من شرور كثيرة، ومن الشواهد على ذلك ما يلي:**

- كان ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار، وفتنة النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشر فتنة الغنى، وشر فتنة الفقر، ومن شر فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدَّنَسِ، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»[(٢)].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «فقدت رسولَ الله ﷺ ليلة من الفراش، فَالْتَمَسْتُهُ، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك

---

(١) «الكشاف»: (٤/٨٢٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من أرذل العمر...، (٥/٢٣٤٤/ح ٦٠١٤).



منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)].

- ولما علمنا سيد الاستغفار، قال ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت...» الحديث[(٢)].

- وكان من دُعَاءِه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»[(٣)].

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

**- على المرء أن يتعوذ بالله من الشيطان لأنه وحده تعالى هو القادر عليه فهو ربه وخالقه:**

قال القرطبي: «وقد حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا قال: أجاهده قال: فإن عاد قال: أجاهده قال: فإن عاد قال: أجاهده قال: هذا يطول أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع قال: أكابده وأرده جهدي قال: هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (١/٣٥٢/ح ٤٨٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار...، (٥/٢٣٢٣/ح ٥٩٤٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء...، (٤/٢٠٩٧/ح ٢٧٣٩).

(٤) «تفسير القرطبي»: (٧/٣٤٨).



- **والاستعاذة تكون من شياطين الإنس كما هي من شياطين الجن:**

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ** ﴾: أي أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس، إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه، كَفَّه عنك، وردَّ كيده»[1].

وقال الشنقيطي في الأضواء: «وأما عدو الجن ففي قوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾.

وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع ذكر اللَّه.

وعلى قوله رحمه الله: فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه باللَّه، ويكفيه ذلك، لأن ﴿ **كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ (النساء: ٧٦).

أما شيطان الإنس فهو في حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾[2].

- **مواطن الاستعاذة كثيرة منها:**

- **عند الغضب:**

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (١٠٢/٤).

(٢) «أضواء البيان»: (١٩٠/٩).



- «اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النبي ﷺ، فَغَضِبَ أحدهما، فَاشْتَدَّ غضبه حتى انْتَفَخَ وجهه وتغير، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد، فانطلق إليه الرجل فأخبره يقول النبي ﷺ وقال: تَعَوَّذْ بالله من الشيطان! فقال: أَتُرَى بِي بأساً؟ أَمَجْنُونٌ أنا؟ اذهب»[1].

- **عند رؤيا سيئة:**

- قال النبي ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله، والحُلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً، وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره، وإن الشيطان لا يتراءى بي»[2].

- **وغير ذلك كثير:** كنزول منزل، ودخول الخلاء، والنوم، وأذكار الصباح والمساء، وعند سماع صياح الديكة، وعند قراءة القرآن، وغيرها كثير.

- **من فوائد الاستعاذة[3]:**

١ – حصن حصين من الشيطان الرجيم.

٢ – صمام أمن في الحياة وجُنة من كل خطر.

٣ – إظهار الضعف والذل والاستكانة لله تعالى وتلك حقيقة العبودية.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، (٥/٢٢٤٨/ح ٥٧٠١)، واللفظ له، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (٤/٢٠١٤/ح ٢٦١٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام، (٦/٢٥٦٨/ح ٦٥٩٤).

(٣) انظر: «نضرة النعيم»: (٢/٢٢٦).

٤ – تزيل الغضب وتريح النفس.

٥ – تقي الإنسان من شرور جوارحه.

٦ – بالاستعاذة من جار السوء يحمي الإنسان نفسه ويصون عرضه.

٧ – الاستعاذة تقي الإنسان من الضرر والأذى.



# الصفة الثانية

# الاستغفار

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الاستغفار:

الاستغفار: طلب الغفران، وهو طلب ستر الذنوب.

- قال ابن فارس: «(غَفَرَ): الغين والفاء والراء: أعظم بابه: الستر، ثم يشذ عنه ما يذكر، فالغفر الستر، والغفران والغفر بمعنى»[1].

- وقال ابن منظور: «غَفَرَ: الغفور الغفار، جل ثناؤه، وهما من أبنية المبالغة ومعناهما: الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم... وأصل الغَفْرِ: التغطية والستر: غفر الله ذنوبه، أي سترها، والغَفْرُ: الغفران»[2].

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالاستغفار:**

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ (النصر: ٣).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٦).

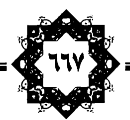
- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (غافر: ٥٥).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (محمد: ١٩).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/٣٨٥).

(٢) «لسان العرب»: (٥/٢٦).



## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الاستغفار للنبي ﷺ:

❖ **قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾** (النصر: ٣).

- **في معناها:**

أمر ﷺ بمداومة الذكر وطلب المغفرة من الله جل وعلا، وإن كان قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكن لعلم الله تعالى شدة حرص نبيه ﷺ وخشيته من ربه، وليكون قدوة لأمته ﷺ.

- **الحكمة من أمره ﷺ بالاستغفار:**

- قال أبو حيان: «والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس، فهو عبادة في نفسه»[(١)].

- وقال ابن عاشور: «أي إنه حينئذٍ قد غفر لك أعظم مغفرة وهي المغفرة التي تليق بأعظمِ من تَابَ على تائب، وليست إلا مغفرة جميع الذنوب سابقها وما عسى أن يأتي منها مِما يعده النبيء ﷺ ذنباً لشدة الخشية من أقل التقصير كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإن كان النبيء ﷺ معصوماً من أن يأتي بعدها بما يؤاخَذ عليه»[(٢)].

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٥٢٥).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٦/١٤٧).

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾** (النساء: ١٠٦).

في هذه الآية قصة طُعْمَة بن أبيرق[(١)]، وقد اختلف المفسرون في سبب أمره ﷺ بالاستغفار في هذه الآية:

- فمنهم من ذهب إلى أنه ﷺ أمر بالاستغفار عن مدافعته عن طعمة.

قال الطبري: «واستغفر الله يا محمد وسله أن يصفح لك عن عقوبة ذنبك في مخاصمتك عن الخائن من خان مالا لغيره»[(٢)].

٢ – أن المعنى أن يستغفر للمذنبين من أمته، والمتخاصمين في الباطل[(٣)].

❖ **ولا ضير من الجمع بينهما، إذ الآية تحتمل المعنيين والله أعلم.**

- قال ابن عطية:

وهذا ليس بذنب؛ لأن النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر وهو يعتقد براءتهم، والمعنى استغفر للمذنبين من أمتك والمتخاصمين في الباطل، لا أن تكون ذا جدال عنهم فهذا حدك ومحلك من الناس، أن تسمع من المتداعيين، وتقضي بنحو ما تسمع، وتستغفر للمذنب»[(٤)].

- **من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾** (غافر: ٥٥).

---

(١) سبقت ترجمته، وذكر قصته، انظر: ص (١٨٨).

(٢) «جامع البيان»: (٥/٢٦٤)، وانظر: «معالم التنزيل»: (١/٤٧٧).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز»: (٢/١١٠).

(٤) «المصدر السابق».



- وقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ (محمد: ١٩).

وقع الاختلاف في استغفار النبي ﷺ، فقيل:

- المراد الاستغفار لأمته ﷺ.
- أنه تعبد لزيادة درجاته ﷺ.
- أنه قبل إعلامه ﷺ بغفران ذنبه.
- أن المراد: استغفر الله أن يقع منك ذنب.
- أن المراد: استغفر الله ليعصمك من الذنوب.
- أنه تهييج للأمة على الاستغفار.
- أنه لمقام التواضع منه ﷺ.

وغير ذلك من الأقوال[١].

❖ وهي لا تختلف اختلاف تضاد بل هو مجرد تنوع في العبارة فكلها تصدق عليه ﷺ والله أعلم.

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

- **فائدة الجمع بين التسبيح والاستغفار:**

سيأتي لاحقاً في: صفة التسبيح[٢].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٢٦/٥٤)، «معالم التنزيل»: (٤/١٠١)، «المحرر الوجيز»: (٤/٥٦٤)، «تفسير القرطبي»: (١٦/٢٤٢)، «تفسير ابن كثير»: (٤/٨٥)، «التحرير والتنوير»: (٢٦/١٠٥).

(٢) انظر: ص (٦٧٥).

**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

نبي هذه الأمة ﷺ يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة، وهو قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وما ذاك إلا تواضعاً لربه، وزيادة في خشيته، ورفعة في درجته، وتقرباً إلى ربه، وأسوة وذخيرة عظيمة يتركها من بعده لأمته ﷺ.

وقد ورد استغفار الرسول ﷺ في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة، كما مر معنا في الآيات السابقة، وفيما يلي بعض الشواهد من السنة:

- قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[(١)].

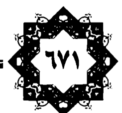
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٢)].

- وعلمنا ﷺ سيد الاستغفار فقال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: «ومن قالها من النهار

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، (٢٠٧٥/٤/ح ٢٧٠٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ، (٢٣٢٤/٥/ح ٥٩٤٨).



موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»(١).

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- لابد وأن يمرن الإنسان نفسه على كثرة ذكر الله جل وعلا، ولاسيما الاستغفار، فلا يدري المؤمن إلى أين تصل ذنوبه، فعليه أن يجتهد في الاستغفار ما وجد إلى ذلك سبيلاً، فإنه سبب في زحزحته عن النار بإذن الله جل وعلا.

- روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ قال: إنه خُلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاث مائة مفصل، فمن كبر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله **وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ** وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»(٢).

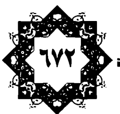
- النساء أولى من يستغفر ويجتهد في الاستغفار والصدقة لكثرتهن في النار، أجارنا الله منها، فعن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ عن رسول اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قال: «يا معشر النساء! تَصَدَّقْنَ وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جَزْلَةٌ(٣): ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن

---

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٦٦٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، (٢/٦٩٨/ ح١٠٠٧).

(٣) «جَزْلَةٌ»: أي جيدة الرأي، انظر: «لسان العرب»: (١١/١٠٩).



وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبٍّ منكن»...الحديث[1].

- ما ألذ مناجاة الله تعالى جل وعلا في الثلث الآخر من الليل حين تهدأ الأصوات، وتتجافى الجنوب عن المضاجع، فيستغفر المؤمن ربه مع زفرات التوبة والرجوع إلى الله جل وعلا، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[2].

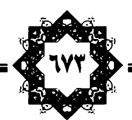
- والاستغفار صمام أمان المجتمع بفضل الله فلا نضيعه فنهلك والعياذ بالله، قال العيني عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣): قال: «وقال ابن عباس: كان فيهم أمانان النبي ﷺ، والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار»[3].

- وجميل ما جاء عن بعض الأعراب أنه تعلق بأستار الكعبة وهو يقول: «اللهم إن استغفاري مع إصراري لؤم، وإن تركي الاستغفار مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب...، (٢/٥٣١/ح ١٣٩٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان بنقص الطاعات...، (١/٨٦/ ح ٧٩)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري، أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، (١/٣٨٤/ح ١٠٩٤)، ومسلم، كتاب صفة الصلاة، باب إذا لم يتم الركوع، (١/٥٢١/ح ٧٥٨).

(٣) «عمدة القاري» للعيني: (١٨/٢٤٩).



مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد تجاوز وعفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك، يا أرحم الراحمين»[1].



(١) «عمدة القاري» للعيني: (١٨/٢٤٩).

# الصفة الثالثة

# التَّسْبِيح

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة التسبيح:

التسبيح يطلق ويراد به التنزيه، ويطلق ويراد به الصلاة.

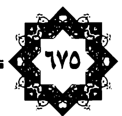
قال الخليل بن أحمد: «سبحان الله: تنزيه لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به... والتسبيح يكون في معنى الصلاة وبه يفسر قوله عَجَلَّ: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾...الآية (الروم: ١٧) تأمر بالصلاة في أوقاتها»[(١)].

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالتسبيح:**

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨).
- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ (النصر: ٣).
- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (ق: ٣٩)، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (ق: ٤٠).
- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ (الطور: ٤٨).
- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ

---

(١) «العين»: (١٥٢/٣).



وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).

- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٨).

- قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٦).

- قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ (الأعلى: ١).

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤ و٩٦).

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٥٢).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة التسبيح للنبي ﷺ:

عند تأمل الآيات أعلاه وأقوال المفسرين فيها، يتضح لنا أن الوحدة الموضوعية للتسبيح في القرآن الكريم تدل على أن التسبيح في القرآن يراد به أمران:

**١ – إما أن يراد بالتسبيح: الصلاة.**

**٢ – أو يراد بالتسبيح: الذكر والتنزيه لله جل وعلا.**

**١ – الصلاة:**

وذلك في الآيات:

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ (النصر: ٣).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (ق: ٣٩)، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (ق: ٤٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ (الطور: ٤٨ ـ ٤٩).

- قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).

- قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ (الإنسان: ٢٦).

**وفيما يلي عرض لأقوال بعض المفسرين في الآيات أعلاه:**

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨).

- **في معناها:**

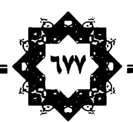
قال الطبري: «يقول: فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم إلى الشكر لله والثناء عليه والصلاة، يكفك الله من ذلك ما أهمك»(١).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي فافزع إلى الصلاة فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس»(٢).

---

(١) «جامع البيان»: (٧٣/١٤).

(٢) «تفسير القرطبي»: (٦٣/١٠).



قال ابن عاشور: «والتسبيح: التنزيه بالقول وبالاعتقاد، ويشمل الصلوات والأقوال الطيبة والتدبر في دلائل صفات الله وكمالاته، وغلب إطلاق مادة التسبيح على الصلاة النافلة»[١].

- **في اقتران التسبيح بالحمد في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾:**

قال الطبري: «(وسبح بحمد ربك): يقول: وصل بثنائك على ربك، وقال: (بحمد ربك)، والمعنى: بحمدك ربك، كما تقول: أعجبني ضرب زيد، والمعنى: ضربي زيدا»[٢].

قال ابن عاشور: «وقرن التسبيح بالحمد بباء المصاحبة المقتضية أن التسبيح لاحقٌ للحمد؛ لأن باء المصاحبة بمعنى (مع) فهي مثل (مع) في أنها تدخل على المتبوع، فكان حمد الله على حصول النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام، شيئاً مفروغاً منه لا يحتاج إلى الأمر بإيقاعه؛ لأن شأن الرسول ﷺ أنه قد فعله، وإنما يحتاج إلى تذكيره بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته، وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره»[٣].

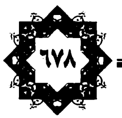
- **في إضافة التسبيح المتلبس بالحمد إلى لفظ الجلالة: (ربك):**

وقال الشنقيطي في الأضواء: «وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي في حال كونك

(١) «التحرير والتنوير»: (٤٠٦/٢٩).

(٢) «جامع البيان»: (٢٣٣/١٦).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٥٩٣/٣٠).



متلبساً بحمد ربك، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال، لأن لفظة: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله جل وعلا، فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال؛ لأن الكمال يكون بأمرين:

أحدهما: التخلي عن الرذائل، والتنزه عما لا يليق، وهذا معنى التسبيح.

والثاني: التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال، وهذا معنى الحمد، فتم الثناء بكل كمال»[1].

❖ **ومن قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾** (النصر: ٣).

الآية من سورة النصر بعد ما تحقق للنبي ﷺ ما وعده ربه من النصر والفتح، وفيها نعيت إليه نفسه الشريفة ﷺ.

- **في معناها:**

قال الطبري: «وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: يقول: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره على ما أنجز لك من وعده، فإنك حينئذ لاحق بك وذائق ما ذاق من قبلك من رسله من الموت»[2].

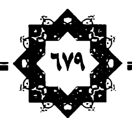
- **في أمره بالتسبيح والاستغفار وجهان[3]:**

---

(١) «أضواء البيان»: (٢/٣٢٢).

(٢) «جامع البيان»: (٣٠/٣٣٣).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٣٦١).



أحدهما: أنه أراد بالتسبيح الصلاة، قاله ابن عباس، وبالاستغفار مداومة الذكر. الثاني: أنه أراد صريح التسبيح، الذي هو التنزيه والاستغفار من الذنوب.

- **في الجمع بين التسبيح والاستغفار، والنصر الذي من الله عليه به ﷺ:**

قال الشوكاني: «وفيه الجمع بين تسبيح الله، المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى، التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ، حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم: هو مجنون هو ساحر هو شاعر هو كاهن، ونحو ذلك، ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار، أي اطلب منه المغفرة لذنبك، هضما لنفسك واستقصارا لعملك، واستدراكا لما فرط منك، من ترك ما هو الأولى»[1].

- **في تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار:**

قال ابن عاشور: «وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيد لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ**

(١) «فتح القدير»: (٥/٥٠٩ ـ ٥١٠)، وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/٥٢٥).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٥٤٩).

ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ (طه: ١٢٩ ـ ١٣٠).

- **في معناها:**

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الأوقات المذكورة في الآية:

«وقوله: ﴿ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾: وذلك صلاة الصبح ﴿ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ ﴾: وهي العصر، ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ ﴾: وهي ساعات الليل واحدها إِنيْ... ويعني بقوله: ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ ﴾: صلاة العشاء الآخرة لأنها تصلى بعد مضي آناء من الليل، وقوله: ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾، يعني صلاة الظهر والمغرب»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾** (ق: ٣٩ـ٤٠).

- **في معناها:**

**قال الطبري:** «﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾: يقول: وصل بحمد ربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل الغروب»[2].

- في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾: قولان[3]:

١ – وقيل: هي الصلاة بالليل، في أي وقت صلى، قاله مجاهد.

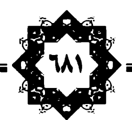
٢ – أنه عنى بها: صلاة العتمة، قاله ابن زيد.

---

(١) «جامع البيان»: (٢٣٣/١٦).

(٢) «المصدر السابق»: (١٧٩/٢٦).

(٣) «المصدر السابق»: (١٨٠/٢٦).



❖ **ثم قال الطبري مرجحاً ومعللاً ترجيحه:** «والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب وذلك أن الله جل ثناؤه قال: ﴿ **وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ** ﴾ فلم يحد وقتا من الليل دون وقت، وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل، وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا فهو بأن يكون أمرا بصلاة المغرب والعشاء أشبه منه بأن يكون أمرا بصلاة العتمة لأنهما يصليان ليلا»[1].

- **في قوله تعالى: ﴿ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ قال الطبري:**

«وقوله: (وأدبار السجود): يقول: سبح بحمد ربك أدبار السجود من صلاتك»[2].

- **واختُلِف في المراد بالتسبيح الذي أمر به ﷺ أدبار السجود على ثلاثة أقوال**[3]**:**

١ – فقيل: هو الصلاة، والمراد: الركعتان اللتان يصليان بعد صلاة المغرب، قاله: علي، وأبو هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم، وعن مجاهد والشعبي.

٢ – وقيل: المراد: التسبيح في أدبار الصلوات المكتوبات دون الصلاة بعدها، قاله: مجاهد، والحسن.

٣ – وقيل: هي النوافل في أدبار المكتوبات، قاله ابن زيد.

---

(١) «جامع البيان»: (٢٦/١٨٠).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) انظر: «المصدر السابق».

❖ **ثم قال مرجحاً ومعللا ترجيحه**: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة: قول من قال: هما الركعتان بعد المغرب؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه لرأيت أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد؛ لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عم أدبار الصلوات كلها، فقال: ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ ولم تقم بأنه معني به دبر صلاة دون صلاة حجة يجب التسليم لها من خبر ولا عقل»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾** (الطور: ٤٨ ـ ٤٩).

- **اختُلِف في قوله تعالى: ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ على قولين[2]**:

١ – فقيل: معنى ذلك: إذا قمت من نومك، فقل سبحان الله وبحمده.

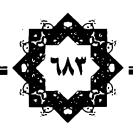
٢ – وقيل: بل معنى ذلك: إذا قمت إلى الصلاة المفروضة فقل سبحانك اللهم وبحمدك.

❖ **ورجح الطبري الأول فقال:**

«وأولى القولين في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: وصل بحمد ربك حين تقوم من منامك، وذلك نوم القائلة، وإنما عنى صلاة الظهر... وإنما قلنا عني به القيام من نوم القائلة؛ لأنه لا صلاة تجب فرضا بعد وقت من أوقات نوم

(١) «جامع البيان»: (٢٦/١٨٠ ـ ١٨٢).

(٢) «المصدر السابق»: (٢٧/٣٨).



الناس المعروف، إلا بعد نوم الليل، وذلك صلاة الفجر أو بعد نوم القائلة وذلك صلاة الظهر، فلما أمر بعد قوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ بالتسبيح بعد إدبار النجوم، وذلك ركعتا الفجر بعد قيام الناس من نومها ليلا، علم أن الأمر بالتسبيح بعد القيام من النوم هو أمر بالصلاة التي تجب بعد قيام من نوم القائلة على ما ذكرنا، دون القيام من نوم الليل»(١).

- **كما اختلف أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ على قولين**(٢):

١ – قيل: عنى بذلك: صلاة المغرب والعشاء.

٢ – وقيل: عنى بذلك: ركعتا الفجر.

❖ **والثاني أولى**، قال الطبري رحمه الله مرجحاً: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب: قول من قال: عني بها الصلاة المكتوبة، صلاة الفجر؛ وذلك أن الله أمر فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾، والركعتان قبل الفريضة غير واجبتين، ولم تقم حجة يجب التسليم لها أن قوله: ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ على الندب، وقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أمر الله على الفرض، حتى تقوم حجة بأنه مراد به الندب، أو غير الفرض، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع»(٣).

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾** (غافر: ٥٥).

---

(١) «جامع البيان»: (٣٨/٢٧ ـ ٣٩).

(٢) انظر: «المصدر السابق».

(٣) «المصدر السابق»: (٤٠/٢٧).

- **في معناها:**

وسبح بحمد ربك يقول وصل بالشكر منك لربك بالعشي وذلك من زوال الشمس إلى الليل والإبكار وذلك من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾** (الإنسان: ٢٦).

ذهب المفسرون إلى أن المراد بالتسبيح هنا صلاة النافلة التي كانت مفروضة في أول الأمر ثم نسخ الأمر بها.

قال الطبري: «وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾: قال كان هذا أول شيء فريضة»[2].

**٢ – وإما يراد بالتسبيح: الذكر وتنزيه الله جل وعلا:**

وذلك في الآيات:

- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤ و٩٦).

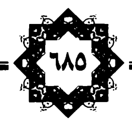
- قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٥٢).

- قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ (الأعلى: ١).

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٧٦/٢٤)، «تفسير ابن كثير»: (٨٥/٤).

(٢) «جامع البيان»: (٢٢٥/٢٩)، وانظر: «تفسير القرطبي»: (١٥٠/١٩).



❖ **وفيما يلي عرض لأهم أقوال المفسرين في الآيات أعلاه:**

- **من قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾** (الفرقان: ٥٨).

- **في معناها:**

ذهب بعض المفسرين إلى أن التسبيح في هذه الآية هو الذكر والتنزيه لله جل وعلا بقول: (سبحان الله، والحمد لله)، ومنهم من ذهب إلى أن المراد به هنا: الصلاة:

قال الطبري: «قوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ ﴾: يقول: واعبده شكرا منك له على ما أنعم به عليك، قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾: يقول وحسبك بالحي الذي لا يموت خابرا بذنوب خلقه، فإنه لا يخفى عليه شيء منها وهو محص جميعها عليهم حتى يجازيهم بها يوم القيامة»[(١)].

بينما قال ابن عطية: «وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ ﴾ قل سبحان الله وبحمده أي تنزيهه واجب وبحمده أقول»[(٢)].

❖ **وجمع ابن كثير بينهما**، وهو الأولى إذ لا مانع، فقال: «وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ ﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه ولهذا كان رسول الله ﷺ

---

(١) «جامع البيان»: (١٩/ ٢٧ ـ ٢٨).

(٢) «المحرر الوجيز»: (٤/ ٢١٦).

يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» أي أخلص له العبادة والتوكل»[1].

- **الباء في قوله تعالى: ﴿ بِحَمْدِهِۦ ﴾:**

والباء في: ﴿ بِحَمْدِهِۦ ﴾ للمصاحبة، أي سبحه تسبيحاً مصاحباً للثناء عليه بما هو أهله، فقد جمع له في هذا الأمر التخلية والتحلية مقدِّماً التخلية؛ لأن شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص، وأمْر النبي ﷺ يشمل الأمة ما لم يكن دليل على الخصوصية»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾** (الواقعة: ٧٤ و٩٦)، (الحاقة: ٥٢).

- **في معناها:**

تكررت هذا الجزء من الآية، ثلاث مرات في القرآن الكريم، وهي «عبارة تقتضي الأمر بالإعراض عن أقوال الكفار وسائر أمور الدنيا المختصة بها، وبالإقبال على أمور الآخرة، وعبادة الله تعالى، والدعاء إليه»[3].

- **وفي قوله تعالى: ﴿ بِٱسْمِ ﴾ و﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴾:**

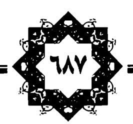
١ – إما أن يكون المراد بالاسم: الجنس، أي بأسماء ربك، و(العظيم):

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (٣/٣٢٤)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٣/٣٧٤)، «تفسير القرطبي»: (١٣/٦٢).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٩/٥٩).

(٣) «المحرر الوجيز»: (٥/٢٥٥)، وانظر: «جامع البيان»: (٢٧/٢٠٣).



صفة لله تعالى.

٢ – وإما أن يراد بالاسم هنا: اسماً على التعيين لم ينص عليه، و(العظيم) صفة لهذا الاسم المعين، قال ابن عطية: «ويؤيد هذا ويشير إليه إيصال سورة الحديد أولها، ففيه التسبيح، وجملة من أسماء الله تعالى، وقد قال ابن عباس: اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد، فتأمل هذا فإنه من دقيق النظر، ولله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدركها»[1].

- **من قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾** (الأعلى: ١).

- **اختلف المفسرون في معناها[2]:**

١ – **فقيل:** معناه: عظم ربك الأعلى لا رب أعلى منه وأعظم.

٢ – وقيل: معنى ذلك: نزه يا محمد اسم ربك الأعلى أن تسمي به شيئا سواه.

٣ – وقيل: معنى ذلك: نزه الله عما يقول فيه المشركون.

٤ – وقيل: المعنى: نزه تسميتك يا محمد ربك الأعلى وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت له خاشع متذلل.

٥ – وقيل: المعنى: صَلِّ بذكر ربك يا محمد، يعني بذلك صل وأنت له

---

(١) «المحرر الوجيز»: (٥/٢٥٥).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/١٥١).



ذاكر ومنه وجل خائف.

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه، نلحظ أن الأقوال الثلاثة الأُوَل بمعنى واحد، وأما الأخيرين ففيهما بعد، فالذي يتناسب والأخبار من فعل الرسول ﷺ، والصحابة هو القول بما في معنى الأقوال الثلاثة الأُوَل، والجمع بينها، قال الطبري:

«وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معناه: نزه اسم ربك أن تدعو به الآلهة والأوثان، لما ذكرت من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا: سبحان ربي الأعلى، فبين بذلك أن معناه كان عندهم معلوماً: عظم اسم ربك ونزهه»[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

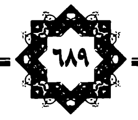
- **مسألة: فائدة ذكر الاسم في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فلم يقل سبحانه: فسبح بربك العظيم.**

والجواب: أن «فيه فائدة زيادة التعظيم؛ لأن من عظم عظيماً وبالغ في تعظيمه لم يذكر اسمه إلا وعظمه، فلا يذكر اسمه في موضع وضيع ولا على وجه الاتفاق كيفما اتفق، وذلك لأن من يعظم شخصاً عند حضوره ربما لا يعظمه عند غيبته فيذكره باسم علمه، فإن كان بمحضر منه لا يقول ذلك، فإذا عظم عنده لا يذكره في حضوره وغيبته إلا بأوصاف العظمة»[2].

---

(١) «جامع البيان»: (١٥٢/٣٠).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٦١/٢٩).



- **وجه تعدية فعل التسبيح بالباء، حيث قال تعالى: ﴿بِٱسْمِ﴾، فلم يقل سبحانه: (فسبح اسم ربك العظيم)، أو (فسبح الرب العظيم):**

وذلك: «أن الفعل إذا كان تعلقه بالمفعول ظاهراً غاية الظهور لا يتعدى إليه بحرف فلا يقال: ضربت بزيد بمعنى ضربت زيداً، وإذا كان في غاية الخفاء لا يتعدى إليه إلا بحرف فلا يقال: ذهبت زيداً بمعنى ذهبت بزيد، وإذا كان بينهما جاز الوجهان فنقول: سبحته وسبحت به وشكرته وشكرت له، إذا ثبت هذا فنقول: لما علق التسبيح بالاسم وكان الاسم مقحماً كان التسبيح في الحقيقة متعلقاً بغيره وهو الرب وكان التعلق خفياً من وجه فجاز إدخال الباء»[1].

- **تعليل الإتيان بالباء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وبين تعدية الفعل بنفسه مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾:**

ذلك على تقديرين:

١ – على تقدير: سبح الله مقترناً بحمد ربك، فالمعنى واحد في الموضعين، وذلك لأن سبح الله كقول القائل (فسبحه) بدون ذكر المفعول، حيث دل عليه قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ولدلالة ما سبق عليه.

٢ – على تقدير: أن سبح بمعنى صل، يكون الأول أمراً بالصلاة، والثاني أمراً بالتنزيه، أي وصل بحمد ربك في الوقت وبالليل نزهه عما لا يليق.

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٢٩/٦١).

قال الرازي: «وحينئذ يكون هذا إشارة إلى العمل والذكر والفكر، فقوله: ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ إشارة إلى خير الأعمال وهو الصلاة، وقوله: ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾: إشارة إلى الذكر، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾: إشارة إلى خير الأعمال وهو الصلاة، وقوله: ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾: إشارة إلى الذكر، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾: إشارة إلى الفكر حين هدوء الأصوات، وصفاء الباطن أي نزهه عن كل سوء بفكرك، واعلم أنه لا يتصف إلا بصفات الكمال ونعوت الجلال»[١].

- **وجه إيراد الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾:**

قال الرازي: «هي تفيد تأكيد الأمر بالتسبيح من الليل، وذلك لأنه يتضمن الشرط كأنه يقول: وأما من الليل فسبحه، وذلك لأن الشرط يفيد أن عند وجوده يجب وجود الجزاء»[٢].

- **الفرق بين قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْهُ ﴾:**

قال ابن عاشور: «قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤) أَمْرٌ بأن يقول سبحان الله، وقوله: ﴿ وَسَبِّحْهُ ﴾ (الإنسان: ٢٦) أمْرٌ بتنزيه ذاته وصفاته عن النقائص»[٣].

❖ **مسألة: في الفرق بين (الْعَظِيمِ) وبين (الأعلى)، وفائدة ذكر (الْعَظِيمِ)**

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٦٠/٢٨).

(٢) «المصدر السابق»: (١٦٠/٢٨ ـ ١٦١).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١٤٩/١).

**هنا بدل (الأعلى) وذكر (الأعلى) في قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ بدل (الْعَظِيمِ):**

قال الرازي: «أما الفرق بين العظيم والأعلى فهو أن العظيم يدل على القرب، والأعلى يدل على البعد، بيانه هو أن ما عظم من الأشياء المدركة بالحس قريب من كل ممكن، لأنه لو بعد عنه لخلا عنه موضعه، فلو كان فيه أجزاء أخر لكان أعظم مما هو عليه فالعظيم بالنسبة إلى الكل هو الذي يقرب من الكل، وأما الصغير إذا قرب من جهة فقد بعد عن أخرى، وأما العلي فهو البعيد عن كل شيء لأن ما قرب من شيء من جهة فوق يكون أبعد منه وكان أعلى فالعلي المطلق بالنسبة إلى كل شيء هو الذي في غاية البعد عن كل شيء»[1].

- **في استعمال التسبيح تارة باللام، وتارة بالباء، وتارة يعدى بنفسه:**

قال الرازي: «أما الباء فهي الأهم وبالتقديم أولى في هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فنقول: أما على قولنا المراد من (سبح): قل سبحان الله، فالباء للمصاحبة أي مقترناً بحمد الله، فيكون كأنه تعالى قال: قل سبحان الله والحمد لله، وعلى قولنا المراد التنزيه لذلك أي نزهه وأقرنه بحمده أي سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه فإن السعادة الأبدية لمن سبحه، وعلى هذا فيكون المفعول غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر تقديره: سبح الله بحمد ربك، أي ملتبساً ومقترناً بحمد ربك، وعلى قولنا صل، نقول يحتمل أن يكون

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٦٢/٢٩).

ذلك أمراً بقراءة الفاتحة في الصلاة يقال: صلّى فلان بسورة كذا أو صلّى بقل هو الله أحد، فكأنه يقول صلّى بحمد الله أي مقروءاً فيها: الحمد لله ربّ العالمين، وهو أبعد الوجوه، وأما التعدية من غير حرف فنقول هو الأصل لأن التسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه تبعيد من السوء وأما اللام فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون كما في قول القائل نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له. وثانيهما: أن يكون لبيان الأظهر أي يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة»[1].

**❖ مسألة: ما فائدة تعريف لفظ: (اسم) بإضافته إلى لفظ: (ربك)، دون الإضافة إلى علم الجلالة، فلم يقل: سبح اسم الله؟ وما فائدة إضافة لفظ: (رب) إلى ضمير الرسول ﷺ؟**

قال ابن عاشور: «وتعريف: (اسم) بطريق الإضافة إلى (ربك) دون تعريفه بالإضافة إلى عَلَم الجلالة نحو: سبح اسمَ الله، لما يُشعر به وصف رب من أنه الخالق المدبر، وأما إضافة (رب) إلى ضمير الرسول ﷺ فلتشريفه بهذه الإضافة وأن يكون له حظ زائد على التكليف بالتسبيح»[2].

**❖ فائدة أمره ﷺ بالتسبيح عقب أمره بالصبر على أذى الكفار:**

«فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور»[3].

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١٦٠/٢٨).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٧٤/٣٠).

(٣) «أضواء البيان»: (٤٣٢/٧).

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

- **كان رسول الله ﷺ مسبحاً في داخل صلاته وخارجها، ففي صلاته:**

- روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن»(١).

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: سبوح قدوس، رب الملائكة والروح»(٢).

- وكان ﷺ في صلاة النافلة يطيل في التسبيح، فلنتصور ما إذا قام الفرد يسبح بخشوع في صلاته ما يزيد على الساعتين تقريباً؟ كيف هو الشعور الذي يشعر به؟ وما مدى بشاشة الإيمان والروحانية التي في قلبه؟ فكيف إذا كان هذا الفرد هو نبي هذه الأمة ﷺ؟

فقد روى مسلم قال: «عن حذيفة قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود، (١/٢٨١/ح ٧٨٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (١/٣٥٠/ح ٤٨٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (١/٣٥٣/ح ٤٨٧).

مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه»(١).

- **وأما تسبيحه خارج صلاته فمما لا يحصى كثرة:**

روى مسلم عن ابن عَبَّاسٍ عن جُوَيْرِيَةَ ﵂ أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهى في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها»؟ قالت: «نعم»، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن! سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»(٢).

وكذا روى عن أبي هُرَيْرَةَ قال: «قال رسول اللَّهِ ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»(٣).

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، (١/٥٣٦/ح٧٧٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، (٤/٢٠٩٠/ح ٢٧٢٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٤/٢٠٧٢/ح ٢٦٩٥).

**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

- جاء في القرآن الكريم، والسنة المطهرة إثبات التسبيح من عوالم شتى: ذكرها الشيخ الشنقيطي رحمه الله في الأضواء فقال:

«أولاً: تسبيح الله تعالى نفسه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ (الإسراء: ١)، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (الروم: ١٧ - ١٨)، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

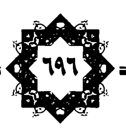
ثانياً: تسبيح الملائكة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ ﴾ (الزمر: ٧٥)، و﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٠).

ثالثاً: تسبيح الرعد: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الرعد: ١٣).

رابعاً: تسبيح السماوات السبع والأرض، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (الإسراء: ٤٤).

خامساً: تسبيح الجبال: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ (ص: ١٨).

سادساً: تسبيح الطير: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ ﴾



(الأنبياء: ٧٩).

سابعاً: تسبيح الإنسان: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٩٨)، ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤)، ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم: ١١)، فهذا إسناد التسبيح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة»[١].

**- التسبيح من الأذكار التي تثقل ميزان العبد بالحسنات، وسبب في إكرام الله له برفعة الدرجات:**

روى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ قال: «قال رسول الله ﷺ كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[٢].

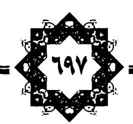
- قال ابن بطال: «التكبير والتسبيح معناهما تعظيم الله وتنزيه من السوء، واستعمال عند التعجب واستعظام الأمور حسن، وفيه تمرين اللسان على ذكر الله، وذلك من أفضل الأعمال»[٣].

---

(١) «أضواء البيان»: (٨/٥-٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم فصلى...، (٦/٢٤٥٩/ح٦٣٠٤) واللفظ له، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٤/٢٠٧٢/ح٢٦٩٤).

(٣) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: (٩/٣٦٤).



- التسبيح يصل المؤمن بربه، ويعمق الإيمان في قلب المؤمن بالاستحضار الدائم لعظمة الله تعالى.



# الصفة الرابعة

# التَّكْبِير

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة التكبير:

قال ابن فارس: (كَبَرَ): الكاف والباء والراء: أصل صحيح، يدل على خلاف الصغر»[1].

وقال ابن منظور: «كَبَرَ: الكبير في صفة الله تعالى: العظيم الجليل، والمتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده، والكبرياء: عظمة جاءت على فِعْلِياء، قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى: المتكبر والكبير، أي العظيم ذو الكبرياء، وقيل: المتعالي عن صفات الخلق، وقيل: المتكبر على عتاة خلقه، والتاء فيه للتفرد والتخصص لا تاء التعاطي والتكلف، والكبرياء: العظمة والملك»[2].

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالتكبير:**

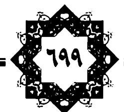
- قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء: ١١١).

- قوله تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (المدثر: ٣).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٥/١٥٤).

(٢) «لسان العرب»: (٥/١٢٥ ـ ١٢٦).



**ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة التكبير للنبي ﷺ:**

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء: ١١١).

- **في معناها:**

المراد من الآية: أمره ﷺ بتعظيم الله تعالى بتنزيهه، وطاعته، والتوجه إليه وحده دون سواه، قال الطبري: «﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾: يقول وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل وأطعه فيما أمرك ونهاك»(١).

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (المدثر: ٣).

- **في معناها:**

قال الطبري: «وقوله: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾: يقول تعالى ذكره: وربك يا محمد فعظم، بعبادته والرغبة إليه، في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد»(٢).

وقال الشوكاني: «﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾: أي واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك، بالتكبير وهو صفته سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك، كما يعتقده الكفار، وأعظم من أن يكون له صاحبة أو ولده»(٣).

---

(١) «جامع البيان»: (١٨٩/١٥).

(٢) «المصدر السابق»: (١٤٤/٢٩).

(٣) «فتح القدير»: (٣٢٤/٥)، وانظر: «المحرر الوجيز»: (٣٩٢/٥)، «تفسير القرطبي»: (٦١/١٩).

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

**- في إضافة الفعل إلى مصدره:**

مبالغة في المعنى، قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، ثم أكدها بالمصدر تحقيقا لها وإبلاغا في معناها»(١).

**- في تقديم المفعول على الفعل أي: (ربك) (فكبر):**

وذلك للحصر والاختصاص، قال الزمخشري: «﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختص ربك بالتكبير»(٢).

**- سبب دخول الفاء على فعل الأمر: (كبر):**

قال الشوكاني: «إن الفاء في: (فكبر) دخلت على معنى الجزاء، كما دخلت في فأنذر»(٣).

**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

- كبر النبي في مواطن كثيرة علمنا إياها ﷺ(٤):

١ – للمؤذن في الأذان والإقامة.

---

(١) «المحرر الوجيز»: (٣/٤٩٣).

(٢) «الكشاف»: (٤/٦٤٧).

(٣) «فتح القدير»: (٥/٣٢٤).

(٤) انظر: «نضرة النعيم»: (٤/١١٢٣ ـ ١١٢٤).

٢ – لسامع الأذان أو الإقامة.

٣ – عند الدخول في الصلاة، (تكبيرة الإحرام).

٤ – عند الركوع والسجود ورفع الرأس من السجود.

٥ – خلف الصلوات.

٦ – في صلاة الاستسقاء وخطبتها.

٧ – في صلاة العيدين وخطبهما.

٨ – من أول ليلة العيد إلى دخول الإمام للصلاة، رافعا به صوته في الأسواق والطرقات.

٩ – لرؤية هلال شوال.

١٠ – عقب الصلوات من صبح يوم عرفة إلى عقب عصر آخر أيام التشريق.

١١ – عند الخروج للحج قبل الإهلال، وعند الرجوع منه أو من العمرة.

١٢ – عند رمي الجمرات مع إلقاء الحصيات.

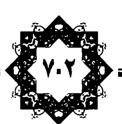
١٣ – عند الصعود من منى إلى عرفات.

١٤ – عند الطواف خاصة عند إتيان الركن.

١٥ – عند الجهاد والقفول منه، وعند اعتلاء الثنايا.

١٦ – للمسافر.

١٧ – عند الذبح.



١٨ – عند سماع خبر مفرح.

١٩ – عند قيام الليل.

**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

التكبير بمعنى تعظيم الله جل في علاه مطلوب من المؤمن في كل وقت دون تحديد وقت معين، أما التكبير بلفظ: (الله أكبر) فيعد من قبيل الذكر الذي يؤجر عليه الإنسان، لاسيما إذا اقترن بالتسبيح والتهليل والتحميد، أما إذا انفرد في مواطن معلومة فهذه المواطن علمنا إياها رسول الله مما نقلته لنا السنة المطهرة كما سبق ذكره أعلاه.

- **فوائد التكبير[1]:**

إن للتكبير بمعنييه أي قول: (الله أكبر) أو تعظيم المولى تبارك وتعالى بما يليق بجلاله سبحانه كل فوائد الذكر[2]، ولا يمنع هذا من أن يكون للتكبير فوائد خاصة في كل موطن بحسبه، ومن ذلك:

١ – أن التكبير في العيدين وعند القفول من الغزو أو الحج أو العمرة، يظهر فرح المسلمين وفيه شكر لله تعالى.

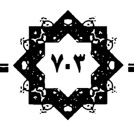
٢ – أن التكبير من دواعي إجابة الدعاء وخاصة في الاستسقاء.

٣ – (الله أكبر) من غراس الجنة فمن سره أن يرى ذلك في الآخرة فعليه

---

(١) انظر: «نضرة النعيم»: (١١٣٤/٤).

(٢) ستأتي في الصفة التالية من هذا المبحث، انظر: ص (٧٠٥).

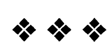


بذلك في الدنيا.

٤ – التكبير ـ مع التسبيح والحميد والتهليل ـ مدعاة لأن تحف الملائكة صاحبه ويباهي به الله عَزَّ وَجَلَّ الملائكة.

٥ – التكبير يزحزح صاحبه عن النار.

٦ – التكبير من أساليب التعجب عند المسلمين.



# الصفة الخامسة

# الذكر

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الذكر:

ذكر الشيء: جريانه على اللسان.

- قال الأزهري: «والذِّكْرُ: جَرْيُ الشيءِ على لسانك»[1].

- وقال ابن فارس: «(ذَكَرَ): الذال والكاف والراء: أصلان عنهما يتفرع كلم الباب... والأصل الآخر ذكرت الشيء خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان»[2].

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالذكر:**

- قوله تعالى: ﴿ **وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ** ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

- قوله تعالى: ﴿ **وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ** ﴾ (الكهف: ٢٤).

- قوله تعالى: ﴿ **وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾ (الإنسان: ٢٥).

- قوله تعالى: ﴿ **وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** ﴾ (المزمل: ٨).

---

(١) «تهذيب اللغة»: (١٠/٩٤).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٢/٣٥٨).



## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الذكر للنبي ﷺ:

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

- في معناها:

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: واذكر أيها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة، ﴿ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾: يقول اتعظ بما في آي القرآن، واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعكه»[(١)].

- في قوله تعالى: ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾:

قال الطبري: «﴿ تَضَرُّعًا ﴾: يقول: افعل ذلك تخشعا لله وتواضعاً له.

﴿ وَخِيفَةً ﴾: يقول: وخوفاً من الله أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاظ به والاعتبار، وغفلة عما بين الله فيه من حدوده.

﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾: يقول: ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهار، يقول: ليكن ذكر الله عند استماعك القرآن في دعاء إن دعوت غير جهار ولكن في خفاء من القول.

﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾: بالغدو: صلاة الصبح، والآصال بالعشي»[(٢)].

---

(١) «جامع البيان»: (١٦٦/٩).

(٢) «المصدر السابق».

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾** (الكهف: ٢٤).

- **في معناها:**

اختلف المفسرون في النسيان المراد أن يذكر ربه عنده ﷺ على أقوال[١]:

١ – قيل المعنى: واستثن في يمينك إذا ذكرت أنك نسيت ذلك في حال اليمين.

٢ – وقيل المعنى: واذكر ربك إذا عصيت.

٣ – وقيل المعنى: واذكر ربك إذا تركت ذكره.

❖ **والقول الثالث هو لأقرب للغة العرب.**

قال الطبري: «لأن أحد معاني النسيان في كلام العرب الترك»[٢].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾** (الإنسان: ٢٥).

❖ **وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾** (المزمل: ٨).

قال القرطبي: «﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ أي ادعه بأسمائه الحسنى ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة»[٣].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

- **فائدة قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ ولم يقل: واذكر إلهك ولا سائر الأسماء[٤]:**

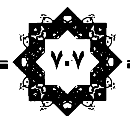
---

(١) «جامع البيان»: (١٥/٢٢٩).

(٢) «المصدر السابق»: (١٥/٢٢٩).

(٣) «تفسير القرطبي»: (١٩/٤٣).

(٤) انظر: «التفسير الكبير»: (١٥/٨٧)، «البحر المحيط»: (٤/٤٤٩).



١ – يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والإحسان.

٢ – والمقصود منه، أن يصير العبد فرحاً مبتهجاً عند سماع هذا الاسم، لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل، وعند سماع هذا الاسم يتذكر العبد أقسام نعم الله عليه.

٣ – من التشريف بالخطاب.

٤ – وناسب أيضاً لفظ الرب قوله تضرعاً وخيفة؛ لأنّ فيه التصريح بمقام العبودية.

- **في لفظ: (اسم) من قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾:**

قال ابن عاشور: «وإقحام كلمة (اسم)؛ لأن المأمور به ذكر اللسان وهو جامع للتذكر بالعقل؛ لأن الألفاظ تجري على حسب ما في النفس»[1].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

ما ذكر الله ذاكر كما ذكره نبيه ﷺ، فكان الذاكر ربه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، بلا كلل أو ملل، أو فتور أو نفور، يجد أنسه في ذكر الله، وراحة قلبه في الصلاة ﷺ.

وفيما يلي بعض الشواهد من السنة الشريفة:

- كان ﷺ إذا فَرَغَ من طَعَامِهِ قال: «الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مكفي ولا مكفور»، وقال مرة: «الحمد لله ربنا، غير مكفي ولا مودع ولا

(١) «التحرير والتنوير»: (٢٩/٢٦٥).



مستغنى ربنا»[(١)].

- أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة إذا سلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعْطِيَ لما منعت، ولا ينفع ذا الْجَدِّ منك الجد»[(٢)].

- وكان ﷺ يقول عند الكرب: «لا إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[(٣)].

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

**- مجالس الذكر لها فضل كبير عند الله تعالى:**

قال ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل، إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٤)].

**- والذكر سبب في وصل صاحبه إلى ظل عرش الرحمن، يوم لا ظل**

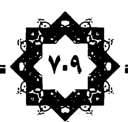
---

(١) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه، (٢٠٧٨/٥/ح ٥١٤٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب (٢٣٣٢/٥/ح)، واللفظ له، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة بيان صفته، (٤١٤/١/ح ٥٩٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، (٢٣٣٦/٥/ح ٥٩٨٦)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب، (٢٠٩٢/٤/ح ٢٧٣٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (٢٠٧٤/٤/ح٢٧٠٠).



**إلا ظله:**

قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - وذكر منهم - ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(١).

- **وأثنى رسول الله ﷺ على المكثرين من الذكر:**

فقال: «سبق الْمُفَرِّدُونَ»، قالوا: وما الْمُفَرِّدُونَ يا رسول الله؟ قال: «الذاكرونَ الله كثيراً والذاكرات»(٢).

- **انغماس الناس عامة والشباب خاصة في المعاصي أو حتى في ملذات الدنيا ومباحاتها، ولهوهم عن الذكر سبب في شقائهم، فالذاكر حي، واللاهي ميت:**

قال ﷺ: «مثل الذي يَذْكُرُ ربه والذي لا يَذْكُرُ ربه مثل الحي والميت»(٣).

❖ **وفيما يلي نبذة من أقوال السلف في فضل الذكر:**

- عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «ذهب الذاكرون الله بالخير كله»(٤).

- قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل»(٥).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، (١/٣٢٤/ح ٦٢٩) واللفظ له، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، (٢/٧١٥/ح ١٠٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب العلم، باب الحث على ذكر الله، (٤/٢٠٦٢/ح٢٦٧٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، (٥/٢٣٥٣/ح).

(٤) «شعب الإيمان» للبيهقي: (١/٤٠٨).

(٥) «المصدر السابق»: (١/٣٩٦).

- عن كعب بن مالك ﷺ قال: «من أكثر ذكر الله بريء من النفاق»[1].

❖ **وذكر ابن القيم ﷀ أن في الذكر أكثر من مائة فائدة[2]، أذكر منها قوله:**

«إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

الثانية: أنه يرضي الرحمن ﷻ.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه ينور الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

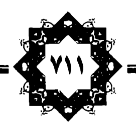
التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين.

ومدار السعادة والنجاة وقد جعل الله لكل شيء سببا وجعل سبب المحبة دوام الذكر فمن أراد أن ينال محبة الله ﷻ فليلهج بذكره فانه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم.

---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي: (١/٤١٥).

(٢) «الوابل الصيب» لابن القيم: (١/٦١ - ٦٣).



العاشرة: أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت».



# المبحث الرابع

وفيه صفتان:

- الصفة الأولى: الحمد.
- الصفة الثانية: الشكر.

# الصفة الأولى

## الحمد

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الحمد:

الحمد: الثناء، وهو نقيض الذم:

قال ابن فارس: «(حَمَدَ) الحاء والميم والدال كلمة واحدة وأصل واحد يدل على خلاف الذم، يقال حمدت فلانا أحمده، ورجل محمود ومحمد إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة».

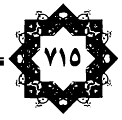
❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالحمد:**

- قوله تعالى: ﴿ **وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا** ﴾ (الإسراء: ١١١).

- قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

- قوله تعالى: ﴿ **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ** ﴾ (النمل: ٥٩).

- قوله تعالى: ﴿ **وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (النمل: ٩٣).



- قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (لقمان: ٢٥).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الحمد للنبي ﷺ:

❖ قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء: ١١١).

«أمر الله نبيه ﷺ بأن يحمد الله على وحدانيته ـ ومعنى الحمد لله هو الثناء عليه بما هو أهله ـ»[(١)].

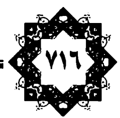
وهو أمر للناس بطريق القدوة عن نبيهم ﷺ، قال الشنقيطي في الأضواء: «أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه ﷺ؛ لأن أمر القدوة أمر لاتباعه كما قدمنا أن يقولوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي كل ثناء جميل لائق بكماله وجلاله، ثابت له، مبيناً أنه منزه عن الأولاد والشركاء والعزة بالأولياء، سبحانه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً»[(٢)].

- **والآية رادة على القائلين باتخاذ الله ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً:**

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾...الآية، هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذا عزير وعيسى والملائكة ذرية لله

(١) «معالم التنزيل»: (١٤٣/٣).

(٢) «أضواء البيان»: (١٨٩/٣).



ﷻ عن أقوالهم ورادة على العرب في قولهم لولا أولياء الله لذل وقيد لفظ الآية نفي الولاية لله ﷻ بطريق الذل وعلى جهة الانتصار إذ ولايته موجودة بتفضله ورحمته لمن والى من صالحي عباده، قال مجاهد: المعنى: لم يحالف أحداً، ولا ابتغى نصر أحد»[1].

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا فيكون مربوبا لاربا؛ لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ولم يكن له شريك في الملك فيكون عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفا ولا يكون إلها من يكون محتاجا إلى معين على ما حاول ولم يكن منفردا بالملك والسلطان ولم يكن له ولي من الذل يقول ولم يكن له حليف حالفه من الذل الذي به لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليل مهين ولا يكون من كان ذليلا مهينا يحتاج إلى ناصر إلها يطاع، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾: يقول وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل وأطعه فيما أمرك ونهاك»[2].

- **متعلق الحمد في الآية:**

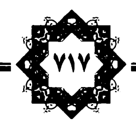
أمر الله تعالى رسوله ﷺ بحمده يحتمل وجهين[3]:

---

(١) «المحرر الوجيز»: (٣/٤٩٢ ـ ٤٩٣).

(٢) «جامع البيان»: (١٥/١٨٩).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٣/٢٨٢).



أحدهما: أمره بالحمد لتنزيه الله تعالى عن الولد.

الثاني: لبطلان ما قرنه المشركون به من الولد.

❖ والقولان متقاربان إذ مؤداهما واحد، وهو تنزيهه تعالى، فالله يحمد على كلا الأمرين سبحانه.

**- تعليل وصفه تعالى بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد:**

«لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد»[1].

وقال الشوكاني: «وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة، إيذان بأن المستحق للحمد من له هذه الصفات؛ لأنه القادر على الإيجاد وإفاضة النعم؛ لكون الولد مجبنة ومبخلة، ولأنه أيضا يستلزم حدوث الأب، لأنه متولد من جزء من أجزائه، والمحدث غير قادر على كمال الإنعام، والشركة في الملك إنما تتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به، ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلا عن تمام ما هو له، فضلا عن نظام ما هو عليه، وأيضا الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين، فقد يمنعه الشريك من إفاضة الخير إلى أوليائه، ومؤدية إلى الفساد ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)، والمحتاج إلى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله، ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغن بنفسه»[2].

---

(١) «الكشاف»: (٦٥٦/٢).

(٢) «فتح القدير»: (٢٦٦/٣).

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل: ٩٣).

- في معناها:

يعلم الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين الذين يقولون له: ﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ أن يقول لهم: الحمد لله على توفيقه لنا وهدايتنا لما أنتم ضللتم عنه.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء القائلين لك من مشركي قومك متى هذا الوعد إن كنتم صادقين الحمد لله على نعمته علينا بتوفيقه إيانا للحق الذي أنتم عنه عمون سيريكم ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون بها حقيقة نصحي الذي كان لكم ويتبين صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد»(١).

- وقد اختلف في قوله تعالى: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾:

على قولين للمفسرين(٢):

أحدهما: يريكم في الآخرة فتعرفونها على ما قال في الدنيا، قاله الحسن.

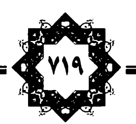
الثاني: يريكم في الدنيا ما ترون من الآيات في السموات والأرض فتعرفونها أنها حق، قاله مجاهد».

❖ والذي يظهر والله أعلم أن الاختلاف هنا ليس اختلاف تضاد إنما هو

---

(١) «جامع البيان»: (٢٠/٢٥).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٤/٢٣٢)، «معالم التنزيل»: (٣/٤٣٣).



اختلاف تنوع، فالله قادر على أن يريهم آياته في الدنيا وفي الآخرة، في أنفسهم وفي الآفاق، والله أعلم.

- **قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾** (النمل: ٥٩).

- **في المخاطب بهذه الآية:**

المخاطب هو الرسول ﷺ، وقيل بل هو لوط عليه السلام.

❖ **وحمله على العموم أولى، فيدخل فيه الأنبياء وأتباعهم:**

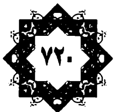
قال الشوكاني: «﴿ **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ** ﴾ قال الفراء: «قال أهل المعاني: قيل للوط: قل الحمد لله على هلاكهم»»، وخالفه جماعة فقالوا: إن هذا خطاب لنبينا ﷺ أي قيل: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية، وسلام على عباده الذين اصطفى قال النحاس: وهذا أولى؛ لأن القرآن منزل على النبي ﷺ وكل ما فيه فهو مخاطب به، إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره، قيل: والمراد بعباده الذين اصطفى: أمة محمد ﷺ، والأولى: حمله على العموم فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم»[1].

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: الحمد لله على نعمه علينا وتوفيقه إيانا لما وفقنا من الهداية، ﴿ **وَسَلَٰمٌ** ﴾: يقول وأَمَنَةٌ منه من

---

(١) «فتح القدير»: (١٤٥/٤).



عقابه الذي عاقب به قوم لوط وقوم صالح، على الذين اصطفاهم، يقول: الذين اجتباهم لنبيه محمد ﷺ، فجعلهم أصحابه ووزراءه على الدين الذي بعثه بالدعاء إليه دون المشركين به الجاحدين نبوة نبيه»[1].

**- وخص الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾؛ لأنهم أهل الحمد والثناء لربهم وأولى الناس بذلك:**

قال السعدي: «﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق خصوصا أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي وقع، والذي ينبغي، أن يقع منهم، من الحمد والثناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم»[2].

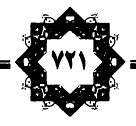
**❖ من قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾** (العنكبوت: ٦٣).

**- في معناها:**

قال الطبري: «وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾: يقول: وإذا قالوا ذلك، فقل: الحمد لله، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾: يقول: بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون مالهم فيه النفع من أمر دينهم، وما فيه الضر، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله ينالون بها عند الله زلفة وقربة، ولا يعلمون أنهم بذلك

(١) «جامع البيان»: (٢٠/٢).

(٢) «تفسير السعدي»: (٦١١).



هالكون مستوجبون الخلود في النار»[1].

- **متعلق الحمد في الآية:**

قيل: المراد أن يحمده ﷺ على أن الفاعل هو الله تعالى، وقيل بل على إقرارهم[2].

- **والآية مسوقة مساق التوبيخ للمشركين على شركهم،** كما في نظائرها في القرآن الكريم، قال الشنقيطي في الأضواء: «قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ** ﴾ (العنكبوت: ٦١) فلما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿ **فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٦١)، ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ** ﴾ (العنكبوت: ٦٣) فلما صح إقرارهم وبخهم منكراً عليهم شركهم بقوله: ﴿ **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٦٣)، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ** ﴾ (لقمان: ٢٥) فلما صح اعترافهم وبخهم منكراً عليهم بقوله: ﴿ **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (لقمان: ٢٥)»[3].

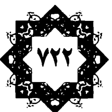
- **قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ**

---

(١) «جامع البيان»: (١٢/٢١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل»: (٣/٤٧٤)، «الكشاف»: (٣/٤٦٧)، «التسهيل» لابن جزيء: (٣/١١٩).

(٣) «أضواء البيان»: (٣/٢٠).



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (لقمان: ٢٥).

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك: من خلق السماوات والأرض؟ ليقولن الله ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ ﴾: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإذا قالوا ذلك فقل لهم: الحمد لله الذي خلق ذلك، لا لمن لا يخلق شيئا وهم يخلقون، ثم قال تعالى ذكره: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: يقول: بل أكثر هؤلاء المشركون، لا يعلمون من الذي له الحمد، وأين موضع الشكر»[1].

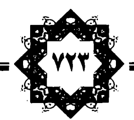
## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

- **في مثل هذه الآيات يعلم الله تعالى نبيه ﷺ كيف يستفتح كلامه، ويوقفه على أدب جميل مما أدب به رب العالمين نبيه ﷺ:**

**قال الزمخشري:** «أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع.

---

(١) «جامع البيان»: (٢١/ ٨٠).



ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله ﷻ وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن»[1].

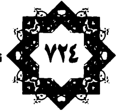
**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

عندما ننظر إلى تمثل صفة الحمد في النبي ﷺ فإننا نرى الحمد فيه ذاته ﷺ، فهو أحمد، وهو محمد، وهو الذي كان حامداً حماداً ومحموداً في الأرض وفي السماء، قال ابن القيم رحمه الله:

«فإن معنى (الفارقليط) إن كان هو الحامد أو الحماد أو المحمود أو الحمد، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ، فإنه وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، مفتاح خطبته ومفتاح صلاته، ولما كان حمادا سمي بمثل وصفه، فهو مُحَمَّد، وزن: مُكَرَّم ومُعَظَّم ومُقَدَّس، وهو الذي يحمد أكثر مما يحمده غيره ويستحق ذلك، فلما كان حمادا لله كان محمدا، وفي شعر حسان:

أغر عليه للنبوة خاتم ❖ من الله ميمون يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ❖ إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ❖ فذو العرش محمود وهذا محمد

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨٣/٧).



وأما أحمد: فهو أفعل التفضيل، أي هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محمودا أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا، أي: هذا أحق بأن يحمده من هذا، فيكون تفضيل على غيره زيادة في الكيفية، ومن الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمداً لله كان من غيره، وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحماد، وعلى الأول بمعنى المحمود، وإن الفارقليط بمعنى: الحمد، تسمية بالمصدر؛ مبالغة في كثرة الحمد»[(١)].

**❖ وفيما يلي بعض الشواهد التي تورد لنا حمد نبينا ﷺ:**

- قال رسول اللَّهِ ﷺ: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت...» الحديث[(٢)].

- وعنه ﷺ أَنَّهُ كان يقول: «اللهم لك الحمد مِلْءُ السماء وَمِلْءُ الأرض وَمِلْءُ ما شِئْتَ من شيْء بعد»[(٣)].

- وعن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مُؤْوِيَ»[(٤)].

---

(١) «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»: (١/ ٦١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة، (٣/١٦٨٥/ح ٢١٣٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الصلاة، (١/٣٤٦/ح٤٧٦).

(٤) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، (٤/٢٠٨٥/ح ٢٧١٥).

**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

علمنا نبينا ﷺ أن نحمد ربنا دائماً وأبداً، في السراء والضراء، فأمته هم الحمادون، فليس لحمد الله تعالى وقتاً معيناً، فيحمد العبد ربه ويحمده ويحمده حتى يمتلئ من الحمد ميزانه، قال رسول اللّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله، تَمْلآَنِ أو تَمْلأُ ما بين السماوات والأرض...» الحديث[1].

❖ **وقد وردت السنة بتعليمنا الحمد في مواضع شتى من حياتنا، فمن ذلك:**

- عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فَلْيَحْمَدِ الله عليها وَلْيُحَدِّثْ بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره»[2].

- قال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده، عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[3].



---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (١/٢٠٣/ح ٢٢٣).

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص (٦٦٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، (٤/٢٠٩٥/ح٢٧٣٤).

## الصفة الثانية

## الشُّكْر

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة الشكر:

الشكر: الثناء على معروف.

قال الرازي في مختار الصحاح: «ش ك ر: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، وقد شَكَرَهُ يَشْكُرُهُ بالضم شُكْرًا وشُكْرَانًا، أيضاً يقال: شَكَرَهُ وشَكَرَ له، وهو باللام أفصح... والشُّكْرَان ضد الكُفْرَان»[1].

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالشكر:**

- قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٦).

### ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الشكر للنبي ﷺ:

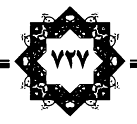
- **في معناها:**

قال الطبري «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تعبد ما أمرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بعبادته، بل الله فاعبد، دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان والأنداد، وكن من الشاكرين لله على نعمته عليك بما أنعم من الهداية لعبادته، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان»[2].

---

(١) «مختار الصحاح»: (١/١٤٥).

(٢) «جامع البيان»: (٢٤/٢٤ ـ ٢٥).



وقال السعدي: «﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الله، على توفيق الله تعالى. فكما أنه يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العُجْب، التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر»[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

سبق الحديث عن الأسلوب في هذه الآية[2].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

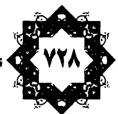
كان النبي ﷺ شاكراً شكوراً، ولا أدل على ذلك مما رواه البخاري، قال: كان ﷺ يقوم «ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول أفلا أكون عبداً شكوراً»[3].

وقد علمنا النبي ﷺ الشكر ورغبنا فيه، وقد ذكر أن الشكر يقوم على قواعد، «قال الفيروز آبادي: «الشكر أعلى منازل السالكين، وفوق منزلة

(١) «تفسير السعدي»: (٧٢٩).

(٢) في مبحث العبودية، انظر: ص (٤٨٨).

(٣) رواه البخاري، أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه، (١/٣٨٠/١٠٧٨).



الرضا، فإنه يتضمن الرضا وزيادة، والرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه وهو نصف الإيمان، ومبناه على خمس قواعد:

١ – خضوع الشاكر للمشكور.

٢ – وحبه له.

٣ – واعترافه بنعمته.

٤ – والثناء عليه بها.

٥ – وألا يستعملها فيما يكره.

فمتى فقدت منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر»[1].

❖ **الفرق بين الحمد والشكر:**

«الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان فإن الله تعالى يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى وما خلقه في الآخرة والأولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ (الأنعام: ١)، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ (سبأ: ١)، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ (فاطر: ١)، وأما «الشكر»

---

(١) «نضرة النعيم»: (٦/٢٣٩٦).

فإنه لا يكون إلا على الإنعام فهو أخص من الحمد من هذا الوجه؛ لكنه يكون بالقلب واليد واللسان... ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ﴾ (سبأ: ١٣)، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه والحمد أعم من جهة أسبابه»(١).

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

- على المؤمن أن يكون شاكراً لربه على كل حال، ولا ينبع ذلك إلا من نفس راضية عن قضاء ربها وقدره، لأنها تعلم أن كل شيء بحكمة بالغة من رب العالمين.

قال رسول اللّهِ ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(٢).

- وبالشكر تدوم النعم:

عن علي رضي الله عنه أنه قال: «إن النعمة موصولة بالشكر والشكر متعلق بالمزيد وهما مقرونان في قرن ولن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (١١/١٣٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، (٤/٢٢٩٥/ح ٢٩٩٩).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي: (٤/١٢٧).

- «وقال الحسن البصري: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا» ولهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ لأنه يحفظ النعم الموجودة والجالب لأنه يجلب النعم المفقودة.

- وقال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله»»[1].

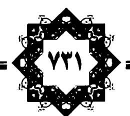
- وقال ابن القيم: «وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ (النساء:١٤٧)، أي: إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأنعام:٥٣)، وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣)»[2].



(١) «عدة الصابرين» لابن القيم: (١/٩٨).

(٢) «المصدر السابق»: (١/٩٥).



# المبحث الخامس

وفيه ثلاث صفات:

- الصفة الأولى: التبتل.
- الصفة الثانية: الترتيل.
- الصفة الثالثة: التهجد.

## الصفة الأولى

## التَّبَتَلُّ

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة التبتل:

التبتل: الانقطاع.

قال ابن فارس: «(بَتَلَ): الباء والتاء واللام: أصل واحد، يدل على إبانة الشيء من غيره، يقال: بَتَلْتُ الشيءَ: إذا أَبَنْتَهُ من غيره، والتَّبَتُّل: إخلاص النية لله تعالى والانقطاع إليه... قال الله تعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ أي انقطع إليه انقطاعا»[1].

وقال الأزهري: «بتل: قال الليث: البَتْل: تمييزُ الشيء من الشيء، والبَتُول: كل امرأة تَنْقَبض عن الرجال لا شهوةَ لها ولا حاجة فيهم، ومنه التَّبَتل: وهو تَرْكُ النِّكاح والزهدُ فيه»[2].

❖ من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالتبتل:

- قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمل: ٨).

### ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة التبتل للنبي ﷺ:

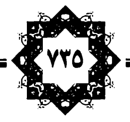
- في معناها:

يأمر تعالى نبيه ﷺ بأن ينقطع إلى ربه لعبادته، مخلصاً لربه، متضرعاً إليه.

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١/١٩٥ - ١٩٦).

(٢) «تهذيب اللغة»: (١٤/٢٠٧).



قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد اسم ربك، فادعه به، ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾: يقول: وانقطع إليه انقطاعا لحوائجك وعبادتك دون سائر الأشياء غيره، وهو من قولهم: تبتلت هذا الأمر، ومنه قيل لأم عيسى بن مريم: البتول؛ لانقطاعها إلى الله، ويقال للعابد المنقطع عن الدنيا وأسبابها إلى عبادة الله: قد تبتل»[1].

- **وقد تنوعت عبارات المفسرين[2] في معنى قوله تعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾:**

١ – قيل المعنى: أخلص إليه إخلاصاً.

٢ – وقيل: تعبد له تعبداً.

٣ – وقيل: انقطع إليه انقطاعاً.

٤ – وقيل: وتضرّع إليه تضرّعاً.

**ولا تعارض بينها، فمن الممكن اجتماعها وتصح على معنى التبتل، فالمنقطع إلى ربه، لابد وأن يكون مخلصاً متعبداً متضرعاً، والمتوافق مع ظاهر المعنى اللغوي، هو تفسير التبتل بالانقطاع.**

قال ابن عاشور: «وخلاصة المعنى: أن النبي ﷺ مأمور أن لا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة الله ومراقبته والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد

(١) «جامع البيان»: (١٣٢/٢٩).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (١٢٨/٦)، «معالم التنزيل»: (٤٠٩/٤)، «تفسير القرطبي»: (٤٤/١٩)، «التسهيل» لابن جزيء: (١٥٧/٤)، «تفسير ابن كثير»: (٤٣٨/٤)، «فتح القدير»: (٣١٧/٥).



كان النبي ﷺ من قبلُ غير غافل عن هذا الانقطاع بإرشاد من الله، كما ألهمه التحنّث في غار حراء، ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة، فالأمر في قوله: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ ﴾ مراد به الدوام على ذلك»[1].

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

**- مسألة: استُعمل التفعيل بدل التَّفَعُّل حيثُ كان القياس أن يقول: وتَبَتَّل إليه تَبَتُّلاً؟**

وذلك «لسر لطيف، فإن في هذا الفعل إيذانا بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة، فأتى بالفعل الدال على أحدهما بالمصدر الدال على الآخر، فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلا، وتبتل إليه تبتلا، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن وهو من أحسن الاختصار والإيجاز»[2].

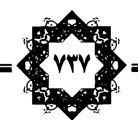
**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

كان النبي ﷺ يأنس بالانقطاع إلى ربه جل وعلا يناجيه ويتعبده، حتى قبل البعثة لما كان يتبتل في غار حراء حتى أتته النبوة، وبعد النبوة لما كان يعتكف في مصلاه، ولما كان يقوم الليل حتى ترم قدماه، وأمثلة ذلك كثيرة في حياته ﷺ لا حصر لها.

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٢٦٦/٢٩).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم: (٢٩/٢).



### خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

نستطيع التأسي بالنبي ﷺ في صفة التبتل بالاعتكاف الذي علمنا إياه ﷺ، سواء كان ذلك في مواسم العبادات وغيرها، وهو في مواسم العبادات آكد.

وكذلك بأن يخلو المرء بنفسه مناجياً ربه داعياً إياه متأملاً نفسه وقصورها، فيحثه ذلك على العودة إلى الله تعالى، والرغبة إليه سبحانه.

يقول ابن القيم: «التبتل يجمع أمرين: اتصالا وانفصالا لا يصح إلا بهما فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله خوفا منه أو رغبة فيه أو مبالاة به أو فكرا فيه بحيث يشغل قلبه عن الله

والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال وهو اتصال القلب بالله وإقباله عليه وإقامة وجهه له حبا وخوفا ورجاء وإنابة وتوكلا»[1].



(١) «مدارج السالكين»: (٢/ ٣٠ ـ ٣١).

# الصفة الثانية

# التَّرتِيل

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الترتيل:

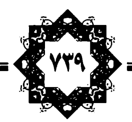
الترتيل: إيراد الكلام على تؤدة وبيان، بحيث يكون مفصلاً يمكن الذهن من فهمه والتفكر في معانيه.

قال ابن منظور «رَتَلَ: الرَّتْلُ: حسن تناسق الشيء، وثغر رَتْلٌ ورَتِلٌ: حسن التنضيد مستوي النبات... وكلام رَتْل ورَتِل أي: مُرتل حسن على تؤدة، ورَتَّلَ الكلام: أحسن تأليفه، وأبانه، وتمهل فيه. والترتيل في القراءة: التَّرَسُّلُ فيها، والتبيين من غير بغي، وترتيل القراءة: التأني فيها، والتمهل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهاً بالثغر المرتل، يقال رَتَّلَ القراءة، وتَرَتَّلَ فيها، وقوله ﷻ: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ (الفرقان: ٣٢)، أي أنزلناه على الترتيل، وهو ضد العجلة والتمكث فيه، هذا قول الزجاج، وتَرَتَّلَ في الكلام: تَرَسَّل، وهو يترتل في كلامه ويترسل»[١].

❖ **الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالترتيل:**

- قوله تعالى: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل: ٤).

(١) «لسان العرب»: (١١/٢٦٥).



## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الترتيل للنبي ﷺ:

- في معناها:

قال الطبري: «وقوله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾: يقول جل وعز وبين القرآن إذا قرأته تبيينا وترسل فيه ترسلا»(١).

وقال ابن عطية: «معناه في اللغة: تمهل وفرق بين الحروف لتبين.

والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة»(٢).

وقال السَّعدي: «فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له»(٣).

- والهَذُّ نقيض الترتيل:

قال ابن جزي: «﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾: الترتيل هو التمهل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف وذلك معين على التفكر في معاني القرآن بخلاف الهَذِّ الذي لا يفقه صاحبه ما يقول»(٤).

---

(١) «جامع البيان»: (١٢٦/٢٩)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٤٠٧/٤).

(٢) «المحرر الوجيز»: (٣٨٧/٥).

(٣) «تفسير السعدي»: (٨٩٣).

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (١٥٧/٤).

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

- في تنكير المصدر، معنى التعظيم:

قال ابن عاشور: «﴿ تَرْتِيلاً ﴾: مصدر منصوب على المفعول المطلق قصد به ما في التنكير من معنى التعظيم فصار المصدر مبيّناً لنوع الترتيل»[(١)].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ إذا قرأ القرآن رتله فأحسن ترتيله، وبينه فأحسن بيانه حتى يكاد السامع له يعد حروفه التي ينطق بها، وقد نقلت إلينا السنة قراءته ﷺ للقرآن فمن ذلك:

- سُئل أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال كانت مداً ثم قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»[(٢)].

- وعن الْبَرَاءَ رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ في العِشَاءِ وما سمعت أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا منه أو قِرَاءَةً»[(٣)].

## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

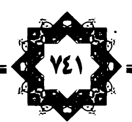
- **حثَّ رسول الله ﷺ أمته على ترتيل القرآن وتلاوته وتحسين الصوت به، وكان يعجبه ذلك:**

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٩/٢٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، (٤/١٩٢٥/ح ٤٧٥٩).

(٣) سبق تخريجه، انظر: ص (٤٣٨).



روى البخاري عن أبي مُوسَى الأشعري[(١)] رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال له: «يا أبا موسى لقد أوتيت مِزْمَارًا من مَزَامِيرِ آل دَاوُدَ»[(٢)].

- **على المسلم أن يتجنب الهذ في تلاوة القرآن،** قال ابن مسعود رضي الله عنه: ««لا تنثروه نثر الدقل[(٣)]، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»[(٤)].

- **والغرض الرئيس من الترتيل هو التدبر والتأمل والتفكر في الآيات، مما يدعو إلى الخشوع لله رب العالمين:**

قال الشنقيطي: «وقال أبو موسى رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «لو كنت أعلم أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيراً»، وهذا الوصف هو الذي يتأتى منه الغرض من التلاوة، وهو التدبر والتأمل، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (النساء: ٨٢)، كما أنه هو الوصف الذي يتأتى معه الغرض من تخشع القلب كما في

(١) هو: عبد الله بن قيس بن سليم، هاجر إلى الحبشة وقيل بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة، وقدم المدينة بعد فتح خيبر، ، واستعمله النبي ﷺ على بعض مدن اليمن، مات سنة اثنتين وقيل أربع وأربعين وهو بن نيف وستين سنة. انظر: «الإصابة»: (٤/ ٢١٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة بالقرآن، (٤/ ١٩٢٥/ ح ٤٧٦١).

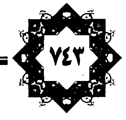
(٣) «الدَّقَلْ: هو رديء التمر ويابسه، فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورا»: «لسان العرب»: (١١/ ٢٤٦).

(٤) «أخلاق أهل القرآن» للآجري: (١/ ٣).

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣)، ولا تتأثر به القلوب والجلود إلا إذا كان مرتلاً، فإذا كان هذا كالشعر أو الكلام العادي لما فهم، وإذا كان مطرباً كالأغاني لما أثر، فوجب الترتيل كما بين ﷺ»[1].



(١) «أضواء البيان»: (٣٥٨/٨).



# الصفة الثالثة

# التَّهَجدُّ

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة التهجد:

التهجد: هو السكون في المكان.

قال ابن فارس: «(هَجَدَ): الهاء والجيم والدال: أصيل يدل على ركود في مكان، يقال: هَجَدَ إذا نام هُجُودا، والهاجد: النائم؛ وإن صلى ليلا فهو متهجد، كأنه بصلاته ترك الهجود عنه، وهذا قياس مستعمل كما يقال رجل آثم؛ فإذا كره الإثمَ وانتفى منه قيل: متأثم»(١).

❖ **من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالتهجد:**

- قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ (الإسراء: ٧٩).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة التهجد للنبي ﷺ:

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ومن الليل فاسهر بعد نومة يا محمد بالقرآن نافلة لك، خالصة دون أمتك، والتهجد التيقظ والسهر بعد

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٦/ ٣٤).

نومة من الليل»[1].

- **في قوله تعالى: ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾:**

قال الشوكاني: «﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾: معنى النافلة في اللغة: الزيادة على الأصل، فالمعنى أنها للنبي ﷺ نافلة زائدة على الفرائض، والأمر بالتهجد وإن كان ظاهره الوجوب، لكن التصريح بكونه نافلة، قرينة صارفة للأمر.

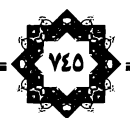
وقيل: المراد بالنافلة هنا أنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه ﷺ، ويدفع ذلك: التصريح بلفظ النافلة.

وقيل: كانت صلاة الليل فريضة في حقه ﷺ، ثم نسخ الوجوب، فصار قيام الليل تطوعاً، وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة ولأمته تطوع، قال الواحدي: «إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي ﷺ خاصة لرفع الدرجات لا للكفارات؛ لأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها، قال: وهو قول جميع المفسرين»، والحاصل أن الخطاب في هذه الآية وإن كان خاصا بالنبي ﷺ في قوله: (أقم الصلاة): فالأمر له أمر لأمته، فهو شرع عام، ومن ذلك: الترغيب في صلاة الليل، فإنه يعم جميع الأمة، والتصريح بكونه نافلة، يدل على عدم الوجوب، فالتهجد من الليل مندوب إليه، ومشروع لكل مكلف»[2].

---

(١) «جامع البيان»: (١٥/١٤١)، وانظر: «النكت والعيون»: (٣/٢٦٤)، «معالم التنزيل»: (٣/١٢٨).

(٢) «فتح القدير»: (٣/٢٥١)، وانظر: «تفسير السعدي»: (٤٦٥).



وقال الشنقيطي في الأضواء: «قيل: إن قيام الليل كان فرضاً عليه ﷺ قبل أن تفرض الصلوات الخمس لقوله: تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ (الإسراء: ٧٩) والنافلة الزيادة، وقيل: كان فرضاً عليه ﷺ وعلى عامة المسلمين، لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ (المزمل: ٢٠) ثم خفف هذا كله بقوله:

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ (المزمل: ٢٠).

ولكنه ﷺ كان إذا عمل عملاً داوم عليه، فكان يقوم الليل شكراً لله كما في حديث عائشة رضي الله عنها «أفلا أكون عبداً شكوراً»[١] وبقي سنة لغيره بقدر ما يتيسر لهم، والله تعالى أعلم»[٢].

- **في قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٩):**

قال الشوكاني: «ثم وعده سبحانه على إقامة الفرائض والنوافل فقال: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾: قد ذكرنا في مواضع أن عسى من الكريم إطماع واجب الوقوع... ومعنى كون المقام محمودا أنه يحمده كل من علم به»[٣].

---

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٧٢٨).

(٢) «أضواء البيان»: (٨/٣٥٩ـ ٣٦٠).

(٣) «فتح القدير»: (٣/٢٥١).



- وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال:

الصحيح منها، والذي عليه جمهور المفسرين، والمحققين من أهل العلم، أنه: المقام الذي يقومه النبي ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه من هول الموقف[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

**مسألة: لماذا خص النبي ﷺ بالتهجد؟**

قال البغوي: «فإن قيل فما معنى التخصيص وهي زيادة في حق كافة المسلمين كما في حقه ﷺ؟ قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفارة لذنوبهم والنبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب فتبقى له زيادة في رفع الدرجات»[2].

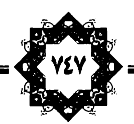
## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

- لبى رسول الله ﷺ نداء الله جل وعلا لما قال له: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ ﴾ (المزمل: ٢)، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٧٩)، ولم يكن تهجده ﷺ كتهجد أي أحد، بل كان يقوم حتى ترم قدماه، وليس له جواب في ذلك إلا: «أفلا أكون عبداً شكورا»؟

---

(١) انظر: «فتح القدير»: (٣/٢٥١).

(٢) «معالم التنزيل»: (٣/١٢٩).



- فقد روى البخاري ومسلم «أن النبي ﷺ كان يَقُومُ من اللَّيْلِ حتى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»؟ فلما كثر لحمه صلى جالساً، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع»[1].

- وسأل هشام بن عامر[2] أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقال: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ فقالت ألست تقرأ يا أيها المزمل قلت بلى قالت فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة...» الحديث[3].

- وعن عبد اللهِ ابن مسعود رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ ليلة فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء»، قلنا: وما هممت؟ قال: هَمَمْتُ أن أقعد وَأَذَرَ النبي ﷺ[4].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، (١٨٣٠/٤/ح٤٥٥٧).

(٢) هو: هشام بن عامر بن أمية الأنصاري، ويقال: كان اسمه شهابا فسماه رسول الله ﷺ هشاما وكان نزل البصرة وعاش إلى زمن زياد. انظر: «الإصابة»: (٥٤٣/٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل...، (٥١٣/١/ح ٧٤٦).

(٤) سبق تخريجه، انظر: ص (٦١١).



**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

حث النبي ﷺ على التهجد ورغب فيه:

- قال رسول اللَّهِ ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله الْمُحَرَّمُ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة اللّيل»(١).

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص(٢) رضي الله عنهما قال: قال لي رسول اللَّهِ ﷺ: يا عبد الله: لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»(٣).

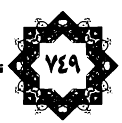
والتهجد من أروع العبادات التي يجد فيها المرء نفسه، ويغلب أن تخلص فيها نيته لله تعالى، وذلك حين يخلو بربه، يناجيه، ويدعوه، ويسبحه، وينزهه، ويحمده، ويكبره، حين تهدأ الأصوات، ويتنزل رب العزة إلى السماء الدنيا.



(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، (٢/٨٢١/ح ١١٦٣).

(٢) سبقت ترجمته، انظر: ص (٢٩٩).

(٣) رواه البخاري، أبواب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، (١/٣٨٧/ح ١١٠١)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به...، (٢/٨١٤/ح ١١٥٩).



# المبحث السادس

وفيه صفة واحدة:

- الصبر.

# الصَّبْر

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة الصَّبْر:

الصَّبْرُ المقصود هنا هو الحبس.

قال ابن فارس: «(صَبَرَ): الصاد والباء والراء: أصول ثلاثة الأول: الحبس، والثاني: أعالي الشيء، والثالث: جنس من الحجارة، فالأول: الصبر: وهو الحبس، يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر: أي حبستها»[1].

**❖ من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالصبر:**

- قوله تعالى: ﴿ **وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ** ﴾ (يونس: ١٠٩).

- قوله تعالى: ﴿ **فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (هود: ٤٩).

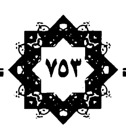
- قوله تعالى: ﴿ **وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (هود: ١١٥).

- قوله تعالى: ﴿ **وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾ (النحل: ١٢٧).

- قوله تعالى: ﴿ **وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ**

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣/٣٢٩).



يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (الكهف: ٢٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).

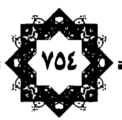
- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور: ٤٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (ق: ٣٩).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (القلم: ٤٨).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل: ١٠).



- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج: ٥).

- قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر: ٧).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٢٤).

❖ وعند تأمل الآيات التي ورد فيها حث النبي ﷺ على الصبر، نجد أن الوحدة الموضوعية التفسيرية لها يمكن تقسيمها على أربعة أقسام، تندرج مجموعة من الآيات تحت كل قسم، وذلك على النحو التالي:

**أ/ الحث على الصبر مع انتظار الوعد والعاقبة:**

ومضمونه في الآيات التالية:

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٤٩).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود: ١١٥).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).

**ب/ الحث على الصبر لحكم الله، وحتى يأتي حكم الله:**

ومضمونه في الآيات التالية:



- من قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (يونس: ١٠٩).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (القلم: ٤٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٢٤).

## ج/ مطلق الحث على الصبر بدون قرائن:

ومضمونه في الآيات التالية:

- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ ﴾ (الكهف: ٢٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ (المزمل: ١٠).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج: ٥).

- قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر: ٧).



د/ اقتران الصبر بالتسبيح:

ومضمونه في الآيات التالية:

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).

- قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور: ٤٨).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (ق: ٣٩).

وفيما يلي عرض لأهم أقوال المفسرين في هذه الصفة للنبي ﷺ.

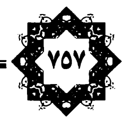
## ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة الصبر للنبي ﷺ:

أ/ الحث على الصبر مع انتظار الوعد والعاقبة:

❖ من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٤٩).

- في معناها:

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ هذه القصة التي أنبأتك بها من قصة نوح وخبره وخبر قومه من أنباء الغيب يقول هي من أخبار الغيب التي



لم تشهدها فتعلمها ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ ﴾: يقول نوحيها إليك نحن فنعرفكها ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا الوحي الذي نوحيه إليك ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾: على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته وما تلقى من مشركي قومك كما صبر نوح.

﴿ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾: يقول إن الخير من عواقب الأمور لمن اتقى الله فأدى فرائضه واجتنب معاصيه فهم الفائزون بما يؤملون من النعيم في الآخرة والظفر في الدنيا بالطلبة كما كانت عاقبة نوح إذ صبر لأمر الله أن نجاه من الهلكة مع من آمن به وأعطاه في الآخرة ما أعطاه من الكرامة وغرق المكذبين به فأهلكهم جميعهم»[1].

- **وفي الآية تنبيه على العاقبة الأكيدة من عواقب الصبر**، وهي النصر، قال الرازي: «وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾** (هود: ١١٥).

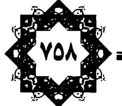
قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: واصبر يا محمد على ما تلقى من مشركي قومك من الأذى في الله والمكروه رجاء جزيل ثواب الله على ذلك فإن الله لا يضيع ثواب عمل من عمل فأطاع الله واتبع أمره فيذهب به بل يوفره أحوج ما يكون إليه»[3].

---

(١) «جامع البيان»: (٥٦/١٢)، وانظر: «المحرر الوجيز»: (١٧٩/٣).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٨/١٨).

(٣) «جامع البيان»: (١٣٨/١٢).



- وفي هذه الآية جاء الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ (هود:١١٢)، وبينهما مناسبة، قال ابن عاشور: «ومناسبة وقوع الأمر بالصّبر عقب الأمر بالاستقامة والنّهي عن الركون إلى الذين ظلموا، أنّ المأمورات لا تخلو عن مشقة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كلّ بما يناسبه»[(١)].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾** (الروم: ٦٠).

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره فاصبر يا محمد لما ينالك من أذاهم وبلغهم رسالة ربك فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم والظفر بهم وتمكينك وتمكين أصحابك وأتباعك في الأرض حق»[(٢)].

- **في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾:**

يقول ابن عطية: «ثم أمر نبيه بالصبر وقوى نفسه لتحقيق الوعد ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم والتحرك واضطراب النفس لأقوالهم إذ هم لا يقين لهم ولا

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٢/١٨٢).

(٢) «جامع البيان»: (٢١/ ٥٨ - ٥٩).



بصيرة»[1].

- فائدة إيراد قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾:

١ – تسلية لقلب النبي ﷺ، ومدعاة له إلى الاستمرار على ما هو عليه بطريق غير مباشر[2].

٢ – تعليل للأمر بالصبر، وهو «تأنيس للنبيء ﷺ بتحقيق وعد الله من الانتقام من المكذبين، ومن نصر الرسول ﷺ»[3].

❖ من قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).

- في معناها:

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾: أي في الدنيا، وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أبيدوا في يوم بدر، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿ أَوۡ

(١) «المحرر الوجيز»: (٣٤٤/٤)، وانظر: «تفسير القرطبي»: (٤٩/١٤)، «التحرير والتنوير»: (١٣٥/٢١).

(٢) انظر: «التفسير الكبير» للرازي: (١٢١/٢٥).

(٣) انظر: «التحرير والتنوير»: (١٣٥/٢١).

﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة»[1].

**ب/ الحث على الصبر لحكم الله، أو حتى يأتي حكم الله:**

ومضمونه في الآيات التالية:

- **من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾** (يونس: ١٠٩).

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره واتبع يا محمد وحي الله الذي يوحيه إليك وتنزيله الذي ينزله عليك فاعمل به واصبر على ما أصابك في الله من مشركي قومك من الأذى والمكاره وعلى ما نالك منهم حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره بفعل فاصل.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: يقول وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين، فحكم جل ثناؤه بينه وبينهم يوم بدر وقتلهم بالسيف وأمر نبيه ﷺ فيمن بقي منهم أن يسلك بهم سبيل من أهلك منهم أو يتوبوا وينيبوا إلى طاعته»[2].

- **في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ﴾:**

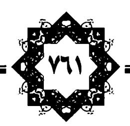
هذا «غاية لهذا الصبر الخاص لا لمطلق الصبر»[3].

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (٤/٨٩-٩٠)، وانظر: «جامع البيان»: (٢٤/٨٦)، «الكشاف»: (٤/١٠٥)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٧/٤٥٦).

(٢) «جامع البيان»: (١١/١٧٨)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٢/٣٧٢).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١١/٣١٠).



❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾** (القلم: ٤٨).

- **في معناها:**

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ يا محمد على قومك وتكذيبهم لك، فإن الله سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾: يعني ذا النون، وهو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مغاضبا على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، قال الله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٨)، وقال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ (الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤)، وقال هاهنا: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ (القلم: ٤٨).. أي وهو مغموم»[(١)].

والنهي هنا منصب على الحال، أي لا يكن حالك كحال صاحب الحوت، قال أبو حيان: «وليس النهي منصباً على الذوات، إنما المعنى: لا يكن حالك مثل

(١) «تفسير ابن كثير»: (٤/٤٠٩)، والنظر: «المحرر الوجيز»: (٤/٩٦).

حاله»[1].

وقال الشوكاني: «﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ يعني يونس عليه السلام أي لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة»[2].

وفيه تحذير له ﷺ، قال ابن عاشور: «لأنه يتضمن التحذير من الوقوع في كرب من قبيل كرب يونس، ثم لا يدري كيف يكون انفراجه»[3].

- **في سببها:**

قال أبو حيان: «روي أنه ﷺ أراد أن يدعو على الذين انهزموا بأُحُد حين اشتد بالمسلمين الأمر، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف، فنزلت: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾»[4].

- **في المراد بقوله تعالى: ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾:**

الحكم قيل: هو إمهالهم وتأخير النصر، وقيل: الحكم هو تبليغ الرسالة[5].

❖ **ولا تعارض بين القولين، فالنبي ﷺ مأمور بالصبر على كل ذلك.**

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾**

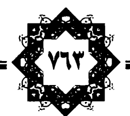
(١) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٣١٠/٨).

(٢) «فتح القدير»: (٢٧٦/٥).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١٠٥/٢٩).

(٤) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٣١٠/٨).

(٥) انظر: «فتح القدير»: (٢٧٦/٥).



(الإنسان: ٢٤).

يقال فيها ما قيل في سابقتها[١].

ج/ مطلق الحث على الصبر بدون قرائن:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾** (النحل: ١٢٧).

- **في سببها:**

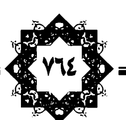
قال القرطبي: «روى الدارقطني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرف المشركون عن قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظرا ساءه رأى حمزة قد شق بطنه واصطلم[٢] أنفه وجدعت أذناه فقال: «لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلا»، ثم دعا ببردة وغطي بها وجهه فخرجت رجلاه فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجليه من الإذخر[٣] ثم قدمه فكبر عليه عشرا ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة وكان القتلى سبعين فلما دفنوا وفرغ منهم، نزلت هذه الآية: **﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾** (النحل: ١٢٥) إلى قوله: **﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾** (النحل: ١٢٧) فصبر

---

(١) وانظر: «جامع البيان»: (٢٢٤/٢٩)، «الكشاف»: (٦٧٤/٤ ـ ٦٧٥).

(٢) اصطُلِم أنفه: استؤصل أنفه، انظر: «لسان العرب»: (٣٤٠/١٢).

(٣) الإذخر: حشيش طيب الريح أطول من الثيل، انظر: «لسان العرب»: (٣٠٣/٤).



رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد»[1].

- **في معناها:**

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوته ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أي غم ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم»[2].

- **في تخصيص النبي ﷺ بالأمر بالصبر:**

قال ابن عاشور: «خص النبي ﷺ بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى»[3].

- **فائدة إيراد قوله تعالى: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾:**

قال ابن عاشور: «وجملة: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ معترضة بين المتعاطفات، أي وما يحصل صبرك إلا بتوفيق الله إيّاك، وفي هذا إشارة إلى أن صبر النبي ﷺ عظيم لقي من أذى المشركين أشدّ مما لقيه عموم المسلمين، فصبره ليس كالمعتاد،

---

(١) «تفسير القرطبي»: (١٠/٢٠١).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٢/٥٩٣).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١٤/٣٣٦).

لذلك كان حصوله بإعانة من الله»[1].

وقال الشنقيطي في الأضواء: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ﷺ مأمور بالصبر، وأنه لا يمتثل ذلك الأمر بالصبر إلا بإعانة الله وتوفيقه، لقوله: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾، وأشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٥)؛ لأن قوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ ﴾، معناه: أن خصلة الصبر لا يلقاها إلا من كان له عند الله الحظ الأكبر والنصيب الأوفر، بفضل الله عليه، وتيسر ذلك له»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾** (الكهف: ٢٨).

- **في سببها:**

قال البغوي: «نزلت في عيينة بن حصن الفزاري[3] أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان وعليه شملة قد عرق فيها وبيده خوصة يشقها ثم ينسجها فقال عيينة للنبي ﷺ أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن

---

(١) «المصدر السابق»: (١٤/٣٣٧).

(٢) «أضواء البيان»: (٢/٤٦٨).

(٣) هو: عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري، أبو مالك، يقال كان اسمه حذيفة فلقب عيينة؛ لأنه كان أصابته شجة فجحظت عيناه، قال ابن السكن: له صحبة، وكان من المؤلفة، ولم يصح له رواية، أسلم قبل الفتح، وشهدها وشهد حنينا والطائف، وكان ممن ارتد في عهد أبي بكر ﷺ، ثم عاد إلى الإسلام. انظر: «الإصابة»: (٤/٧٦٧).

سادات مضر[(١)] وأشرافها فإن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا فأنزل الله ﷻ ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ أي احبس يا محمد نفسك ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ طرفي النهار ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي يريدون الله لا يريدون به عرضا من الدنيا»[(٢)].

- في معناها:

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ واصبر يا محمد نفسك مع أصحابك الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها يريدون بفعلهم ذلك وجهه لا يريدون عرضا من عرض الدنيا»[(٣)].

قال ابن عاشور: «﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾، أي احبسها معهم حبس ملازمة. والصبر: الشد بالمكان بحيث لا يفارقه. ومنه سميت المَصْبورة وهي الدابة تشد لتُجعل غَرضاً للرمي»[(٤)].

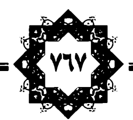
---

(١) مضر: قبيلة من قبائل قريش، سيدها اسمه: مضر بن نزار بن معد بن عدنان، قال ابن سيده: مضر اسم رجل، قيل سمي به؛ لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر ـ أي: شديد الحموضة ـ انظر: «لسان العرب»: (١٧٨/٥).

(٢) «معالم التنزيل»: (١٥٩/٣).

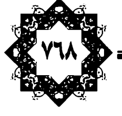
(٣) «جامع البيان»: (٢٣٤/١٥).

(٤) «التحرير والتنوير»: (٣٠٤/١٥ ـ ٣٠٥).



- ولهذه الآية الكريمة نظائر في القرآن الكريم:

قال الشنقيطي في الأضواء: «وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النَّبي ﷺ أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين، وقد قدمنا في سورة (الأنعام) أن الله كما أمره هنا بأن يصبر نفسه معهم أمره بألا يطردهم، وأنه إذا رآهم يسلم عليهم، وذلك في قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٢) إلى قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ (الأنعام: ٥٤) وقد أشار إلى ذلك المعنى في قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ ﴾ (عبس: ١-١١)، وقد قدمنا أن ما طلبه الكفار من نبينا ﷺ من طرده فقراء المؤمنين وضعفاءهم تكبراً عليهم وازدراء بهم طلبه أيضاً قوم نوح من نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأنه امتنع من طردهم أيضاً، كقوله تعالى عنهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ (الشعراء: ١١١)، وقوله عنهم أيضاً: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ (هود: ٢٧)، وقال عن نوح في امتناعه من طردهم: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الشعراء: ١١٤ - ١١٥)،



وقوله تعالى عنه: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود: ٢٩ ـ ٣٠)»[١].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾** (الأحقاف: ٣٥).

- **في معناها:**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مثبته على المضي لما قلده من عبء الرسالة وثقل أحمال النبوة ﷺ وآمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد، فاصبر يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار كما صبر أولوا العزم على القيام بأمر الله والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره ما نالهم فيه من شدة»[٢].

- **وفي معنى العزم في الآية:**

قال ابن عاشور: «والعزم: الجزم بالفعل وعدم التردد فيه، وهو مغالبة ما يدعو إليه الخاطر من الانكفاف عنه لعسر عمله أو إيثار ضده عليه»[٣].

---

(١) «أضواء البيان»: (٣/٢٦٣).

(٢) «جامع البيان»: (٢٦/٣٧).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١٦/٣١٩).



- **معنى قوله تعالى: ﴿ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾:**

اختلف في هذه المسألة اختلافاً واسعاً[1] على أقوال كثيرة، كل قول يحدد عددا معيناً من الأنبياء عليهم السلام، والحقيقة أن التعيين لا دليل عليه، إلا أن يقال أن يرجع للغة العرب، فمعنى العزم ـ كما وضحت قبل قليل ـ يجعل الناظر في الأقوال، يميل إلى ما ذكره ابن جرير الطبري لما قال: «إن أولي العزم منهم كانوا الذين امتحنوا في ذات الله في الدنيا بالمحن فلم تزدهم المحن إلا جدا في أمر الله كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم»[2]، والله تعالى أعلم.

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾** (المزمل: ١٠).

- **في معناها:**

قال الطبري: «وقوله: **﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾**: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: اصبر يا محمد على ما يقول المشركون من قومك لك وعلى أذاهم واهجرهم في الله هجرا جميلا، والهجر الجميل: هو الهجر في ذات الله كما قال ﷻ: **﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ ﴾**...الآية (الأنعام: ٦٨) وقيل إن ذلك نسخ»[3].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي»: (٢٢٠/١٦)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٦٨/٨)، «فتح القدير»: (٢٧/٥).

(٢) «جامع البيان»: (٣٧/٢٦).

(٣) «المصدر السابق»: (١٣٣/٢٩)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٤٠٩/٤).



- في قوله تعالى: ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا ﴾:

قال الرازي: والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المدارة والإغضاء وترك المكافأة، ونظيره ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ ﴾ (النساء: ٦٣)، ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا ﴾ (النجم: ٢٩)»[1].

وقال الشوكاني: «﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا ﴾ أي لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم وقيل الهجر الجميل الذي لا جزع فيه»[2].

- من قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ﴾ (المعارج: ٥).

- في معناها:

قال الطبري: «وقوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ﴾: يعني صبرا لا جزع فيه، يقول له: اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك ولا يثنيك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم من الرسالة»[3].

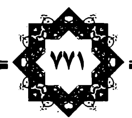
❖ من قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ (المدثر: ٧).

---

(١) «مفاتيح الغيب»: (٤٥٧١/١).

(٢) «فتح القدير»: (٣١٨/٥).

(٣) «جامع البيان»: (٧٢/٢٩).



- **في معناها:**

لا خلاف في أن النبي ﷺ أمر بالصبر، ولكن الاختلاف واقع في الذي أمر النبي ﷺ بالصبر عليه[1].

- فقيل: فاصبر على أداء فرائضه وعبادته.
- وقيل: على ما أوذيت.
- وقيل: محاربة العرب والعجم.
- وقيل: على البلوى.
- وقيل: على أوامره ونواهيه.
- وقيل: فراق الأهل والأوطان.

وليس في الأقوال السابقة اختلاف تناقض، لأن كلها تندرج في ما يفترض أن يصبر عليه النبي ﷺ، وزيادة من كل ما يصبر عنه، وقد امتثله ﷺ، فالآية أعم من أن تخصص، والله أعلم.

- قال أبو حيان: «فكل مصبور عليه، ومصبور عنه يندرج في الصبر»[2].

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

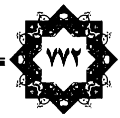
- **من قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾** (هود: ١١٥).

هنا تكرير للصبر بعد الأمر به، في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٥٠/٢٩)، «معالم التنزيل»: (٤١٤/٤)، «تفسير القرطبي»: (٦٩/١٩).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٣٦٤/٨).



لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: ٤٩)، وهذا التكرير لفائدة:

قال الزمخشري: «ثم كرّ إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا الكرور لفضل خصوصية ومزية وتنبيه على مكان الصبر ومحله، كأنه قال: وعليك بما هو أهمّ مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به»(١).

«وحذف متعلق الأمر بالصبر لدلالة المقام عليه، أي اصبر على تعنتهم»(٢).

- **من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾** (غافر: ٧٧):

- جاء التأكيد بإن، قال ابن عاشور: «ولهذا كان للتأكيد بـ ﴿ إِنَّ ﴾ في قوله: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ موقعُه، وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين استبطأوا النصر كما قال تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢١٤) فنزلوا منزلة المتردد فيه فأُكد وعده بحرف التوكيد»(٣).

- **وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾** عبر بالفعل المضارع، قال ابن عاشور: «والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ لإفادته التجدد فيشعر بأنه رجوع إلى الله في الدنيا»(٤).

---

(١) «الكشاف»: (٢/٤١١).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢١/١٣٥).

(٣) «المصدر السابق»: (٢٤/٢٠٨).

(٤) «المصدر السابق».

- **وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾** (الطور:٤٨)، عدي الفعل باللام، وذلك لفائدة: يقول ابن عاشور: «عدي فعل (اصبر) باللام لتضمن الصبر معنى الخضوع والطاعة للأمر الشاق، وقد يعدّى بحرف (على) كما قال تعالى: **﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾** (المزمل:١٠). ومناسبة مقام الكلام ترجح إحدى التعديتين»[1].

- **وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾...الآية** (الكهف:٢٨):

علق الظرف (مع) بالفعل (اصبر)، وذلك لتضمين الصبر معنى الملازمة[2].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ[3]:

عند تسريح النظر في أطوار دعوته ﷺ وحياته يعلم مدى الصبر العظيم الذي تحلى به رسولنا الكريم ﷺ في دعوته إلى الله جل وعلا، وهذه قطاف من صبره ﷺ:

١ – صبره في دعوته:

وكان من أوائل مبعثه ﷺ، فما شاع الخبر في قومه من دعوته عبادة الله وحده حتى نصبوا له العداء، فرموه بالسحر والجنون والكهانة والشعر، ومع ذلك كان ﷺ صابرا محتسباً، فمن كان بريئاً من الشيء يضيق صدره عند رميه

---

(١) انظر: «المصدر السابق»: (٢٩/٤٠٣).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٥/٣٠٥).

(٣) بتصرف شديد من: «أخلاق الرسول ﷺ في الكتاب والسنة» للحداد: (١/٤٤٠-٤٥٠).

به، لاسيما أن ذلك كان من قومه وعشيرته وهم يعرفون نسبه وسمته ودله ﷺ.

ومن صور الأذى التي تعرض لها النبي ﷺ وصبر واحتسب ما يلي:

«فبينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ[1] فوضع ثوبه في عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بِمَنْكِبِهِ، ودفعه عن النبي ﷺ قال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)»[2].

٢ – صبره بعد الهجرة إلى المدينة:

فقد كان في مكة يصابر قريشاً، ولكنه في المدينة صابر المنافقين واليهود والمشركين، وكل طائفة تكيد له ﷺ بكل ما أوتيت من قوة وعتاد، وهو ثابت الجأش قوي العزيمة صابر لربه محتسب له ﷺ.

٣ – صبره على المنافقين:

كان صبرا مراً إذ لا حيلة معهم إذ أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر والفسوق والعصيان، بل كانوا عيوناً للأعداء يتتبعون عورات المسلمين ويفشون خططهم وأسرارهم.

٤ – وأما صبره ﷺ على اليهود، فكان صبراً شديدا إذ كانوا يألبون عليه

---

(١) هو عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أمه: آمنة بنت كليب بن ربيعة، وهو عدو رسول الله ﷺ، انظر: «الوافي بالوفيات»: (٥٩/٢٠).

(٢) رواه البخاري، القسامة في الجاهلية، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، (١٤٠٠/٣/ح٣٦٤٣).

الناس، ويشككون في صدقه، وكتموا صفته التي وجدوها عندهم في التوراة، وغيروا صفاته وجحدوا نبوته مما كان يشكل أحد العوائق في صد الناس عن دين الله تعالى، حتى حكم الله بينه وبينهم في يوم قريظة لما نقضوا عهدهم والحمد لله رب العالمين.

٥ – وأما صبر النبي ﷺ على المشركين في العهد المدني كان أشد منه في العهد المكي لأنه في المدني كان صبراً على الحرب والمنازلة والجراح والدماء وفقد الأنفس، ولعل هذا هو سر تكرار أوامر الله تعالى له بلزوم الصبر، كما في الآيات التي مرت معنا.

٦ – صبره ﷺ على لأواء الحياة وشدتها:

كما صبر على مقاطعة قريش له ولقومه، ووفاة أحبابه من جده وعمه وزوجه، ثم هو يصبر ويصبر ويكابد الصبر حتى بلغ الكمال في صبره ﷺ.

**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

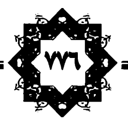
**أ/ لا حياة بدون صبر، فالصبر هو الذي يبلغ بالإنسان أعلى المراتب الراقية في الدنيا والآخرة، وهو أنواع كثيرة:**

١ – الصبر على العبادات والطاعات:

فالعبد بحاجة إلى الصبر وسد منافذ الشيطان ليكون غالباً لا مغلوباً.

٢ – الصبر عن المعاصي والمحرمات:

وهنا تظهر إرادة المرء فيكسب الجولة وتنتهي الصولة، ويشعر بعزة النفس وبالانتصار عليها، نسأل الله العصمة من الزلل، والثبات بلا كلل أو ملل.



٣ – الصبر على عوارض الحياة وشؤونها:

في كل كبيرة وصغيرة، من حرها وبردها، ولأوائها، وشقائها، فالمؤمن في الدنيا نصب تعب، ولا منجاة له إلا بالصبر.

٤ – الصبر على الابتلاء:

وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ولا يخلو أحد من الابتلاء، ولكن يتفاوت بتفاوت البلاء، ولنسأل الله تعالى العفو والعافية.

٥ – الصبر على العلم وطلبه:

من حفظ للكتاب والسنة، والعلم الشرعي النافع، فإنه لا يتأتى بدون صبر، سواء على مكابدة العلم أو الصبر على غلظة المعلم إن جفا ونحو ذلك.

٦ – الصبر على بر الوالدين:

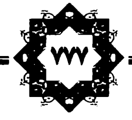
وهو من أعلى المراتب في الصبر، وأعظم الطاعات، ليجد الإنسان نفسه يصل الليل بالنهار بدون ملل أو تأفف أو كدر إنما براً وصلة وحباً ورداً للجميل، ولن نوفيهما حقهما.

٧ – الصبر على تربية الأبناء:

لاسيما في مثل وقتنا الحالي من الانفتاح وولوج المغريات إلى كل بيت، نسأل الله صلاح أبنائنا وبرهم وأن ينشئهم نشأة صالحة ويجعلهم قرة عين لا تنقطع.

٨ – الصبر على الفقر:

فعندما يشتد الجوع، أو البرد أو القيظ مع قلة ذات اليد أو انعدامها، مع



عفة النفس عن السؤال والتبذل، هنا يظهر الصبر في الميدان، فيكون المسلي والرفيق في هذه الدنيا.

٩ – الصبر على الواجبات المناطة بعاتق المرء:

من الأمانات الوظيفية ونحوها، فبدون صبر لا يتأتى إتمامها ولا القيام بها على وجهها، ومن ثم فساد العمل، وارتباك المسيرة.

١٠ – الصبر على جفاء الناس:

فرضا الناس غاية لا تدرك.

١١ – الصبر على المرض ومكابدته:

وهو من أعظم البلاء لما يبتلى المرء والعياذ بالله بمرض عضوي أو نفسي، فلا رفيق للمرض أنجح من الصبر فإنه يبلغ بصاحبه أعلى المنازل.

١٢ – الصبر عن الغضب:

فلا يكبح جماح الغضب إلا الصبر، واتباع هديه ﷺ الذي علمنا إياه عند الغضب من الوضوء، ونحوه.

وغير ذلك كثير، فالصبر بابه واسع، وطريقه لاذع، ولكنه سهل يسير على من يسره الله عليه وهداه له، ووفقه إليه.

**ب/ الطريق إلى الصبر:**

إنما يأتي الصبر بالمران عليه، وبالتصبر، قال عليه الصلاة والسلام:

«وإنه من يستعف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله ومن يستغن يغنه الله ولن

تعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[1].

وأولاً وآخراً يأتي الصبر من الله وبالله وعلى الله، كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ (النحل: ١٢٧).

**ج/ أجر الصبر:**

أجره عظيم بل إنه من الأجور التي لا حصر لها ويصب على أهله صبا، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠)، فهنيئاً للصابرين يوم الدين لما يرون علو منازلهم فيعرفون أنهم بلغوها بصبرهم على كذا وكذا.

وهو ضياء لصاحبه في ظلمات الدنيا وغياهبها، قال رسول اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله، تَمْلآَنِ أو تَمْلأُ ما بين السماوات والأرض والصّلاة نور والصّدقة برهان **وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ** والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها»[2].

**د/ من آثار السلف في الصبر:**

- قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا الصبر»[3].
- وقال علي بن أبى طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو»[4].

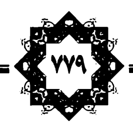
---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، (٥/٢٣٧٥/ح ٦١٠٥).

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص (٧٢٦).

(٣) «حلية الأولياء» للأصبهاني: (١/٥٠).

(٤) «عدة الصابرين» لابن القيم: (١/٩).



- وقيل: «تَجَرَّعِ الصَّبْرَ فإن قتلك قتلك شهيدا، وإن أحياك أحياك عزيزا، وقيل: الصبر لله غناء، وبالله تعالى بقاء، وفي الله بلاء، ومع الله وفاء، وعن الله جفاء، والصبر على الطلب عنوان الظفر، وفي المِحَنِ عنوان الفرج»[1].

❖ **وذكر ابن القيم من فوائد الصبر[2]:**

- الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره كقوله: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ** ﴾ (القصص: ٥٤)، وقوله: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾... كالماء المنهمر.

- تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، قال الله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة: ٢٤)، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

- ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ** ﴾ (البقرة: ١٥٣).

- أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ**

---

(١) «المصدر السابق»: (٢/ ١٦٠).

(٢) بتصرف من: «عدة الصابرين» لابن القيم: (١/ ٥٨).

﴿وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧)، وقال بعض السلف وقد عزي على مصيبة نالته فقال: «مالي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها».

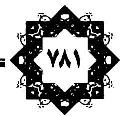
- أنه سبحانه جعل الصبر عونا وعدة وأمر بالاستعانة به فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ﴾ (البقرة: ٤٥)، فمن لا صبر له لا عون له.

- أنه سبحانه علق النصر بالصبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

- أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد العدو ومكره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

- أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كما قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٣ ـ ٢٤).





# المبحث السابع

وفيه صفة واحدة:

- العدل.

## العدل

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة العدل:

العدل الاستواء وهو ضد الاعوجاج.

قال ابن فارس: «(عَدَلَ): العين والدال واللام: أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالمتضادين، أحدهما: يدل على استواء، والآخر: يدل على اعوجاج، فالأول: العدل من الناس: المرضي، المستوي الطريقة... والعدل: الحُكم بالاستواء»[1].

**❖ من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالعدل:**

- قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (الشورى: ١٥).

### ثانياً: من أقوال المفسرين في صفة العدل للنبي ﷺ:

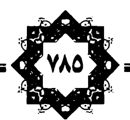
- **لا خلاف أن الآية على ظاهرها في أنه ﷺ أمر بالعدل في الأمة.**

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وقل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعا بالحق الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه، وروى عن قتادة قوله: «﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ قال أمر نبي الله ﷺ أن يعدل فعدل حتى مات صلوات الله وسلامه عليه»[2].

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/٢٤٧).

(٢) «جامع البيان»: (٢٥/١٧)، وانظر: «معالم التنزيل»: (٤/١٢٣).



**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:**

وقع الخلاف في اللام في قوله تعالى: ﴿ لِأَعْدِلَ ﴾ على قولين:

١ - أنها بمعنى كي، والتقدير: (وأمرت بما أمرت به من التبليغ كي أعدل بينكم)، فحذف من الكلام ما يدل عليه.

٢ - أنها بمعنى أن، والتقدير: (وأمرت أن أعدل بينكم).

٣ - أنها بمعنى الباء، والتقدير: (وأمرت بالعدل بينكم).

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ قالت فرقة: اللام في (لأعدل) بمعنى: أن التقدير بأن أعدل بينكم.

وقالت فرقة: المعنى: وأمرت بما أمرت به من التبليغ والشرع لكي أعدل بينكم فحذف من الكلام ما يدل الظاهر عليه»(١).

وقال الطبري: «والصواب من القول في ذلك عندي أن الأمر عامل في معنى لأعدل لأن معناه وأمرت بالعدل بينكم»(٢)، وهو الذي ترتاح إليه النفس؛ لأنه الأعم، والأولين لا يخلوان من نوع تكلف، والله أعلم.

**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

كان النبي ﷺ ممتثلاً أمر ربه متخلقاً بأعظم خلق لأعظم حاكم ﷺ

---

(١) «المحرر الوجيز»: (٥/٣٠).

(٢) «جامع البيان»: (٢٥/٨)، وانظر أيضاً: «فتح القدير»: (٤/٥٣١).

فحكم وعدل، وقسم فعدل، وقضى فعدل، بأبي هو وأمي ﷺ، وفيما يلي بعض الشواهد التي يستأنس بها في ذلك:

- روى البخاري عن النعمان بن بشير[1] رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة[2]: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا»، قال: لا، قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»، قال: فرجع فرد عطيته»[3].

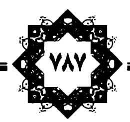
- وروى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم غنيمة بِالْجِعْرَانَةِ، إذ قال له رجل: اعدل! فقال له: «لقد شقيت إن لم أعدل»[4].

(١) هو: النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، له ولأبيه صحبة، قال سماك بن حرب استعمله معاوية على الكوفة وكان من أخطب من سمعت، قتل سنة خمس وستين. انظر: «الإصابة»: (٦/٤٤٠).

(٢) هي: عمرة بنت رواحة، أخت عبد الله بن رواحة، زوجة بشير بن سعد الأنصاري، وأم النعمان بن بشير رضي الله عنهما، لما ولدت النعمان بن بشير حملته إلى رسول الله ﷺ، فدعا بتمرة فمضغها ثم ألقاها في فيه فحنكه بها، وبايعت رسول الله ﷺ. انظر: «طبقات ابن سعد»: (٨/٣٦١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب الإشهاد في الهبة، (٢/٩١٤/ح ٢٤٤٧).

(٤) رواه البخاري، أبواب الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين...، (٣/ ١١٤٣/ ح ٢٩٦٩).



**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

عظم النبي ﷺ أمر العدل وحث عليه:

- قال رسول اللَّهِ ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[1].

- قال رسول اللَّه ﷺ: «كل سلامى[2] من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الناس صدقة»[3].

- وقال ابن تيمية: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم يشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام».

- وقال أيضاً: «إن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وان كان

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، (١٤٥٨/٣/ح ١٨٢٧).

(٢) السلامى: عظام الأصابع، انظر: «لسان العرب»: (٢٩٨/١٢).

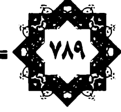
(٣) رواه البخاري، كتاب العدل، باب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم، (٩٦٤/٢/ ح ٢٥٦٠)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، (٦٩٩/٢/ح١٠٠٩).



لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة»[1].

❖ ❖ ❖

(١) «الاستقامة»: (٢/٢٤٧).



# المبحث الثامن

وفيه صفة واحدة:

- العفو والصفح.

## العفو والصفح

### أولاً: المعنى اللغوي لصفة العفو والصفح:

**١ – في المعنى اللغوي للعفو:**

العفو: محو الذنب والتجاوز عنه.

قال ابن منظور: «عفا: في أسماء الله تعالى: العَفُو، وهو فعول من العفو، وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس»[(١)].

**٢ – في المعنى اللغوي للصفح:**

الصفح: الإعراض عن الذنب.

قال ابن فارس: «(صَفَحَ): الصاد والفاء والحاء: أصل صحيح مطرد يدل على عَرْضٍ، وعَرَضٍ، من ذلك: صَفْحُ الشيءِ: عَرْضُه... فأما قولهم: (صَفَحَ عنه): وذلك إعراضه عن ذنبه فهو من الباب؛ لأنه إذا أعرض عنه فكأنه قد ولاه صفحته وصفحه أي عرضه وجانبه»[(٢)].

**❖ من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بالعفو والصفح:**

- قوله تعالى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

---

(١) «لسان العرب»: (٧٢/١٥).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٢٩٣/٣).



- قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣).

- قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ (الحجر: ٨٥).

- قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ ﴾ (الزخرف: ٨٩).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

- **من قوله تعالى:** ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

- **في معناها:**

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾: فتجاوز يا محمد عن أتباعك وأصحابك من المؤمنين بك، وبما جئت به من عندي، ما نالك من أذاهم ومكروه في نفسك»[(١)].

- **من قوله تعالى:** ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣).

- **في معناها:**

قال الطبري: «وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمدا ﷺ بالعفو عن هؤلاء

---

(١) «جامع البيان»: (١٥١/٤).



القوم الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود، يقول الله جل وعز له: اعف يا محمد عن هؤلاء اليهود الذين هموا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم، بترك التعرض لمكروههم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه»[1].

وقال ابن كثير: «وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف، وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك»[2].

- **من قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾** (الأعراف: ١٩٩).

- **في معناها:**

قال الزمخشري: «﴿ ٱلْعَفْوَ ﴾: ضد الجهد: أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تداقهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا».

- **عمت الآية صور العفو كلها:**

«لأن التعريف في العفو تعريف الجنس فهو مفيد للاستغراق إذا لم يصلح

---

(١) «جامع البيان»: (٦/١٥٧).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٢/٣٤).



غيرُه من معنى الحقيقة والعهد، فأمر الرسول ﷺ بأن يعفو ويصفح وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٩))»[١].

- **واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ على ثلاثة أقوال[٢]:**

١ – وقيل إن المعنى: خذ العفو من أموال الناس، وهو الفضل، قاله: ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، والسُّدِّي.

٢ – فقيل إن المعنى: خذ العفو من أخلاق الناس، وهو الفضل وما لا يجهدهم، قاله: مجاهد.

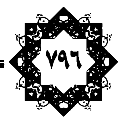
٣ – وقيل إن المعنى: أمره ﷺ بالعفو عن المشركين وترك الغلظة عليهم قبل أن يفرض قتالهم عليه، قاله ابن زيد.

❖ **ورجح الطبري القول الأول**، فقال: «قال أبو جعفر وأولى هذه الأقوال بالصواب: قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس واترك الغلظة عليهم، وقال أمر بذلك نبي الله ﷺ في المشركين.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن الله جل ثناؤه أتبع ذلك تعليمه نبيه

(١) «التحرير والتنوير»: (٢٢٦/٩ ـ ٢٢٧).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (١٥٣/٩).



ﷺ محاجته المشركين في الكلام، وذلك قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (الأعراف: ١٩٥)، وعقبه بقوله: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾ (الأعراف: ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، فما بين ذلك بأن يكون من تأديبه نبيه ﷺ في عشرتهم به أشبه وأولى من الاعتراض بأمره بأخذ الصدقة من المسلمين»[١].

- هذه الآية تضمنت قواعد عظيمة، أشار إليها القرطبي بقوله:

«هذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات فقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾: دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾: صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وفي قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾: الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة»[٢].

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر: ٨٥).

---

(١) «جامع البيان»: (١٥٥/٩).

(٢) «تفسير القرطبي»: (٣٤٤/٧ ـ ٣٤٥).



- **في معناها:**

قال الطبري: «وإن الساعة وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة لجائية فارض بها لمشركي قومك الذين كذبوك وردوا عليك ما جئتهم به من الحق، ﴿ **فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ** ﴾: يقول فأعرض عنهم إعراضا جميلا واعف عنهم عفوا حسنا»[1].

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ **فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ** ﴾ (الزخرف: ٨٩).

- **في معناها:**

قال الشوكاني: ﴿ **فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ** ﴾: أي أعرض عن دعوتهم، ﴿ **وَقُلْ سَلَـٰمٌ** ﴾ أي أمري تسليم منكم ومتاركة لكم، قال عطاء يريد مداراة حتى ينزل حكمي ومعناه المتاركة كقوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (القصص: ٥٥).

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

في الآيات نلاحظ حذف متعلق الصفح، وذلك لظهوره من السياق، قال ابن عاشور: «وحذف متعلق الصّفح لظهوره، أي عمن كذّبك وآذاك»[2].

## رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:

وصف الله تعالى نبيه ﷺ بأنه على خلق عظيم، وإن العفو والصفح

(١) «جامع البيان»: (١٤/٥١).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٤/٧٧).

يأتيان على قمة الأخلاق العظيمة، ولقد تمثلا في النبي ﷺ أيما تمثل، ومن الشواهد التي تدل على ذلك ما يلي:

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبةً شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء»[(١)].

- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أخبر أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ، قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه[(٢)]، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمرة وعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: «إن هذا اخترط[(٣)] على سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً[(٤)]، فقال من يمنعك مني؟ فقلت: الله ثلاثاً، ولم يعاقبه وجلس»[(٥)].

---

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (١٣٣).

(٢) العضاه: شجر أم غيلان وكل شجر عظم له شوك، انظر: «لسان العرب»: (٥١٧/١٣).

(٣) اخترط السيف: سله من غمده، انظر: «لسان العرب»: (٢٨٥/٧).

(٤) صلتاً: مجرداً عن غمده، انظر: «لسان العرب»: (٥٣/٢).

(٥) رواه البخاري، كتاب الجهاد- باب من علق سيفه بالشجر عند السفر في القائلة، (١٠٦٥/٣/ ح ٢٧٥٣)، واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، (١٧٨٦/٤/ح ٨٤٣).



## خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:

العفو والصفح منقبة عظيمة لمن تحلى بهما، وتأسى فيهما بسيد الأخلاق ﷺ، وفيما يلي نبذة من الأحاديث والآثار التي تدعو لهذه الصفة الإيمانية الخلقية العظيمة:

- عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن رسول اللَّهِ ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[1].

- وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادي من كان له عند الله شيء فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس»[2].

- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: «كل الناس مني في حل»[3].

- وعن الحسن رضي الله عنه قال: «أفضل أخلاق المؤمن العفو»[4].

- وقد قيل: «ليس الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا»[5].



(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، (٤/٢٠٠١/ح ٢٥٨٨).

(٢) «إحياء علوم الدين»: (٣/١٨٣).

(٣) «الآداب الشرعية»: (١/١٠١).

(٤) «المصدر السابق».

(٥) «إحياء علوم الدين»: (٣/١٨٤).

# المبحث التاسع

وفيه صفة واحدة:

- جهاد العدو.

# صفة جهاد العدو

## أولاً: المعنى اللغوي لصفة جهاد العدو:

- المعنى اللغوي للجهاد:

جهاد العدو هو محاربته، وبذل كل ما في الوسع والطاقة لذلك إلى حد المشقة.، قال ابن فارس:

(جَهَدَ) الجيم والهاء والدال أصلُهُ المشقَّة، ثم يُحمَل عليه ما يقارِبُه. يقال جَهَدْتُ نفسي وأجْهَدت والجُهْد الطَّاقَة. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ (التوبة ٧٩)[1].

وقال ابن منظور: «(جَهَدَ) الجَهْدُ والجُهْدُ: الطاقة تقول: اجْهَد جَهْدَك، وقيل: الجَهْد المشقة، والجُهْد الطاقة... وجاهَدَ العدوَّ مُجاهَدة وجِهاداً قاتله وجاهَد في سبيل الله... والجهاد محاربة الأَعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أَو فعل»[2].

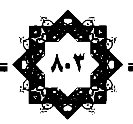
❖ من الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بجهاد العدو:

- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (التوبة: ٧٣)، و(التحريم: ٩).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٤٨٦/١).

(٢) «لسان العرب»: (١٣٣/٣).



- قوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ (النساء: ٨٤).

- قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ (الفرقان: ٥٢).

## ثانياً: من أقوال المفسرين في معنى الآيات:

### المسألة الأولى:

في صفة الجهاد الذي أمر به ﷺ تجاه الكافرين والمنافقين:

اختلف في ذلك على ثلاثة أقوال[١]:

١ – قيل: باليد واللسان، وبكل ما أطاق جهادَهم به: قاله ابن مسعود رضي الله عنه.

٢ – وقيل: بل أمره بجهادهم باللسان: قاله ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك رحمه الله.

٣ – وقيل: بإقامة الحدود عليهم: قاله ابن زيد رحمه الله.

الترجيح: الذي يظهر والله اعلم أنه القول الأول؛ لأنه يشمل كل أنواع الجهاد، ولأن اللفظ عام لا مخصص له.

قال الطبري: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، ما قال ابن مسعود: من أنّ الله أمر نبيَه ﷺ من جهاد المنافقين، بنحو الذي أمرَه به من جهاد المشركين»[٢].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٤/٣٥٨-٣٥٩).

(٢) «المصدر السابق»: (١٤/٣٥٩).



المسألة الثانية:

في عود الضمير: (به) في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾:

اختلف فيه أيضاً على قولين:

١/ قيل يعود على القرآن[1]، قاله: ابن عباس رضي الله عنهما.

٢/ وقيل يعود على الإسلام[2]، قاله: ابن زيد رحمه الله.

والذي يظهر والله أعلم أن لا تعارض بينهما فالقران إنما فيه أحكام الإسلام والإسلام إنما ينبع من القرآن.

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للرسول ﷺ:

١ — سبب توجيه لأمر بالغلظة على الكفار والمنافقين إلى النبي ﷺ:

الغلظة: «نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه»[3]، «وإنّما وجه هذا الأمر إلى الرسول ﷺ لأنّه جُبل على الرحمة فأمر بأن يتخلّى عن جبلّته في حقّ الكفار والمنافقين وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل»[4].

٢ — في قوله تعالى: ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ ﴾ حذف المتعلق ليعم كل غلظة.

قال الزمخشري: «جَاهِدِ الْكُفَّارَ (بالسيف) وَالْمُنَافِقِينَ (بالحجّة) ﴿ وَٱغْلُظْ

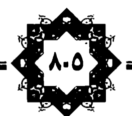
---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٦/١١٦).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (١٩/٢٨١).

(٣) «تفسير القرطبي»: (٨/٢٠٥).

(٤) «التحرير والتنوير»: (١٠/٢٦٧).



عَلَيْهِمْ ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها»[1]، وقال الثعالبي: «وأما قوله وأغلظ عليهم فلفظة عامة في الأفعال والأقوال ومعنى الغلظ خشن الجانب»[2].

٣ – وصف الجهاد بـ: ﴿ كَبِيرًا ﴾ لفوائد:

١/ للدلالة على أن موقعه عظيم عند الله[3].

٢/ ولأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف[4].

٣/ وللدلالة على لزوم استفراغ الجهد والطاقة في مجاهدتهم[5].

٤/ ولأنه نذير كافة القرى، فكبر جهاده ﷺ لأجل ذلك وعظم[6].

**رابعاً: تمثل هذه الصفة في النبي ﷺ:**

نبينا ﷺ هو سيد المجاهدين، وسنته ﷺ مليئة بأحاديث تمثل الجهاد فيه أيما تمثل ومنها:

- عن أنس رضي الله عنه قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول

---

(١) «الكشاف»: (٢/٢٧٧).

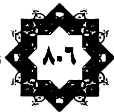
(٢) «تفسير الثعالبي»: (٢/١٤٢).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل للنسفي»: (٣/١٤١).

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي»: (١/٢٢٤).

(٥) انظر: «تفسير السعدي»: (١/٥٨٤).

(٦) انظر: «الكشاف»: (٣/٢٩٢).



المدينة، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا ❖ على الإسلام ما بقينا أبدا

قال يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم: «اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة»[١].

- وقد غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، قاتل في ثمان منهن[٢].

- وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[٣].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي ما تخلفت عن سرية، ولكن لا أجد حمولة، ولا أجد ما أحملهم عليه، ويشق علي أن يتخلفوا عني، ولوددت أني قاتلت في سبيل الله فقتلت، ثم أحييت، ثم قتلت، ثم أحييت»[٤].

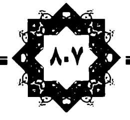
---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، (٢٣٠/١/ح ٤١٠٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب عدد غزوات النبي ﷺ، (١٤٤٨/٣/ح٢٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، (١٨/١/ح٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله...(٥١/١/ح ٢٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجعائل والحملان في السبيل(١٠٩/١/ح ٢٩٧٢).



**خامساً: التأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفة:**

**١ – الجهاد أفضل العمل وأحبه إلى الله:**

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[(١)].

**٢ – المجاهد من خير الناس:**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»[(٢)].

**٣ – الجهاد لا بد أن يكون لإعلاء كلمة الله تعالى، لا حمية ولا شجاعة ولا غير ذلك:**

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، (١/١٨/ح ٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب العزلة راحة من خلاط السوء، (١/٢١٣/ح ٦٤٩٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (١/٢٨٨/ ح ٧٤٨٥).

## ٤ - أجر المجاهد:

### أ/ عظم أجر المجاهد في سبيل الله عند الله تعالى:

- عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[(١)].

- وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة»[(٢)].

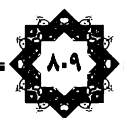
### ب/ أجر المرابط في سبيل الله:

قال رسول الله ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله (١/٣٢/ح ٢٧٩٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله... (١/٣٠/ح ٢٧٨٧) واللفظ له، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، (١٤٩٨/٣).



في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»(١).

ج/ أجر الشهادة:

عن أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يموت له عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»(٢).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قام النبي ﷺ وقال: اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»(٣).

**٥ – لا بد على طلبة العلم، والعامة لا سيما الشباب تعلم أحكام الجهاد في الكتاب والسنة،** وأن لا يسمى الخروج الغير مستوف لشروطه على ولي الأمر جهاداً، وعدم الانصياع للمحرضين والمغرضين تجاه أولياء الأمور.



(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله (١/٧٢/ح ٢٨٩٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا (١/٤٤/ح ٢٨١٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو (١/١٣٢/ح ٣٠٢٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (٣/١٣٦٢/ح ١٧٤٢).

# الفصل الثامن

## الصفات المتعلقة بخصائصه ﷺ

وفيه سبعة مباحث:

- المبحث الأول: صاحب الكوثر ﷺ.
- المبحث الثاني: صاحب المقام المحمود ﷺ.
- المبحث الثالث: عصمته في أفعاله وأقواله ﷺ.
- المبحث الرابع: عصمته من الناس، وكفاية الله له ﷺ.
- المبحث الخامس: غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﷺ.
- المبحث السادس: اتصال أجره ﷺ.
- المبحث السابع: أن الله وضع عنه وزره.

# الفصل الثامن

## الصفات المتعلقة بخصائصه ﷺ

### توطئة:

لما كان نبينا محمد ﷺ هو المصطفى، وخير الخليقة، وأعظم البشر، وأفضل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، خَصَّه ربه جل وعلا بخصائص انفرد بها عن جميع الرسل إكراما منه تعالى وتشريفاً وإجلالا لنبيه الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقد ذُكِرَت في القرآن الكريم باقة شذية من هذه الخصائص المحمدية، هي محور الحديث في هذا الفصل الذي بين أيدينا إن شاء الله تعالى.

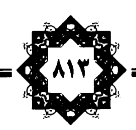
وقبل الخوض في غمار هذا الفصل يحسن بنا أن نعرف ما هي الخصيصة في اللغة:

قال ابن منظور في لسان العرب: «خَصَصَ: خَصَّهُ بالشيءِ يَخُصُّهُ خَصّاً وخُصُوصاً وخُصُوصِيَّةً... واخْتَصَّه: أفرده به دون غيره، ويقال: اختصَّ فلانٌ بالأمر، وتخصص له إذا انفرد»(١).

وطبيعة هذا الفصل والذي يليه ـ أي الفصلين الثامن والتاسع المتعلقين بالخصائص والفضائل ـ تختلف عن طبيعة سابقتهما من الفصول المتقدمة في هذا

---

(١) «لسان العرب»: (٢٤/٧).



البحث، لذا فإن الحديث في هذا الفصل سيدور على أربعة مطالب من كل مبحث، وهي كالتالي:

**أولاً:** المعنى اللغوي للخِصِّيصَة.

**ثانياً:** أقوال المفسرين في الخِصِّيصَة.

**ثالثاً:** الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الخِصِّيصَة.

**رابعاً:** فوائد حول هذه الخِصِّيصَة واختصاص النبي ﷺ بها.

فالله المستعان وعليه التكلان.



# المبحث الأول

# صاحب الكوثر ﷺ

## المبحث الأول

## صاحبُ الكَوْثَر

### أولاً: المعنى اللغوي للكوثر:

الكوثر: الخير الكثير، ويطلق على نهر في الجنة.

قال ابن فارس: «(كَثَرَ): الكاف والثاء والراء: أصل صحيح يدل على خلاف القلة، من ذلك: الشيء الكثير، وقد كثر، ثم يزاد فيه للزيادة في النعت فيقال: الكوثر: الرجل المعطاء، وهو فَوْعل من الكثرة»[1].

❖ **الآية التي وصف فيها ﷺ بأنه صاحب الكوثر، هي قوله تعالى في سورة الكوثر:** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر: ١).

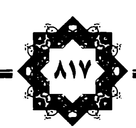
### ثانياً: أقوال المفسرين في الكوثر واختصاص النبي ﷺ به:

اختلف في معنى الكوثر الذي أُعطيَه النبي ﷺ على نحو عشرة أقوال أو يزيد، بل أوصلها بعضهم إلى ستة عشر قولاً وبعضهم إلى ستة وعشرين قولاً، وفيما يلي أشهر هذه الأقوال وأقربها إلى الصواب:

١ – قيل: هو نهر في الجنة أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ:

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٦١/٥).



قاله ابن عمر[١]، وابن عباس[٢]، وعائشة[٣]، وأنس[٤] رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك أبو العالية[٥]، ومجاهد[٦]، والضحاك[٧]، ومقاتل[٨] رحمهم الله تعالى.

٢ – وقيل: هو حوض في الجنة أعطيه النبي ﷺ:

قاله عطاء[٩].

٣ – وقيل: هو الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ:

قاله ابن عباس[١٠] رضي الله عنهما، وسعيد ابن جبير[١١]، ......................................

---

(١) «جامع البيان»: (٣٢٠/٣٠)، «تفسير ابن أبي حاتم»: (٣٤٧٠/١٠)، «بحر العلوم»: (٦٠١/٣)، «تفسير القرطبي»: (٢١٦/٢٠)، «تفسير ابن كثير»: (٥٥٩/٤).

(٢) «جامع البيان»: (٣٢٠/٣٠)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٦٤٩/٨).

(٣) «جامع البيان»: (٣٢٠/٣٠)، «تفسير ابن كثير»: (٥٥٨/٤)، «الدر المنثور» للسيوطي: (٦٥٠/٨).

(٤) «جامع البيان»: (٣٢١/٣٠)، «تفسير ابن كثير»: (٥٥٧/٤)، «بحر العلوم»: (٦٠١/٣).

(٥) «جامع البيان»: (٣٢١/٣٠)، «تفسير ابن كثير»: (٥٥٩/٤).

(٦) «المصدرين السابقين».

(٧) «الدر المنثور» للسيوطي: (٦٤٩/٨).

(٨) «بحر العلوم»: (٦٠١/٣).

(٩) «جامع البيان»: (٣٢٣/٣٠)، «النكت والعيون»: (٣٥٤/٦)، «تفسير البيضاوي»: (٥٣٦/٥)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٢٢٠/٤)، «تفسير ابن كثير»: (٥٥٩/٤)، «فتح القدير»: (٥٠٢/٥).

(١٠) «جامع البيان»: (٣٢١/٣٠ ـ ٣٢٢)، «معالم التنزيل»: (٥٣٣/٤)، «تفسير النسفي»: (٣٦٠/٤)، «المحرر الوجيز»: (٥٢٩/٥)، «تفسير ابن كثير»: (٥٥٩/٤).

(١١) «جامع البيان»: (٣٢١/٣٠ ـ ٣٢٢)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٢٢٠/٤)، «معالم التنزيل»: (٥٣٣/٤)، «الدر المنثور»: (٦٤٩/٨).

وعكرمة[1]، ومجاهد[2]، وقتادة[3] رحمهم الله تعالى.

٤ – وقيل: هو القرآن، قاله الحسن[4] رحمه الله.

٥ – وقيل: النبوة[5].

٦ – وقيل: الحكمة[6].

٧ – وقيل: الإسلام[7].

٨ – وقيل: هو كثرة أمته ﷺ[8].

٩ – وقيل: هو الإيثار[9].

١٠ – وقيل: هو رفعة الذكر[10].

---

(١) «جامع البيان»: (٣٠/٣٢١ـ٣٢٢)، «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٠/٣٤٧٠)، «الدر المنثور»: (٨/٦٥٠).

(٢) «جامع البيان»: (٣٠/٣٢١ـ٣٢٢)، «الدر المنثور»: (٨/٦٥٠).

(٣) «جامع البيان»: (٣٠/٣٢١ـ٣٢٢).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم: (١٠/٣٤٧٠)، «معالم التنزيل»: (٤/٥٣٣)، «النكت والعيون»: (٦/٣٥٤)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٣٦)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٢٠)، «الدر المنثور»: (٨/٦٥٠)، «فتح القدير»: (٥/٥٠٢).

(٥) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٣٢٢)، «النكت والعيون»: (٦/٣٥٤)، «فتح القدير»: (٥/٥٠٢).

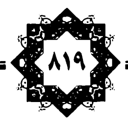
(٦) انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٣٢٣).

(٧) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٣٥٤)، «فتح القدير»: (٥/٥٠٢).

(٨) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٣٥٥)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٣٦)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٢٠)، «فتح القدير»: (٥/٥٠٢).

(٩) انظر: «النكت والعيون»: (٦/٣٥٥)، «فتح القدير»: (٥/٥٠٢).

(١٠) انظر: «المصدرين السابقين».



❖ **دراسة الأقوال والترجيح بينها:**

- أصحاب القول الأول القائلين بأن الكوثر هو نهر في الجنة أعطيه النبي ﷺ، يؤيد قولهم ما صح من الأحاديث عن النبي ﷺ ومنها:

ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفاً فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر(١).

وما رواه مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت على آنفاً سورة»: فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ (الكوثر: ١-٣)، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر»؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك»(٢).

- وأصحاب القول الثاني القائلين بأنه الحوض، يؤيدهم كذلك ما صح من الأحاديث، كما في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «إني فَرَطُكُمْ على

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، (٤/١٩٠٠/ ح٤٦٨٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، (١/٣٠٠/ ح ٤٠٠).

الْحَوْضِ، من مَرَّ عليَّ شَرِبَ، ومن شَرِبَ لم يظمأ أبداً»[1].

- وأصحاب القول الثالث القائلين بأنه الخير الكثير، تشهد لهم اللغة حيث إن الكوثر كما سبق هو: فَوْعَلٌ من الكثرة، ثم إن باقي الأقوال تدخل فيه فالإسلام والنبوة والقرآن والحكمة وغير ذلك كله مما تكاثر من خيرات الله تعالى على نبيه ﷺ.

❖ **وعند تأمل الأقوال الثلاثة أعلاه يظهر أن لا تعارض، والجمع بينها كالتالي:**

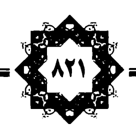
١ – **أن كلمة الكوثر اختُلف فيها بين العلمية والوصف**، جاء في الأضواء: «واختلف في الكوثر، فقيل: علم، وقيل: وصف، وعلى العَلَمية قالوا: إنه علم على نهر في الجنة، وعلى الوصف قالوا: الخير الكثير»[2].

والمتأمل في الأدلة يجد أنه عند النظر إلى كلمة (الكوثر) من حيث الوصف، فهو الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ، ومن حيث العَلَمية فإنه النهر والحوض معاً، وبيان ذلك ما يلي:

**أ/ أنه النهر باعتبار الكل، وكذلك هو الحوض باعتبار الجزء أو المصب أي مصب النهر**، فالذي يظهر من النظر في الأحاديث الصحيحة: أن نهر الكوثر الذي في الجنة يصب في الحوض في أرض المحشر، بدليل:

(١) رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب في الحوض...، (٥/٢٤٠٦/ح ٦٢١٢).

(٢) «أضواء البيان»: (٩/١٢٦).



١ – قوله ﷺ: «يشخب فيه ميزابان من الجنة»(١).

٢ – وقوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»(٢).

فظاهر الأحاديث الواردة في الحوض كالحديث السابق، يدل على أن الحوض في أرض المحشر لا في الجنة، ومما يؤيد ذلك أن ذود البعض عن الحوض نوع من التعذيب والحسرة وذلك لا يكون في الجنة أبداً.

**ب/ أن النبي ﷺ صرح بذكرهما في بيان الكوثر**، في حديث مسلم الوارد قبل قليل(٣) لما قال ﷺ: «**فإنه نهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عليه خَيْرٌ كَثِيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتِي يوم الْقِيَامَةِ**»، مما يدل على أن كلاهما كوثراً، ولكن لكل أحد منهما اعتبار معين كما سبق أن بينت أعلاه.

**٢ – أن النهر والحوض هما من الخير الكثير** والإنعام الجزيل الذي من الله تعالى به على رسوله ﷺ.

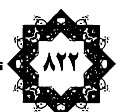
**٣ – ثم إن الأحاديث الواردة في النهر والحوض لا تقتضي حصر الكوثر عليهما**، فيبقى اللفظ على دلالته على العموم في كل خير تكاثر من الله تعالى

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، (١٧٩٨/٤/ح ٢٣٠٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض...، (٢٤٠٤/٥/ح ٦٢٠٥).

(٣) انظر الحديث وتخريجه: ص (٨٢١).



على نبيه ﷺ.

قال ابن عاشور: «وكلام النبي ﷺ المروي في حديث أنس، لا يقتضي حصر معاني اللفظ فيما ذكره».

وقال ابن تيمية رحمه الله: «والمقصود أن الكوثر نهر في الجنة وهو من الخير الكثير الذي أعطاه الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، وهذا غير ما يعطيه الله من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة، فكل من قرأ وعلم أو عمل صالحا أو علم غيره أو تصدق أو حج أو جاهد أو رابط أو تاب أو صبر أو توكل أو نال مقاما من المقامات القلبية من خشية وخوف ومعرفة وغير ذلك، فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر ذلك العامل، والله أعلم»[(١)].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن الكوثر واختصاصه به ﷺ:

❖ **افتتحت الآية بحرف التوكيد (إن):**

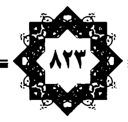
١ – للاهتمام بمحتواها.

٢ – للإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ[(٢)].

❖ **أعقب حرف التأكيد ضمير العظمة:** (إنا): وذلك مشعر بالامتنان بعطاء عظيم، قال الرازي: «فيه تنبيه على عظمة العطية؛ لأن الواهب هو جبار السموات والأرض والموهوب منه، هو المشار إليه بكاف الخطاب في قوله تعالى:

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٦/٥٣١).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير»: (٣٠/٥٧٢).



﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾، والهبة هي الشيء المسمى بالكوثر، وهو ما يفيد المبالغة في الكثرة، ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب، فيالها من نعمة ما أعظمها، وما أجلها، وياله من تشريف ما أعلاه»[1].

- **قال تعالى: ﴿ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾، ولم يقل: (آتيناك) لأن هناك فرقاً بين الإعطاء والإيتاء من وجهين[2]:**

١ - أن الإعطاء يكون عن تفضل وإكرام وهو مشعر بالدوام والتزايد، أما الإيتاء فيكون عن استحقاق ووجوب، وفعل العبد محدود، فيكون استحقاقه محدود بحسب فعله، فإعطاء الله تعالى لنبيه ﷺ الكوثر إنما هو محض تفضل وإكرام ومنة دائمة متزايدة منه تعالى عليه ﷺ.

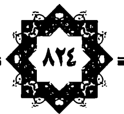
٢ - أن الإعطاء يستعمل في القليل والكثير، أما الإيتاء فيستعمل في الشيء العظيم، فإن قيل: أنه على هذا الوجه لكان استعمال الإيتاء في الكوثر أولى من الإعطاء لأن الكوثر أمر عظيم، فالإجابة عن ذلك من وجهين:

أ/ أن فيه إشارة إلى أن الكوثر كالشيء القليل نسبة إلى ما يستحقه محمد ﷺ من العطايا والدرجات الرفيعة.

ب/ بما أن الماء في الدنيا أقل من الطعام، ففيه إلماحة إلى أن نعيم الماء إذا كان كوثراً هائلاً فكيف بالنعيم الأعلى منه؟ فوقعت الإشارة إلى عظم نعيم

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (١١٤/٣٢).

(٢) «المصدر السابق»: (١١٥/٣٢ ـ ١١٦).



الجنة، حيث إذا كان نعيم الماء إعطاء، فإن نعيم الجنة إيتاء.

❖ **أتى السياق بالفعل ماضياً**: (أعطيناك)، وذلك للدلالة على تحقيق وقوع هذا الأمر[1].

❖ **حذف موصوف الكوثر**: ليكون أبلغ في العموم لما فيه من عدم التعيين[2].

- **أتى السياق ب (ال) التعريف في الكوثر**: للدلالة على كمال المسمى وتمامه[3].

- دلت الآية على أن الهدية وإن كانت قليلة إلا أنها تكون عظيمة إذا كان مهديها عظيماً، قال الرازي: «الفائدة الثالثة: أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المهدي العظيم تصير عظيمة، ولذلك فإن الملك العظيم إذا رمى تفاحة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يعد ذلك إكراماً عظيماً، لا لأن لذة الهدية في نفسها، بل لأن صدورها من المهدي العظيم يوجب كونها عظيمة، فهاهنا الكوثر وإن كان في نفسه في غاية الكثرة، لكنه بسبب صدوره من ملك الخلائق يزداد عظمة وكمالاً»[4].

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (٥٢٩/١٦).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) «المصدر السابق»: (٥٣٠/١٦).

(٤) «التفسير الكبير» للرازي: (١١٤/٣٢).

- وفي الآية بشارة للنبي ﷺ وتسلية له، قال ابن عاشور: «وأريد من هذا الخبر بشارة النبي ﷺ وإزالةُ ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتر، فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر، إبطالاً لقولهم»[(١)].

## رابعاً: فوائد حول الكوثر واختصاصه به ﷺ:

**❖ الكوثر خصيصة خص بها نبي هذه الأمة محمد ﷺ:**

الكوثر هو خصيصة اختص الله ﷻ بها نبيه ﷺ من دون إخوانه من الأنبياء عليهم السلام وهو لهذه الأمة بشارة تبعا لنبيها ﷺ.

**❖ في صفة الكوثر:**

صحت الأحاديث بأنه نهر حافتاه قباب اللؤلؤ، وشاطئاه عليه در مجوف، وأن آنيته كعدد نجوم السماء، وأنه مسيرة شهر، أو كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وأن ماءه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وأن طينه مسك، وأن من شرب منه فلا يظمأ بعدها أبداً، وقد مر معنا من هذه الأحاديث قبل قليل[(٢)].

**❖ إن الورود على حوض الكوثر هو من ثمرات اتباع سنة المصطفى ﷺ، أما الابتداع فإنه يحرم صاحبه والعياذ بالله، من الورود على الكوثر والارتواء منه:**

قال ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٥٧٣).

(٢) انظر: ص (٨٢٠).

دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

ففي هذا الحديث يتجلى أمران:

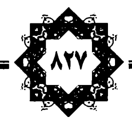
١ – حسرة أهل البدع والراغبين عن سنة المصطفى ﷺ في اختلاجهم دون الورود على ماء الكوثر العذب عند أشد حاجتهم إليه في أرض المحشر من شدة الحر وتزايد العرق وهول المطلع.

٢ – وفيه شدة حرص النبي ﷺ على أمته وخوفه عليهم، إلا أنهم لم يقابلوا هذا الجميل بحسن الاتباع، بل اتبعوا الهوى فأرداهم عن ورود حوض نبيهم ﷺ، والعياذ بالله، اللهم أجرنا من ذلك.

**قال ابن تيمية** رحمه الله: وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، دل على أنه أعطاه الخير كله كاملا موفرا، وإن نال منه بعض أمته شيئا كان ذلك الذي ناله ببركة إتباعه والإقتداء به، مع أن له ﷺ مثل أجره من غير أن ينقص من أجر المتبع له شيء، ففيه الإشارة إلى أن الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم، فإنه هو السبب فى هدايتهم ونجاتهم فينبغي بل يجب على العبد إتباعه والإقتداء به، وأن يمتثل ما أمره به ويكثر من العمل الصالح صوما وصلاة وصدقة وطهارة؛ ليكون له مثل أجره فإنه إذا فعل المحظورات فات الرسول ﷺ مثل أجر ما فرط فيه من الخير، فإن فعل المحظور مع ترك المأمور قوي وزره وصعبت نجاته لارتكابه المحظور وتركه المأمور، وإن فعل المأمور

---

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٨٢٢).



وارتكب المحظور دخل فيمن يشفع فيه الرسول ﷺ؛ لكونه ناله مثل أجر ما فعله من المأمور، وإلى الله إياب الخلق وعليه حسابهم وهو أعلم بحالهم، أي بأحوال عباده، فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته، والمحسن إنما أحسن بتوفيق الله له، والمسيء لا حجة له ولا عذر»[1].



(١) «مجموع الفتاوى»: (١٦/٥٣٠).

## المبحث الثاني

## صاحب المقام المحمود ﷺ

## المبحث الثاني

## صاحبُ المقامِ المحمود

### أولاً: المعنى اللغوي للمقام المحمود:

#### ١ – المعنى اللغوي للمقام:

- قال ابن منظور: «و المَقام: موضع القدمين... والمُقام والمُقامة: الموضع الذي تقيم فيه. والمُقامة بالضم: الإقامة، والمَقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس»[(١)].

#### ٢ – المعنى اللغوي للمحمود:

قال ابن فارس: «(حَمَدَ): الحاء والميم والدال: كلمة واحدة وأصل واحد، يدل على خلاف الذم، يقال: حمدت فلانا أحمده، ورجل محمود ومحمد، إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة»[(٢)].

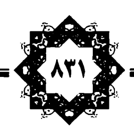
وقال الزمخشري في معنى المقام المحمود: «ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات»[(٣)].

---

(١) «لسان العرب»: (١٢/٤٩٨).

(٢) «مقاييس اللغة»: (٢/١٠٠).

(٣) «الكشاف»: (٢/٦٤٢).



❖ الآية التي وصف فيها ﷺ بأنه صاحب المقام المحمود:

قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٩).

## ثانياً: أقوال المفسرين في المقام المحمود واختصاص النبي ﷺ به:

اختُلِف في المقام المحمود الذي وعد الله به نبيه ﷺ على أقوال:

١ - أنه الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة التي يتدافعها الأنبياء، فيشفع ﷺ للناس عند ربهم جل وعلا لبدء الحساب:

قاله: ابن مسعود(١)، وحذيفة بن اليمان(٢)، وابن عباس(٣)، وأبو سعيد الخدري(٤) رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك مجاهد(٥)، والحسن(٦)، وقتادة(٧)، رحمهم الله تعالى.

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٥/١٤٤).

(٢) انظر: «المصدر السابق»: (١٥/١٤٣)، «بحر العلوم»: (٢/٣٢٥)، «تفسير ابن زمنين»: (٣/٣٤)، «النكت والعيون»: (٣/٢٦٥)، «تفسير القرطبي»: (١٠/٣٠٩)، «البحر المحيط»: (٦/٧٠)، «تفسير ابن كثير»: (٣/٥٦)، «اللباب في علوم الكتاب»: (١٢/٣٦٤)، «الدر المنثور»: (٥/٣٢٤).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (١٥/١٤٤)، «الدر المنثور»: (٥/٣٢٤).

(٤) انظر: «بحر العلوم»: (٢/٣٢٥).

(٥) انظر: «جامع البيان»: (١٥/١٤٤).

(٦) انظر: «المصدر السابق».

(٧) انظر: «المصدر السابق»: (١٥/١٤٥).



٢ – أن المقام المحمود هو أن يجلس الله جل وعلا نبيه محمداً ﷺ معه على العرش:

قاله مجاهد رحمه الله[١].

٣ – أن المقام المحمود هو إعطاؤه ﷺ لواء الحمد[٢].

٤ – أنه الشفاعة لأمته ﷺ[٣].

❖ **والراجح والله تعالى أعلم هو القول الأول لتواتر الأخبار به عن النبي ﷺ**، وهو ترجيح إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله[٤]، أما الثاني: فلا دليل عليه، وأما الثالث: فلا تعارض، لأنه لايمنع أن يكون ﷺ حاملاً للواء ويشفع، والرابع: فيه نظر.

قال أبو حيان: أن الشفاعة يحتمل أن تكون في أحد أمرين: «أحدهما: أنه في أمر الشفاعة التي يتدافعها الأنبياء حتى تنتهي إليه ﷺ، والحديث في الصحيح وهي عدة من الله تعالى له عليه الصلاة والسلام، وفي هذه الشفاعة يحمده أهل الجمع كلهم وفي دعائه المشهور: «وابعثه مقاما محموداً الذي وعدته»[٥] واتفقوا

---

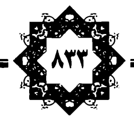
(١) انظر: «جامع البيان»: (١٥/١٤٥)، «النكت والعيون»: (٣/٢٦٥)، «معالم التنزيل»: (٣/١٣٢)، «تفسير القرطبي»: (١٠/٣١١)، «البحر المحيط»: (٦/٧١)، «اللباب في علوم الكتاب»: (١٢/٣٦٥)، «الدر المنثور»: (٥/٣٢٨).

(٢) «النكت والعيون»: (٣/٢٦٥/)، «تفسير القرطبي»: (١٠/٣١١).

(٣) «النكت والعيون»: (٣/٢٦٥)، «البحر المحيط»: (٦/٧٠).

(٤) «جامع البيان»: (١٥/١٤٦).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادي، (١/٢٢/ح ٥٨٩).



على أن المراد منه الشفاعة.

الثاني: أنه في أمر شفاعته لأمته في إخراجه لمذنبهم من النار، وهذه الشفاعة لا تكون إلاّ بعد الحساب ودخول الجنة ودخول النار، وهذه لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء، وقد روي حديث هذه الشفاعة وفي آخره: «وحتى ما يبقى في النار إلاّ من حبسه القرآن»[1] أي وجب عليه الخلود، قال: ثم تلا هذه الآية ﴿ **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾... فظاهر هذا الكلام تخصيص شفاعته لأمته ﷺ، وقد تأوله من حمل ذلك على الشفاعة العظمى التي يحمده بسببها الخلق كلهم، على أن المراد لأمته وغيرهم، أو يقال إن كل مقام منهما محمود»[2].

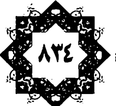
- **ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على المقام المحمود، وأنه الشفاعة العظمى:**

- الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يُهموا بذلك، فيقولون: لو اسْتَشْفَعْنَا إلى ربنا فَيُرِيحُنَا من مكاننا فيأتون آدم..... إلى أن قال: فيأتوني فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** ﴾، (٤/١٦٢٤/ح ٤٢٠٦) واللفظ له، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (١/١٨٠/ح ١٩٣).

(٢) «البحر المحيط»: (٦/٧٠).



فيقول: ارْفَعْ محمد وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَ... الحديث وفي آخره: قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾، قال ـ أي أنس ـ رضي الله عنه: «وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم ﷺ»[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن المقام المحمود واختصاصه به ﷺ:

**١ – أتى السياق بلفظ: (عسى)، وفائدة ذلك:**

إطماع العباد في إنعام الله جل وعلا:

قال الطبري: «وقوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾، وعسى من الله واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسى من الله واجبة؛ لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم»[2].

**٢ – أتى السياق بلفظ الربوبية، وإضافته إلى ضمير النبي ﷺ** للإلماح إلى صفة الإحسان، وهذا ما تقتضيه صفة الربوبية لله جل وعلا، حيث لما «كان السياق قد انصرف للترجية، عبر بصفة الإحسان فقال تعالى: ﴿ رَبُّكَ ﴾ أي: المحسن إليك بعد الموت الأكبر وقبله، كما بعث نفسك من الموت الأصغر إلى خدمته»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، (٢٧٠٨/٦/ ح ٧٠٠٢).

(٢) «جامع البيان»: (١٤٣/١٥)، وانظر: «اللباب في علوم الكتاب»: (٣٦٣/١٢).

(٣) «نظم الدرر» للبقاعي: (٤١٧/٤).

٣ – أتى السياق بتنكير المقام فقال: ﴿ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾؛ وذلك لتعظيم الحمد الذي يحصل عليه النبي ﷺ في ذلك المقام، قال الرازي: «وأيضاً التنكير في قوله مقاماً محموداً يدل على أنه يحصل للنبي ﷺ في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل»[١].

**رابعاً: فوائد حول المقام المحمود واختصاصه به ﷺ:**

**١ – إن اختصاص النبي ﷺ بالمقام المحمود لهو أعظم دليل**، على أنه النبي الرحيم ﷺ، فهذا هو نبي الرحمة ﷺ، رحيم في الآخرة كما كان رحيما في الدنيا بل أعظم، حتى عندما يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، بل حتى إخوانه الأنبياء الكرام، عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام، يتدافعون الشفاعة للأمم في بدء الحساب مع أصاب العباد من الكرب والهم والغم، فإذا به نبي الرحمة ﷺ يقدم عليها، وينهض ويهب لها قائلاً: «أنا لها»[٢]، فأعظم بها من رحمة، وأكرم به من مقام.

**٢ – فائدة في ذكر شفاعات النبي ﷺ:**

للنبي ﷺ شفاعات:

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٢١/٢٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ مع الأنبياء وغيرهم يوم القيامة، (٦/٢٧٢٧/ح ٧٠٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، (١/١٨٣/ ح ١٩٣).

أ/ «أولاهن الشفاعة العظمى في الفصل بين أهل الموقف حين يفزعون إليه بعد الأنبياء كما ثبت في الصحيح في حديث الشفاعة.

ب/ والثانية في جماعة يدخلون الجنة بغير حساب.

ج/ والثالثة في ناس استحقوا دخول النار.

د/ والرابعة في ناس دخلوا النار فيخرجون.

هـ/ والخامسة في رفع درجات ناس في الجنة»[(١)].

**٣ - كره البعض سؤال الله تعالى شفاعة النبي ﷺ ؛** لأنها لا تكون إلا للمذنبين، وهذا خطأ، قال النووي: «فلا يلتفت إلى كراهة من كره ذلك لكونها لا تكون إلا للمذنبين؛ لأنه ثبت في الأحاديث في صحيح مسلم وغيره إثبات الشفاعة لأقوام في دخولهم الجنة بغير حساب، ولقوم في زيادة درجاتهم في الجنة، ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو، مشفق من كونه من الهالكين، ويلزم هذا القائل أن لا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب، وكل هذا خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف»[(٢)].

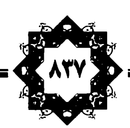
**٤ - من الأمور التي تكرم العبد بشفاعته ﷺ :**

الترديد خلف المؤذن بما صح عن النبي ﷺ، من حديث جَابِرِ بن عبد اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة

---

(١) «غاية السول في خصائص الرسول ﷺ»: (٢٦٣ - ٢٦٤).

(٢) «الأذكار»: (١/ ٣٧٠).



التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[1].

وليُتذكر أن هذا من إنعام الله جل وعلا علينا في هذا البلد الكريم، أن نسمع الأذان خمس مرات في اليوم يصدح عالياً في أحيائنا، لا كمن حرم هذه النعمة العظيمة، كما أنه من أسهل الأمور وأيسرها، ولكنه سبب في حصول أعظم الأمور وأجلها، ألا وهي السعادة الأبدية الحاصلة بشفاعته ﷺ، فياحسرة الغافلين، اللهم لا تجعلنا منهم.

**٥ - إنكار شفاعة النبي ﷺ كفر**، قال ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: «من السنن المتواترة التي من جحدها كفر: صلاة المسلمين على الميت ودعاؤهم له في الصلاة، وكذلك شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، فإن السنن فيها متواترة، بل لم ينكر شفاعته لأهل الكبائر إلا أهل البدع، بل قد ثبت أنه يشفع لأهل الكبائر، وشفاعته: دعاؤه وسؤاله الله تبارك وتعالى، فهذا وأمثاله من القرآن والسنن المتواترة، وجاحد مثل ذلك: كافر بعد قيام الحجة عليه»[2].



(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، (١٧٤٩/٤/ ح ٤٤٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (٣٧٠/٢٤).

# المبحث الثالث

## عصمته في أفعاله وأقواله ﷺ

## المبحث الثالث

## عصمتُه ﷺ في أقوالِه وأفعالِه

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بالعصمة في أقواله وأفعاله:**

**قوله تعالى في سورة النجم:** ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم ١ ـ ٤).

### أولاً: المعنى اللغوي للعصمة:

العصمة: المَنَعة.

قال ابن فارس: «(عَصَمَ): العين والصاد والميم، أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كله معنى واحد، من ذلك العصمة أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه، واعتصم العبد بالله تعالى إذا امتنع»[١].

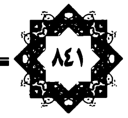
وقال ابن منظور: «عَصَمَ: العصمة في كلام العرب: المنع، وعِصْمَةُ الله عبدَه: أن يعصمْه مما يوبقه، عَصَمَهُ يعْصِمُهُ عِصْماً: منعه ووقاه»[٢].

### ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات النبي ﷺ:

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾:

(١) «مقاييس اللغة»: (٤/٣٣١).

(٢) «لسان العرب»: (١٢/٤٠٣).



فيه قولان:

**القول الأول[1]:**

أ/ في قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ ﴾:

أن الضلال هنا هو نقيض الهدى، وأنه يكون من غير قصد صاحبه، وأنه أعم استعمالاً، أي: ما حاد عن الحق، ولا زال عنه، ولكنه على استقامة وسداد.

ب/ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾:

أن الغي هنا هو نقيض الرشد، ويكون بقصد من صاحبه بسلوك سبيل الفساد والعوج، أي: وما صار غوياً باتباع الباطل، بل رشيد سديد.

**القول الثاني[2]:**

أ/ في قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ ﴾:

أي بارتكاب الضلال.

ب/ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾:

أي عن الرشد بأن خاب سعيه، بل وجد ما يطلبه.

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٤٢/٢٧)، «تفسير السمعاني»: (٢٤٨/٥)، «الكشاف»: (٤١٩/٤)، «المحرر الوجيز»: (١٩٦/٥)، «زاد المسير»: (٦٣/٨)، «التفسير الكبير» للرازي: (٢٤٢/٢٨)، «لباب التأويل» للخازن: (٢٥٥/٦)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٧٥/٤)، «تفسير ابن كثير»: (٢٤٧/٤)، «فتح القدير»: (١٠٥/٥)، «تفسير السعدي»: (٨١٨)، «أضواء البيان»: (٤٦٤/٧).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٣٩٠/٥)، «تفسير السمعاني»: (٢٨٤/٥).



❖ **وبالنظر: فلا تعارض بين القولين، وإن كان جمهور المفسرين على الأول منهما.**

**٢ – في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أيضاً قولان:**

أ/ أي ما ينطق عن هواه وتلقاء نفسه، بل عن أمر الله جل وعلا[(١)].

ب/ أي ما ينطق عن الهوى بالهوى والشهوة، لأن من اتبع الهوى في قوله قال بغير الحق[(٢)].

❖ **ولا تعارض هنا أيضاً، وإن كان جمهور المفسرين على الأول منهما، فلأنه أعم وأشمل، والله أعلم.**

❖ **من قوله تعالى: ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾:**

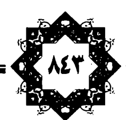
- الصاحب هو الملازم، قال ابن عاشور: «الصاحب: الملازم للذي يضاف إليه وصف صاحب، والمراد بالصاحب هنا: الذي له ملابسات وأحوال مع المضاف إليه»[(٣)].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٢٧/٤٢)، «النكت والعيون»: (٥/٣٩٠)، «تفسير السمعاني»: (٥/٢٤٨)، «زاد المسير»: (٨/٦٣)، «التفسير الكبير» للرازي: (٢٧/٢٤٣)، «لباب التأويل» للخازن: (٦/٢٥٥)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٤/٧٥)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/١٥٥)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٧/٣١٣)، «فتح القدير»: (٥/١٠٥)، «تفسير السعدي»: (٨١٨).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٢٧/٤٢)، «النكت والعيون»: (٥/٣٩١)، «تفسير السمعاني»: (٥/٢٨٤)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٨/١٥٥).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٢٧/٩٢).



والمراد به محمد، والمخاطب قريش[1].

- وجواب القسم في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ هو قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾: «فعلى هذا وقع القسم، وكانت قريش يقولون: إن محمدا ضال غاو، فأقسم الله تعالى أنه ما ضل وما غوى»[2].

- ومعنى الهوى: قال ابن عاشور: «و(ما) نافية نفت أن ينطق عن الهوى.

والهوى: ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم، ولذلك يختلف الناس في الهوى ولا يَختلفون في الحق، وقد يحب المرء الحق والصواب. فالمراد بالهوى إذا أطلق أنه الهوى المجرد عن الدليل»[3].

- **دلالة الآية:**

١ – دلت الآية دلالة واضحة مباشرة بأن النبي ﷺ معصوم في قوله وفعله فيما يبلغه عن الله جل وعلا وهذا محل إجماع.

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٣٩٠/٥)، «الكشاف»: (٤١٩/٤)، «زاد المسير»: (٦٣/٨)، «لباب التأويل» للخازن: (٢٥٥/٦)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (١٥٥/٨)، «تفسير ابن كثير»: (٢٤٧/٤)، «فتح القدير»: (١٠٥/٥)، «التحرير والتنوير»: (٩٢/٢٧).

(٢) «تفسير السمعاني»: (٢٨٤/٥)، وانظر: «جامع البيان»: (٤١/٢٧)، «الكشاف»: (٤١٩/٤)، «زاد المسير»: (٦٣/٨)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٧٥/٤)، «تفسير ابن كثير»: (٢٤٧/٤)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٣١٣/٧).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٩٣/٢٧).

٢ – أن السنة وحي من الله لرسوله.

قال السعدي رحمه الله: «ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (النساء: ١١٣)، وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى»[١].

٣ – وأنها رد من الله تعالى على المشركين في افتراءاتهم على النبي ﷺ، قال ابن عاشور:

«وهذا رد من الله على المشركين وإبطال لقولهم في النبي ﷺ لأنهم قالوا: مجنون، وقالوا: ساحر، وقالوا: شاعر، وقالوا في القرآن: إنْ هذا إلا اختلاق.

فالجنون من الضلال لأن المجنون لا يهتدي إلى وسائل الصواب، والكذبُ والسحر ضلال وغواية، والشعر المتعارف بينهم غواية كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤) أي يحبذون أقوالهم لأنها غواية»[٢].

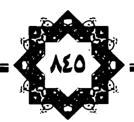
## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن عصمة النبي ﷺ:

- **مناسبة القسم بالنجوم على عصمة النبي ﷺ، وصحة ما جاء به:**

قال السعدي رحمه الله:

(١) «تفسير السعدي»: (٨١٨).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٧/ ٩٢ ـ ٩٣).



«وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي؛ لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره، زينة للأرض، فلولا العلم الموروث من الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من ظلمة الليل البهيم. والمقسم عليه، تنزيه الرسول عن الضلال في علمه، والغي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتديا في علمه، هاديا، حسن القصد، ناصحا للخلق، وبعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وسوء القصد»[1].

- **أتى السياق بالفعل ماضياً في قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ و﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾، ومضارعاً في: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾:**

قال الرازي: «فإن قيل ما ذكرت من الترتيب الأول على صيغة الماضي في قوله: ﴿ مَا ضَلَّ ﴾، وصيغة المستقبل في قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ في غاية الحسن، أي ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون في صغره ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ حين اختلى بنفسه ورأى منامه ما رأى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ الآن حيث أرسل إليكم وجعل رسولاً شاهداً عليكم، فلم يكن أولاً ضالاً ولا غاوياً، وصار الآن منقذاً من الضلالة ومرشداً وهادياً»[2].

---

(١) «تفسير السعدي»: (٨١٨).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٢٤٢/٢٧).



- **فائدة التعبير بالصحبة في قوله تعالى: ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾:**

ليرغبوا في صحبته، ويقبلوا عليه، ويعلموا أنهم بهتوه في نسبة ما ليس فيه إليه مع معرفتهم به وبأحواله، وأنهم لا وجه لهم بعد ذلك في اتهامه ﷺ[1].

- **فائدة نسبة النطق إليه ﷺ:**

لأنه المباشر لخطابهم، وهو الذي يفهمون منه هذا الخطاب، قال ابن عطية:

«ونسب النطق اليه من حيث تفهم عنه الأمور، كما قال: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ ﴾ (الجاثية: ٢٩)»[2].

- **في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾، فوائد:**

- **فائدة الحصر في الآية بـ: (إِنْ):**

هي تأكيد تنزيهه ﷺ مما نسب إليه، قال البقاعي: «ولما أكد سبحانه في نفسه ذلك عند التأكيد تنزيهاً له عما نسب إليه، فكان ذلك مظنة السؤال عن أصل ما تقوله، أجاب بالحصر»[3].

- **الضمير: (هو) في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾:**

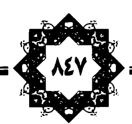
يعود إلى كل ما بينه ﷺ، وما صدر عنه ﷺ من قول أو فعل، فهو

---

(١) انظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (٣١٣/٧).

(٢) «المحرر الوجيز»: (١٩٦/٥).

(٣) «نظم الدرر» للبقاعي: (٣١٤/٧).



معصوم من الخطأ ﷺ.

**- جملة: (يوحى)، مؤكدة لجملة: (إن هو إلا وحي)، والفعل المضارع، للدلالة على التجدد والدوام والاستمرار:**

قال ابن عاشور: «وجملة: (يوحى) مؤكدة لجملة: (إن هو إلا وحي)، مع دلالة المضارع على أن ما ينطق به متجدد وحيه غير منقطع»[1].

**- متعلق (يوحى) محذوف، تقديره: (إليه) أي: (إلى صاحبكم)، وقد ترك فاعل الوحي لورود ما يبينه بعده، وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾** (النجم: ١٠):

قال ابن عاشور: «ومتعلّق (يوحى) محذوف تقديره: إليه، أي إلى صاحبكم، وتُرك فاعل الوحي لضرب من الإجمال الذي يعقبه التفصيل لأنه سيرد بعده ما يبينه من قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾»[2].

## رابعاً: فوائد حول عصمة النبي ﷺ:

**إن المستقرئ لسيرة النبي ﷺ يجد هذه العصمة بارزة في حياته:**

**- فقد عصمه الله تعالى من الكذب والخيانة** حتى عرف بين قومه بالصادق الأمين، ويتجلى هذا في قوله ﷺ لهم: «لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي

(١) «التحرير والتنوير»: (٩٧/٩٥).

(٢) «المصدر السابق».



تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا قط»[1].

- **وعصمه من تعظيم الأصنام.**

- **وعصمه من كشف عورته**، فعن جابر بن عبد الله يحدث أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة، قال: فحله، فجعله على منكبيه، فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك عرياناً ﷺ[2].

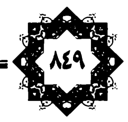
- **وعصمه من المشاركة في لهو الجاهلية ومجونها:**

قال عليه الصلاة والسلام: «ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به، إلا مرتين من الدهر، كلاهما يعصمني الله تعالى، منهما: قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة ـ لرجل من قريش تزوج امرأة ـ فلهوت بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت فسمعت مثل ذلك، فقيل

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، (١٧٨٧/٤/ح ٤٤٩٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، (١٩٣/١/ ٢٠٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها، (١٤٣/١/ح ٣٥٧)، ومسلم، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة، (٢٦٨/١/ ح ٣٤٠).



لي: مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئا، قال رسول الله ﷺ: فوالله ما هممت بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته»[(١)].

- **وعصمه في نطقه فلا ينطق إلا حقاً.**
- **بل إن الله عصمه من شيطانه فلا يأمره إلا بخير.**

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[(٢)].

- **شبهة، والرد عليها:**

**١ – إذا كان النبي ﷺ معصوماً، فلماذا أخطأ في بعض اجتهاداته، بدليل عتاب الله تعالى له ﷺ في القرآن على بعضها؟**

**الجواب:**

أن رسول الله ﷺ في اجتهاداته، لم يخالف أمراً، ولم يرتكب نهياً، وإنما

---

(١) الحديث أخرجه البزار: (٢/٢٤٠) والحاكم: (٤/٢٧٣/ح٧٦١٩) كلاهما من طريق ابن اسحاق عن محمد ابن عبد الله بن قيس بن مخرمة، قال البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى إلا عن علي بهذا الإسناد»، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي، وقال الهيثمي: «رجاله ثقات»: مجمع الزوائد: (٨/٢٢٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان...، (٤/٢١٦٧/ ح ٢٨١٤).



اجتهد فوقع اختياره على **خلاف الأولى**، فما كان منه لا يؤثر على عصمته، ولا يقدح في مقامه[١].

**٢ – قد أثبت الله تعالى لنبيه ﷺ في سورة الضحى أنه كان ضالا فهداه، فكيف يقال إنه ﷺ كان معصوماً؟**

الجواب: قال ابن عطية: «أثبت له تعالى في الضحى أنه قد كان قبل النبوءة ضالا بالإضافة إلى حاله من الرشد بعدها»[٢].



(١) انظر: «معالم النبوة في الكتاب والسنة» للعك: (٧٤).

(٢) «المحرر الوجيز»: (١٩٦/٥).

# المبحث الرابع

## عصمته من الناس، وكفاية الله له ﷺ

## المبحث الرابع

## عصمتُه ﷺ من الناس، وكفايةُ الله له

**أولاً/ عصمته ﷺ من الناس:**

**أولاً: المعنى اللغوي للعصمة:**

قال ابن فارس: «(عَصَمَ): (العين والصاد والميم): أصل واحد صحيح، يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى: في ذلك كله معنى واحد، من ذلك: العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه، (واعتصم العبد بالله تعالى): إذا امتنع، (واستعصم): التجأ»[1].

**❖ الآيات التي وصف فيها ﷺ بالعصمة من الناس على نوعين:**

**أ/ آيتان تصفانه بالعصمة من الناس من إضلالهم له ﷺ:**

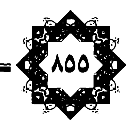
- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾...الآية (النساء: ١١٣).

- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٤).

**ب/ وآية تصفه بالعصمة من الناس من قتلهم له ﷺ:**

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣٣١/٤).



- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾...الآية (المائدة: ٦٧).

## ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات النبي ﷺ:

### أ/ في الآيتين اللتين تصفانه بالعصمة من الناس من إضلالهم له ﷺ:

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ ﴾...**الآية** (النساء: ١١٣).

**١ – في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾:**

أي بالعصمة والوحي والنبوة[١].

قال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾: ولولا أن الله تفضل عليك يا محمد، فعصمك بتوفيقه وتبيانه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن الجدال عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قبله»[٢].

**٢ – في قوله تعالى: ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾:**

في المراد بهذه الطائفة قولان:

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٥/٢٧٥)، «بحر العلوم»: (١/٣٦٣)، «الكشاف»: (١/٥٩٧)، «التفسير الكبير»: (١١/٣٢)، «تفسير القرطبي»: (٥/٣٨١)، «لباب التأويل»: (١/٥٩٦)، «نظم الدرر»: (٢/٣١٦)، «تفسير أبي السعود»: (٢/٢٣١)، «فتح القدير»: (١/٥١٤)، «التحرير والتنوير»: (٥/١٩٧).

(٢) «جامع البيان»: (٥/٢٧٥).



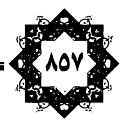
١ – أنهم قوم طعمة بن أبيرق[١].

«وذلك أن نفرا من الأنصار غزوا مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم، فأظن بها رجلا من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ، فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي، فأتي به رسول الله ﷺ فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته، إني قد غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً، فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء وإن سارق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علما، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء: ١٠٥)»[٢].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٢٧٥/٥)، «بحر العلوم»: (٣٦٣/١)، «معالم التنزيل»: (٤٧٩/١)، «الكشاف»: (٥٩٧/١)، «التفسير الكبير»: (٣٢/١١)، «تفسير القرطبي»: (٣٨٢/٥)، «تفسير البيضاوي»: (٢٥١/٢)، «لباب التأويل»: (٥٩٦/١)، «البحر المحيط»: (٣٦٢/٣)، «تفسير ابن كثير»: (٥٥٥/١)، «تفسير أبي السعود»: (٢٣١/٢)، «فتح القدير»: (٥١٤/١)، «التحرير والتنوير»: (١٧٩/٥)، وسبقت ترجمة طعمة، انظر: ص (١٤٦).

(٢) «جامع البيان»: (٢٦٧/٥)، والحديث أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة النساء)، (٣٠٣٦/٢٤٤/٥)، وقال الترمذي هذا حديث غريب، ثم ذكر اختلافاً في وصله وإرساله.



٢ – أنهم وفد من ثقيف[١].

«قال الضحاك نزلت في وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا جئناك لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا ولا تُعَشِّرْنا[٢] فلم يجبهم رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ (النساء: ١١٣)»[٣].

**وجمهور المفسرين على الأول.**

**٣ – في قوله تعالى: ﴿ لَهَمَّت ﴾:**

ذكر ابن عاشور لطيفة في: (الهَمّ) المذكور في الآية فقال: «فكان ما حاولوه من تضليل الرسول طمعاً لا هَمّا، لأنّ الهمّ هو العزم على الفعل والثقة به، وإنّما كان انتفاءُ همّهم تضليلَه فضلاً ورحمة، لدلالته على وقاره في نفوس الناس، وذلك فضل عظيم.

وقيل في تفسير هذا الانتفاء: إنّ المراد انتفاء أثره، أي لولا فضل الله لضلِلْت بهمّهم أن يُضلّوك، ولكن الله عصمك عن الضلال، فيكون كناية. وفي هذا التفسير بُعد من جانب نظم الكلام ومن جانب المعنى»[٤].

**٤ – في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾:**

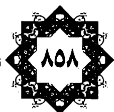
قال الطبري: «فإن قال قائل ما كان وجه إضلالهم أنفسهم قيل وجه

(١) انظر: «بحر العلوم»: (١/٣٦٣)، «البحر المحيط»: (٣/٣٦٢)، «تفسير أبي السعود»: (٢/٢٣١).

(٢) طلبوا منه ﷺ أن لا يأخذ العُشْرَ من أموالهم، كما كان يفعل الملوك.

(٣) «بحر العلوم»: (١/٣٦٣)، ولم أجد من أخرج الرواية عن الضحاك.

(٤) «التحرير والتنوير»: (٥/١٩٧).



إضلالهم أنفسهم أخذهم بها في غير ما أباح الله لهم الأخذ بها فيه من سبله وذلك أن الله جل ثناؤه قد كان تقدم إليهم فيما تقدم في كتابه على لسان رسوله ﷺ إلى خلقه بالنهي عن أن يتعاونوا على الإثم والعدوان، والأمر بالتعاون على الحق، فكان من الواجب لله فيمن سعى في أمر الخائنين الذين وصف الله أمرهم بقوله: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ معاونة من ظلموه دون من خاصمهم إلى رسول الله ﷺ في طلب حقه منهم فكان سعيهم في معونتهم دون معونة من ظلموه، أخذا منهم في غير سبيل الله وذلك هو إضلالهم أنفسهم الذي وصفه الله فقال: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾»[1].

**٥ – في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾:**

**فيها وجهان:**

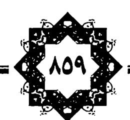
١ – «وما يضرونك في المستقبل، فوعده الله تعالى في هذه الآية بإدامة العصمة له مما يريدون من إيقاعه في الباطل.

٢ – أن المعنى أنهم وإن سعوا في إلقائك في الباطل فأنت ما وقعت في الباطل، لأنك بنيت الأمر على ظاهر الحال، وأنت ما أمرت إلا ببناء الأحكام على الظواهر»[2].

❖ وعلى كلا الوجهين لا منافي لعصمته ﷺ، قال القرطبي: «﴿ وَمَا

(١) «جامع البيان»: (٥/٢٧٥).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (١١/٣٢).



يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾: لأنك معصوم»[1].

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٤).

في سبب نزولها قولان:

أحدهما: ما روى سعيد بن جبير أن النبي ﷺ كان يستلم الحجر في طوافه فمنعته قريش وقالوا لا ندعك تستلم حتى تلم بآلهتنا فحدث نفسه وقال: «ما عليّ أن ألمَّ بها بعد أن يعدوني أستلم الحجر واللّه يعلم أني لها كاره» فأبى الله تعالى وأنزل عليه هذه الآية[2]، قاله مجاهد وقتادة»[3].

الثاني: ما روى ابن عباس أن ثقيفاً قالوا للنبي ﷺ: أجِّلْنا سنة حتى نأخذ ما نُهدي لآلهتنا، فإذا أخذناه كسرنا آلهتنا وأسلمْنا، فهمّ رسول الله ﷺ أن يطيعهم، فأنزل الله هذه الآية»[4].

في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾:

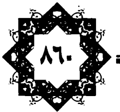
---

(١) «تفسير القرطبي»: (٣٨٢/٥).

(٢) أخرجه الطبري عن سعيد بن جبير مرسلا.

(٣) «النكت والعيون»: (٢٥٩/٣)، وانظر: «جامع البيان»: (١٢٩/١٥).

(٤) الحديث أخرجه الطبري في جامع البيان، (١٣٠/١٥)، والإسناد مسلسل برواية العوفيين المشهورين بضعفهم، وقال أحمد شاكر في إسناد العوفيين: «وهو إسناد مسلسل بالضعفاء، من أسرة واحدة، وهو مشهور عند العلماء بتفسير العوفي»: «جامع البيان» بتحقيق أحمد شاكر: (٢٦٣/١ ـ ٢٦٤).



- ومعنى ﴿ ثَبَّتْنَكَ ﴾ في الآية: (عصمناك)، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره ولولا أن ثبتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة، ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْءًا قَلِيلاً ﴾ يقول لقد كدت تميل إليهم وتطمئن شيئا قليلا»[1].

**وفي قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ ﴾:**

قال ابن عطية: «الرُّكون شد الظهر إلى الأمر أو الحزم على جهة السكون إليه كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (هود: ٨٠)»[2].

ومعنى الرُّكون في الآية:

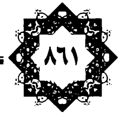
١ – قيل: «من الركون الذي هو أدنى ميل، أي لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل إليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير، لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم، لكن أدركتك العصمة، فنمنعك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، فضلا عن نفس الركون»[3].

---

(١) «جامع البيان»: (١٣١/١٥)، وانظر: «بحر العلوم»: (٣٢٣/٢)، «تفسير ابن زمنين»: (٣٣/٣)، «معالم التنزيل»: (١٢٧/٣)، «تفسير القرطبي»: (٣٠٠/١٠)، «تفسير البيضاوي»: (٤٦٠/٣)، «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (١٧٦/٢)، «تفسير أبي السعود»: (١٨٨/٥)، «فتح القدير»: (٢٤٧/٣)، «تفسير السعدي»: (٤٦٤).

(٢) «المحرر الوجيز»: (٤٧٥/٣)، وانظر: «التحرير والتنوير»: (١٧٥/١٥).

(٣) «تفسير أبي السعود»: (١٨٨/٥)، وانظر: «معالم التنزيل»: (١٢٧/٣)، «الكشاف»: =



قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ معصوما ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه»[١].

٢ – وقيل: إن المعنى: لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنت إلى قولهم بسبب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرّجل: كدت تقتل نفسك أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت»[٢].

ولعل أصحاب هذا القول أرادوا بذلك نفي الهم عن النبي ﷺ، ولا يخفى أن قولهم فيه تكلف، وتحميل اللفظ مالا يحتمله، وقال ابن عطية مؤيداً تكلف أصحاب هذا القول: «وقوله: ﴿ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ يبطل ذلك، وهذا الهم من النبي ﷺ إنما كانت خطرة مما لا يمكن دفعه ولذلك قيل: (كدت)، وهي تعطي أنه لم يقع ركون ثم قيل: (شيئا قليلا)، إذ كانت المقاربة التي تتضمنها (كدت) قليلة خطرة لم تتأكد في النفس، وهذا الهم هو كهم يوسف عليه السلام، والقول فيهما واحد»[٣].

لكن وإن ووفق ابن عطية في تكلف أصحاب القول الثاني، إلا أنه لم يوافق من جمع من المفسرين، في أن ما حصل من النبي ﷺ هو هم بالركون،

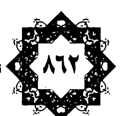
---

=(٦٣٩/٢)، «تفسير البيضاوي»: (٤٦٠/٣)، «فتح القدير»: (٢٤٧/٣).

(١) «تفسير القرطبي»: (٣٠٠/١٠)، «البحر المحيط»: (٦٢/٦).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٦٢/٦)، وانظر: «المحرر الوجيز»: (٤٧٥/٣)، «فتح القدير»: (٢٤٧/٣).

(٣) «المحرر الوجيز»: (٤٧٥/٣).



فقال البغوي:

«فإن قيل كان النبي ﷺ معصوماً فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه، وما طلبوه كفر؟ قيل: كان ذلك خاطر قلب، ولم يكن عزما، وقد عفا الله ﷻ عن حديث النفس... **والجواب الصحيح**: هو أن الله تعالى قال: ﴿ **وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً** ﴾ وقد ثبته الله ولم يركن وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ (النساء: ٨٣) وقد تفضل فلم يتبعوا»[(١)].

فالمعنى إذاً: «أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركن إليهم **وهو صريح** في أنه ﷺ ما هم بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه»[(٢)].

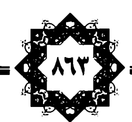
**والدليل** من الآية على صحة كونه ﷺ ما ركن إليهم ولا هَمَّ بالركون، هو تصدير الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ** ﴾، قال أبو حيان: «وجواب (لَوْ لا) يقتضي إذا كان مثبتاً امتناعه لوجود ما قبله، فمقاربة الركون لم تقع منه فضلاً عن الركون والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله»[(٣)].

---

(١) «معالم التنزيل»: (٣/١٢٧).

(٢) «تفسير البيضاوي»: (٣/٤٦٠).

(٣) «البحر المحيط»: (٦/٦٢).



**ب/ والآية التي تصفه بالعصمة من الناس من قتلهم له ﷺ:**

- **قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾...الآية** (المائدة: ٦٧).

**١ – في سبب نزولها:** اختلف في سبب نزولها على أقوال اعتمدت على روايات لا تثبت[(١)]، والصحيح أن لا تعلق لنزولها بحادثة معينة:

**قال ابن عاشور: والّذين جعلوا بعض ذلك سبباً لنزول هذه الآية قد خلطوا. فهذه الآية تثبيت للوعد وإدامة له وأنّه لا يتغيّر مع تغيّر صنوف الأعداء»[(٢)].**

**٢ – في قوله تعالى: ﴿ يَعْصِمُكَ ﴾:**

المراد بالعصمة هنا: الحفظ والمنعة.

قال الطبري: «ويعني بقوله والله يعصمك من الناس يمنعك من أن ينالوك بسوء، وأصله من عصام القربة وهو ما توكأ به من سير وخيط»[(٣)].

**شبهة والجواب عليها:**

ورد أنه ﷺ قد أوذي من المشركين فشج رأسه وكسرت رباعيته وأوذي

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٣٠٨/٦)، «النكت والعيون»: (٥٤/٢)، «تفسير القرطبي»: (٢٤٣/٦)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤٣٥/٥)، «تفسير ابن كثير»: (٨٠/٢).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٢٦٤/٦).

(٣) «المصدر السابق»: (٢٦٤/٦).



بضروب الأذى، من السحر وغيره، فكيف يجمع بين ذلك وبين ما ورد في الآية الكريمة من عصمة الله تعالى نبيه ﷺ؟

للمفسرين في ذلك أقوال عدة، منها:

١ – أن المراد من عصمته ﷺ عصمته من القتل[١].

٢ – أنها إنما نزلت بعد ما لحقه الأذى كشج رأسه ﷺ؛ لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن[٢].

٣ – أن المراد عصمة القلب والإيمان، لا عصمة الجسد عما يرد عليه من الأمور الدنيوية الحادثة[٣].

٤ – أن هذه العصمة التي في الآية هي من المخاوف التي يمكن أن توقف عن شيء من التبليغ كالقتل والأسر والأذى في الجسم ونحوه[٤].

مما سبق يتضح أن هناك تعارضاً بين الأقوال، والذي يترجح منها والله تعالى أعلم، أن المراد بالعصمة هنا العصمة من القتل، لما يلي:

١ – لأن القول الثاني يناقضه ما أوذي به النبي في آخر حياته من السحر مثلاً.

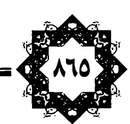
---

(١) انظر: «معالم التنزيل»: (٥٢/٢)، «التفسير الكبير» للرازي: (٤٢/١٢)، «تفسير أبي السعود»: (٦١/٣)، «التحرير والتنوير»: (٢٦٣/٦).

(٢) انظر: «معالم التنزيل»: (٥٢/٢)، «التفسير الكبير» للرازي: (٤٣/١٢).

(٣) انظر: «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (٣٣٠/٢).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز»: (٢١٨/٢).



٢ – أما الثالث فأمر مسلم به لجميع الأنبياء، ويناقضه ما ورد من أحاديث حراسته ﷺ كما هو عند الطبري وابن كثير.

٣ – أما الرابع فله وجه قوي، ولا سيما إن نظر إلى أقصى هذه الأمور التي توقف عن التبليغ وهو القتل.

٤ – تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، قال ابن عاشور:

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيه هذا المعنى أيضاً، والعصمة هنا الحفظ والوقاية من كيد أعدائه.

والنّاس في الآية مراد به الكفّار من اليهود والمنافقين والمشركين، لأنّ العصمة بمعنى الوقاية تؤذن بخوف عليه، وإنّما يَخاف عليه أعداءَه لا أحبّاءه، وليس في المؤمنين عدوّ لرسوله. فالمراد العصمة من اغتيال المشركين، لأنّ ذلك هو الّذي كان يهمّ النّبيء ﷺ إذ لو حصل ذلك لتعطّل الهدي الّذي كان يحبّه النّبيء للنّاس، إذ كان حريصاً على هدايتهم»[1].

فيصفو القول الأول وهو أن المراد من العصمة المذكورة في الآية هي عصمته ﷺ من القتل، «ولقد وفي سبحانه بما ضمن ومن أوفى منه وعداً وأصدق قيلاً فلما أتم الدين وأرغم أنوف المشركين، أنفذ فيه السم الذي تناوله بخيبر قبل سنين فتوفاه شهيداً كما أحياه سعيداً»[2].

(١) «التحرير والتنوير»: (٦/٢٦٣-٢٦٤).

(٢) «نظم الدرر» للبقاعي: (٢/٥٠٤).



وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ: «أن امرأة يهودية[1] أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك، فقال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك» ـ أو قال: «عليّ»، فقالوا: ألا نقتلها؟ قال: «لا»، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ»[2].

**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن عصمة النبي ﷺ من الناس:**

❖ **من قوله تعالى: ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ ﴾...الآية** (النساء: ١١٣).

❖ مِنْ: تدل على العموم، ففيه وعد بالعصمة في المستقبل.

قال أبو حيان: «(مِن) تدل على العموم نصاً أي: لا يضرونك قليلاً ولا كثيراً. قال القفال: وهذا وعد بالعصمة في المستقبل»[3].

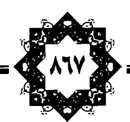
❖ جملة: **﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾**، معطوفة على: قوله

---

(١) وهي زينب بنت الحارث، قال ابن حجر: «زينب بنت الحارث بن سلام الإسرائيلية، ذكر معمر في جامعه عن الزهري: أنها اليهودية التي كانت دست الشاة المسمومة للنبي ﷺ، فأسلمت فتركها النبي ﷺ، انتهى، وقال غيره: إنه قتلها، وقيل: إنما قتلها قصاصا لبشر بن البراء؛ لأنه كان أكل معه من الشاة فمات بعد حول»: «الإصابة»: (٧/٦٧٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية، (٢/٩٢٣/ح ٢٤٧٤)، ومسلم، كتاب السلام، باب السم، (٤/١٧٢١، ح ٢١٩٠).

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان: (٣/٣٦٢).



تعالى: ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾، لزيادة تقرير فضل الله تعالى عليه، قال ابن عاشور: «وجملة: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ عطف على ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾، وموقعها لزيادة تقرير معنى قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ ولذلك ختمها بقوله: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾، فهو مثل ردّ العجز على الصدر»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾...الآية** (المائدة: ٦٧).

❖ **من دلالات الآية ما يلي:**

١ – أنها من أوضح الأدلة على صدق نبوته ﷺ، قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ دليل على نبوته لأن الله ﷻ أخبر أنه معصوم ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئا مما أمره الله به»[2].

٢ – وفيها التبشير بحياته حتى يظهر الله تعالى هذا الدين[3]، وعدة وضمان من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه ﷺ من تعرض الأعادي وإزاحة لمعاذيره»[4].

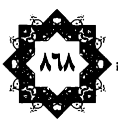
---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٩٧/٥).

(٢) «تفسير القرطبي»: (٢٤٣/٦).

(٣) انظر: «البحر المحيط»لأبي حيان: (٤٣٥/٥).

(٤) «تفسير البيضاوي»: (٣٤٨/٢)، وانظر: «التسهيل لعلوم التنزيل»لابن جزيء: (١٨٣/١).



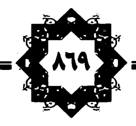
٣ - فيها تحريض له على أداء أمانته وتبليغ رسالته بكل اطمئنان، قال السعدي رحمه الله: «هذه حماية وعصمة من الله، لرسوله ﷺ من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله، وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى، فلنفسه. وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير، بسبب كفرهم»[1].

❖ افتتح قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ بلفظ الجلالة «للاهتمام به؛ لأنّ المخاطب والسّامعين يترقّبون عقب الأمر بتبليغ كلّ ما أنزل إليه، أن يلاقي عنتاً وتكالباً عليه من أعدائه فافتتح تطمينه بذكر اسم الله، لأنّ المعنى أنّ هذا ما عليك. فأمّا ما علينا فالله يعصمك، فموقع تقديم اسم الجلالة هنا مغن عن الإتيان بأمّا»[2].

❖ قال ابن كثير رحمه الله: «ومن عصمة الله لرسوله **حفظه له من أهل مكة** وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة ليلا ونهارا بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، **فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب**، إذ كان رئيسا مطاعا كبيرا من قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ

(١) «تفسير السعدي»: (٢٣٩).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٦/٢٦٣).



عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر، هابوه واحترموه فلما مات عمه أبو طالب، نال منه المشركون أذى يسيرا، **ثم قيض الله له الأنصار** فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة، فلما صار إليها، منعوه من الأحمر والأسود، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، **كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم**، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، **ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به** وحماه منه»[١].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾** (الإسراء: ٧٤).

❖ **في قوله تعالى: ﴿ ثَبَّتْنَٰكَ ﴾:** «عدي التثبيت إلى ضمير النبي ﷺ الدال على ذاته، والمراد تثبيت فهمه ورأيه، وهذا من الحكم على الذات. والمراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، مثل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ (النساء: ٢٣). فالمعنى: ولولا أن ثبتنا رأيك فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين لقاربت أن تركن إليهم»[٢].

❖ وسبق لفظ: (قليلاً) بلفظ: (شيئاً) مع كون مجيء الأخير نكرة، وذلك لتوكيد هذا القليل، قال ابن عاشور: «وإنما لم يقتصر على (قليلاً)؛ لأن تنكير

(١) «تفسير ابن كثير»: (٨٠/٢).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٧٤/١٥).



(شيئاً) مفيد التقليل، فكان في ذكره تهيئة لتوكيد معنى التقليل، فإن كلمة (شيء) لتوغلها في إبهام جنس ما تضاف إليه أو جنس الموجود مطلقاً مفيدةٌ للتقليل غالباً كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ (النساء: ٢٠))»[1].

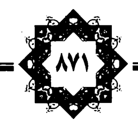
## رابعاً: فوائد حول عصمة النبي ﷺ من الناس:

❖ ذكر الرازي في تفسيره مسألة وأجاب عنها، فقال:

**«مسألة: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه. الأول: أن الآية دلت على أنه عليه السلام قرب من أن يفتري على الله، والفرية على الله من أعظم الذنوب. والثاني: أنها تدل على أنه لولا أن الله تعالى ثبته وعصمه لقرب من أن يركن إلى دينهم ويميل إلى مذهبهم. والثالث: أنه لولا سبق جرم وجناية وإلا فلا حاجة إلى ذكر هذا الوعيد الشديد.**

والجواب عن الأول: أن كاد معناه المقاربة فكان معنى الآية أنه قرب وقوعه في الفتنة، وهذا القدر لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة فإنا إذا قلنا كاد الأمير أن يضرب فلاناً لا يفهم منه أنه ضربه، والجواب عن الثاني: أن كلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، تقول لولا علي لهلك عمر، معناه أن وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك ههنا قوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ

(١) «التحرير والتنوير»: (١٥/١٧٥).



﴿إِلَيْهِمْ﴾ معناه أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد ﷺ فكان حصول ذلك التثبيت مانعاً من حصول ذلك الركون، والجواب عن الثالث: أن ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها والدليل عليه آيات منها قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦) ومنها قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر: ٦٥) ومنها قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٨) والله أعلم»[١].

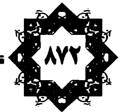
❖ «وهذه الآية من الأدلة الواضحة على ما خص به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الفضائل في شرف جوهره، وزكاء عنصره، ورجحان عقله، وطيب أصله، لأنها دلت على أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لو وكل إلى نفسه وما خلق الله في طبعه وجبلته من الغرائز الكاملة والأوصاف الفاضلة، ولم يتداركه بما منحه من التثبيت زيادة على ذلك حال النبوة لم يركن إليهم، وهم أشد الناس أفكاراً، وأصفاهم أفهاماً، وأعلمهم بالخداع، مع كثرة عددهم، وعظم صبرهم وجلدهم ـ ركوناً ما أصلاً، وإنما كان قصاراهم أن يقارب الركون شيئاً قليلاً، فسبحان من يخص من يشاء بما يشاء، وهو ذو الفضل العظيم»[٢].

❖ وقال السعدي رحمه الله معلقاً على عصمة النبي ﷺ من الناس، وتثبيت

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي: (٢١/١٨-١٩).

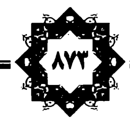
(٢) «نظم الدرر» للبقاعي: (٤/٤١٣).



الله له فقال: «وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه لا يزال متملقا لربه، أن يثبته على الإيمان، ساعيا في كل سبب موصل إلى ذلك، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ فكيف بغيره؟ وفيها تذكير الله لرسوله ﷺ منته عليه، وعصمته من الشر. فدل ذلك، على أن الله يحب من عباده، أن يتفطنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشر بالعصمة منه، والثبات على الإيمان. وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله، يعظم إثمه ويتضاعف جرمه، إذا فعل ما يلام عليه، لأن الله ذكر رسوله لو فعل وحاشاه من ذلك بقوله: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٧٥). وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم، إذا أخرجوا رسولهم»[(١)].



(١) «تفسير السعدي»: (٤٦١).



## ثانياً/ كفاية الله تعالى له:

### أولاً: المعنى اللغوي للكفاية:

معنى **الكفاية** في اللغة: قال ابن فارس: «(كَفَى): الكاف والفاء والحرف المعتل، أصل صحيح، يدل على الحَسْب الذي لا مستزاد فيه، يقال: كفاك الشيء، يكفيك، وقد كفى كفاية إذا قام بالأمر»(١).

وكذلك: (حَسْب): معناه: كفى(٢).

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بكفاية الله له:**

- قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٧).

- قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٩).

- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ (الحجر: ٩٥).

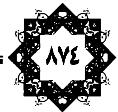
- قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ ﴾ (الزمر: ٣٦).

- قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٢)، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٨٨/٥).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة»: (١٩٢/٤).



ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٣)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٤).

## ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات النبي ﷺ:

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٧).

- في معناها:

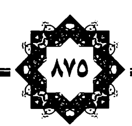
- قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾: «يعني يدفع الله عنكم مؤنتهم، وقال الزجاج هذا ضمان من الله تعالى النصر لنبيه أنه سيكفيه إياهم بإظهاره على كل دين سواه كقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ ﴾ (المجادلة: ٢١)، يعني أن عاقبة الأمر كان لهم، قال مقاتل: يعني قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير»[1].

قال الطبري: «ففعل الله بهم ذلك عاجلا وأنجز وعده فكفي نبيه ﷺ بتسليطه إياه عليهم حتى قتل بعضهم وأجلى بعضا وأذل بعضا وأخزاه بالجزية والصغار»[2].

وفي الآية تقوية لقلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين، وتسلية وتسكين له

(١) «بحر العلوم»: (١/ ١٢٤).

(٢) «جامع البيان»: (١/ ٥٧٠).



وللمؤمنين ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم[(١)].

- **سبب كفاية الله نبيه والمؤمنين، شر اليهود والنصارى وشقاقهم:**

وذلك لأن توليهم إنما يترتب عليه الشقاق والمكايدة والمعاداة، فضمن الله لنبيه المنعة:

قال أبو حيان: «لما ذكر أن توليهم يترتب عليه الشقاق، وهو العداوة العظيمة، أخبر تعالى أن تلك العداوة لا يصلون إليك بشيء منها؛ لأنه تعالى قد كفاه شرهم، وهذا الإخبار ضمان من الله لرسوله، كفايته ومنعه منهم، ويضمن ذلك إظهاره على أعدائه، وغلبته إياهم، لأن من كان مشاقاً لك غاية الشقاق هو مجتهد في أذاك، إذا لم يتوصل إلى ذلك، فإنما ذلك لظهورك عليه وقوّة منعتك منه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾. وكفاه الله أمرهم بالسبي والقتل في قريظة وبني قينقاع، والنفي في بني النضير، والجزية في نصارى نجران»[(٢)].

**وهذه الكفاية تتعلق بشقاقهم لا بهم**، «فإن الكفاية لا تتعلق بالأعيان، بل بالأفعال»[(٣)].

❖ **من قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ**

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي»: (١/٤١٢).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/٥٨١ ـ ٥٨٢)، وانظر: «نظم الدرر» للبقاعي: (١/٢٥٦).

(٣) «تفسير أبي السعود»: (١/١٦٧).

وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٩).

**قال ابن عاشور في معنى التولي ومعنى الحسب هنا:**

والتولي: الإعراض والإدبار: وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد، والحسْب: الكافي، أي كافيك شر إعراضهم لأنهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق. وتلك حالة مظنة السعي في الكيد والأذى»[1].

**وقال الطبري في معنى الآية:**

«يقول تعالى ذكره فإن تولى يا محمد هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك فأدبروا عنك ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله وما دعوتهم إليه من النور والهدى فقل حسبي الله يكفيني ربي لا إله إلا هو لا معبود سواه عليه توكلت وبه وثقت وعلى عونه اتكلت وإليه وإلى نصره استندت فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس وهو رب العرش العظيم الذي يملك كل ما دونه والملوك كلهم مماليكه وعبيده وإنما عني بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده وفي ملكه وسلطانه؛ لأن العرش العظيم إنما يكون للملوك فوصف نفسه بأنه ذو العرش دون سائر خلقه وأنه الملك العظيم دون غيره وأن من دون في سلطانه وملكه جار عليه حكمه وقضاؤه»[2].

(١) «التحرير والتنوير»: (١١/٧٣-٧٤).

(٢) «جامع البيان»: (١١/٧٧-٧٨).

❖ **من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ (الحجر: ٩٥).**

قال الطبري:

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ إنا كفيناك المستهزئين يا محمد الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله ولا تخف شيئا سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك، كما كفاك المستهزئين»[١].

**أما المراد بالمستهزئين فقولان:**

١ – فقيل إنهم كانوا خمسة نفر معروفين من رؤساء قريش، أخرج الطبري في جامع البيان من حديث عروة بن الزبير مرسلاً وقال: «وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين... فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى ذكره فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين»[٢].

٢ – وقيل: «الذين قتلوا ببدر كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وعقبة بن معيط أي وغيرهم والأول أرجح؛ لأن الله كفاه إياهم بمكة قبل الهجرة»[٣].

وفي إهلاك هذه العصابة من المستهزئين منة وفضل من الله تعالى على نبيه ﷺ:

---

(١) «جامع البيان»: (١٤/٦٩).

(٢) «المصدر السابق»: (١٤/٧٠).

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٢/١٤٩).

- قال الشوكاني: «ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله بقوله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ مع كونهم كانوا من أكابر الكفار وأهل الشوكة فيهم فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى»[(١)].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾** (الزمر: ٣٦).

- ﴿ أَلَيْسَ ﴾: أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها»[(٢)].

- ﴿ بِكَافٍ ﴾: حذفت الياء من كاف لسكونها وسكون التنوين بعدها وكان الأصل ألا تحذف في الوقف لزوال التنوين إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك في الوصل ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي»[(٣)].

- ﴿ عَبْدَهُۥ ﴾: المراد بالعبد في الآية:

أ/ قيل هو محمد ﷺ.

ب/ ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس كقوله عز من قائل: إن الإنسان لفي خسر العصر[(٤)].

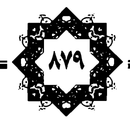
---

(١) «فتح القدير»: (١٤٤/٣).

(٢) «الكشاف»: (١٣١/٤).

(٣) «تفسير القرطبي»: (٢٥٧/١٥).

(٤) انظر: «المصدر السابق»: (٢٧٥/١٥)، «المحرر الوجيز»: (٥٣٢/٤)، «لباب التأويل» للخازن: (٧٦/٦)، «البحر المحيط» لأبي حيان: (٤١٣/٧)، «فتح القدير»: (٤٦٤/٤).



❖ والله كافٍ نبيه ﷺ، وكاف من تولاه من عباده سبحانه.

- وفي الآية «تقوية لقلب محمد ﷺ وإزالة للخوف الذي كان الكفار يخوفونه»[(١)].

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٢)، ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (الأنفال: ٦٣)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٤).

- في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾:

قال ابن عاشور في معنى: (حسب): «وحسب معناه كاف وهو صفة مشبّهة بمعنى اسم الفاعل، أي حاسبك، أي كافيك»[(٢)].

وقال ابن عطية: «﴿ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾: أي كافيك ومعطيك نصرة وإظهارا وهذا وعد محض»[(٣)].

قال الطبري في معنى الآية:

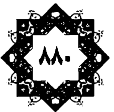
«يقول تعالى ذكره: وإن يرد يا محمد هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء، إن خفت منهم خيانة وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم، خداعك والمكر

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزيء: (٣/١٥٩)، وانظر: «المحرر الوجيز»: (٤/٥٣٢).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٠/٦٢).

(٣) «المحرر الوجيز»: (٢/٥٤٨).



بك، ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾: يقول فإن الله كافيكهم، وكافيك خداعهم إياك؛ لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان، ومتضمن أن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى»[1].

**وأما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾:**

**فيه وجهان:**

**أحدهما**: حسبك الله أن تتوكل عليه والمؤمنون أن تقاتل بهم، قاله الحسن[2]، وابن زيد[3].

**والثاني**: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين الله، قاله الشعبي[4] ومقاتل[5].

قال الطبري:

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي، حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين الله، يقول لهم جل ثناؤه: ناهضوا عدوكم فإن الله كافيكم أمرهم ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم، فإن الله مؤيدكم بنصره»[6].

---

(١) «جامع البيان»: (١٠/٣٥).

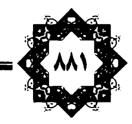
(٢) «تفسير القرطبي»: (٨/٤٣)، «البحر المحيط»: (٤/٥١٠).

(٣) «البحر المحيط»: (٤/٥١٠)، «تفسير القرطبي»: (٨/٤٣)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٣/٢٣٩).

(٤) «جامع البيان»: (١٠/٣٧)، «تفسير القرطبي»: (٨/٤٣)، «البحر المحيط»: لأبي حيان (٤/٥١٠)، «تفسير ابن كثير»: (٢/٣٢٥)، «نظم الدرر» للبقاعي: (٣/٢٣٩).

(٥) «النكت والعيون»: (٢/٢٣١).

(٦) «جامع البيان»: (١٠/٣٧-٣٨).



ولقد ذكر غير واحد من المفسرين عن ابن عباس رضي الله عنهما، نزولها في إسلام عمر رضي الله عنه، قال القرطبي: «وقال ابن عباس: نزلت في إسلام عمر فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة فأسلم عمر وصاروا أربعين»[(١)].

❖ **أما عن إرداف (حسبك الله) الأولى بـ (حسبك الله) الثانية:**

قال الشوكاني: قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾: ليس هذا تكريرا لما قبله؛ فإن الأول مقيد بإرادة الخدع، (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) فهذه كفاية خاصة، وفي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ كفاية عامة غير مقيدة، أي حسبك الله في كل حال»[(٢)].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن كفاية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم:

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٣٧).

- **في عطف الجملة بالفاء** فإن ذلك يوحي بسرعة تعقب الكفاية من الله تعالى شقاقهم، قال أبو حيان: «وعطف الجملة بالفاء مشعر بتعقب الكفاية عقيب شقاقهم»[(٣)].

- **في سبق السين فعل الكفاية**: قال الزمخشري: «معنى السين أن ذلك

---

(١) «تفسير القرطبي»: (٨/٤٢ـ٤٣).

(٢) «فتح القدير»: (٢/٣٢٣ـ٣٢٤)، وانظر: «المصدر السابق»: (٨/٤٢).

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان: (١/٥٨٣).



كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين»، وقال أبو حيان: «والمجيء بالسين يدل على قرب الاستقبال، إذ السين في وضعها أقرب في التنفيس من سوف»[1].

- **في تلوين الخطاب بتجريده للنبي ﷺ** «لأنه الأصل والعمدة في ذلك، وللإيذان بأن القيام بأمور الحروب، وتحمل المؤن والمشاق، ومقاساة الشدائد في مناهضة الأعداء، من وظائف الرؤساء، فنعمته تعالى في الكفاية والنصر في حقه ﷺ أتم وأكمل»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾** (التوبة: ١٢٩).

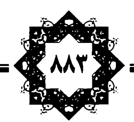
- **في الآية تفريع على إرسال النبي ﷺ، وأن العرب محقوقون بالإيمان به ﷺ**، قال ابن عاشور: «والفاء في قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ للتفريع على إرسال النبي ﷺ صاحب هذه الصفات إليهم فإن صفاته المذكورة تقتضي من كل ذي عقل سليم من العرب الإيمان به واتباعه لأنه من أنفسهم ومحب لخيرهم رؤوف رحيم بمن يتبعه منهم، فتفرع عليه أنهم محقوقون بالإيمان به فإن آمنوا فذاك وإن لم يؤمنوا فإن الله حسيبه وكافيه. وقد دل الشرط على مقابله لأن ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يدل على تقدير ضده وهو: إن أذعنوا بالإيمان»[3].

---

(١) «الكشاف»: (١/٢٢٢).

(٢) «تفسير أبي السعود»: (١/١٦٨).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١١/٧٤).



- **وفي الآية التفات من خطاب العرب إلى خطاب النبي ﷺ**، قال ابن عاشور: «وبعد التفريع، التفت الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبي ﷺ بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطَبُوا هُم به اعتماداً على قرينة حرف التفريع فقيل له: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ** ﴾، والتقدير: فإن توليتم عنه فحسبه الله وقل حسبي الله، فجيء بهذا النظم البديع الإيجاز مع ما فيه من براعة الإيماء إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم»[1].

- **والآية تشير إلى عظم هذه الكلمة وهي الحسبلة، والاستكفاء برب العالمين**، قال ابن عاشور: «وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة؛ لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعيْنِها ولم يؤمَر بمجرد التوكل كما أمر في قوله: ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ** ﴾ (النمل: ٧٩). ولا أخبر بأن الله حسبه مجردَ إخبار كما في قوله: ﴿ **فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ** ﴾ (الأنفال: ٦٢)»[2].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ (الحجر: ٩٥).**

**تعتبر الآية تعليلية للصدع بالدعوة**، «فإن اختفاء النبي ﷺ بدار الأرقم، كان بأمر من الله تعالى؛ لحكمة علمها الله، أهمّها تعدّد الداخلين في الإسلام في تلك المدّة، بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدّين مع أن دعوته

---

(١) «التحرير والتنوير»: (٧٤/١١).

(٢) «المصدر السابق».

مخفية، ثم إن الله أمر رسوله ﷺ بإعلان دعوته لحكمة أعلى، تهيّأ اعتبارها في علمه تعالى»[1].

- **افتتحت الآية بـ: (إن) المؤكدة للخبر**، قال ابن عاشور: «وتأكيد الخبر ب (إنّ) لتحقيقه اهتماماً بشأنه لا للشكّ في تحقّقه»[2].

- **ووصفهم بـ: ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ لفائدتين[3]:**

١ – إيماء إلى أنّه كفاه استهزاءهم وهو أقلّ أنواع الأذى، فكفايته ما هو أشدّ من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحْرى.

٢ – وفي نفس الوقت إيماء إلى أن قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء، كقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران: ١١١)، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبي ﷺ بغير الاستهزاء. وذلك لطف من الله برسوله ﷺ.

- «والتّعريف في ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ للجنس فيفيد العموم، أي كفيناك كل مستهزئ»[4].

❖ **من قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾** (الزمر: ٣٦).

- **الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾**، استفهام

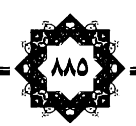
---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٤/٨٩).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) انظر: «المصدر السابق».

(٤) «المصدر السابق».



**إنكاري**، قال فيه أبو السعود:

«إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وآكده كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم في الجواب بوجودها»[(1)].

**ووقع ذكر النبي ﷺ بالاسم الظاهر وهو (عَبْدَه)، دون ضمير الخطاب، لفائدتين[(2)]:**

١ - لأن المقصود توجيه الكلام إلى المشركين، وحُذف المفعول الثاني لـ: (كافٍ): لظهور أن المقصود كافيك أذاهُم، فأما الأصنام فلا تستطيع أذىً حتى يُكْفاه الرسول ﷺ والاستفهام إنكار عليهم ظنّهم أن لا حامِيَ للرسول ﷺ من ضرّ الأصنام، والمراد بـ: (عَبْدَه): هو الرسول ﷺ لا محالة وبقرينة و(يُخوفونك).

٢ - وفي استحضار الرسول ﷺ بوصف العبودية وإضافته إلى ضمير الجلالة، معنى عظيم من تشريفه بهذه الإضافة وتحقيقِ أنه غير مُسلمِه إلى أعدائه.

- **في الآية اعتراض بين جملتين وفائدته، تأكيد شدة ضلالهم وعتوهم:**

قال ابن عاشور: «اعتراض بين جملة ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾...الآية، وجملةِ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ (الزمر:٣٧): قصد من هذا الاعتراض أن

---

(١) «تفسير أبي السعود»: (٧/٢٥٥).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير»: (٢٤/١٣).

ضلالهم داء عَياء؛ لأنه ضلال مكوَّن في نفوسهم وجبلّتهم قد ثبّتته الأيام، ورسخه تعاقب الأجيال، فَران بغشاوته على ألبابهم، فلما صار ضلالهم كالمجبول المطبوع، أسند إيجاده إلى الله كناية عن تعسر أو تعذر اقتلاعه من نفوسهم»[1].

❖ **من قوله تعالى:** ﴿ **وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ (الأنفال: ٦٢)، ﴿ **وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ** ﴾ (الأنفال: ٦٣)، ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ (الأنفال: ٦٤).

- **جملة: ﴿ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾ الأولى مطمئنة غاية الاطمئنان**، دالة على تكفل الكفاية من الرحمن، قال ابن عاشور: «فجملة: ﴿ **فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ** ﴾: دلّت على تكفّل كفايته، وقد أريد منه أيضاً الكناية عن عدم معاملتهم بهذا الاحتمال، وأن لا يتوجّس منه خيفة، وأنّ ذلك لا يضرّه»[2].

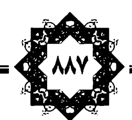
- **في جملة: ﴿ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ الثانية وقوعها بعد الأولى فائدة بيانية عظيمة، قال ابن عاشور فيها:**

«استئناف ابتدائي بالإقبال على خطاب الرسول ﷺ بأوامر وتعاليم عظيمة، مُهّد لقبولها وتسهيلها بما مضى من التذكير بعجيب صنع الله والامتنان

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٤/٢٤).

(٢) «المصدر السابق»: (٦٢/١٠).



بعنايته برسوله والمؤمنين، وإظهار أن النجاح والخير في طاعته وطاعة الله، من أوّل السورة إلى هنا، فموقع هذه الآية بعد التي قبلها كَامل الاتّساق والانتظام، فإنّه لّما أخبره بأنّه حَسبه وكافيه، وبيّن ذلك بأنّه أيّده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين، فقد صار للمؤمنين حظّ في كفاية الله تعالى رسوله ﷺ فلا جرم أنتج ذلك أنّ حسبه الله والمؤمنون، فكانت جملة: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ كالفذلكة للجملة التي قبلها، وتخصيص النبي بهذه الكفاية لتشريف مقامه بأنّ الله يكفي الأمّة لأجله»[(١)].

## رابعاً: فوائد حول كفاية الله تعالى لنبيه ﷺ:

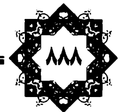
❖ وعد الله تعالى نبيه بالكفاية والمنعة، ووعده سبحانه صادق لا يتخلف، قال العلامة السعدي رحمه الله:

«﴿ **وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ** ﴾: أي لا تبال بهم، واترك مشاتمتهم ومسابتهم، مقبلا على شأنك، ﴿ **إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ** ﴾: بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة. وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به، إلا أهلكه الله، وقتله شر قتله»[(٢)].

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٠/٦٥).

(٢) «تفسير السعدي»: (٤٣٥).



ولكن مما يجب التنويه إليه ما يلي:

- أن ليس بالضرورة أن تصل كيفية هذه الكفاية إلى أسماعنا أو تشاهدها أعيننا، بل غاية ما يجب في الأمر الاعتقاد الجازم بأن الله كاف عبده، ووعده صادق واقع لا محالة.

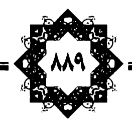
- وإن من هذه الكفاية بل أدناها أن كلما استهزئ بالنبي المصطفى ﷺ زاد الإقبال على دينه، والبحث عن حقيقة هديه، فيصل أصحاب البصائر، ويولي أهل الخسائر.

- وأن لا يستغرب من كيفية وقوع الاستهزاء اليوم مع كفاية الله نبيه ﷺ، بل كما وقع قديماً في حياته ﷺ، فلا غرابة من وقوعه ميتاً ﷺ، بل إن الكفاية حاصلة حتى بعد الاستهزاء، فما سماهم الله في الآية مستهزئين إلا لأنهم استهزؤوا، ولله في ذلك حكمة، كما سبق، ومما يترتب على ذلك مثلاً: زيادة غيظ المستهزئين بعد الاستهزاء بزيادة المقبلين على دينه ﷺ، وهذا نقيض ما يسعى إليه المستهزؤون.

❖ في الآية إشارة إلى فضيلة التوكل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التوكل فبين أن الله حسبه أي كافيه وفي هذا بيان التوكل على الله من حيث أن الله يكفي المتوكل عليه كما قال: ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ** ﴾، خلافا لمن قال ليس في التوكل إلا التفويض والرضا ثم إن الله بالغ أمره ليس هو كالعاجز»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (١٦/٥٦).



❖ في الآية إفصاح عن كرم الله تعالى بعبده، ورفع لمقامه، وتشريف لذكره، قال السعدي رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾:

«أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره، واجتنب ما نهي عنه، خصوصا، أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى، سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء»[1].

❖ على تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بتحقق الكفاية لهم أيضاً من الله تعالى، ولكن لا بد من تحقق التوحيد والاتباع له ﷺ أشار السعدي رحمه الله إلى ذلك فقال:

«ثم قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ أي: كافيك ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله، لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية، والنصرة على الأعداء. فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها»[2].

❖ وصور حماية الله لنبيه، وكفايته إياه سواء من الاستهزاء أو الاعتداء كثيرة منها على سبيل الأمثلة لا الحصر:

---

(١) «تفسير السعدي»: (٧٢٥).

(٢) «المصدر السابق»: (٣٢٥).

- أن تُصرف الشتيمة والذم والاستهزاء إلى غيره فإذا أراد الشاتم أن يشتمه شتم غيره من حيث لا يشعر، قال ﷺ: «ألا ترون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذممًا، ويلعنون مذممًا، وأنا محمدٌ»!، قال ابن حجر: «كان الكفار من قريش من شدة كراهتهم في النبي ﷺ لا يسمونه باسم الدال على المدح، فيعدلون إلى ضده فيقولون: مذمم، وإذا ذكروه بسوء قالوا: فعل الله بمذمم، ومذمم ليس اسمه، ولا يعرف به، فكان الذي يقع منهم مصروفًا إلى غيره»[1]!

- ومن صور الحماية الربانية أن يغير الله السنن الكونية صيانة لنبيه ﷺ ورعاية له: وشاهد ذلك قصة الشاه المسمومة، فهذه زينب بنت الحارث أهدت «إلى النبي ﷺ شاة مصلية وجعلت السم في الذراع منها وكان أحب اللحم إليه فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها وقال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم»!»[2].

فانظر كيف بدَّل الله السنن الكونية من جهتين:

أولاهما: أنه لم يتأثر ﷺ بالسم الذي لاكه.

وثانيتهما: أن الله أنطقَ العظم فأخبره عليه الصلاة والسلام بما فيه.

- ومن صور الكفاية الربانية لنبي الهدى ﷺ ممن آذاه أن يقذف الله في قلب هذا المؤذي المعتدي الإسلام، فيؤوب ويتوب، حتى يكون الرسول ﷺ

---

(١) «فتح الباري»: (٦/٥٥٨).

(٢) «النكت والعيون»: (٢/٢٣١)، والحديث سبق تخريجه، انظر: ص (٨٦٧).



أحب إليه من ماله وولده ووالده والناس أجمعين!!

ومن أعجب الأمثلة في ذلك قصة أبي سفيان بن الحارث أخي النبي ﷺ من الرضاع، وكان يألف النبي ﷺ أيام الصبا وكان له تربًا، فلما بُعث النبي ﷺ عاداه أبو سفيان عداوةً لم يعادها أحدًا قط، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه.. ثم شاء الله أن يكفي رسوله ﷺ لسان أبي سفيان وهجاءه، لا بإهلاكه وإنما بهدايته!!»[1].



(١) «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ» لابن تيمية: (٢/٢٧١ ـ ٢٧٥).

# المبحث الخامس

## غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﷺ

## المبحث الخامس

## غُفرانُ ما تَقَدَّم من ذنبِه وما تأخَّر ﷺ

**أولاً: المعنى اللغوي للغفران:**

قال ابن منظور: «وأصل الغفر التغطية والستر: غفر الله ذنوبه، أي سترها والغفر: الغفران»[(1)].

**❖ الآية التي وصف فيها ﷺ بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر:**

**قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾** (الفتح: ٢).

**ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآية في هذه الصفة للنبي ﷺ:**

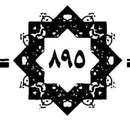
**١ – في نزولها:**

عن قَتَادَةَ أَنَّ أَنسَ بن مَالِكٍ رضي الله عنه حَدَّثَهُمْ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ **﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾** إلى قَوْلِهِ: **﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾** مَرْجِعَهُ من الْحُدَيْبِيَةِ، وَهُمْ يُخَالِطُهُمْ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ، وقد نَحَرَ الهدى بِالْحُدَيْبِيَةِ، فقال: «لقد أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إلي من الدُّنْيَا جميعاً»»[(2)].

**٢ – في قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾:**

(١) «لسان العرب»: (٢٥/٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، (١٤١٣/٣/ح ١٧٨٦).



اختُلف فيه على أقوال[1]:

١ – قيل المراد: ما تقدم قبل الفتح وما تأخر بعد الفتح.

٢ – وقيل: ما تقدم قبل النبوة وما تأخر بعد النبوة.

٣ – وقيل: ما وقع وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور إذا كان.

٤ – وقيل: ما تقدم قبل نزول هذه الآية وما تأخر بعدها.

واختار إمام المفسرين ـ الطبري ـ القول الأول فقال: «يعني بقوله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يقول:

إنا حكمنا لك يا محمد حكما لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر لتشكر ربك وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتحه ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره فيغفر لك بفعالك ذلك ربك ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته».

**ثم علل الطبري رحمه الله اختياره هذا القول ودلل، فقال:**

«وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية:

١ – لدلالة قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، على

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٥/٣١٠).

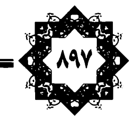
صحته إذ أمره تعالى ذكره أن يسبح بحمد ربه إذا جاءه نصر الله وفتح مكة وأن يستغفره وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك ففي ذلك بيان واضح أن قوله تعالى ذكره: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، إنما هو خبر من الله جل ثناؤه نبيه عليه الصلاة والسلام عن جزائه له على شكره له على النعمة التي أنعم بها عليه من إظهاره له ما فتح لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها.

٢ – وبعد ففي صحة الخبر عنه ﷺ أنه كان يقوم حتى ترم قدماه فقيل له: يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»[1]؟ الدلالة الواضحة على أن الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول وأن الله تبارك وتعالى إنما وعد نبيه محمدا ﷺ غفران ذنوبه المتقدمة فتح ما فتح عليه وبعده على شكره له على نعمه التي أنعمها عليه.

٣ – وكذلك كان يقول ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مئة مرة»[2]، ولو كان القول في ذلك أنه من خبر الله تعالى نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر على غير الوجه الذي ذكرنا لم يكن لأمره إياه بالاستغفار بعد هذه الآية ولا لاستغفار نبي الله ﷺ ربه جل جلاله من ذنوبه بعدها معنى يعقل إذ الاستغفار معناه طلب العبد من ربه عز وجل غفران ذنوبه فإذا لم يكن ذنوب تغفر لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى لأنه من المحال أن يقال اللهم اغفر لي ذنبا

(١) سبق تخريجه، انظر: ص (٧٢٨).

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص (٦٧١).



لم أعمله.

وقد تأول ذلك بعضهم بمعنى ليغفر لك ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة وما تأخر إلى الوقت الذي قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1]».

**٣ – في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:**

اختلف فيه على أقوال:

١ – قيل: ما تقدم: ما عملته في الجاهلية قبل الوحي، وما تأخر: كل شيء لم تعمله[2].

٢ – وقيل: ما تقدم: قبل الرسالة، وما تأخر: إلى وقت نزول هذه الآية[3].

٣ – وقيل: ما تقدم: من ذنب أبويك آدم وحواء، وما تأخر: من ذنوب أمتك بدعائك[4].

٤ – وقيل: ما تقدم: قبل الفتح، وما تأخر: بعد الفتح[5].

---

(١) «جامع البيان»: (٦٨/٢٦).

(٢) «معالم التنزيل»: (١٨٩/٤)، «تفسير القرطبي»: (٢٦٢/١٦).

(٣) «تفسير القرطبي»: (٢٦٢/١٦).

(٤) «معالم التنزيل»: (١٨٩/٤)، «المحرر الوجيز»: (١٢٦/٥)، «تفسير القرطبي»: (٢٦٢/١٦).

(٥) «النكت والعيون»: (٣١٠/٥)، «تفسير القرطبي»: (٢٦٢/١٦).



٥ – ما تقدم: قبل نزول الآية، وما تأخر: بعدها[١].

٦ – ما تقدم: قبل النبوة، وما تأخر: بعدها[٢].

**❖ الترجيح بين الأقوال:**

- أما القول الأول فضعفه ابن عطية فقال: «وهذا ضعيف وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة»[٣] كما أنه لايستقيم أن يقال: إن الله غفر شيئاً لم يُعمل.

- وأما القول الثاني: فحصر ما تأخر بكونه إلى وقت النزول حصر بلا دليل والآية أعم من ذلك.

- وأما القول الثالث فيفتقر إلى دليل لهذا التخصيص.

**❖ وأما الثلاثة الأقوال الأخيرة فلا تتناقض مع بعضها بعضاً، وإن كان القول بأن ما تقدم: قبل الفتح، وما تأخر: بعده، هو اختيار ابن جرير الطبري رحمه الله، وهو الذي يتسق مع سياق الآية أي كونها بدأت بذكر الفتح، والله تعالى أعلم[٤].**

**٤ – اختلف في نوع اللام في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ﴾:**

---

(١) «النكت والعيون»: (٥/٣١٠)، «تفسير القرطبي»: (١٦/٢٦٢).

(٢) «النكت والعيون»: (٥/٣١٠).

(٣) «المحرر الوجيز»: (٥/١٢٦).

(٤) كما أن هناك أقوال أخرى شاذة ولم يعتبرها المتقدمين من المفسرين.

١ – فقيل هي لام التعليل، قال ابن عطية في توجيه التعليل: «هي لام كي لكنها تخالفها في المعنى والمراد هنا أن الله فتح لك لكي يجعل ذلك أمارة وعلامة لغفرانه لك فكأنها لام صيرورة»[١].

وقال الرازي: «المراد منه التعريف تقديره إنا فتحنا لك ليعرف أنك مغفور، معصوم، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له»[٢].

٢ – وقيل: «هي لام القسم، وقال بعضهم: إنَّ هذه اللام لام القَسَم والأصل: لَيَغْفِرَنَّ فكسرت اللام تشبيهاً بلام (كي)، وحذفت النون. وَرُدَّ هذا بِأن اللام لا تكسر، وبأنها لا تنصب المضارع»[٣].

**٥ – مسألة: هل الفتح سبب للغفران أم لا؟ اختلف في ذلك على قولين:**

**أ/ أنه سبب للغفران لعلتين[٤]:**

١ – لأنه جهاد للعدو، وفيه الثواب والمغفرة، مع الظفر بالعدو والفوز بالفتح.

٢ – لأن هذا الفتح كان سبباً لدخول مكة والطواف بالبيت لذا كان سبباً للمغفرة.

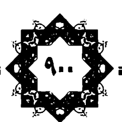
---

(١) «المحرر الوجيز»: (١٢٦/٥).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (٦٨/٢٨).

(٣) «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل: (٤٧٦/١٧)، وانظر: «فتح القدير»: (٤٥/٥).

(٤) انظر: «لباب التأويل» للخازن: (١٨٨/٦).



**ب/ وقيل إن الفتح لم يجعل سببا للمغفرة بل سبباً لاجتماع ما قدر له من الأمور الأربعة المذكورة**[1]: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قال: يسرنا لك الفتح، ونصرناك على عدوك، وغفرنا لك ذنبك، وهديناك صراطا مستقيما؛ ليجتمع لك عز الدارين وأغراض العاجل والآجل.

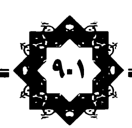
## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن غفران ما تقدم من ذنبه ﷺ وما تأخر:

- في ذكر الفاعل وهو لفظ الجلالة في الجملة الأولى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾، وإضماره في الجملتين بعدها؛ لظهوره، قال الرازي: إن «الله تعالى لما قال: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾ أبرز الفاعل وهو الله، ثم عطف عليه بقوله: ﴿ وَيُتِمَّ ﴾ وبقوله: ﴿ وَيَهْدِيَكَ ﴾ ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول، ولا يظهر فيما بعده تقول: جاء زيد وتكلم، وقام وراح، ولا تقول: جاء زيد، وقعد زيد اختصاراً للكلام بالاقتصار على الأول»[2].

---

(١) انظر: «التفسير الكبير»: (٢٨/٦٨)، «تفسير القرطبي»: (١٦/١٦٢)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٢٠٠)، «لباب التأويل»: (٦/١٨٨)، «اللباب في علوم الكتاب»: (١٧/٤٧٦)، «تفسير السمعاني»: (٥/١٨٩)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٧/٤٢٣)، «فتح القدير»: (٥/٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦)، «التحرير والتنوير»: (٢٦/١٤٦ـ١٤٧).

(٢) «التفسير الكبير»: (٢٨/٦٩).



**رابعاً: فوائد حول غفران ما تقدم من ذنبه ﷺ وما تأخر:**

- قال السعدي رحمه الله في سبب هذا الغفران: «فقال: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾، وذلك والله أعلم بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة. وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها، إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه، وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[1].



(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (٧٩١).

# المبحث السادس

# اتصال أجره ﷺ

## المبحث السادس

## اتِّصالُ أَجْرِه ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي لاتصال الأجر:

الاتِّصالُ ضد الانقطاع.

قال ابن منظور: «وَصَلَ: وَصَلْتُ الشيءَ وَصْلاً وصِلَةً، والوَصْلُ ضد الهُجْرانِ، قال ابن سيده: الوَصلُ خلاف الفَصْلِ... واتَّصلَ الشيءُ بالشيءِ: لَمْ ينقَطِع»[1].

**❖ الآية التي وصف فيها ﷺ باتصال أجره:**

**قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ (القلم: ٣).**

### ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآية:

**أ/ في معنى قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾:**

اختلف فيه على أقوال:

١ – غير ممنون أي غير مقطوع[2]، وذكر ابن عطية أن عليه أكثر

(١) «لسان العرب»: (١١/٧٢٦).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٢٩/١٨)، «تفسير ابن زمنين»: (٥/١٩)، «النكت والعيون»: (٦/٦١)، «معالم التنزيل»: (٤/٣٧٥)، «الكشاف»: (٤/٥٩٠)، «المحرر الوجيز»: (٥/٣٤٦)، «التفسير الكبير»: (٣٠/٧٠)، «لباب التأويل»: (٧/١٣٠)، «البحر المحيط»: =



المفسرين[1]، قال الطبري: «وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾: يقول تعالى ذكره: وإن لك يا محمد لثواباً من الله عظيما على صبرك على أذى المشركين إياك، غير منقوص ولا مقطوع، من قولهم حبل منين: إذا كان ضعيفا، وقد ضعفت منته: إذا ضعفت قوته»[2].

٢ – غير ممنون: أي غير محسوب، قاله مجاهد[3]، ومقاتل[4].

٣ – غير ممنون، أي: غير مقدر، لأن الجزاء مقدر والفضل غير مقدر[5]، قال القرطبي: «وهو معنى قول مجاهد»[6].

٤ – غير ممنون، أي: غير مكدر بالمن عليك به، قاله الحسن[7].

---

=(٣٠٣/٨)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤)، «تفسير أبي السعود»: (١٢/٩)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(١) «المحرر الوجيز»: (٣٤٦/٥).

(٢) «جامع البيان»: (١٨/٢٩).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (١٨/٢٩)، «بحر العلوم»: (٤٥٨/٣)، «النكت والعيون»: (٦١/٦)، «المحرر الوجيز»: (٣٤٦/٥)، «التفسير الكبير»: (٧١/٣٠)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٦/١٨)، «البحر المحيط»: (٣٠٣/٨)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤)، «نظم الدرر»: (٢٤٢/٨)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(٤) «التفسير الكبير»: (٧١/٣٠).

(٥) انظر: «النكت والعيون»: (٦١/٦)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٦/١٨)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(٦) «تفسير القرطبي»: (٢٢٦/١٨).

(٧) انظر: «بحر العلوم»: (٤٥٩/٣)، «تفسير ابن زمنين»: (١٩/٥)، «النكت والعيون»: (٦١/٦)، «الكشاف»: (٥٩٠/٤)، «المحرر الوجيز»: (٣٤٦/٥)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٦/١٨)، =

٥ – غير ممنون، أي: إن لك أجراً بغير عمل، قاله الضحاك[١].

٦ – غير ممنون، أي: غير ممنون عليك به من الناس[٢].

❖ وعند تأمل هذه الأقوال لا نجد بينها تضاداً، ذلك أن أجره ﷺ متصل غير منقطع، كما في قول الجمهور، وكثير غير معدود ولا محسوب بل مقدر بتفضل الله تعالى عليه كما في القولين الثاني والثالث، ولا يكدره أي مَنٍّ كان كما في القولين الرابع والخامس، وأجره الكثير اللامنقطع ﷺ يفوق عمله فبعضه أجر بغير عمل، كما في القول الأخير.

قال صاحبُ الكشاف: «والمعنى؛ استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسداً، وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة، بمنزل ﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ على احتمال ذلك وإساغة الغصة فيه والصبر عليه ﴿ لَأَجْرًا ﴾ لثواباً ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾».

**ب/ اختلف على أي شيء حصل هذا الأجر على قولين:**

١ – فقيل على احتماله ﷺ وصبره على افترائهم وطعنهم والقول القبيح[٣].

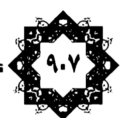
---

=«تفسير البيضاوي»: (٣٦٩/٥)، «البحر المحيط»: (٣٠٣/٨).

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٦١/٦)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٦/١٨)، «البحر المحيط»: (٣٠٣/٨)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(٢) انظر: «تفسير أبي السعود»: (١٢/٩)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(٣) انظر: «جامع البيان»: (١٨/٢٩)، «معالم التنزيل»: (٣٧٥/٤)، «التفسير الكبير»: =



٢ – وقيل على احتماله النبوة وإظهار المعجزات وبيان الشرع[١].

❖ ويبدو أن الاختلاف هنا هو اختلاف تنوع لا تضاد، ذلك أن الأول من لوازم الثاني، فلما احتمل ﷺ النبوة وواجباتها لابد وأنه قد صبر على معوقاتها ﷺ، فغاية الأمر أن بينهما عموم وخصوص والله تعالى أعلم.

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن اتصال أجره ﷺ:

- **في الآية مؤكدات** قال ابن عاشور: «ولما ثَبَّت الله رسوله فدفع بهتان أعدائه أعقبه بإكرامه بأجر عظيم على ما لَقيه من المشركين من أذى بقوله: ﴿ **وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ** ﴾ بقرينة وقوعه عقب قوله: ﴿ **مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** ﴾، مؤكداً ذلك: بحرف (إنَّ)، وبلام الابتداء، وبتقديم المجرور، وهو في قوله: (لك)، وهذا الأجر هو ثواب الله في الآخرة وعناية الله به ونصره في الدنيا»[٢].

- **تنكير الأجر في الآية أفاد عظم هذا الأجر**، قال السعدي: «ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿ **وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ** ﴾، أي: لأجرا عظيما، كما يفيده التنكير، غير مقطوع، بل هو دائم مستمر. وذلك لما أسلفه النبي ﷺ

---

=(٧١/٣٠)، «لباب التأويل»: (١٣٠/٧)، «تفسير أبي السعود»: (١٢/٩).

(١) انظر: «التفسير الكبير»: (٧١/٣٠)، «تفسير القرطبي»: (٢٢٦/١٨)، «تفسير البيضاوي»: (٣٦٩/٥)، «البحر المحيط»: (٣٠٣/٨)، «تفسير ابن كثير»: (٤٠٣/٤)، «فتح القدير»: (٢٦٧/٥).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٦٢/٢٩).

من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، والهداية إلى كل خير»(١).

**رابعاً: فوائد حول اتصال أجره ﷺ:**

وقد ذكر الشنقيطي رحمه الله بعض شواهد ودلائل اتصال أجر النبي ﷺ بغير انقطاع فقال: «وقد بين تعالى دوام أجره دون انقطاع:

- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وصلوات الله تعالى عليه وصلوات الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً وهي من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة والمؤمنين دعاء.

- وفي سورتي: الضحى وألم نشرح، بكاملها ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ (الضحى: ٣ ـ ٥).

- وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

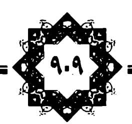
- ومعلوم من السنة أن من دل على خير فله مثل من عمل به، فما من مسلم تكتب له حسنة في صحيفته إلا وللرسول ﷺ مثلها.

- وقد قال ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث»(٢)، ومنها: «أو علم ينتفع به»، وأي علم أعم نفعاً مما جاء به ﷺ وتركه في الأمة حتى قال:

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن»: (٨٧٩).

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص (٤٢٥).



«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي»[1] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على دوام أجره.

أما جزاؤه عند الله فلا يقدر قدره إلا الله تعالى»[2].



(١) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرج البيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إني قد خلفت فيكم ما لن تضلوا بعدها ما أخذتم بهما أو عملتم بهما: كتاب الله وسنتي: ولن يغتر قاضي يردا عليَّ الحوضَ»: (١٠/١١٤/ح٢٠٨٣٤).

(٢) «أضواء البيان»: (٢٤٧/٨).

# المبحث السابع

## أن الله وضع عنه وزره

## المبحث السابع

## أَنَّ الله وَضع عنه وِزْرَهُ ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي لوضع الوزر:

**١ - الوَضْعُ:**

قال ابن فارس: «(وَضَعَ): الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخَفْضِ للشيءِ وحَطِّهِ»[1].

وفي المعجم الوسيط: «و(وَضَعَ) عنه الأمر: أسقطه، يقال: وضع عنه الدين والجزية والجناية والحرب، ونحو ذلك»[2].

**٢ - الوزر:**

وقال ابن منظور: «والآثام تسمى أوزاراً؛ لأنها أحمال تثقله، واحدها وزر، وقال الأخفش: لا تأثم آثمة بإثم أخرى»[3].

**❖ الآية التي وصف فيها ﷺ بوضع الوزر عنه:**

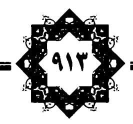
**قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾** (الشرح: ٢).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١١٧/٦).

(٢) «المعجم الوسيط»: (١٠٣٩/٢).

(٣) «لسان العرب»: (٢٨٣/٥).



**ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآية في هذه الصفة للنبي ﷺ:**

ذكر المفسرون في معنى الآية أقوال كثيرة على النحو التالي:

١ – قيل المعنى: وغفرنا لك ذنبك[١]:

قاله مجاهد[٢]، وقتادة[٣].

قال قتادة: «كان له ﷺ ذنوب أثقلته فغفرها الله تعالى له».

٢ – وقيل: أي وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية:

قاله: مجاهد[٤]، والحسن[٥]، وقتادة[٦]، والضحاك[٧]، والسدي[٨]، وابن زيد[٩].

٣ – وقيل: أي حفظناك قبل النبوة من الأدناس حتى نزل عليك الوحي

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٢٣٤/٣٠)، «بحر العلوم»: (٥٦٩/٣)، «النكت والعيون»: (٢٧٠/٦)، «لباب التأويل»: (٢٦٢/٧)، «تفسير ابن كثير»: (٥٢٥/٤).

(٢) «النكت والعيون»: (٢٧٠/٦).

(٣) «جامع البيان»: (٢٣٤/٣٠)، وانظر: «النكت والعيون»: (٢٧٠/٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٠/ ٣٤٤٥)، «معالم التنزيل»: (٥٠١/٤).

(٥) انظر: «معالم التنزيل»: (٥٠١/٤)، «تفسير القرطبي»: (١٠٥/٢٠).

(٦) انظر: «جامع البيان»: (٢٣٥/٣٠)، «معالم التنزيل»: (٥٠١/٤)، «تفسير القرطبي»: (١٠٥/٢٠).

(٧) انظر: «المصادر الثلاثة السابقة».

(٨) انظر: «النكت والعيون»: (٢٧٠/٢٦)، «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠).

(٩) انظر: «جامع البيان»: (٢٣٥/٣٠).

وأنت مطهر من الأدناس[1].

٤ – أي: أسقطنا عنك تكليف ما لم تطقه[2].

٥ – وقيل أي: عصمناك من الذنوب[3].

٦ – وقيل أي: الخطأ والسهو[4].

٧ – وقيل أي: ذنوب أمته ﷺ[5].

٨ – وقيل أي: أخرجنا من قلبك الأخلاق السيئة وطبائع السوء[6].

٩ – وقيل أي: كناية عن العصمة والتطهير مبالغة في انتفاء الوزر عنه ﷺ[7].

١٠ – وقيل أي: خففنا عنك ما أثقل ظهرك من أثقال النبوة والرسالة حتى تبلغها[8].

---

(١) انظر: «النكت والعيون»: (٢٧٠/٦)، «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠)، «نظم الدرر»: (٤٦٢/٨)، «اللباب في علوم الكتاب»: (٤٠٠/٢٠).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٢٧٠/٦)، «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠).

(٣) انظر: «بحر العلوم»: (٥٦٩/٣)، «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠)، «اللباب في علوم الكتاب»: (٤٠٠/٢٠).

(٤) انظر: «معالم التنزيل»: (٥٠٢/٤)، «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠).

(٥) انظر: «معالم التنزيل»: (٥٠٢/٤)، «لباب التأويل»: (٢٦٢/٧).

(٦) انظر: «بحر العلوم»: (٥٦٩/٣).

(٧) انظر: «البحر المحيط»: (٤٨٤/٨).

(٨) انظر: «لباب التأويل»: (٢٦٢/٧)، «تفسير البيضاوي»: (٥٠٤/٥)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٢٠٦/٤).



❖ **وعند تأمل هذه الأقوال يظهر والله تعالى أعلم أن الاختلاف الوارد هو اختلاف تنوع لا تضاد، فكلها تصدق على النبي ﷺ، وإن كان الجمهور على الأول منها والله تعالى أعلم.**

- **وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾:**

- **هذا وصف** للوزر الذي حطه الله عنه، فهو تمثيل لبيان شدة ثقل الحمل الذي تحمله رسول الله ﷺ، حتى كأنه رحل جديد لُزَّ بحِمْلٍ ثقيل، فسمع له نقيض.

- **والمعنى العام لآية:** قوله تعالى: «﴿ وَوَضَعْنَا ﴾ أي حططنا وأسقطنا وأبطلنا حطاً لا رجعة له ولا فيه بوجه بما لنا من العظمة، مجاوزاً ﴿ عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ أي حملك الثقيل الذي لا يستطاع حمله، ولذلك وصفه بقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي جعله وهو عماد بدنك تصوت مفاصله من الثقل كما يصوت الرحل الجديد إذا لز بالحمل الثقيل»[1].

«ومثل به حاله ﷺ مما كان يثقل عليه ويغمه من فرطاته قبل النبوة، أو من عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع، أو من تهالكه على إسلام المعاندين من قومه وتلهفه ووضعه عند مغفرته، وتعليم الشرائع وتمهيد عذره بعد أن بلغ وبالغ»[2].

---

(١) «نظم الدرر»: (٤٦١/٨).

(٢) «تفسير أبي السعود»: (١٧٢/٩-١٧٣).



**ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن وضع الوزر عنه ﷺ:**

❖ **حُمِل اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ على المعنى في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾**، قال الرازي: «قال المبرد: هذا محمول على معنى ألم نشرح لا على لفظه، لأنك لا تقول ألم وضعنا ولكن معنى ألم نشرح قد شرحنا، فحمل الثاني على معنى الأول لا على ظاهر اللفظ، لأنه لو كان معطوفاً على ظاهره لوجب أن يقال: ونضع عنك وزرك»[(١)].

❖ **في تقديم الجار والمجرور: (عنك) على المفعول ـ مع أن حقه التأخير، لتعجيل المسرة، والتشويق إلى المؤخر[(٢)].**

❖ **في الآية إشارة إلى كشف غمة كانت تحيط بالنبي ﷺ**: قال ابن عاشور: «والكلام تمثيل لحال إزالة الشدائد والكروب بحال من يحط ثقلاً عن حامله ليريحه من عناء الثقل... والآية تشير إلى أحوال كان النبي ﷺ في حرج منها أو من شأنه أن يكون في حرج، وأن الله كشف عنه ما به من حرج منها أو هيّأ نفسه لعدم النوء بها»[(٣)].

❖ **الاستفهام الوارد في الآية هو استفهام تقريري[(٤)].**

---

(١) «التفسير الكبير»: (٥/٣٢)، وانظر: «تفسير أبي السعود»: (١٧٢/٩)، «فتح القدير»: (٤٦١/٥).

(٢) انظر: «تفسير أبي السعود»: (١٧٢/٩).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٤١٠/٣٠ ـ ٤١١).

(٤) «المصدر السابق»: (٤١١/٣٠).

❖ **أبرز الضمير في تعداد النعم هذه الآيات ولم يضمر كما في تعداد النعم:** فآوى، فهدى، فأغنى بل أسند كله إلى ضمير المنعم، ولم يبرز ضمير الخطاب، «قال المفسرون: لمراعاة رؤوس الآي والفواصل، ولكن الذي يظهر والله تعالى أعلم: أنه لما كان فيه امتنان، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لئلا يثقل عليه المنة، بينما أبرزه في: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ** ﴾، ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾، لأنها نعم معنوية، انفرد بها ﷺ»[1].

## رابعاً: فوائد حول وضع الوزر عنه ﷺ:

❖ **مسألة: وضع الله الوزر عن نبيه ﷺ بأمرين:**

قال ابن عاشور: «وأما وضع الوزر عنه فحاصل بأمرين:

١ – بهدايته إلى الحق التي أزالت حيرته بالتفكر في حال قومه، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ** ﴾ (الضحى: ٧).

٢ – وبكفايته مؤنة كُلف عيشه التي قد تشغله عما هو فيه من الأنس بالفكرة في صلاح نفسه، وهو ما أشار إليه قوله: ﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾ (الضحى: ٨)»[2].



---

(١) «أضواء البيان»: (٨/٥٦٣).

(٢) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤١٢).

# الفصل التاسع

## الصفات المتعلقة بفضل الله تعالى عليه ﷺ

وفيه سبعة مباحث:

- المبحث الأول: إنزال السكينة عليه ﷺ.
- المبحث الثاني: تأييد الله له ﷺ.
- المبحث الثالث: تثبيته ﷺ.
- المبحث الرابع: عموم تفضل الله تعالى عليه ﷺ.
- المبحث الخامس: رفع ذكره ﷺ.
- المبحث السادس: شرح صدره ﷺ.
- المبحث السابع: نصره ﷺ.

# الفصل التاسع

## الصفاتُ المتعلقةُ بِفضلِ اللهِ تعالى عليه ﷺ

**توطئة:**

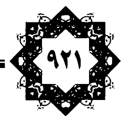
إن فضل الله تبارك وتعالى على عباده كبير، مؤمنهم وكافرهم، ثم هو على أهل الطاعة والإيمان أعظم وأكبر..

فإذا كان فضل الله تعالى على أهل الإيمان من عباده كبير، ونعمه عليهم لا تعد ولا تحصى..

فكيف بإفضاله وإسباغ إنعامه على صفيه وخليله محمد ﷺ؟

وقد ذُكرت في القرآن الكريم كوكبة من هذه الفضائل على نبينا محمد ﷺ، وهي محور الحديث في هذا الفصل..





# المبحث الأول

# إنزال السكينة عليه ﷺ

## المبحث الأول

## إنزال السكينة عليه ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي للسكينة:

قال ابن فارس: «(سَكَنَ): السين والكاف والنون: أصل واحد مطرد يدل على خلاف الاضطراب والحركة، يقال: سَكَنَ الشيءُ يَسْكُنُ سُكُوناً فهو ساكِن... ومن الباب: السكينة وهو الوقار»[1].

وقال ابن منظور: «وكل ما هدأ فقد سكن»[2].

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بإنزال السكينة عليه ﷺ:**

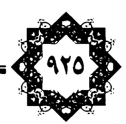
- قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (التوبة: ٢٦).

- قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (التوبة: ٤٠).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣/٨٨).

(٢) «لسان العرب»: (١٣/٢١١).



- قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٦).

## ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:

- من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٦).

❖ في معناها:

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ثم من بعد ما ضاقت عليكم الأرض بما رحبت، وتوليتكم الأعداء أدباركم، كشف الله نازل البلاء عنكم، بإنزاله السكينة، وهي الأَمَنَةُ والطمأنينة عليكم، وقد بينا أنها فعيلة من السكون فيما مضى من كتابنا هذا قبل بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع»[1].

ويقصد رحمه الله بذلك في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾...الآية (البقرة:٢٤٨)، فقال: «السكينة في كلام العرب: الفعيلة، من قول القائل: سَكَنَ فلان إلى كذا وكذا، إذا اطمأن إليه وهدأت عنده نفسه، فهو يسكن سكونا وسكينة، مثل قولك: عزم فلان هذا

---

(١) «جامع البيان»: (١٠/١٠٤).



الأمر عزما وعزيمة، وقضى الحاكم بين القوم قضاء وقضية»[1].

وفي قصة هذه الآية أخرج الطبري في جامع البيان عن السدي مرسلاً قال: «إن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين قال يا رسول الله لن نغلب اليوم من قلة وأعجبته كثرة الناس وكانوا اثني عشر ألفا، فسار رسول الله ﷺ فوكلوا إلى كلمة الرجل فانهزموا عن رسول الله ﷺ... فنادى رسول الله ﷺ أين الأنصار؟ أين الذين بايعوا تحت الشجرة؟ فتراجع الناس فأنزل الله الملائكة بالنصر فهزموا المشركين يومئذ وذلك قوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾»[2].

**❖ وقد اختلف المفسرون في المراد بالسكينة في الآية على الأقوال التالية:**

١ – الوقار والثبات، قاله الحسن[3].

٢ – الرحمة[4].

٣ – الأمن والطمأنينة[5].

---

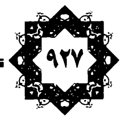
(١) «جامع البيان»: (٦١٣/٢).

(٢) «المصدر السابق»: (١٠٣/١٠).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٣٤٩/٢)، «البحر المحيط»: (٢٦/٥).

(٤) انظر: «النكت والعيون»: (٣٤٩/٢)، «الكشاف»: (٢٤٧/٢)، «نظم الدرر»: (٢٤٩/٣)، «تفسير أبي السعود»: (٥٦/٤).

(٥) انظر: «جامع البيان»: (١٠٤/١٠)، «النكت والعيون»: (٣٤٩/٢)، «لباب التأويل»: (٧٦/٣)، «تفسير ابن كثير»: (٣٤٦/٣).



٤ – النصر[١].

٥ – أن أنزل عليهم ما يسكنهم فيذهب خوفهم، حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين، بعد أن ولوا مدبرين[٢].

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه، نجد أنها متقاربة وكلها يحصل بها سكون نفوسهم، والاجتراء على القتال بعد تولية الأدبار، فكأن القول الخامس والأخير يضم الأقوال جميعها، ويؤيده كلام السعدي رحمه الله، حيث قال: «﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: والسكينة ما يجعله الله في القلوب، وقت القلاقل والزلازل، والمفظعات، ما يثبتها، ويسكنها، ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد»[٣].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾** (الفتح: ٢٦).

- **في قصة الآية:**

**قال الطبري:** «وقوله: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، يقول تعالى ذكره: فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٥/٢٦).

(٢) «فتح القدير»: (٢/٣٤٨).

(٣) «تفسير السعدي»: (٣٣٣).



إذ حمى الذين كفروا حمية الجاهلية ومنعوهم من الطواف بالبيت وأبوا أن يكتبوا في الكتاب بينه وبينهم بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله[(1)]»[(2)].

❖ **وقد اختلف هنا أيضاً على المراد بالسكينة على نحو الاختلاف في آية سورة التوبة، على النحو التالي:**

١ – هي الرحمة، أنزلها عليهم ليتراحموا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[(3)].

٢ – هي إشارة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وهو التوحيد، روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[(4)].

٣ – هي الصبر والطمأنينة والوقار والعظمة لله ورسوله ﷺ فلم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية[(5)].

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه نجد أن القولين الأول والثاني فيهما بعد عن مناسبة الآية، أما القول الأخير هو قول الجمهور، وهو الذي يتمشى مع قصة الآية، كما أنه من جنس معنى السكينة في الآية التي درست قبل قليل والله تعالى أعلم.

---

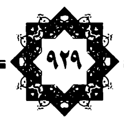
(١) رواه البخاري مطولا، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحري وكتابة الشروط، (٢/٩٧٤/ح ٢٥٨١).

(٢) «جامع البيان»: (٢٦/١٠٤).

(٣) «البحر المحيط»: (٨/٩١)، وانظر: «تفسير أبي السعود»: (٤/٥٦).

(٤) «المصدرين السابقين».

(٥) انظر: «جامع البيان»: (٢٦/١٠٤)، «النكت والعيون»: (٥/٣٢١)، «البحر المحيط»: (٨/٩١)، «فتح القدير»: (٥/٤٥).



❖ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

❖ اختلف هنا أيضاً في المراد بالسكينة على أقوال:

١ – هي الرحمة، ذكره ابن عباس رضي الله عنهما[١].

٢ – هي شيء يسكن الله به قلوبهم، ذكره الحسن وعطاء[٢].

٣ – هي الوقار، ذكره قتادة[٣].

٤ – هي الطمأنينة والسكون، ذكره الضحاك[٤].

٥ – هي تأييده تعالى ونصره[٥].

٦ – هي ما ينزله الله على أنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلا لهم»[٦].

٧ – أنها حسب عود الضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ﴾، فتكون «السكينة

---

(١) «النكت والعيون»: (٢/٣٦٤)، «البحر المحيط»: (٥/٤٥).

(٢) «النكت والعيون»: (٢/٣٦٤).

(٣) «البحر المحيط»: (٥/٤٥).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم»: (٦/١٨٠١)، «النكت والعيون»: (٢/٣٦٤).

(٥) «تفسير ابن كثير»: (٢/٣٥٩).

(٦) «المحرر الوجيز»: (٣/٣٦).



تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الأمن، على أن الضمير في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لأبي بكر وقيل هو للنبي ﷺ، ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه: عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له»[1].

❖ وعند تأمل الأقوال أعلاه نجد أنها متكاملة متقاربة يكمل بعضها بعضاً؛ إذ لا تعارض بينها، وإن بعد عنها القول الخامس، وهو قول ابن كثير رحمه الله من أنها: التأييد والنصر، ولكنه قد يلحق بها بوجه من الوجوه؛ ذلك أن بالطمأنينة والسكون يشعر بالتأييد، ومن ثم يحصل النصر، وأما عن القول السادس، فيؤازر بقية الأقوال إن قيل بعود الضمير على النبي ﷺ.

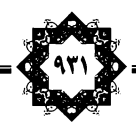
ومن الجدير بالذكر، أنه يلاحظ من الآيات الثلاث السابقات والتي ذكر فيها إنزال السكينة على النبي ﷺ، أنه لا تضاد بين المفسرين في معنى السكينة والمراد بها، إنما غاية الأمر تنوع العبارة، والحمد لله، والله تعالى أعلم.

❖ **مسألة: في قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾، على من يعود الضمير في الآية؟ أي: على من نزلت السكينة في هذا الموقف؟ على النبي ﷺ أم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟**

اختلف أهل التفسير في هذه المسألة، كما اختلفوا في تعليل ما ذهبوا إليه على النحو التالي:

---

(١) «فتح القدير»: (٢/٣٦٢).



**أ/ أن الضمير يعود على النبي ﷺ، فتكون السكينة نزلت عليه ﷺ[(١)].**

التعليل:

١ – قيل: «لأن من قال بأنها نزلت على أبي بكر رضي الله عنه، فهذا قول من لم ير السكينة إلا سكون النفس والجأش»[(٢)]، فكأن صاحب هذا القول يشير إلى أن معنى السكينة أوسع من ذلك مما يختص بالنبي ﷺ، من الطمأنينة إذ قد تترتب على الإعلام بالنصر وحياً من الله تعالى لنبيه ﷺ.

٢ – لأن الضمائر بعده تعود كلها إلى النبي ﷺ[(٣)].

قال الشوكاني: «ويؤيد كون الضمير في: ﴿ عَلَيْهِ ﴾ للنبي ﷺ الضمير في ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ فإنه للنبي ﷺ لأنه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة كما كان في يوم بدر وقيل إنه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿ عَلَيْهِ ﴾ إلى أبي بكر ومن: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ ﴾ إلى النبي ﷺ فإن ذلك كثير في القرآن وفي كلام العرب»[(٤)].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (١٣٧/١٠)، «النكت والعيون»: (٣٦٤/٢)، «بحر العلوم»: (٦٠/٢) وقد عزاه السمرقندي إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ولم أعلم أحداً وافقه في ذلك، «لباب التأويل»: (١٠٠/٣)، «المحرر الوجيز»: (٣٦/٣) ويقوي ابن عطية هذا القول، وذكر أنه قول الجمهور، «تفسير القرطبي»: (١٤٨/٨)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٧٦/٢) وكذلك قواه ابن جزيء، «البحر المحيط»: (٤٥/٥) وذكر أبو حيان أنه قول الجمهور.

(٢) «المحرر الوجيز»: (٦٣/٣) نقلا عن أبي محمد القاضي، وهو شيخه: القرطبي.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٧٦/٢).

(٤) «فتح القدير»: (٣٦٢/٢).

**ب/ أن الضمير يعود على أبي بكر الصديق ﷺ، فتكون السكينة نزلت عليه[1].**

وهذا القول مذكور عن ابن عباس ﷺ[2].

التعليل:

١ - إن السكينة نزلت على أبي بكر ﷺ؛ لأن النبي ﷺ لم تزل سكينته عليه، ولم يزل ساكن النفس ثقة بالله ﷻ، وهذا التعليل مذكور عن ابن عباس ﷺ[3]، فالخوف كان من أبي بكر ﷺ، لا من النبي ﷺ.

٢ - لأن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ بالنصر[4].

٣ - لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور وهو أبو بكر ﷺ[5].

**ج/ أن الضمير يعود على النبي ﷺ، أي النبي ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ، وأريد به كليهما ولكن أفرده لتلازمهما[6].**

---

(١) «جامع البيان»: (١٠/١٣٧)، «بحر العلوم»: (٢/٦٠)، «تفسير القرطبي»: (٨/١٤٨) ويعزوه القرطبي لابن العربي مقوياً إياه، «اللباب في علوم الكتاب»: (١٠/٩٦).

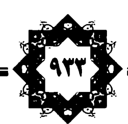
(٢) انظر: «معالم التنزيل»: (٢/٢٩٦)، «نظم الدرر»: (٣/٣٢١)، «الدر المنثور»: (٤/٢٠٧).

(٣) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم»: (٦/١٨٠١)، «معالم التنزيل»: (٢/٢٩٦)، «لباب التأويل»: (٣/١٠٠)، «نظم الدرر»: (٣/٣٢١)، «الدر المنثور»: (٤/٢٠٧).

(٤) «النكت والعيون»: (٢/٣٦٤).

(٥) «التفسير الكبير»: (١٦/٥٣).

(٦) انظر: «البحر المحيط»: (٥/٤٥).



التعليل :

قال أبو حيان : «ويؤيده أنّ في مصحف حفصة : فأنزل الله سكينته عليهما وأيدهما»(١).

❖ عند تأمل الأقوال أعلاه فإن الذي ترتاح إليه النفس أن الضمير عائد على النبي ﷺ، كباقي الضمائر في الآية وهذا من ناحية اللفظ، أما المعنى فإن هذا لا يمنع دخول أبي بكر رضي الله عنه في نزول السكينة عليه، فكيف لا يسكن وقد طمأنه رسول الله أولاً، وقد رأى سكون النبي ثانياً، فمن البدهي أن سيطمئن ويسكن هو أيضاً رضي الله عنه، وكما قال ابن كثير رحمه الله : «وروي عن ابن عباس وغيره قالوا : لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال»(٢).

## ثالثاً : الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ :

**❖ فائدة إضافة السكينة إلى ضمير لفظ الجلالة، في قوله تعالى : ﴿ سَكِينَتَهُۥ ﴾ :**

قال الرازي : «وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار، فقال : ﴿ سَكِينَتَهُۥ ﴾ اكتفاه بحسن الإضافة»(٣).

---

(١) «البحر المحيط» : (٥/٤٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» : (٢/٣٥٩).

(٣) «التفسير الكبير» : (٢٨/٨٨).

وقال الشنقيطي: «وتعليقها بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره: تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنّها سكينة خارقة للعادة ليست لها أسباب ومقدّمات ظاهرة، وإنّما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه أُنُفاً كرامةً لنبيئه وإجابة لندائِه الناسَ»(١).

❖ **في إيراد الفعل: (أنزل) بالفاء فائدتان:**

١ – أن ذلك كالمقابلة، قال الرازي: «قوله: ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت أكرمني وأكرمته لا ينبئ عن ذلك»(٢).

٢ – أن ذلك يدل على ترتيب فعل إنزال السكينة على شيء ما، يقول الرازي: «قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ بالفاء يدل تعلق الإنزال بالفاء على ترتيبه على شيء، نقول فيه وجهان:

أحدهما: ما ذكرنا من أن إذ ظرف كأنه قال أحسن الله ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (الفتح:٢٦)، وقوله: ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ تفسير لذلك الإحسان كما يقال أكرمني فأعطاني لتفسير الإكرام.

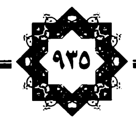
وثانيهما: أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم على معنى المقابلة، تقول أكرمني فأثنيت عليه»(٣).

---

(١) «أضواء البيان»: (٣٩٧/٧).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) «التفسير الكبير»: (٨٨/٢٨).



**❖ لفظ السكينة فيه كناية عن الأمن:**

«وذلك أن الإنسان إذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركاً وإذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الأمن موجباً للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الأمن»(١).

**❖ فائدة العطف بـ (ثم):**

وذلك «إشارة إلى علو رتبة ذلك الثبات واستبعاد أن يقع مثله في مجاري العادات»(٢).

**❖ فائدة العطف في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مع توسيط حرف الجر:**

وذلك «للدلالة على ما بينهما من التفاوت أي المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبي ﷺ أو على الكل وهو الأنسب ولا ضير في تحقق أصل السكينة في الثابتين من قبل والتعرض لوصف الإيمان للإشعار بعلية الإنزال»(٣).

وقال ابن عاشور: «وإعادة حرف (على) بعد حرف العطف: تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة

---

(١) «لباب التأويل»: (٣/٧٦).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) «تفسير أبي السعود»: (٤/٥٦).

الرسول عليه الصلاة والسلام سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة بعد الجزع والخوف»[1].

❖ **فائدة تفريع قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾:**

«يؤذن بأن المؤمنين ودُّوا أن يقاتلوا المشركين وأن يدخُلوا مكة للعمرة عنوة غضباً من صدّهم عنها ولكن الله أنزل عليهم السكينة»[2].

## رابعاً: فوائد حول هذه الصفة للنبي ﷺ:

- **ذكر الله تعالى إنزال السكينة على رسوله في غير ما موضع من القرآن الكريم**، قال الشنقيطي في الأضواء: «وقد ذكر جل وعلا إنزاله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في براءة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ٢٦)، وذكر إنزال سكينته على رسوله في قوله في براءة: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ (التوبة: ٤٠).

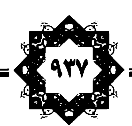
وذكر إنزاله سكينته على المؤمنين في قوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفتح: ١٨).

وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة، وقد بين في هذه

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٠/١٥٨).

(٢) «المصدر السابق»: (٢٦/١٩٤).



السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب»[1].

- **دلت آية سورة التوبة على إحدى مناقب أبي بكر الصديق ﷺ.**

- **كما دلت آية سورة التوبة على أن** «هذا الموقف آية من آيات الله، اثنان أعزلان يتحديان قريشاً بكاملها، بعددها وعددها، فيخرجان تحت ظلال السيوف، ويدخلان الغار في سدفة الليل، ويأتي الطلب على فم الغار بقلوب حانقة، وسيوف مصلتة، وآذان مرهفة حتى يقول الصديق ﷺ: والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت نعليه لأبصرنا، فيقول ﷺ وهو في غاية الطمأنينة، ومنتهى السكينة (ما بالك باثنين الله ثالثهما)؟»[2].



---

(١) «أضواء البيان»: (٣٩٧/٧).

(٢) «المصدر السابق»: (١٩/٨).

# المبحث الثاني

# تأييد الله له ﷺ

## المبحث الثاني

## تأييدُ الله له ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي للتأييد:

قال ابن فارس: «(أَيَدَ): الهمزة والياء والدال: أصل واحد، يدل على القوة والحفظ، يقال: (أَيَّده الله)، أي قَوَّاه الله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ (الذاريات: ٤٧)، فهذا معنى القوة، وأما الحفظ: فالإياد كل حاجز الشيء يحفظه»[١].

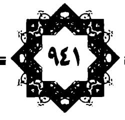
❖ الآيات التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفة:

- قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٢).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (١٦٣/١).



**ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:**

❖ **من قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾** (التوبة: ٤٠)**:**

أجمع المفسرون [١] على أن المراد بالجنود في الآية: الملائكة.

- **ثم ذكروا أوجهاً لتأييده ﷺ بالملائكة على النحو التالي:**

١ – أنهم نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته، ويلقون البشارة في قلبه ﷺ[٢].

٢ – أنهم نزلوا فألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا[٣].

٣ – أنهم نزلوا ليحرسوه في الغار ﷺ[٤].

❖ **ولا ينافي هذه الوجوه أحدها الآخر.**

- **متى كان هذا التأييد؟**

١ – قيل: يوم بدر والأحزاب وحنين[٥].

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٣٧/١٠)، «تفسير ابن زمنين»: (٢٠٧/٢)، «النكت والعيون»: (٣٦٥/٢)، «معالم التنزيل»: (٢٩٦/٢)، «تفسير البيضاوي»: (١٤٦/٣)، «لباب التأويل»: (١٠٠/٣)، «البحر المحيط»: (٤٦/٥)، «تفسير ابن كثير»: (٣٩٥/٢)، «تفسير السعدي»: (١٣٨).

(٢) انظر: «معالم التنزيل»: (٢٩٦/٢)، «لباب التأويل»: (١٠٠/٣)، «البحر المحيط»: (٤٦/٥).

(٣) انظر: «معالم التنزيل»: (٢٩٦/٢)، «لباب التأويل»: (١٠٠/٣).

(٤) «تفسير البيضاوي»: (١٤٦/٣).

(٥) انظر: «بحر العلوم»: (٦١/٢)، «تفسير البيضاوي»: (١٤٦/٣)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٧٦/٢)، «البحر المحيط»: (٤٥/٥ ـ ٤٦).

٢ – وقيل: في ذلك الوقت في الغار[١].

**❖ ولا يتنافى أحد هذه الأزمنة مع الآخر.**

**❖ من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٢):**

**أ/ معنى: (أيدك):**

قال الطبري: : «﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ ﴾: يقول: الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه»[٢].

وقال أبو حيان: «ثم ذكره بما فعل معه أولاً، من تأييده بالنّصر وبائتلاف المؤمنين على إعانته ونصره على أعدائه، فكما لطف بك أوّلاً يلطف بك آخراً، والمؤمنون هنا: الأوس والخزرج، وكان بين الطائفتين من العداوة للحروب التي جرت بينهم ما كان، لولا الإسلام لا ينقضي أبداً، ولكنه تعالى منّ عليهم بالإسلام، فأبدلهم بالعداوة محبة، وبالتباعد قرباً»[٣].

**ب/ المراد بالمؤمنين:**

١ – قيل: هم الأنصار، وهذا مروي عن ابن عباس[٤] والنعمان بن بشير[٥]

---

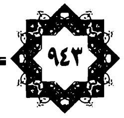
(١) انظر: «معالم التنزيل»: (٢/٢٩٦)، «تفسير البيضاوي»: (٣/١٤٦)، «لباب التأويل»: (٣/١٠٠)، «البحر المحيط»: (٥/٤٥)، «تفسير أبي السعود»: (٤/٦٦)، «تفسير السعدي»: (٣٣٨).

(٢) «جامع البيان»: (١٠/٣٥).

(٣) «البحر المحيط»: (٤/٥١٠).

(٤) انظر: «التفسير الكبير»: (١٥/١٥١)، «الدر المنثور»: (٤/٩٩).

(٥) انظر: «تفسير القرطبي»: (٨/٤٢)، «الدر المنثور»: (٤/٩٩).



رضي الله عنهم، والسدي[1] رحمه الله.

٢ – وقيل: المهاجرين والأنصار[2].

❖ **والثاني أعم، فقد حصل بهم تأييد أيضاً.**

**ج/ الحاجة إلى نصره ﷺ بالمؤمنين مع وجود نصر الله تعالى؟**

قال الرازي: «فإن قيل: لما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ فأي حاجة مع نصره إلى المؤمنين، حتى قال: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟

قلنا: التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين: أحدهما: ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة. والثاني: ما يحصل بواسطة أسباب معلومة معتادة. فالأول: هو المراد من قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾، والثاني: هو المراد من قوله: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم إنه تعالى بين أنه كيف أيده بالمؤمنين فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ (الأنفال: ٦٣)»[3].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

- **جملة قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ﴾، هي جملة معطوفة، إما على**

---

(١) انظر: «جامع البيان»: (٣٥/١٠)، «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٧٢٦/٥)، «الدر المنثور»: (٩٩/٤).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣٢٤/٢)، «تفسير أبي السعود»: (٣٣/٤).

(٣) «التفسير الكبير»: (١٥١/١٥).



**جملة قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾، وإما على جملة قوله تعالى: ﴿ أَخۡرَجَهُ ﴾:**

**قال ابن عاشور:** «يجوز أن تكون جملة ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ عطف تفسير فيكون المراد بالجنود الملائكة الذين ألقوا الحيرة في نفوس المشركين فصرفوهم عن استقصاء البحث عن النبي ﷺ وإكثار الطلب وراءهُ والترصّدِ له في الطرق المؤدّية والسبل الموصلة... ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة: ﴿ أَخۡرَجَهُ ﴾ والتقدير: وإذ أيده بجنود لم تروها أي بالملائكة، ويوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين»[(١)].

- **جملة قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ ﴾ هي جملة تعليلية لكفايته تعالى لنبيه ﷺ[(٢)].**

- **فائدة جعل التقوية والتأييد بالنصر:** قال ابن عاشور: «وجعلت التقوية بالنصر: لأنّ النصر يقوي العزيمة، ويثبت رأي المنصور، وضدّه يشوش العقل، ويوهن العزم، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض خطبه: (وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان)»[(٣)].

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٠/٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٢) انظر: «تفسير أبي السعود»: (٤/٣٣)، «التحرير والتنوير»: (١٠/٦٢).

(٣) «التحرير والتنوير»: (١٠/٦٢).

- **فائدة إضافة النصر إلى لفظ الجلالة:**

قال ابن عاشور: «وإضافة النصر إلى الله: تنبيه على أنّه نصر خارق للعادة، وهو النصر بالملائكة والخوارق، من أوّل أيّام الدعوة»(١).

- **فائدة العطف وإعادة حرف الجر في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:**

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾، وأعيد حرف الجرّ بعد واو العطف؛ لدفع توهّم أن يكون معطوفاً على اسم الجلالة، فيوهم أنّ المعنى: ونصر المؤمنين، مع أنّ المقصود: أنّ وجود المؤمنين، تأييد من الله لرسوله ﷺ، إذ وفّقهم لاتّباعه، فشرح صدره بمشاهدة نجاح دعوته، وتزايد أمته، ولكون المؤمنين جيشاً ثابتي الجنان، فجعل المؤمنون بذاتهم تأييداً»(٢).

- **فرق بين الحسب والتأييد:**

قال الشنقيطي: «وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده»(٣).

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٠/٦٣).

(٢) «المصدر السابق».

(٣) «أضواء البيان»: (٢/١٠٤).

**رابعاً: فوائد حول هذه الصفة للنبي ﷺ:**

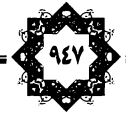
- **لطيفة في تقوية الله تعالى نبيه وتأييده له:**

في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: «أي إن الذي أرسلك مع وحدتك في مكة بين جميع الكفار وغربتك فيهم ـ وإن كانوا بني عمك ـ بسبب دعوتك إلى هذا الدين وعلوك عن أحوالهم البهيمية إلى الأخلاق الملكية، هو الذي قواك وحده بالنصر عليهم حتى لم يقدروا على أذى يردك عن الدعاء إلى الله مع نصب جميعهم لك ولمتبعيك شباك الغدر ومدهم إليكم أيدي الكيد ثم سلّكم من بين أظهرهم كما تسل الشعرة من العجين مع اجتهادهم في منعكم من ذلك، وأيدكم بالأنصار وجمع بين كلمتهم بعد شديد العداوة»[1].

- من تأييد الله تعالى لنبيه أن أيده بالمؤمنين، وبين ذلك فقال: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾.

قال الرازي: «النبي ﷺ بعث إلى قوم أنفتهم شديدة وحميتهم عظيمة حتى لو لطم رجل من قبيلة لطمة قاتل عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره، ثم إنهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أخاه وأباه وابنه، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصاراً، وعادوا أعواناً. وقيل هم الأوس والخزرج، فإن الخصومة كانت

(١) «نظم الدرر»: (٢٣٧/٣).



بينهم شديدة والمحاربة دائمة، ثم زالت الضغائن، وحصلت الألفة والمحبة، فإزالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية والمخالصة التامة مما لا يقدر عليها إلا الله تعالى، وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد ﷺ»[1].



(١) «التفسير الكبير»: (١٥/١٥١)، وانظر: «لباب التأويل»: (٣/١٠٠).

# المبحث الثالث

# تثبيته ﷺ

## المبحث الثالث

## تثبيته ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي للتثبيت:

قال ابن فارس: «(ثَبَتَ): الثاء والباء والتاء: كلمة واحدة، وهي دوام الشيء، يقال: ثبت ثباتا وثبوتا، ورجل ثَبْتٌ وثَبيتٌ»[(1)].

وقال ابن منظور: «وقال ـ الزجاج ـ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾: قال: معنى تثبيت الفؤاد تسكين القلب، ههنا ليس للشك، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر على القلب، كان القلب أسكن وأثبت أبدا، كما قال إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، ورجل ثبت: أي ثابت القلب»[(2)].

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفة:**

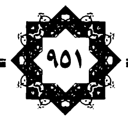
- قوله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٤).

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٣٩٩/١).

(٢) «لسان العرب»: (١٩/٢).



- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ (الفرقان: ٣٢).

## ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:

❖ من قوله تعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠).

أ/ معنى قوله تعالى: ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾:

قال البغوي: «﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل أي من أخبارهم وأخبار أممهم نقصها عليك لنثبت به فؤادك لنزيدك يقينا ونقوي قلبك وذلك أن النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر لأذى قومه»[1].

وقال الشوكاني: «﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾: أي ما نجعل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ووفور طمأنينته؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم»[2].

---

(١) «معالم التنزيل»: (٤٠٧/٢).

(٢) «فتح القدير»: (٥٣٥/٢)، وانظر: «جامع البيان»: (١٤٥/١٢)، «بحر العلوم»: (١٧٦/٢)، «النكت والعيون»: (٥١٢/٢)، «الكشاف»: (٤١٤/٢)، «لباب التأويل»: (٢٥٩/٣).

«والتثبيت: حقيقته التسكين في المكان بحيث ينتفي الاضطراب والتزلزل... والفؤاد: أطلق على الإدراك كما هو الشّائع في كلام العرب»[1].

**ب/ ما وجه تثبيت قلب النبي ﷺ بذكر قصص الأنبياء السابقين؟**

١ - لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم[2].

٢ - ولأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركاً خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت، فإذا سمع الرسول هذه القصص، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا، سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه[3].

قال ابن عاشور: «وتثبيت فؤاد الرّسول ﷺ زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكراً وعلماً بأنّ حاله جار على سنن الأنبياء وازداد تذكراً بأنّ عاقبته النصر على أعدائه، وتجدّد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبراً»[4].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾** (الإسراء: ٧٤).

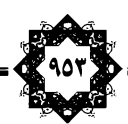
---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٢/١٩٢).

(٢) انظر: «الكشاف»: (٢/٤١٤)، «فتح القدير»: (٢/٥٣٥).

(٣) انظر: «التفسير الكبير»: (١٨/٤٦)، «باب التأويل»: (٣/٢٥٩).

(٤) «التحرير والتنوير»: (١٢/١٩٢).



قال الطبري في معناها: «يقول تعالى ذكره ولولا أن ثبتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً يقول لقد كدت تميل إليهم وتطمئن شيئا قليلا»(١).

ولقد تعرضت مسبقاً إلى التفصيل في هذه الآية(٢).

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾** (الفرقان: ٣٢).

**أ/ في معنى الآية:**

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يقول تعالى ذكره: وقال الذين كفروا بالله لولا نزل عليه القرآن يقول هلا نزل على محمد ﷺ القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله كذلك لنثبت به فؤادك تنزيله عليك الآية بعد الآية والشيء بعد الشيء لنثبت به فؤادك نزلناه... عن ابن عباس: **﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾**: قال: «كان الله ينزل عليه الآية فإذا علمها نبي الله نزلت آية أخرى ليعلمه الكتاب عن ظهر قلب ويثبت به فؤاده»»(٣).

---

(١) «جامع البيان»: (١٥/١٣١).

(٢) وذلك في المبحث الثالث: عصمته ﷺ في أقواله وأفعاله، من الفصل الثامن، انظر: ص (٦٩٠).

(٣) «جامع البيان»: (١٩/٢٠)، «تفسير ابن أبي حاتم»: (٨/٢٦٩١)، وانظر: «بحر العلوم»: (٢/٥٣٧)، «معالم التنزيل»: (٣/٣٦٨)، «تفسير القرطبي»: (١٣/٢٨)، «فتح القدير»: =

**ب/ ما وجه تثبيت قلب النبي ﷺ بتنجيم القرآن على قلبه ﷺ؟**

**قيل في ذلك عدة حكم، منها:**

١ – لأنه لو أنزلت الأحكام والشرائع كلها جملة واحدة شق على المسلمين قبولها كما شق على بني إسرائيل(١).

٢ – ويقال: (كذلك) أنزلناه لتحكم عند كل حادثة وعند كل واقعة لتقوي به قلبك في ذلك، فنزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص في المعنى(٢).

٣ – وقيل: لأنه ﷺ كان أمياً ولم ينزل القرآن عليه مكتوباً، فكان نزوله مفرقاً أَثبتَ في فؤاده، وأَعلَقَ بقلبه(٣).

٤ – لنثبت فؤادك باتصال الوحي ومداومة نزول القرآن، فلا تصير بانقطاع الوحي مستوحشاً(٤).

٥ – لأنّ المتلقن إنما يقوى قبله على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً

---

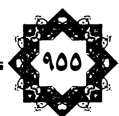
=(٤/٧٥)، «تفسير السعدي»: (٥٨٢).

(١) «بحر العلوم»: (٢/٥٣٧).

(٢) انظر: «بحر العلوم»: (٢/٥٣٧)،.

(٣) انظر: «معالم التنزيل»: (٣/٣٦٨)، «الكشاف»: (٣/٢٨٢)، «تفسير القرطبي»: (١٣/٢٨)، «تفسير البيضاوي»: (٤/٢١٦)، «لباب التأويل»: (٥/١٠٠)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٥/١٠١)، «نظم الدرر»: (٥/٣١٥).

(٤) انظر: «النكت والعيون»: (٤/١٤٤)، «بحر العلوم»: (٢/٥٣٧)، «نظم الدرر»: (٥/٣١٥)، «تفسير البيضاوي»: (٤/٢١٦).



عقيب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لتعيا بحفظه»[1].

٦ – لأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلاّ فيما أنزل مفرّقاً[2].

٧ – لأنه إذا نزل منجما وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه[3].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

- **جملة قوله تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، مفعول للفعل: ﴿نَّقُصُّ﴾:**

«وفائدته: التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص، زيادة يقينه ﷺ، وطمأنينة قلبه، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذية الكفار، بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة في تماديهم في الضلال، وما لقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق»[4].

- **قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جواب عن قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ**

---

(١) انظر: «الكشاف»: (٢٨٢/٣)، «تفسير البيضاوي»: (٢١٦/٤)، «لباب التأويل»: (١٠١/٥)، «نظم الدرر»: (٣١٥/٥).

(٢) انظر: «الكشاف»: (٢٨٢/٣)، «تفسير القرطبي»: (٢٨/١٣)، «تفسير البيضاوي»: (٢١٦/٤)، «لباب التأويل»: (١٠٠/٥)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (١٠١/٥)، «نظم الدرر»: (٣١٥/٥).

(٣) «تفسير البيضاوي»: (٢١٦/٤)، «نظم الدرر»: (٣١٥/٥).

(٤) «تفسير أبي السعود»: (٢٤٨/٤).



جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾، وهو «إشارة إلى الإنزال المفهوم من (لو نُزّل عليه القرآن) وهو حالة إنزال القرآن منجَّماً، أي أنزلناه كذلك الإنزال، أي المنجّم، أي كذلك الإنزال الذي جهلوا حكمته»[1].

- في قوله تعالى: ﴿ لِنُثَبِّتَ ﴾ استعارة:

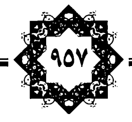
قال ابن عاشور: «ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه، قال تعالى: ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ (النساء: ٦٦)»[2].

## رابعاً: فوائد حول هذه الصفة للنبي ﷺ:

- ثَبَّتَ الله جل وعلا قلب نبيه ﷺ في آيات كثيرة جداً في القرآن الكريم، قال الشنقيطي في الأضواء: «قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الحج: ٤٢ ـ ٤٤)، في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام، وذلك يسليه ويخفف عليه كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ (هود: ١٢٠)، وقوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴾ (فصلت: ٤٣)، وقوله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ

(١) «التحرير والتنوير»: (١٩/١٩).

(٢) «المصدر السابق».



﴿كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ (فاطر: ٤) إلى غير ذلك من الآيات»[1].

**- ما ورد في هذه الآيات إنما هو بعض من شبه منكري النبوة، ويجاب عن شبهتهم بوجوه:**

«أحدها: أنه ﷺ لم يكن من أهل الكتابة والقراءة، فلو نزل ذلك عليه جملة واحدة كان لا يضبطه وجاز عليه فيه الخطأ والغلط.

وثانيها: أن من كان الكتاب عنده، فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ، فالله تعالى ما أعطاه الكتاب جملة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة، ليكون حفظه له أكمل، فيكون أبعد عن المساهمة وقلة التحصيل.

وثالثها: أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة لنزلت الشرائع بأسرها دفعة على الخلق، فكان يثقل عليهم ذلك فلما نزل مفرقاً منجماً نزلت التكاليف قليلاً قليلاً، فكان تحملها أسهل.

ورابعها: أنه إذا شاهد جبريل حالاً بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته على أداء ما حمل، وعلى الصبر على عوارض النبوة، وعلى احتمال الأذى وعلى التكاليف الشاقة.

وخامسها: أنه لما تم شرط الإعجاز فيه مع كونه منجماً ثبت كونه معجزاً؛ فإنه لو كان ذلك مقدوراً للبشر لوجب أن يأتوا بمثله منجماً مفرقاً، ولما عجزوا عن معارضة نجومه المفرقة، فعن معارضة الكل أولى.

(١) «أضواء البيان»: (٥/٢٦٦ ـ ٢٦٧).

وسادسها: كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم ووقائعهم، فكانوا يزدادون بصيرة، وكان ينضم إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب.

وسابعها: أن السفارة بين الله وبين أنبيائه، وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم، فيحتمل أن يقال: إنه تعالى لو أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة لبطل المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقاً منجماً بقي ذلك المنصب العالي عليه، فلذلك جعلة الله تعالى منجماً»[1].



(١) «اللباب في علوم الكتاب»: (١٤/٥٢٧ - ٥٢٨).

# المبحث الرابع

# عموم تفضل الله تعالى عليه ﷺ

## المبحث الرابع

## عمومُ تَفَضَّلِ الله عليه ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي للتفضل:

قال ابن فارس: «(فَضَلَ): الفاء والضاد واللام: أصل صحيح يدل على زيادة في شيء، من ذلك الفضل الزيادة والخير، والإفضال الإحسان»[1].

❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفة:**

- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣).

- قوله تعالى: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٧).

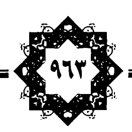
### ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣):**

أ/ اختلف المفسرون في المراد بهذا الفضل العظيم الذي تفضل به الله على

---

(١) «مقاييس اللغة»: (٥٠٨/٤).



نبيه ﷺ على أقوال:

١ – فقيل: هو النبوة[١].

٢ – وقيل: هو الإيمان[٢].

٣ – وقيل ما خصه الله تعالى به[٣].

٤ – وقيل: هو كل ما حباه الله تعالى من ألطافه، من أمور كثيرة لا تدخل تحت الحصر[٤].

❖ **وعند تأمل الأقوال أعلاه فلا نجد تعارضاً بينها فأفضال الله تعالى على نبيه ﷺ لا تعد ولا تحصى**، قال السعدي رحمه الله: «ثم لم يزل يوحي الله إليه، ويعلمه، ويكمله، حتى ارتقى مقاما من العلم، يتعذر وصوله على الأولين والآخرين فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ ففضله على الرسول محمد ﷺ، أعظم من فضله على كل الخلق، وأجناس الفضل التي قد فضله الله به، لا يمكن استقصاؤها ولا يتيسر إحصاؤها»[٥].

---

(١) انظر: «بحر العلوم»: (١/٣٦٣)، «تفسير البيضاوي»: (٢/٢٥١)، «تفسير أبي السعود»: (٢/٢٣١)، «فتح القدير»: (١/٥١٤).

(٢) «البحر المحيط»: (٣/٣٦٢).

(٣) «المصدر السابق».

(٤) انظر: «نظم الدرر»: (٢/٣١٧)، «تفسير السعدي»: (٢٠٢).

(٥) «تفسير السعدي»: (٢٠١ ـ ٢٠٢).

ب/ والآية مما استدل به أهل العلم على أن العلم من أشرف الفضائل وأعظمها(١).

❖ **من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾** (الإسراء: ٨٧).

**أ/ في معناها:**

قال الطبري رحمه الله: «يقول عز وجل: ولئن شئنا لنذهبن يا محمد بالذي أوحينا إليك، ولكنه لا يشاء ذلك؛ رحمة من ربك وتفضلا منه عليك، إن فضله كان عليك كبيرا باصطفائه إياك لرسالته، وإنزاله عليك كتابه، وسائر نعمه عليك التي لا تحصى»(٢).

**ب/ وقد اختلف المفسرون في المراد بهذا الفضل الكبير الذي تفضل الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم على أقوال:**

١ – فقيل: بالنبوة والإسلام(٣).

٢ – وقيل: بسبب إبقاء العلم والقرآن عليك(٤).

---

(١) انظر: «التفسير الكبير»: (٩٢/٩)، «نظم الدرر»: (٣١٧/٢)، «اللباب في علوم الكتاب»: (١٤/٧).

(٢) «جامع البيان»: (١٥٨/١٥).

(٣) «بحر العلوم»: (٣٢٨/٢).

(٤) انظر: «التفسير الكبير»: (٤٥/٢١)، «تفسير البيضاوي»: (٤٦٥/٣)، «اللباب في علوم الكتاب»: (٣٨١/١٢)، «تفسير أبي السعود»: (٩٣/٥)، «فتح القدير»: (٢٥٧/٣).



٣ – وقيل: بسبب أنه جعله سيد ولد آدم، وختم بك النبيين، وأعطاك المقام المحمود(١).

❖ **ويقال فيه ما قيل في سابقه، فالعموم أولى، وكبر فضل الله على نبيه ﷺ معلوم من الدين بالضرورة، والله أعلم.**

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

قال ابن عاشور: «وموقع إن فضله كان عليك كبيراً (موقع التعليل للاستثناء المنقطع، أي لكن رحمة من ربك منعت تعلق المشيئة بإذهاب الذي أوحينا إليك، لأن فضله كان عليك كبيراً فلا يحرمك فضل الذي أوحاه إليك. وزيادة فعل (كان) لتوكيد الجملة زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع»(٢).

## رابعاً: فوائد حول هذه الصفة للنبي ﷺ:

قال الشنقيطي رحمه الله في الأضواء: «قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا** ﴾ (الإسراء:٨٧)، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن فضله على نبيه ﷺ كبير، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ (النساء:١١٣)، وقوله: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**

---

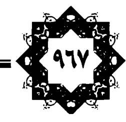
(١) انظر: «التفسير الكبير»: (٢١/٤٥)، «تفسير القرطبي»: (١٠/٣٢٥)، «لباب التأويل»: (٤/١٨٣)، «اللباب في علوم الكتاب»: (١٢/٣٨١)، «فتح القدير»: (٣/٢٥٧).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١٥/٢٠٢).

﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح: ١ ـ ٣)، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح: ١ ـ ٤)، إلى غير ذلك من الآيات»[1].



(١) «أضواء البيان»: (٣/١٣٨).



# المبحث الخامس

## رفعُ ذكرِه ﷺ

## المبحث الخامس

## رفعُ ذكرِه ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي لرفع الذكر:

#### أ/ المعنى اللغوي للرفع:

قال أصحاب الوسيط: «و (رَفَعَ) فلاناً: نَوَّه بذكره، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح: ٤): وأعلى قدره وشرفه وكرمه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ (الزخرف: ٣٢)»[١].

وفي اللسان: «والرَّفْعُ: ضِدُّ الوَضْعِ، رفعتُه فارْتَفَعَ، فهو نقيضُ الخَفْضِ في كل شيء»[٢].

#### ب/ المعنى اللغوي للذكر:

قال ابن فارس: «(ذَكَرَ) الذال والكاف والراء أصلان عنهما يتفرع كلم الباب... والذِّكْرُ: العلاء والشرف، وهو قياس الأصل، ويقال: رجل ذَكْرٌ وذَكِيْرٌ أي جيدُ الذِّكرِ شَهْمٌ»[٣].

❖ الآية التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفة:

---

(١) «المعجم الوسيط»: (١/ ٣٦٠).

(٢) «لسان العرب»: (٨/ ١٢٩).

(٣) «مقاييس اللغة»: (٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح: ٤).

## ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفة:

- اختلف المفسرون في رفع الله تعالى ذكر نبيه ﷺ، على أقوال:

١ – قيل ما معناه: أن لا يذكر الله إلا ويذكر رسوله ﷺ معه، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله[(١)]، قاله: ابن عباس[(٢)]، ومجاهد[(٣)]، والحسن[(٤)]، وقتادة[(٥)]، والضحاك[(٦)].

---

(١) انظر: «بحر العلوم»: (٥٧٠/٣)، «النكت والعيون»: (٢٩٧/٦)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٢٠٦/٤)، «البحر المحيط»: (٤٨٤/٨)، «نظم الدرر»: (٤٦٢/٨)، «اللباب في علوم الكتاب»: (٤٠٠/٢)، «تفسير أبي السعود»: (١٧٣/٩).

(٢) «معالم التنزيل»: (٥٠٢/٤) ذكره البغوي عن عطاء عن ابن عباس، «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠) ذكره القرطبي عن الضحاك عن ابن عباس، «لباب التأويل»: (٢٦٢/٧)، «تفسير ابن كثير»: (٥٢٥/٤).

(٣) «جامع البيان»: (٢٣٥/٣٠)، «تفسير ابن أبي حاتم»: (٣٤٤٥/١٠)، «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠)، «تفسير ابن كثير»: (٥٢٥/٤)، «الدر المنثور»: (٥٤٨/٨).

(٤) «الدر المنثور»: (٥٤٨/٨)، «فتح القدير»: (٤٦٢/٥).

(٥) «جامع البيان»: (٢٣٥/٣٠)، «معالم التنزيل»: (٥٠٢/٤)، «الدر المنثور»: (٥٤٨/٨)، «تفسير ابن كثير»: (٥٢٥/٤)، «فتح القدير»: (٤٦٢/٥).

(٦) «تفسير القرطبي»: (١٠٦/٢٠)، «الدر المنثور»: (٥٤٨/٨).

٢ – وقيل: أنه تعالى رفع ذكر نبيه ﷺ بالنبوة[١].

٣ – وقيل: أنه رفع ذكره ﷺ في الآخرة كما رفعه في الدنيا[٢].

٤ – وقيل: رفع ذكره ﷺ بأخذ ميثاقه على النبيين، وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله[٣].

٥ – وقيل: أن رفع ذكره ﷺ عام في كل ما ذكر وزيادة[٤].

❖ **وعند تأمل الأقوال أعلاه، نجدها غير متضادة، بل بعضها يضم بعضا، والذي ترتاح إليه النفس هو الجمع بينها وزيادة، في كل أمر رفع الله تعالى به ذكر نبيه ﷺ، وجعل ذكره بصفات الكمال**، قال السعدي رحمه الله: «﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾: أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق»[٥].

وما أجمل ما قال فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه وقد استشهد به كثير من المفسرين عند تفسير هذه الآية[٦] لما قال:

(١) «النكت والعيون»: (٦/٢٩٧)، «تفسير أبي السعود»: (٩/١٧٣).

(٢) «النكت والعيون»: (٦/٢٩٧).

(٣) «لباب التأويل»: (٧/٢٦٢)، «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٢٦).

(٤) «التفسير الكبير»: (٣٢/٦)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٠٥)، «فتح القدير»: (٥/٤٦٢)، «تفسير السعدي»: (٩٢٩).

(٥) «تفسير السعدي»: (١/٩٢٩).

(٦) انظر: «معالم التنزيل»: (٤/٥٠٢)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/١٠٦)، «لباب التأويل»: =



أَغَـرُّ عليـه للنبـوة خـاتمٌ ❖ مـن الله مَـشهودٌ يلـوحُ ويَـشهدُ
وضَـمَّ الإلـهُ اسـمَ الـنبيِّ مـعَ اسمِـهِ ❖ إذا قـال في الخَمْـسِ المُـؤَذِّنُ أَشْـهَدُ
وشَـقَّ لَـهُ مـن اسمِـهِ ليُجِلَّـهُ ❖ فـذو العـرشِ محمـودٌ وهـذا مُحَمَّـدُ

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

- **في قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾، فلم يقل: ورفعنا ذكرك، بل قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾**: لزيادة تخصيصه ﷺ وتأكيدا على ذلك[1].

- **في عطف قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا﴾ بصيغة المضي على فعل: (نشرح) بصيغة المضارع:**

قال ابن عاشور: «لأن (لَمْ) قلبت زمن الحال إلى المضي فعُطف عليه الفعلان بصيغة المضي؛ لأنهما داخلان في حيز التقرير فلما لم يقترن بهما حرف (لَمْ) صيّر بهما إلى ما تفيده (لَمْ) من معنى المُضِيِّ»[2].

## رابعاً: فوائد حول هذه الصفة للنبي ﷺ:

- وقال الرازي في رفع ذكره ﷺ: «واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسموات، اسمه مكتوب على العرش، وأنه يذكر معه

---

=(٧/٢٦٣)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨٤)، «تفسير ابن كثير»: (٤/٥٢٦)، «فتح القدير»: (٥/٥٦٢).

(١) انظر: «نظم الدرر»: (٨/٤٦٢).

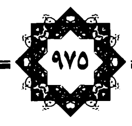
(٢) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤١١).



في الشهادة والتشهد، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنه ختمت به النبوة، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل، وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ ﴾ (التوبة: ٦٢)، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (النساء: ١٣)، و﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ (النساء: ٥٩)، ويناديه باسم الرسول والنبي، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى، وأيضاً جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ (مريم: ٩٦) كأنه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة فهم يمتثلون في الفريضة أمري، وفي السنة أمرك وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ (النساء: ٨٠)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ (الفتح: ١٠) لا تأنف السلاطين من أتباعك، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون وعظك، بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك، ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى يوم القيامة»[1].



(١) «التفسير الكبير»: (٦/٣٢).



# المبحث السادس

## شرح صدره ﷺ

## المبحث السادس

## شَرْحُ صَدْرِه ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي لشرح الصدر:

المعنى اللغوي للشرح:

قال ابن منظور: «شرح الله صدره لقبول الخير يشرحه شرحا فانشرح: وسعه لقبول الحق فاتسع. وفي التنزيل: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥)»[١].

❖ الآية التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفة:

- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح: ١).

### ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآية التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:

أ/ اختلف في معنى شرح صدره ﷺ على أقوال:

١ - أن الله تعالى شرح صدره بالإسلام، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[٢]، وبالإيمان قاله الحسن[٣]، وقال مقاتل: بالتوحيد والإيمان[٤].

(١) «لسان العرب»: (٢/٤٩٧).

(٢) «النكت والعيون»: (٦/٢٩٦)، «الدر المنثور»: (٨/٥٤٧).

(٣) «تفسير ابن زمنين»: (٥/١٤٣).

(٤) «بحر العلوم»: (٣/٥٦٩).



٢ – وقيل المعنى: ألم نلين لك قلبك ونجعله وعاء للحكمة؟[١] وقال الحسن: أي: ملئ حلماً وعلماً[٢].

٣ – وقيل المراد بشرح صدره ﷺ هو حادثة شق صدره وغسله[٣]، قال ابن عاشور: «ويجوز أن يجعل الشرح شرحاً بدنياً، وروي عن ابن عباس أنه فسر به وهو ظاهر صنيع الترمذي إذ أخرج حديث شقِّ الصدر الشريف في تفسير هذه السورة فتكون الآية إشارة إلى مرويات في شَق صدره ﷺ شقّاً قُدُسياً»[٤].

٤ – وقيل المعنى: ألم نلين قلبك بقبول الوحي وحب الخيرات؟[٥].

٥ – وقيل: معنى الشرح: الفتح بما يصده عن الإدراك والله تعالى فتح صدر نبيه ﷺ للهدى، والمعرفة بإذهاب الشّواغل التي تصده عن إدراك الحق[٦].

---

(١) ذكره كثير من المفسرين، انظر: «جامع البيان»: (٣٠/٢٣٤)، «النكت والعيون»: (٦/٢٩٦) وعزاه الماوردي إلى الحسن، «معالم التنزيل»: (٤/٥٠١)، «التفسير الكبير»: (٣٢/٤)، «تفسير القرطبي»: (٢٠/١٠٤)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٠٤)، «لباب التأويل»: (٧/٢٦٢)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٠٦)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨٣).

(٢) «النكت والعيون»: (٦/٢٩٦).

(٣) ذكره كثير من المفسرين، انظر: «بحر العلوم»: (٣/٥٦٩)، «التفسير الكبير»: (٣٢/٣)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٠٤)، «لباب التأويل»: (٧/٢٦٢)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٤/٢٠٦)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨٣)وعزاه أبو حيان لابن عباس وجماعة، «الدر المنثور»: (٨/٥٤٧)، وعزاه السيوطي إلى أنس رضي الله عنه.

(٤) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤٠٩).

(٥) انظر: «بحر العلوم»: (٣/٥٦٩)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٠٤)، «البحر المحيط»: (٨/٤٨٣).

(٦) «لباب التأويل»: (٧/٢٦٢)، «فتح القدير»: (٥/٤٦١).



٦ – وقيل المعنى: نوسع لك قلبك بالعلم، كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (النساء:١١٣)، وقيل: الانشراح للعلم حتى علم أنه رسول الله ﷺ[١].

٧ – وقيل المعنى: أي نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا كقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ (الأنعام:١٢٥)[٢].

٨ – وقيل: بما من عليه من الصبر والاحتمال[٣].

٩ – وقيل المعنى: ألم نطهر قلبك حتى لا تؤذيك الوساوس كسائر الناس؟[٤].

**١٠ – وقيل: بل إن شرح صدره ﷺ أوسع وأعم من كل ما ذكر، فيعم الشرح الحسي والمعنوي وهو الذي ترتاح إليه النفس والله أعلم.**

**ب/ في حقيقة شرح الصدر:**

الشرح حقيقته: فصل أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم، والتشريح في الطب، ويطلق على انفعال النفس بالرضى بالحال المتلبس بها، وظاهر الكلام أن هذا إطلاق حقيقي، ولعل ذلك مراعاة لكثرة الاستعمال، أي هو من المجاز الذي يساوي الحقيقة؛ لأن الظاهر أن الشرح الحقيقي خاص بشرح

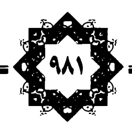
---

(١) «بحر العلوم»: (٥٦٩/٣).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٥٢٥/٤).

(٣) انظر: «النكت والعيون»: (٢٩٦/٦)، وقد عزاه الماوردي إلى عطاء، «البحر المحيط»: (٤٨٣/٨)، «الكشاف»: (٧٧٥/٤).

(٤) «بحر العلوم»: (٥٦٩/٣).



اللحم، وأن إطلاق الشرح على رضى النفس بالحال أصله استعارة ناشئة عن إطلاق لفظ الضيق وما تصرف منه على الإحساس بالحزن والكمد قال تعالى: ﴿ وَضَآيِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ (هود: ١٢) الآية. فجعل إزالة ما في النفس من حزن مثل شرح اللحم وهذا الأنسب بقوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ (الشرح: ٥) فالصدر يراد به الإحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك، وشرح صدره ﷺ كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات وإعلامه ﷺ برضى الله عنه وبشارته بما سيحصل للدّين الذّي جاء به من النصر[1].

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

**- في معنى الاستفهام، وفائدة دخول الهمزة على حرف النفي (لم)، في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾:**

الاستفهام هنا معناه التقرير، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ ﴾: أي: قد شرحنا، قال الرازي: «استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك»[2].

فدخول همزة الاستفهام على النفي تفيد التقرير، قال أبو حيان: «ودخلت همزة الاستفهام على النفي، فأفاد التقرير على هذه النعمة وصار المعنى: قد

(١) انظر: «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤٠٨ ـ ٤٠٩).

(٢) «التفسير الكبير»: (٣٢/٣)، وانظر: «تفسير البيضاوي»: (٥/٥٠٤)، «لباب التأويل»: (٧/٢٦٢).



شرحنا لك صدرك، ولذلك عطف عليه الماضي وهو (وضعنا) وهذا نظير قوله: (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ)»[1].

- **فائدة ورود الفعل المضارع: ﴿ نَشْرَحْ ﴾ بالنون:**

قال الرازي: «الجواب: إن حملناه على نون التعظيم، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها، وإن حملناه على نون الجميع، فالمعنى كأنه تعالى يقول: لم أشرحه وحدي بل أعملت فيه ملائكتي، فكنت ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوي قلبك، فأديت الرسالة وأنت قوي القلب ولحقتهم هيبة، فلم يجيبوا لك جواباً، فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك، فسبحان من جعل قوة قلبك جبناً فيهم، وانشراح صدرك ضيقاً فيهم»[2].

- **نوع اللام في قوله: ﴿ لَكَ ﴾، وفائدتها:**

قال ابن عاشور: «واللام في قوله: ﴿ لَكَ ﴾ لام التعليل، وهو يفيد تكريماً للنبيء ﷺ بأن الله فعل ذلك لأجله»[3].

- **فائدة ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح:**

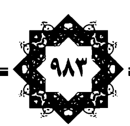
قال ابن عاشور: «وفي ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة

---

(١) «البحر المحيط»: (٨/٤٨٣).

(٢) «التفسير الكبير»: (٣٢/٥).

(٣) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤٠٩).



الإبهام للتشويق فإنه لما ذُكر فِعْلُ (نَشْرَحْ) عَلم السامع أن ثَمَّ مشروحاً، فلما وقع قوله: (لك) قوي الإبهام فازداد التشويق؛ لأن (لك) يفيد معنى شيئاً لأجلك فلما وقع بعده قوله: (صدره) تعين المشروح المترقَّب فتمكن في الذهن كمال تمكن»(١).

- **فائدة تخصيص الصدر بالذكر:**

قال الشوكاني: «إنما خص الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات والمراد الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي»(٢).

## رابعاً: فوائد حول هذه الصفة للنبي ﷺ:

**تشير الآية إلى أهمية التأسي بالنبي في الدعوة، بل إن انشراح الصدر من أهم الأسباب المعينة على نجاح الداعية إلى الله تعال:**

يقول الشنقيطي في الأضواء:

«وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة، ولذا توجه نبي الله موسى إلى ربه يطلبه إياها، لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ (طه: ٢٤ ـ ٣١).. إلى آخر السياق.

(١) «التحرير والتنوير»: (٣٠/٤٠٩ ـ ٤١٠)، وانظر: «نظم الدرر»: (٨/٤٦٠).

(٢) «فتح القدير»: (٥/٤٦١).



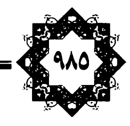
فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل: بدأها بشرح الصدر، ثم تيسير الأمر، وهذان عاملان ذاتيان، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون، وهو اللسان في الإقناع، ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾، ثم العامل المادي أخيراً في المؤازرة، ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَـٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته؛ لأنه به يقابل كل الصعاب، ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم، وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم.

وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته، ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي، كقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وكقوله: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره.

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر، وفعلاً قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة، وتلقى كل ذلك بصدر رحب، وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى اللّه، أن يكون رحب الصدر هادئ النفس متجملاً بالصبر»[1].



(١) «أضواء البيان»: (٨/٥٧٤ ـ ٥٧٥).



# المبحث السابع

## نصره ﷺ

## المبحث السابع

## نَصْرُه ﷺ

### أولاً: المعنى اللغوي للنصر:

قال ابن فارس: «(نَصَرَ): النون والصاد والراء: أصل صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه، ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم، ينصرهم نصرا، وانتصر انتقم»[1].

وقال ابن منظور: «نَصَرَ: النَّصْرُ: إعانة المظلوم، نَصَرَه على عَدُوِّهِ يَنْصُرُه، ونَصَرَهُ يَنْصُرُهُ نصْراً... وقد نَصَرَهُ يَنْصُرُهُ نَصْراً إذا أعانه على عدوه»[2].

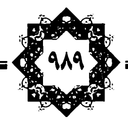
❖ **الآيات التي وصف فيها ﷺ بهذه الصفة:**

- قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠).

- قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٢).

(١) «مقاييس اللغة»: (٥/٤٣٥).

(٢) «لسان العرب»: (٥/٢١٠ - ٢١١).



- قوله تعالى: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح: ٣).

## ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الآيات التي وصف فيها النبي ﷺ بهذه الصفة:

❖ **من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾:**

**أ/ في سبب الآية وقصتها:**

نزلت الآية بعد انصراف النبي من تبوك، وتثاقل بعض أصحابه في النفرة معه لما استنفرهم

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عليه فانزل – الله تعالى – هذه الآية إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما فامسك الله عنهم المطر قال: فكان عذابهم»[1].

**ب/ في معناها:**

قال الطبري رحمه الله: «وهذا إعلام من الله أصحاب رسوله ﷺ، أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكير منه لهم فعل ذلك به وهو من العدد في قلة والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة والعدو في قلة، يقول لهم جل ثناؤه: إلا تنفروا أيها المؤمنون مع رسولي إذا استنفركم، فتنصروه، فالله ناصره ومعينه على

(١) «تفسير ابن أبي حاتم»: (١٧٩٧/٦)، وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣٥٩/٣).

عدوه، ومغنيه عنكم وعن معونتكم ونصرتكم، كما نصره إذ أخرجه الذين كفروا بالله من قريش من وطنه وداره»[1].

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾** (الأنفال: ٦٢).

سبق بحث ما يتعلق بهذه الآية في مبحث: (تأييده ﷺ) من هذا الفصل.

❖ **من قوله تعالى: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾** (الفتح: ٣).

**أ/ في معناها:**

أي: وينصرك الله نصرا عزيزا يقول وينصرك على سائر أعدائك ومن ناوأك نصرا فيه عز ومنعة، لا يغلبه غالب، يعزك به الله، ويذل به أعداءك[2].

**ب/ في معنى وصف النصر بالعزيز:**

أ – معنى العزيز إما مشتق من العزة بمعنى الغلبة والمنعة، وعلى هذا ففيه ثلاثة أوجه[3]:

---

(١) «جامع البيان»: (١٠/١٣٥)، وانظر: «بحر العلوم»: (٢/٨٥)، «النكت والعيون»: (٢/٣٦٣)، «معالم التنزيل»: (٢/٢٩٢)، «تفسير القرطبي»: (٨/١٤٣)، «لباب التأويل»: (٣/٩٤)، «البحر المحيط»: (٥/٤٥)، «تفسير أبي السعود»: (٤/٦٦)، «فتح القدير»: (٢/٣٦٢).

(٢) انظر: «جامع البيان»: (٢٦/٧١)، «تفسير ابن زمنين»: (٤/٢٠٥)، «معالم التنزيل»: (٤/١٨٩)، «تفسير القرطبي»: (١٦/٢٦٣)، «تفسير البيضاوي»: (٥/٢٠٠)، «لباب التأويل»: (٦/١٨٩)، «البحر المحيط»: (٨/٩٠)، «فتح القدير»: (٥/٤٥).

(٣) انظر: «الكشاف»: (٤/٣٣٥)، «التفسير الكبير»: (٢٨/ ٧٠)، «لباب التأويل»: (٦/١٨٩).



١ – أن المعنى: نصراً ذا عز، كقوله تعالى: ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي ذات رضا.

٢ – أن النصر وصف بالعز، وهو ما يوصف به المنصور، فأسند العز إلى النصر إسناداً مجازياً، كما يقال: كلام صادق، والمعنى: متكلم صادق.

٣ – أن المعنى على تقدير محذوف إيجازاً واختصاراً، وتقدير الكلام: نصراً عزيزاً صاحبه.

ب – وإما أن يكون لفظ العزيز بمعنى النفيس القليل، أو العديم النظير، فلا يحتاج إلى تقديرات لأن النصر الذي هو من الله تعالى عزيز في نفسه لكونه من الله تعالى فصح وصف كونه نصرا عزيزا»[١].

**ج/ بم يكون هذا النصر؟**

- قال جمع من المفسرين إن النصر كان بفتح مكة[٢].
- وقال بعضهم: بإظهار الإسلام[٣].
- وقيل: إنه الأسر والغنيمة كما كان يوم بدر[٤].
- وقيل أراد فتح مكة، وخيبر، والطائف[٥].

(١) انظر: «التفسير الكبير»: (٢٨/ ٧٠)، «لباب التأويل»: (١٨٩/٦).

(٢) انظر: «النكت والعيون»: (٣١٠/٥)، «التفسير الكبير»: (٦٨/٢٨)، «لباب التأويل»: (١٨٩/٦)، «الدر المنثور»: (٥١٤/٧).

(٣) «بحر العلوم»: (٢٩٣/٣).

(٤) انظر: «النكت والعيون»: (٣١٠/٥)، «البحر المحيط»: (٩٠/٨).

(٥) «الدر المنثور»: (٥١٤/٧).



❖ ويبدو إن كلها تجتمع في فتح مكة أو في الفتوح كلها، وهو الذي يتناسب مع سياق الآية، وإلا فإن نصر الله نبيه ﷺ يكون بكل ذلك وزيادة على ذلك، والله تعالى أعلم.

## ثالثاً: الأسلوب القرآني في الحديث عن هذه الصفة للنبي ﷺ:

- مسألة: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ جواب للشرط: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾، فجُعِلَ الماضي جواباً لشرط موضوع في المستقبل.

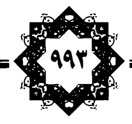
الجواب:

قال ابن عاشور: «وجملة: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ جواب للشرط، جعلت جواباً له؛ لأنّها دليل على معنى الجواب المقدَّر؛ لِكونها في معنى العلّة للجواب المحذوف، فإنّ مضمون ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ قد حصل في الماضي، فلا يكون جواباً للشرط الموضوع للمستقبل، فالتقدير: إن لا تنصروه فهو غني عن نصرتكم بنصر الله إيّاه، إذ قد نصره في حين لم يكن معه إلا واحد لا يكون به نصر فكما نصره يومئذٍ ينصره حين لا تنصرونه»(١).

- فائدة إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: وينصرك نصراً:

---

(١) «التحرير والتنوير»: (١٠/٢٠١)، وانظر: «التفسير الكبير»: (١٦/٥١)، «تفسير البيضاوي»: (٣/١٤٦)، «التسهيل لعلوم التنزيل»: (٢/٧٦)، «البحر المحيط»: (٥/٤٤ ـ ٤٥).



**١ – فيه إرشاد لطريق النصر، وهو: النصر بالله جل وعلا:**

قال الرازي: «لم يقل وينصرك نصراً، بل أعاد لفظ الله، فنقول هذا إرشاد إلى طريق النصر، ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير إضافة، فقال تعالى: ﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ ﴾ (الروم: ٥) ولم يقل بالنصر ينصر، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ ﴾ (الأنفال: ٦٢) ولم يقل بالنصر، وقال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (النصر: ١)، وقال: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ (الصف: ١٣) ولم يقل نصر وفتح، وقال: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الأنفال: ١٠) وهذا أدل الآيات على مطلوبنا، وتحقيقه: هو أن النصر بالصبر، والصبر بالله، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ (النحل: ١٢٧) وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه، وذلك بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨) فلما قال ههنا: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ ﴾، أظهر لفظ: (الله) ذكراً للتعليم، أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب، وبه يحصل الصبر، وبه يتحقق النصر»[(١)].

**٢ – فيه تفخيم وتعظيم لأمر هذا النصر:**

أي: «نصراً يليق إسناده إلى اسمه المحيط بسائر العظم ﴿ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي يغلب المنصور به كل من ناوأه ولا يغلبه شيء مع دوامه فلا ذل بعده»[(٢)].

---

(١) «التفسير الكبير»: (٢٨/٦٩)، وانظر: «لباب التأويل»: (١٧/٤٧٩).

(٢) «نظم الدرر»: (٧/١٨٨)، وانظر: «التحرير والتنوير»: (٢٦/١٩٤).

- **دلت الآية على حظ المسلمين من هذا النصر:**

قال ابن عاشور: «هذه الجملة بدل اشتمال من مضمون جملة: ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح:٣)، وحَصل منها الانتقال إلى ذكر حظ المسلمين من هذا الفتح فإن المؤمنين هم جنود الله الذين قد نصر النبي ﷺ بهم كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:٦٢)، فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم، وإذهاب خواطر الشيطان عنهم، وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم، وقرارة إيمانهم، تكوين لأسباب نصر النبي ﷺ، والفتح الموعود به؛ ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدوّ بقلوب ثابتة»[(١)].

## رابعاً: فوائد حول هذه الصفة للنبي ﷺ:

- **خضع النبي ﷺ وذل لأمر ربه، فأعزه الله بنصره:**

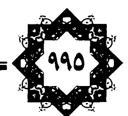
قال ابن كثير رحمه الله: «﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾: أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل، يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى[(٢)]»[(٣)].



(١) «التحرير والتنوير»: (١٤٩/٢٦).

(٢) سبق تخرجه، انظر: ص (٢١٠).

(٣) «تفسير ابن كثير»: (١٨٥/٤).



# الخَاتمة

# الخاتمة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلام دائمين على نبيه المصطفى، ومن اهتدى بهديه، وسنته وأثره اقتفى، وبعد:

❖ **فأهم النتائج التي توصلت إليها من هذا البحث ما يلي:**

(١) أن معرفة صفاته ﷺ في القرآن خاصة والسنة عامة، هي منهل عذب، ومعين لا ينضب، كلما اغتُرف منه زاد في عطائه.

(٢) أن عظمة صفات النبي ﷺ كانت معلومة منذ أن شَبَّ وترعرع قبل بعثته ﷺ، وبعد البعثة زادت صفاته الجليلة رسوخاً وكمالاً، وعظمة وجلالاً.

(٣) أن يُتمَ النبي ﷺ كان إحدى معجزاته، فسبحان الحكيم فيما حكم.

(٤) أن أمية النبي ﷺ صفة كمال في حقه لا صفة نقص كما في غيره.

(٥) أن خلقه العظيم ﷺ سُطِرت فيه المجلدات تلو المجلدات، ومع ذلك لا يزال طلاب العلم والعلماء، يجدون الجديد تلو الجديد ليُكتب، ويضاف إلى مكتبة السيرة.

(٦) أن صفة بلاغه ﷺ ودعوته إلى الله تعالى، يمثلان أكبر المراجع للدعاة

إلى الله.

(٧) أن تأليفه ﷺ لقلوب أصحابه بلغ أرقى المراتب، منبثقاً ذلك من جميل صفاته ﷺ.

(٨) أن تنوع أوصافه ﷺ في القرآن يتأثر بتنوع الأسلوب القرآني الرصين في الحديث عن النبي ﷺ.

(٩) توازن صفاته ﷺ كأنها في قالب واحد، لا تختلف ولا تتناقض.

(١٠) أن كثيراً من صفاته ﷺ تتداخل تداخلاً كبيراً، حتى يكون أحدها مرجعاً في الأخرى.

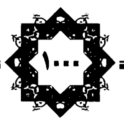
(١١) تربيته ﷺ لهذه الأمة، مثلت أكبر المراجع للمربين والتربويين قديماً وحديثاً.

(١٢) رحمة النبي ﷺ تعدت الحدود وبلغت الآفاق من رحمته ﷺ بالإنس والجن والحيوان والنبات والجماد.

(١٣) صفاته ﷺ المتعلقة بالتشريع تشعر الأمة بأسرها أنها في نعمة عظمى إذ هي في بر الأمان مع النبي العظيم ﷺ، عندما تتذكر كيف كانت الآصار والأثقال، التي وضعها نبيها ﷺ.

(١٤) صفاته ﷺ العقدية في القرآن ترابطت ترابطاً لطيفاً، فكانت كل صفة منها تمثل حياته ﷺ بأسرها.

(١٥) الصفات التعبدية للنبي ﷺ تدلنا على عظمة شكره لربه، وحرصه على



البيان لأمته، فكل عبادة منها تمثل حيزاً من حياته ﷺ.

(١٦) خصائص النبي ﷺ، وفضائل الله تعالى عليه، من بين إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأنها من خصائصه وحده دون البشر بل من دون الأنبياء، مما يدل على قربه ﷺ من ربه، وأنه صفيه من خلقه وخليله ﷺ.

(١٧) فضل الله تعالى على نبيه ﷺ كبير وذكر هذه الفضائل في القرآن الكريم تتلى على مر الأزمان لهو من عظيم مننه تعالى على عبده ﷺ.

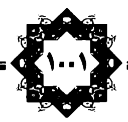
- وغير ذلك من النتائج، والتي برزت في أماكنها بين طيات هذا البحث.

❖ **وعند فراغي من هذا البحث، أوصي على ضوئه بما يلي:**

(١) إقامة المؤتمرات، والندوات، والدورات، حول صفاته ﷺ كي ترسخ محبته في النفوس، حتى لا ترى مسوغاً يميل بها عن هديه ﷺ، فتزكو بالاقتداء به ﷺ.

(٢) أن تضاف إلى مناهج التربية والتعليم مادة خاصة بصفاته ﷺ وأخلاقه، فتلفت أنظار النشء منذ الصغر إليها، وأنها ذات أهمية بالغة.

(٣) أدعو ذوي الأقلام السيالة من الأدباء والكتاب والقصاصين، إلى تحري الدقة والصحة فيما يوردونه من روايات وأحاديث وقصص، حيث كثرت منهم روائع الكتابات أدبياً، ولكن على أسس غير صحيحة، فيُستدل برواية غير صحيحة على أنها من صفاته ﷺ.



ولا يسعني في خاتمة بحثي هذا إلا أن أتضرع إلى الله جل في علاه أن ينفعني بهذا البحث، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن لا يجعل حظي منه التعب والنصب، وأن ينفع به المقتدين بخير النبيين ﷺ، وأن يشفعه فينا أجمعين، وأن يرزقنا صحبته، وشربة من يده الشريفة هنيئة مريئة لا نظمؤ بعدها أبد الآبدين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، آمين، وصلى الله وبارك على نبينا محمد الهادي الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين، وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين.



# الفهارس

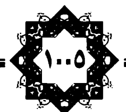
وفيها:

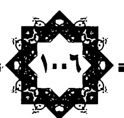
- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

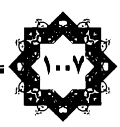
# فهرس الآيات[1]

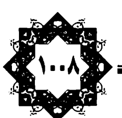


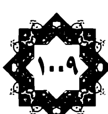
(١) مرتبة على حسب ورودها في المصحف الشريف.

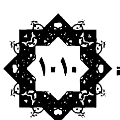




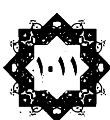


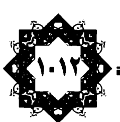




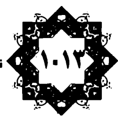


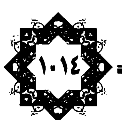
| الآية | (السورة: رقم الآية) | الصفحة |
|---|---|---|
| • ﴿ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ | (الأنعام: ٣٨) | ٢٠٢ |
| • ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ | (الأنعام: ٥٢) | ٢٠٩ |
| • ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ | (الأنعام: ٥٣) | ٧٣١ |
| • ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ | (الأنعام: ٥٤) | ٧٦٨ |
| • وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ | (الأنعام: ٦٨) | ٧٧٠ |
| • ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ | (الأنعام: ٨٢) | ٤٩٩ |
| • ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ | (الأنعام: ١٠٩) | ١٣٥ |
| • ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ | (الأنعام: ١١١) | ١٣٥ |
| • ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ | (الأنعام: ١١٥) | ٣١٣ |
| • ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ | (الأنعام: ١٢٤) | ٧٢ |
| • ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ | (الأنعام: ١٢٥) | ٩٧٩ |
| • ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ | (الأنعام: ١٣٥) | ٦٠٦ |
| • ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ | (الأنعام: ١٥١) | ٤٠٠ |
| • ﴿ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ | (الأنعام: ١٦١) | ٦٤١ |
| • ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ | (الأنعام: ١٦٢) | ٥١٣ |
| • ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ | (الأنعام: ١٦٣) | ٥١٣ |
| • ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ | (الأعراف: ٦) | ٤٨ |
| • ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ | (الأعراف: ٥٥) | ٢٦٠ |
| • ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ | (الأعراف: ٥٦) | ٥٦٦ |
| • ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ | (الأعراف: ١٥٦) | ١٢٢ |

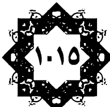


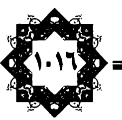


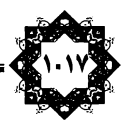
| الآية | (السورة: رقم الآية) | الصفحة |
|---|---|---|
| • ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾ | (الأنفال: ٦٢) | ٥٠٠ |
| • ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ | (الأنفال: ٦٣) | ٥٠٠ |
| • ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ | (الأنفال: ٦٤) | ٢٤٩ |
| • ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ﴾ | (الأنفال: ٦٥) | ٢٥٠ |
| • ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ ﴾ | (الأنفال: ٧٠) | ٢٥٠ |
| • ﴿ بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ | (التوبة: ١) | ٣٢٧ |
| • ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ | (التوبة: ٣) | ٣٢١ |
| • ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ | (التوبة: ٢٦) | ٩٢٥ |
| • ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ ﴾ | (التوبة: ٢٨) | ٨١ |
| • ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ | (التوبة: ٣٣) | ٢٢٦ |
| • ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ | (التوبة: ٤٠) | ٩٢٥ |
| • ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ ﴾ | (التوبة: ٥٤) | ٢٢٩ |
| • ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ ﴾ | (التوبة: ٥٩) | ٢٢٩ |
| • ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ ﴾ | (التوبة: ٦١) | ٢٣٦ |
| • ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ | (التوبة: ٦٢) | ٢٢٩ |
| • ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ | (التوبة: ٦٣) | ٢٢٥ |
| • ﴿ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ | (التوبة: ٦٥) | ٢٢٩ |
| • ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ | (التوبة: ٦٦) | ٢٢٩ |
| • ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ | (التوبة: ٧١) | ٢٢١ |
| • ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ | (التوبة: ٧٣) | ٢٠٥ |

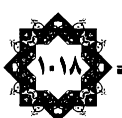



١٠١٤

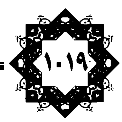


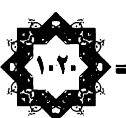


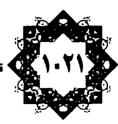


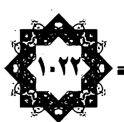


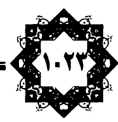
| الآية | (السورة: رقم الآية) | الصفحة |
|---|---|---|
| • ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ | (الإسراء: ٧٤) | ٨٥٥ |
| • ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ | (الإسراء: ٧٥) | ٨٧٣ |
| • ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ | (الإسراء: ٧٨) | ٦٣٠ |
| • ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ | (الإسراء: ٧٩) | ٧٤٤ |
| • ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ | (الإسراء: ٨٠) | ١٩٣ |
| • ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ | (الإسراء: ٨٧) | ٩٦٣ |
| • ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ | (الإسراء: ٩٠) | ١٢٦ |
| • ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾ | (الإسراء: ٩١) | ١٢٦ |
| • ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ ﴾ | (الإسراء: ٩٢) | ١٢٦ |
| • ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ | (الإسراء: ٩٣) | ١٢٦ |
| • ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ | (الإسراء: ٩٤) | ١٢٦ |
| • ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ | (الإسراء: ٩٥) | ١٣٣ |
| • ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ | (الإسراء: ١٠٥) | ٢٩٠ |
| • ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ ﴾ | (الإسراء: ١١١) | ٦٩٩ |
| • ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ | (الكهف: ١) | ٥٨٨ |
| • ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ | (الكهف: ٦) | ٣٦١ |
| • ﴿ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾ | (الكهف: ١٣) | ٥٥٠ |
| • ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ | (الكهف: ٢٤) | ٧٠٥ |
| • ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ | (الكهف: ٢٧) | ٤٠١ |
| • ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ | (الكهف: ٢٨) | ٢٠٩ |

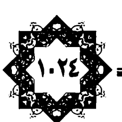


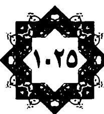




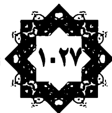


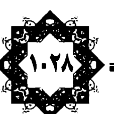


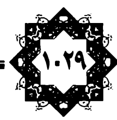


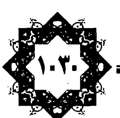


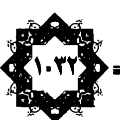


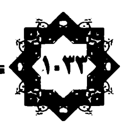


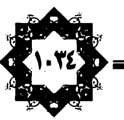


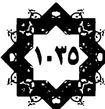


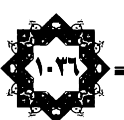








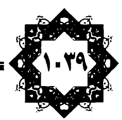


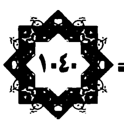


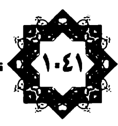
❖ ❖ ❖

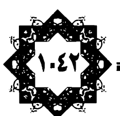
# فهرس الأحاديث

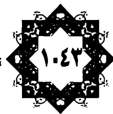
| نص الحديث | الصفحة |
|---|---|

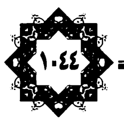




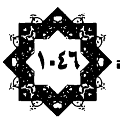


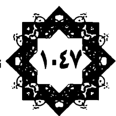


| نص الحديث | الصفحة |
|---|---|
| ◆ حق المسلم على المسلم خمس، وقال: خمس تجب للمسلم على أخيه رد . . | ٥٣٥ |
| ◆ الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مُؤْوِيَ . . | ٧٢٥ |
| ◆ الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مكفي ولا مكفور، وقال مرة: الحمد لله. . | ٧٠٨ |
| ◆ الحياء لا يأتي إلا بخير . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . | ١٥٦ |
| ◆ خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ، ولا لِمَ صنعتَ. . . . . . . . | ١٧٢ |
| ◆ خذي فرصة من مسك فتطهري بها . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . | ١٥١ |
| ◆ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه. . . . . . . . . . . | ٢٩٩ |
| ◆ خط النبي ﷺ خطا مربعا، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه وخط خُطَطَاً . . | ٤١٣ |
| ◆ خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم . . . . . . . . . . . . | ٤٠٥ |
| ◆ خيركم من تعلم القرآن وعلمه . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . | ٤٤٢ |
| ◆ دخل يوماً حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . | ٣٦٤ |
| ◆ دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل . . | ٣٦٥ |
| ◆ الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين . . | ٣١٦ |
| ◆ ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً . . . . . . | ٥٥٣ |
| ◆ رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد. . . . . | ٣٩١ |
| ◆ الرؤيا الصالحة من الله، والحُلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث . | ٦٦٥ |
| ◆ سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يَمُدُّ مَدًّا. . . . . . . . . | ٤٣٨ |
| ◆ سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته، فقلت: قد كانت قبلي الأنبياء. . | ٨٣ |
| ◆ سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن. . . . . . . . . . | ٦٩٤ |
| ◆ سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله الإمام العادل . . . . . . . . . . | ٥٦٧/٧١٠ |



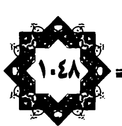
| نص الحديث | الصفحة |
|---|---|

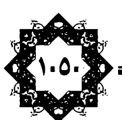


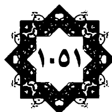
| نص الحديث | الصفحة |
|---|---|











| نص الحديث | الصفحة |
|---|---|
| ♦ يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك . . . . . . . . . . . . . . . | ٤٠٨ |
| ♦ يا معشر النساء! تَصَدَّقْنَ وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار . . . | ٦٧٢ |
| ♦ يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يُهموا بذلك، فيقولون: لو اسْتَشْفَعْنَا إلى ربنا. | ٨٣٤ |
| ♦ يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار . . | ٥٥٥ |
| ♦ يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه . . . . | ٣٢٥ |
| ♦ يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا. . . . . . . . . . . . . . | ٢٩٧ |
| ♦ يشخب فيه ميزابان من الجنة. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . | ٨٢٢ |
| ♦ يقول أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً. . . . . . . . . | ٦٤٣ |
| ♦ ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلث الليل الآخر . | ٦٧٣ |



# فهرس المصادر والمراجع

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، الإمام أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ.

(٢) الآمرون بالمعروف في الإسلام، صلاح الدين المنجد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (الطبعة: بدون).

(٣) الأحاديث في نبوة آدم دراسة حديثية، خالد بن محمد باسمح، دار التوحيد للنشر، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٩هـ.

(٤) أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٥) أخلاق العلماء، أبو بكر محمد بن حسين الآجري، تحقيق: إسماعيل بن محمد، الأنصاري، الإسماعيلية، مصر، (الطبعة: بدون).

(٦) أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة، أحمد بن عبد العزيز الحداد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ.

(٧) أخلاق أهل القرآن، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، (معلومات: بدون).

(٨) الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، الإمام النووي، دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

(٩) أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

(١٠) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ.

(١١) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان.

(١٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد جميل غازي، مكتبة المدني، جدة.

(١٣) أمراض القلوب وشفاؤها، أحمد بن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٩هـ.

(١٤) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، اسم المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عبد الغني الدمياطي، دار النشر: دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: أنس مهرة.

(١٥) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ.

(١٦) إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت.

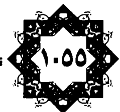
(١٧) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١٨) إسعاف المبطأ، عبدالرحمن ابن أبو بكر أبو الفضل السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ.

(١٩) الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

(٢٠) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ.

(٢١) الاستقامة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٣هـ.



(٢٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

(٢٣) اقتضاء العلم العمل، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٣٩٧هـ.

(٢٤) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

(٢٥) تاج العروس من جواهر القاموس، اسم المؤلف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.

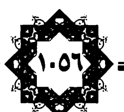
(٢٦) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، اسم المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار النشر: دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري.

(٢٧) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، اسم المؤلف: محمد عبد الرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري أبو العلا، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢٨) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار النشر: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبداللطيف.

(٢٩) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، اسم المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، دار النشر: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، تحقيق: محي هلال السرحان وحسن الساعاتي.

(٣٠) التسهيل لعلوم التنزيل، اسم المؤلف: محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، دار النشر: دار الكتاب العربي، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة: الرابعة.



(٣١) التصوير القرآني في جزء عم دراسة أدبية تحليلية، أناهيد عبد الحميد جمال حريري، دار النشر: مكتبة كنوز المعرفة، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٦هـ، الطبعة الأولى.

(٣٢) تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

(٣٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

(٣٤) تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (الطبعة: بدون).

(٣٥) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ.

(٣٦) تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

(٣٧) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، عبدالرحمن بن أبو بكر أبو الفضل السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ.

(٣٨) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

(٣٩) تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٤٠) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

(٤١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ.

(٤٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ.

(٤٣) التيسير في القراءات السبع، الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، تحقيق: اوتو تريزل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

(٤٤) الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، ط١، ١٣٩٥هـ.

(٤٥) ثلاثة الأصول، محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: ناصر بن عبد الله الطريم، سعود بن محمد البشر، عبد الكريم بن محمد اللاحم، مطابع الرياض، الرياض، ط١.

(٤٦) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار المعارف، القاهرة.

(٤٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٤٨) الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

(٤٩) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين البغدادي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤١٧هـ.

(٥٠) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

(٥١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

(٥٢) جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨م.

(٥٣) جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ، (تحقيق: بدون).

(٥٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

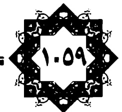
(٥٦) الدر المصون، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، (دار النشر: بدون).

(٥٧) الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

(٥٨) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة، محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ.

(٥٩) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط٢، ١٤٠٤هـ.

(٦٠) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.



(٦١) ديوان المتنبي، أبو البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.

(٦٢) ديوان جرير، جرير، (المعلومات: بدون).

(٦٣) رحمة للعالمين سيرة النبي الأمي ﷺ، محمد سليمان المنصورفوري، ترجمة: سمير عبدالحميد إبراهيم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١.

(٦٤) الرد على الزنادقة والجهمية، أحمد بن حنبل الشيباني أبو عبد الله، تحقيق: محمد حسن راشد، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٣هـ.

(٦٥) الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

(٦٦) الرسول العربي المربي، عبد الحميد الهاشمي، دار الهدى للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، (الطبعة: بدون)، ١٤٢٧هـ.

(٦٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لعلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٦٨) الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ.

(٦٩) الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبد الرحمن السهيلي، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤١٠هـ.

(٧٠) روضة الطالبين وعمدة المفتين، لنووي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

(٧١) زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.

(٧٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت، ط١٤، ١٤٠٧هـ.

(٧٣) الزهد، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبو الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، (بدون معلومات).

(٧٤) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

(٧٥) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ.

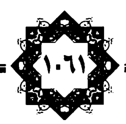
(٧٦) سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

(٧٧) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

(٧٨) سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، محمد عزة دروزة، عني بها: عبدالله ابن إبراهيم الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (الطبعة: بدون).

(٧٩) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث دروس وعبر، علي محمد الصلابي، دار الإيمان، إسكندرية، مصر، (الطبعة: بدون).

(٨٠) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٠٩هـ.



(٨١) السيرة النبوية لابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار النشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ.

(٨٢) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

(٨٣) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

(٨٤) شرح السنة، لحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

(٨٥) شرح السيوطي على سنن النسائي، لسيوطي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ.

(٨٦) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبو العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٣٩١هـ.

(٨٧) شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ.

(٨٨) شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ.

(٨٩) شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

(٩٠) الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

(٩١) صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

(٩٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط٣، ١٤١٨هـ.

(٩٣) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، دار صادر، بيروت.

(٩٤) طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ.

(٩٥) طبقات المفسرين، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار النشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد عمر.

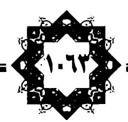
(٩٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط٢، ١٤١٤هـ.

(٩٧) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٩٨) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٩٩) العين، لخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

(١٠٠) غاية السول في خصائص الرسول ﷺ، أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن، تحقيق: عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٤هـ.

(١٠١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

(١٠٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت.

(١٠٣) الفوائد، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

(١٠٤) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١٠٥) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، (دار النشر: بدون).

(١٠٦) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبو طالب المكي، تحقيق: د.عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ.

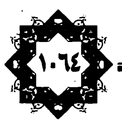
(١٠٧) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ.

(١٠٨) كتاب السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.

(١٠٩) كتاب اللامات، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ.

(١١٠) كتاب المغازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ.

(١١١) كتاب النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، دار أضواء السلف، الرياض السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ.



(١١٢) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢.

(١١٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١١٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين، أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ.

(١١٥) الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

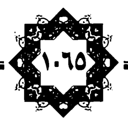
(١١٦) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ.

(١١٧) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ.

(١١٨) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١.

(١١٩) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبو بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

(١٢٠) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ.



(١٢١) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

(١٢٢) محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة ـ بحث وتحقيق، محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٠٥هـ.

(١٢٣) مختار الصحاح، محمد بن أبو بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ.

(١٢٤) مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٤هـ.

(١٢٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

(١٢٦) المدخل، أبو عبد الله محمد الفاسي الشهير بابن الحاج، دار الفكر، ١٤٠١هـ.

(١٢٧) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

(١٢٨) المعارف، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم ، تحقيق: دكتور ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.

(١٢٩) معالم التنزيل في التفسير والتأويل، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت.

(١٣٠) معالم النبوة في الكتاب والسنة (المعلومات: بدون).

(١٣١) معاني القرآن الكريم، لنحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

(١٣٢) معاني القرآن وإعرابه، أبو سحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل شلبي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

(١٣٣) معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار الفكر، بيروت.

(١٣٤) معجم القراءات، عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

(١٣٥) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ.

(١٣٦) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ.

(١٣٧) معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي نزيل طرابلس الغرب، تحقيق: عبدالعليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، السعودية، ط١، ١٤٠٥هـ.

(١٣٨) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبو بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت.

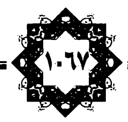
(١٣٩) مفردات ألفاظ القرآن، لراغب الأصفهاني، تحقيق: عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٢هـ.

(١٤٠) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد ، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.

(١٤١) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٠هـ.

(١٤٢) من أخلاق الرسول ﷺ، محمد عبد العاطي بحيرى، الدار التوفيقية للطباعة، القاهرة، مصر، (الطبعة: بدون).

(١٤٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف: صالح بن حميد، وعبد الرحمن بن ملوح، دار الوسيلة، جدة، السعوية، ط١، ١٤١٨هـ.



(١٤٤) النبوات، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

(١٤٥) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

(١٤٦) النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد الجزري، تحقيق: محمد سالم محيسن، مكتبة القاهرة، القاهرة، مصر، (الطبعة: بدون).

(١٤٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

(١٤٨) النكت والعيون (تفسير الماوردي)، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (الطبعة: بدون).

(١٤٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

(١٥٠) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

(١٥١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

(١٥٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

(١٥٣) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ.

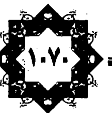
(١٥٤) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

(١٥٥) الوسيط في المذهب، محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، تحقيق: أحمد محمود إبراهيم، محمد محمد تامر، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ.

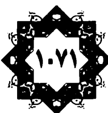


# فهرس الموضوعات

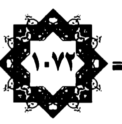




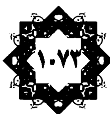
| المحتوى | الصفحة |
|---|---|
|  |



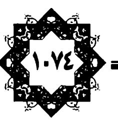
| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |

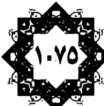
| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

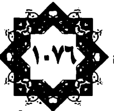



| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

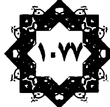
**المحتوى** **الصفحة**





| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |



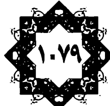


| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |

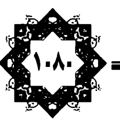



| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |



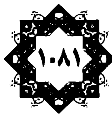


| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

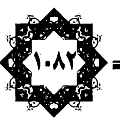



| المحتوى | الصفحة |
|---|---|



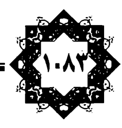


| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

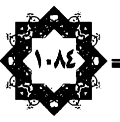



**المحتوى** | **الصفحة**

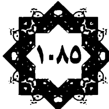




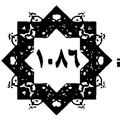
| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |

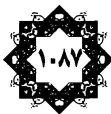
| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |

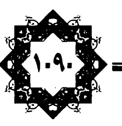



| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |

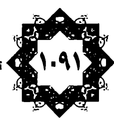
| المحتوى | الصفحة |
|---|---|

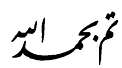



| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |

| المحتوى | الصفحة |
|---|---|


تم بحمد الله

* * *

